طيب السمر في أوقات السحر

تأليف

القاضي العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني
المتوفى في سنة ١١٥١ هـ

القسم الأول: شعراء كوكبان

تحقيق

عبد الله محمد الحبشي

مكتبة الإرشاد
صنعاء

طيب السمر في أوقات السحر

الطبعة الاولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

مكتبة الإرشاد

الجمهورية العربية اليمنية - صنعاء - ميدان التحرير
شارع ٢٦ سبتمبر - ص.ب ١٠٠٧٤ - تليفون ٧١٧٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل وصحبه وآله .

في التّراث اليمني الإسلامي نصوص مغمورة من الأدب قد لا يعرفها أحد من الباحثين المتخصِّصين فضلاً عن غيرهم ، وكتابنا هذا واحد من تلك الآثار الأدبية المغمورة التي لا يعرفها إلاَّ قلة من الناس ، وكان لكاتب السُّطور فضل التَّعريف به في البحث الذي كتبه عنه في مجلة اليمن عدد ١٣/رمضان سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م (١) .

وهذا الكتاب أراد به المؤلف أن يكون ضِمْن السِّلسلة الأدبية التي أصبحت فيما بعد تقليداً عند الأدباء ، وهي تلك الكتب التي تعنى بمجاميع الشّعراء حسب مالهم من إنتاج أدبي لا يعتني فيها أصحابها كثيراً بالجانب التاريخي ؛ وإنّما يكون همُّهم حصر مالهم من شعر مع إطراء بلاغي بديعي يتعرض لبعض أحوالهم .

وكان قد بدع هذا البدعة الأديب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثَّعالبي المتوفى سنة ٣٢٩ في كتابه الشهير (يتيمة الدهر في محاسن شعراء العصر) .

---

(١) ولنا مؤلف عنه مخطوط كتبناه منذ سنة ١٩٧٨ ميلادية وهو بعنوان (الحيمي ومدرسة البديع في اليمن) .

انظر الإعلان في كتبنا المطبوعة الآتية :

١ ـ حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول ط وزارة الإعلام سنة ١٩٨٠ ص٢٨٦ .

٢ ـ تاريخ الدولة الرسولية ط سنة ١٩٨٤ ص٣٨٣ وغيرهما .

وما أتى بعده عبارة عن ذيول وتتمات له .

كان بعده الأديب أبو الحسن بن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ في كتابه الذي لا يقلُّ شهرة عن أصله المسمَّى (دمية القصر وعصرة أهل العصر) . ثم (وشاح الدمية) لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ ، ويليه (زينة الدَّهر) لأبي المعالي سعد بن القاسم الأنصاري الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ . ثم تتابعت الذُّيول نذكر منها :

١ ـ خريدة القصر ، وهو كتاب شهير ضَمَّ أشتات الشعراء من سائر الأقطار الإسلامية ، من تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد العماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ ، وقد تَصَدَّى لنشره وتحقيقه جمهرة من علماء البلاد العربية في العصر الحديث ، فنشر قسم شعراء الشَّام وملحق أهل اليمن الأستاذ شكري فيصل سنة ١٩٥٥م ، وقسم العراق الأستاذ بهجة الأثري سنة ١٩٥٦ ، وقسم مصر الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٥١ ، وقسم شعراء المغرب الأساتذة المرزوقي والمطوي والجيلاني سنة ١٩٦٦ ، وهكذا . ولا شك أن هذا الكتاب كان نبراساً للأدباء المتأخرين بما حواه من إغراق بديعي تكاد تَعْجز عنه القدرَات البشرية المحدودة ، وكان أستاذاً للأدباء الذين ظهروا في العَصْر العثماني وعلى رأسهم الأديب المصري الكبير شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ، في كتابه الشَّهير (ريحانة الألباء)، وخليفتيه الأمين محمد بن فضل المحبي المتوفى سنة ١١١١ ، في كتابه الموسوعي (نفحة الريحانة) ، والأديب علي بن أحمد بن معصوم في (سلافة العصر) .

وعندما وصلت هذه الكتب إلى أهل اليمن كان لهم نصيب مِمَّا ساهم به من قبلهم من الأدباء ، وقَدْ غدا كتاب (ريحانة الألباء) إنجيل الأدباء في ذلك الوقت يتدارسونه ويحاكونه في عباراته . وقد شغفوا به وتأثّروا ببيانه ويكفي أن نعلم أن

أكثر مخطوطاته كانت قد جاءت من اليمن[1] ، وكان أول من ساعده الحَظّ في التأثر بكتاب الرَّيحانة الأديب أحمد بن الحسن بن حميد الدين بن مطهر شرف الدين المتوفى سنة ١٠٧٢هـ في كتابه (ترويح المشوق وتلويح البروق) ، ويعتبر هذا الكتاب فاتحة هذا الفن عند أهل اليمن بنَاه على أسلوب الريحانة من حيث التَّرجمة للعَصْريِّين ، والاكتفاء بجانب الجناس والبديع في وصف الأدباء المترجمة لهم مع جمع لا بأس به لشعر من يذكرهم .

ثم جاء بعده من حيث الترتيب الزَّمني الأديب والمؤرخ القاسم بن الحسن بن مطهر الجرموزي المتوفى سنة ١١٤٦ في كتابه (صفوة العاصر في أدب المعاصر) . وهو من الكتب الكبيرة رتبه على ثلاثة أبواب ، الباب الأول : في أدب الحكام والولاة ، والثاني : في أدب القضاة والكتاب ، والثالث : في الأدباء والشعراء ، وهو من الكتب القيمة لا نعلم بمخطوطة منه ، إلا أن المؤرخ زبارة نقل أكثر ترجماته . وقد شغف الأدباء في اليمن بطريقة صاحب الرَّيحانة ومن حذا حذوه حتى طغت على أكثر الكتب التاريخية التي كتبوها ، وحتى شكا من هذه الظَّاهرة مؤرخ يمني موضوعي كبير هو العلامة إبراهيم بن عبد الله الحوثي المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ ، يقول في مقدمة كتابه (نفحة العنبر) مشيراً إلى تلك الكتب التي أغرقت بتلك الطُّرق الجناسية : (إنها لا تفيد عباراتهم تشخيص الرَّجل ولا معرفة أحواله ولا اطلاع على كنه حقيقته ، وإنما تفيد تخيلاً في النفس ، وتأثيرها بقبض أو بسط على نمط القياسات الشِّعرية والقضايا التخييلية) .

وهكذا فشت ظاهرة البديع في التاريخ حتى إنك تقرأ كتب المؤرخ الأديب الكبير المحسن بن أحمد أبو طالب المتوفى سنة ١١٧٠ ، ككتاب (ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في أهل عصري من أهل الأدب) .

---

(١) بل بلغ بالأديب عبد الله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ أن يؤرخ لقدومه إلى اليمن في كتابه طبق الحلوى في حوادث سنة ١٠٦٦ ص١٤٦ يقول : (وفي هذه السنة خرج إلى اليمن كتاب (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا) .

وكتابه الضَّخم (طيب أهل الكساء) وهو في الحوادث والأخبار التاريخية ، فلا تجد إلَّا سَجْعاً وبديعاً متكلفين ، وكان ممن حذا في كُتبه بشيء على طريقة الخفاجي وصحبه فألَّف كتابه الكبير (ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في أهل عصري من أهل الأدب) منه مخطوطة بحوزتي بقلم المؤلف . ثم ذيله بكتاب آخر أسماه (الإشعار بما استجد لأهل عصري من الأخبار والأشعار) مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني .

ويليه من حيث التَّرتيب العلامة الفقيه عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني المتوفى سنة ١٢٢٤ له كتاب (الحدائق المطلعة من زهور أبناء العصر شقائق) . منه مخطوطات ، وهو خاتمة من عرفناه من الأدباء الذين سلكوا طريقة (الريحانة) .

على أنهم جميعهم (الذين أتوا بعد الجرموزي) مقتفين أثر مؤرخنا الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١هـ ، في كتابه هذا الذي بين يديك .

الأديب الحيمي

نشأ في بحبوحة العلم والرئاسة ، ويكفي أن تلم بقسم شعراء كوكبان من هذا الكتاب لتعرف حشداً كبيراً من آل المؤلف ، ما فيهم إلَّا صاحب علم نحرير أو شاعر مصقع ، أو سياسي مبدع ، وعالمنا مؤلف هذا الكتاب جؤجؤ هذا المجد الباذخ . فإليك ما تَسنَّى لنا جمعه باختصار وإن أردت التوسع فعليك بكتابنا (الحيمي ومدرسة البديع في اليمن) الذي ينتظر الطبع الآن :

هو القاضي العلامة البديع الخطيب أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد بن صالح الحيمي الشبامي ، نسبه ينتهي إلى القاضي الإمام نشوان بن سعيد الحميري ، ومولده سنة ١٠٧٣ بشبام كوكبان ، ونشأ في حجر والده ، وتخرّج به وحقق العلوم على علماء عصره بمدينة شبام كوكبان وبلادها ، وحفظ الأدب ومهر في الإنشاء والترسُّل وبرع في ذلك .

وكان ممَّن عني بترجمته جماعة من أدباء عصره كفانا مهمة استقصائهم العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة في كتابه نشر العرف ١/٢٥٢ . فقال معاصره الأديب إبراهيم بن زيد جحاف المتوفى سنة ١١١٦هـ تقريباً :

الشَّاب الظَّريف الماجد اللَّطيف خطيب جامع شبام وسليل مستنبط الأحكام ، وقاضي الشريعة المطهرة الفارق بين الحلال والحرام ، مقلد جيد الزّمان بقلائد عقيان آدابه ، وملبس شخوص تلك الأسجاع لطائف نقابه ، صاحب الفكرة الوقادة والقريحة المنقادة .

وفي نفحات العَنْبر للمؤرخ إبراهيم بن عبد الله الحوثي :

الأديب الخطيب نشأ بشبام فقرأ في العلوم حتى حقَّقها ، وطالع كتب الأدب وحفظ الأشعار وضبط التَّواريخ وولع بكتب الإنشاء والبلاغة فقوي ساعده في النَّظم والنثر ، وطال باعه في إنشاء الخطب والرسائل والمكاتبات ، وكان خطيب الجهاد مع المَنْصور الحسين بن المتوكل القاسم بن الحسين قبل الخلافة وخطيب شبام في أيام المَوْلى الحسين بن عبد القادر ومن تبعه من أهله واستمر خطيباً عند استيلاء المهدي صاحب المواهب محمد بن أحمد بن الحسن على ملوك اليمن ولم يزل خطيباً حتى ارتحل إلى صنعاء في عشر الأربعين ومائة وألف ، وكان في صُحْبة المولى محمد بن الحسين بن عبد القادر حين خرج قاصداً لجهات حاشد على الأحمر بإشارة من المتوكل القاسم بن الحسين ، ولما وصل إلى محل الجنات من بلاد عمران ارتقى على المنبر مسرعاً وافتتح خطبته بقوله : الحمد لله الذي جعل الجنات مأوى المجاهدين ثم استمر خطيباً بصنعاء مع المنصور الحسين بن المتوكّل من سنة ١١٤٨ بعد أن أصيب خطيبها عبد القادر النزيلي بمرض أقعده ، وكان صاحب الترجمة من خاصة أصحاب المنصور الحسين بن القاسم ومن أهل الصبر لديه ، وممن أقبل بقلبه وقالبه عليه وكان له اقتدار عظيم على إنشاء الرَّسائل المطولة ، واستعمال البديع في خطبه ، وكان صاحب التَّرجمة طويل الباع واسع الاطلاع حسن المحاضرة لطيف المذاكرة ، طيب الأخلاق طويل النفس في الرَّسائل والخطب وله

ديوان شعر جمعه لنفسه وديوان آخر من شعره الملحون وديوان صغير جمعه في أنواع الجناس ومحاسنه الكثيرة . اهـ .

ومن ترجمه من المؤرّخين الكبار :

١ ـ يوسف بن يحيى بن الحسين بن محمد بن القاسم المتوفى سنة ١١٢١ في كتابة (نسمة السَّحر بذكر من تشيع وشعر) (مخطوط) .

٢ ـ محسن بن الحسن أبو طالب المتوفى سنة ١١٧٠ في (طيب أهل الكسا) (مخطوط تحت الطبع بتحقيقنا) .

٣ ـ محسن بن يوسف المتوكل المتوفى سنة ١١٧٣ في (الثّغر الباسم) (مخطوط) .

٤ ـ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ ، في (البدر الطالع) ١٠٣/١ ـ ١٠٤ .

٥ ـ محمد بن محمد زبارة المتوفى سنة ١٣٨٠ في (نشر العرف) ج١/٢٥٢ ـ ٢٥٧

ولما مات بصنعاء رحمه الله في ذي القعدة سنة ١١٥١ قال في مرثيته علاَّمة اليمن الكبير محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢ بعد أن اعتلى منبره الذي كان يخطب عليه بمدينة صنعاء :

(إن خطيبكم الذي طال ما قام على أعواد هذا المنبر ، وطال ما هدرت شفتاه بالكلمات الزاجرة ، عبرة للمعتبرين ومَوْعظة للمتعظين ، على أن حاله اليوم أعظم موعظة من مقالة الأمس ، وأبلغ في العبرة والاتعاظ لمن تفكر في مآله بالرَّمس ، إذ صار رهين حفرته ، منتظراً من ربه لرحمته) .

مؤلفاته :

العلامة الأديب أحمد بن محمد الحيمي من أدباء اليمن المكثرين في التأليف ،

وقد ذكر المؤرخ زبارة أن مؤلفاته تزيد على الأربعين . وأغلب هذه الكتب رسائل مختصرة وبعضها مطولاً ، وقد ضاع أكثرها ، ومن بين الذي ضاع ديوانه الضَّخم الذي أسماه (مجمع البحور) وإليك بعض ما عثرنا عليه من تلك الكتب القيمة :

١ ـ (عطر نسيم الصَّبا) في الأدب جعله على منوال كتاب (نسيم الصبا) للأديب الحسن بن عمر بن حبيب ، وهو في ثلاثين فَصْلاً : الأول في النسيم ، الثاني في الحمامة ، الثالث في السَّيل ، الرَّابع في الغدير ، الخامس في الحديقة ، السادس في وصف الشَّباب ، السابع في الشابة ، الثامن في القرب والوصال ، التاسع في الهجر والمطال ، العاشر في العتاب ، الحادي عشر في البعد والنَّوى ، الثاني عشر في التَّشْبيب ، الثالث عشر في العذل والتَّعنيف، الرَّابع عشر في الطَّيف ، الخامس عشر في الشَّكوى ، السَّادس عشر في الحجاب ، السَّابع عشر في الخمرة ، الثامن عشر في السِّياحة ، التاسع عشر في صنعاء اليمن ، العشرون في الحمَّام ، الحادي والعشرون في الحماسة ، الثاني والعشرون في الحرب ، الثالث والعشرون في تذكر الشباب ، الرَّابع والعشرون في المدح ، الخامس والعشرون في الأدب ، السَّادس والعشرون في العزلة والخمول ، السابع والعشرون في الألغاز ، الثامن والعشرون في المكاتبات ، التَّاسع والعشرون في النصائح والحكم ، الثلاثون في التذكير ، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٦١ بمطابع صنعاء وهو أول كتاب يقوم بتحقيقه يمني من كتب التراث وقد قام بتحقيقه الأديب العلامة الشَّهيد أحمد بن أحمد المطاع رحمه الله ، ومن الكتاب عدّة نسخ خطّية منها مخطوطة الأمبروزيانا برقم F٣٠٠ .

٢ ـ (كتاب الوَشْي المرقوم على الدُّر المنظوم) شرح رسالة الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد المتوفى سنة ٨٠٢ ، وهي رسالة أدبية جعلها على منوال رسالة الحور العين لنَشْوان بن سعيد الحميري وبَعَثَها إلى الإمام الناصر صلاح بن محمد (أوردها المؤرخ زبارة في أئمة اليمن القسم الأول ٢٣٧ ـ ٢٤٠) ومن كتاب الوشي المرقوم مخطوطة بجامع صنعاء برقم ٣١٤ أدب في مجلد كبير .

٣ ـ (الأصداف المَشْحونة باللآلىء المكنونة) شرح وسيلة الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين المتوفى سنة ١٠١٦ التي أولها :

إلهي بسر الذَّات ذاتك في الأسما   بعرشك بالكرسي كرسيك الأسما

انظرها في ديوانه ص١٣٢ ـ ١٤٥ .

٤ ـ (تحقيق من عرف بالرحلة إلى بلاد الشرف) . وبلاد الشرف من اليمن هي المعروفة بشرف جحور جبل واسع في الشمال الغربي من حجة . قام بها سنة ٠٠٠٠ ووضعناها في كتابنا الرحالة اليمنيون ص٠٠٠

٥ ـ (حدائق التَّمام في الكلام على ما يتعلَّق بالحمام) . وهو من الكتب القيمة ذات الموضوع الموحد وقد قدر الله لنا تحقيقه ونشره في ثلاث طبقات ، وقد بوَّبه على فصول ومقدمات تمهيدية تتعلق بالحمام في الأدب العربي والطب والفقه إلى غير ذلك .

٦ ـ (رعي الأب في شعر الأب) . جمع فيه شعر والده العلامة محمد بن الحسن الحيمي المتوفى سنة ١١١٥ ، وقفت على مخطوطة منه .

٧ ـ (الرَّوض المطول) شرح رسالة الأديب عبد الله بن علي الوزير التي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته الشهيرة (ذكره المؤرخ زبارة في نشر العرف ص٢٥٣) ويقول : سلك فيها مسلك الصفدي في شرح لامية العجم .

٨ ـ (سلافة العاصر) شرح قصيدة الحسين بن عبد القادر ، شرح فيها قصيدة بديعية للمذكور أولها :

أهدى النَّسيم وذيل السحب ينسكب   طيبا إلى طيبة يُعْزى وينتسب

وقفت على نسخة منه في مجلد ، وهو من كتبه القيمة التي توضِّح منهجه في النَّقد ومدرسة البديع ، ومنه أيضاً مخطوطة بمتحف بريطانيا برقم ٣٨٤١ .

٩ ـ (طريقة الاكتفاء في التَّورية مع الاكتفاء) ، ذكره المؤلف في ترجمة

الحسن بن أحمد الجلال (في هذا الكتاب) ووقفت على نسخة منه .

١٠ ـ (شكر من وهب في عراض أقراط الذَّهب) ، جعله على منوال أقراط الذَّهب في المفاخرة بين الرَّوضة وبئر العرب للأديب عبد الله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ وقد قمنا بنشره ضمن مجموعة المقامات اليمنية ص١٧٣ ـ ٢٠٨ .

١١ ـ (لذّة الوسن في نظم قاضي القضاة الحسن) . جمع فيه شعر جده الحسن بن أحمد الحيمي المتوفى سنة ١٠٧١ منه مخطوطة بمكتبة برلين .

١٢ ـ (الزّرجون في التَّرويح على المسجون) . مقامة .

١٣ ـ (النَّذير لأرباب المسير) . مجموعة خطبه .

١٤ ـ (مستقطر اليزدي شرح لامية ابن الوردي) ذكره المؤلف في ترجمة الحسين بن عبد القادر من هذا الكتاب .

١٥ ـ (نكت القلب) ورد ذكره في طيب السَّمر في ترجمة يحيى الأخفش، وذكره أيضاً صاحب ذيل كشف الظنون ٦٧٧/٢ .

١٦ ـ (الغيث الهتون المطّلع على الفنون) .

١٧ ـ (نجوم اللَّيل الطالعة على غرر الخيل) ، مقامة أدبية جعله في التورية بخيول الأمراء في عصره ، منه مخطوطة بمكتبة ليدن IR١١٠٧٧ وأخرى بالمكتبة المحمودية بالمدينة .

١٨ ـ الجواهر المؤتلفة المستخرجة من البحور المختلفة ، ديوان شعره ذكره في طيب السمر .

وغير هذه الكتب التي يطلع علينا البحث كل يوم بكتاب جديد منها ، وهو من المكثرين الذين ملؤوا المكتبات بمصنفاتهم القيمة علماً وأدباً فرحمه الله رحمة الأبرار .

كتاب طيب السمر

هذا الكتاب من أهم كتب المؤلف ، وأهمها أيضاً في التراث اليمني قاطبة ، وقد ذكره في القرن الثاني عشر المؤرخ إبراهيم بن عبد الله الحوثي فقال أثناءترجمته : (ومؤلفه طيْب السمر في أوقات السحر من أحسن كتب التاريخ المتأخرة ، جمع فأوعى لكنه لا يتميَّز حال الرجل المترجم له كلية لالتزامه بالسَّجع من أوله إلى آخره وربما سارع القاضي رحمه الله تعالى إلى الاعتراض بما لا ورود له أو بما يتسامح بمثله ، أو بما قد كثر وشاع وروده ، والأمر في ذلك سهل) .

قلت : استغرابه لعدم استقصاء حال المترجم له والتزامه التَّسجيع ، هي طريقة أهل المدرسة البديعة التي حكت النَّمط الذي بدأه الثعالبي في يتيمة الدهر كما أسلفنا وكتابه من هذا القبيل فلا وجه لاعتراض الحوثي ، وهو ليس كتاب تاريخ بالمفهوم المعروف كما تهيَّأ للمؤرخ الحوثي رحمه الله .

وقد جعله على أربعة أقسام ضخمة كل قسم يشكّل جزءاً مستقلاً ، فالقسم الأول في (إيراد محاسن كوكبان المنيف ، وذكر من برز في قطره الرفيع الشَّريف) ترجم فيه لـ ٦٤ من أعلام الأدباء في ذلك القطر .

والقسم الثاني (في ذكر أفاضل صنعاء اليمن من كل من تقلَّد من علمه وأدبه سمطاً غالي الثمن وسما بمعاليه قدراً وبدراً وبرز في سَماء الفضل بدراً) ترجم فيه لـ ٨٢ أديباً من أهل صنعاء .

والقسم الثالث في (ذكر فضلاء ما خَلْف مدينة شبام من كل من فتح من

العلم والأدب المقفل وتَفّرق سكونهم في الجهات من لدن صنعاء إلى منتهى اليمن الأسفل) ترجم فيه لسبعة وخمسين أديباً .

والقسم الرَّابع في (ذكر الأفاضل ممًّا يسامت بلاد كوكبان من الثلاث الجهات التي كشف معمورها عن نجابة فضلائها وأبان إلى منتهى بلاد صعدة) ترجم فيه لتسعة وأربعين أديباً .

ثم ختم الكتاب بملحق يتعلَّق بأدباء الشام وغيرهم أسماه (نفحة من نفحات الشام ولمعة برق نظرها المشتاق وشام) ترجم فيه لخمسة وعشرين أديباً هم :

الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي .

السيد محمد بن أمين الشامي .

الشيخ عبد الرحمن بن محمد الذَّهبي الدمشقي .

الشريف أحمد بن محمد بن مسعود بن الحسن بن بركات الحسني .

السيد أحمد بن محمد بن معصوم بن صدر الدين الحسني .

ولده السَّيد علي بن أحمد بن محمد بن معصوم .

الشيخ محمد بن علي الحر الشامي الأصبهاني (العاملي) .

الشيخ محمد بن علي بن محمود الشامي .

الشيخ أحمد بن محمد الجوهري .

الشيخ محمد الكنجي .

الشيخ عبد الحي بن علي المعروف بالخال .

السيد محمد كبريت المدني .

الشيخ محمد الإسكندراني .

الشيخ علي السنجاري المكي .

الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي .

السيد هاشم بن أحمد بن محمد بن جعفر الشهير بالأزراري .

الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي .

والده الشيخ سعيد بن محمد المنوفي .

سراج الدين عمر بن محمد بن سليم بن إبراهيم الوزير .

الشيخ أحمد بن محمد الخفاجي قاضي جدة .

الشيخ أبو الفرج الجزائري المكي .

الشيخ محمد الرقباوي الحجازي .

صالح بن إبراهيم الحكيم المكي .

الفقيه محمد بن دخيل المكي الزمزمي .

ويعتبر هذا المُلحق شعوراً من المؤلف بوحدة الثقافة العربية في بلاد الإسلام ، وإحساساً نبيلاً بترابط الصِّلات بين الأدباء في سائر الأقطار العربية ،وقد قال في مفتتح هذا الباب :

(ديار الشام العامرة ورياضه التي تحيِّيها الدِّيم الهامية الهامرة منشأ العلم وفنونه ومنبع الأدب وعيونه . . . ولذا ما برحت لأخبارهم متطلِّعاً ومن أدبهم الذي تهديه السَّيارة متضلِّعاً) إلخ .

فهو لا يزال يتطلع إلى أخبار الأدباء في البلاد العربية متتبَعَاً نتاجهم ، وكأنه ما كتب مؤلفه هذا إلا ليسد النّقص البينّ فيما يتعلّق بأدباء اليمن عندهم .

وفي ثقافته الأدبية الواسعة ما يُعْطينا دليلاً واضحاً على مدى تضلّعه من آداب البلاد العربية في الشام ومصر . وخاصة تلك المدرسة البديعية التي أحيا معالمها في مصر خلال الحُكْم المملوكي الأديب صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ وصَحْبه ، فكان أديبنا محيياً لتلك المدرسة في اليمن بعد أن رأسها آخذاً طريقة من

بينهم في النَّقد الأدبي لا تقل أصالة عَمَّاجاؤوا به،ويكفي القارىء أن يلم بهذا فيما كتبنا عنه في كتابنا المشار إليه سابقاً فلا نعيد القول هُنا .

تحقيق الكتاب ومخطوطاته

ظلَّ كتاب (طيب السمر) غريباً في موطنه لا أحد يعرفه حتى أن المؤرخ زبارة على الرَّغم من عنايته بالمخطوطات وتتّبعه لمظانها ، قال في نشر العرف ٢٥٢/١ عن هذا الكتاب : (وهو من الكتب النادرة فاني لا أعلم بنسخة منه كاملة في صنعاء ولا في غيرها) ولذا تجده رجع في كتابه نشر العرف إلى نسخة ناقصة من هذا الكتاب ، تنتهي عند أوائل أدباء صنعاء .

وما وصلنا من مخطوطات كاملة من هذا الكتاب إنما يعود الفضل في حفظها إلى المستشرقين الذين سعوا في جمع مظان التُّراث اليمني وصيانته في مكتباتهم العامرة في أوربة .

وقد وصلنا منه نسخة جيدة كاملة في مكتبة المتحف البريطاني هي غرّة النسخ التي وصلتنا من هذا الكتاب وأهمها . وقد قُمنا بالتَّحقيق حسب القواعد المتَّبعة في تحقيق المخطوطات عند المحدَثين ولم نألُ جُهداً في إخراجه على الوجه اللائق حسب المستطاع من توثيق للتراجم واستكمال للنّسخ الخطّية وتخريج للنُّصوص الحديثية والفقهية والأدبية والتاريخية على أنه مما يحزّ في نفوسنا أننا لم نستطع متابعة المؤلف في بعض مصادره الأدبية وذلك لعدم وجود الدَّواوين الأدبية في اليمن وعدم توفّرها عند الأشخاص ، ويكفي أن تعلم أننا لم نحصل على مرجع مشهور أدبي هو كتاب (درّة الغواص) للحريري إلاّ بعد الرحلة إلى بلد البيضاء عندما وجدناه في مكتبة العلامة محمد بن عبد الله الهدار بمسافة تبْعُد عن صنعاء بنحو أربع ساعات بالسَّيارة وهكذا قس في المراجع الأخرى .

ومهما يكن فإن الواجب على المحقق أولاً أن يقدّم النص كما كتبه المؤلف بعيداً

عن التَّصحيف والتَّشويه ، وهذا ما جَهَدنا فيه وما عدا ذلك فهو من ترف المحققين المعاصرين ، ولزوم ما لا يلزم .

أما النسخ المرجوع إليها في التحقيق فإليكها :

أولاً ـ نسخة (ب) :

هي أفضل ما وصلنا من مخطوطات هذا الكتاب وأكملها ، وهي نسخة خزائنية جميلة كتبت لمكتبة العلامة الوزير إسماعيل بن محمد فايع وعليها خطّه ، وهي جميلة الخط مراجعة مع أصلها وقد كتبت في صنعاء في ٢٢ رمضان سنة ١١٥٤ أي بعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات ، وتقع في مجلدين الأول برقم Or٢٤٢٧ في ٣١٢ ورقة . والثاني برقم Or٢٤٢٨ فرغ من كتابته سنة ١١٩٩ ، ويقع ٢٧٨ ورقة .

وقد حصلنا على مصورة مصغرة (ميكروفلم) من الأستاذ الدكتور حسين بن عبد الله العمري جزاه الله خيراً ، ثم قمنا بالتَّكبير لهذه المصَّورة أولاً على التَّصوير الشَّمسي (السميك) فلم يتّضح التصوير[1] على الرَّغم من تكلفة ثمنه الباهظة . فما كان منّي إلّا أن بعثته إلى فَرَنْسا بواسطة السيدة الفاضلة ماري كريستين وتَمّ تَصْويره على الوجه المطلوب فللّه الحمد ، هذا ولا يسعني إلا أن أشكر الأستاذ الأديب الكبير أحمد بن محمد الشامي الذي كُنَّا قد دفعنا له نفس المصورة (مخطوطة المتحف البريطاني) عندما جاء إلى اليمن سنة ١٩٨٦ وكانت النِّية معقودة على تحقيقه بالاشتراك فترك لي هذا العمل على قلة بضاعتي تفضلاً منه وكرماً وقد أعلمني بذلك هاتفيّاً من مدينة بروملي في لندن .

---

(١) حيث أتت الصورة صغيرة الحجم غير واضحة وقد قمنا بتكبير هذه الصورة على التصوير العادي فلم يظهر أيضاً .

ثانياً ـ مخطوطة (ش) :

هي نسخة مكتبة شستربتي بدبلن وهي جيّدة كاملة تقع في مجلّدين مختلفين الخطوط فالمجلد الأول يقع في ٦٣٦ صفحة كتب سنة ١١٩٨ بعناية سيف الخلافة أحمد بن المنصور علي بن المهدي العباسي وهذا الذي تولى الإمامة بعد والده سنة ٠٠٠٠ وتلقب بالمتوكل .

والمجلد الثاني كبير الخط مشكوله فرغ من كتابته سنة ١٢١٣ ويقع في ٤٢٧ صفحة ، وقد تفضل مشكوراً بإرسال مخطوطاتها من موطنها الأصلي في دبلن صديقي الدكتور الفاضل عبد الله حامد الحبيد فجزاه الله خيراً وشكر له الله عارفته .

وفد أفادتنا هذه المخطوطة كثيراً حيث أصلحت ما يعوز النّسخة الأم فللّه الحمد .

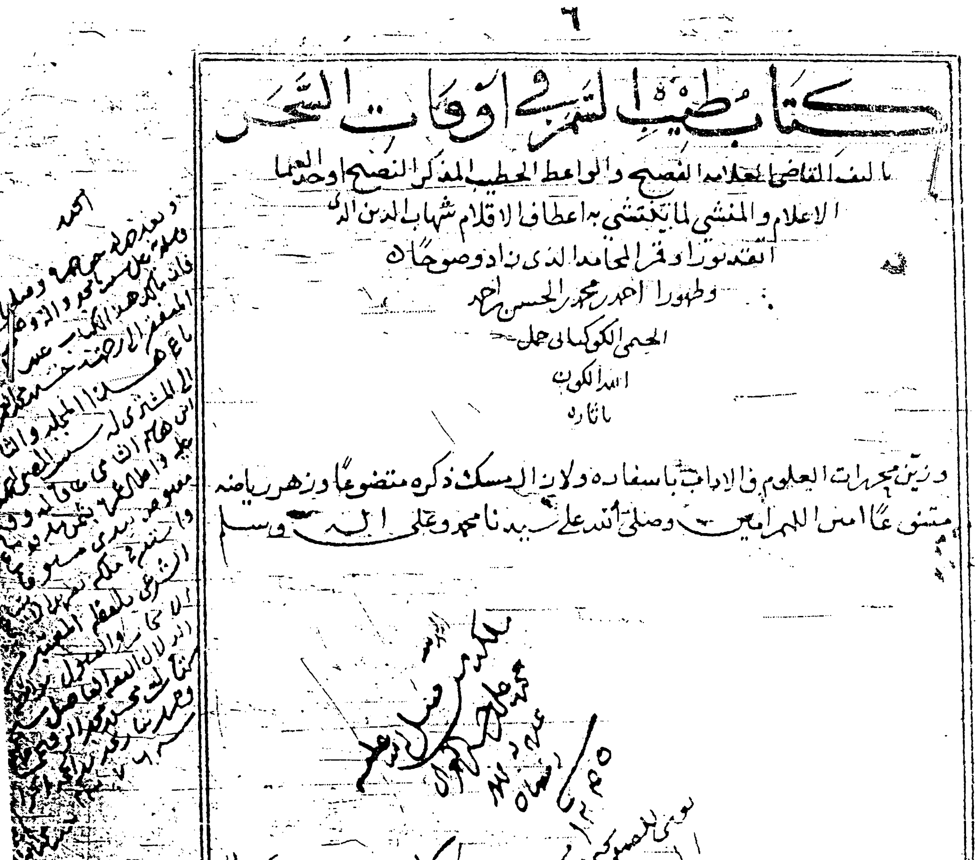
ثالثاً ـ مخطوطة (ز) :

هي مخطوطة المؤرخ محمد بن محمد زبارة المتوفى سنة ١٣٨٠ التي رجع إليها في نشر العرف وهي تضم قسم كوكبان كلّه وبعض قسم صنعاء ثم أضرب النّاسخ عن متابعة النسخ وقد وجدتها متعددة الخطوط لا تخلو من فائدة .

قطعة من مسوّدة الكتاب بخط المصنف :

عثرنا على أوراق من الكتاب بخط المصنّف هي عبارة عن المرحلة الأولى من تأليف الكتاب وهي ترينا بوضوح مدى معاناة المؤلف ودِقّته في تأليف كتابه كما يتّضح من مصورته التي بين يديك ، ولم نَسْتفد منها إلاّ فيما جاء عَرَضاً لا يكاد يذكر .

صور من النسخ المخطوطة



عنوان مخطوطة ب

نسخة المتحف البريطاني



وشرقت لما حييت للشرف التي / لقد حكمك الميمون قد حاز الفضلا
والملعت في الافلاك منها زواهرا / والطهرت بعد الجور في قطرها العدلا
فهلا فقد طارت نفوس لاهلها / سرورا ابيت اللعن مهلا لها مهلا
أيا بحر علم قد تبوأ رتبة / انيفت له فوق السماكين واعلا
ويا واعظا لا ابن الخطيب مقابس / له فهو منه للخطاب قد استملا
ويا روض اداب نشقنا لزهره / من العرف نشرا من زهور الربا
اتيت الهدى للبلاد ... / وتشهر عن مرما رأينا الملا
اينكر هذا جدك الحسن الذي / محل بلادا احسن القول والفعلا
وخذها من المضنا بحاله شيق / اليك وقد كان السكوت به اولى
فاني لمن اهدا الى البحر ... / وفيه لال رسخت بها الجلا
عليك سلام ما تغنت مطوق / وما الغيث من فوق الربا قد هلا

كتبت انا اليه لما تخلف عني ثلاثة ايام • وزعم ان ذلك لعذر حتى مال على الاقدام احكام • ما الفطن فانوثها ملا • والعابق حايلا • والطول حمايلا • لم تخلفت عنا • وارتضيت بعد كرمنا • ووعرفت ان الشوق اليك رائح وغادي • وان سبيل انسنا مجهول فهو يفتقر الى الهادي • فمحق القرابة الادبيه • وسلسلتها الذهبيه • الا ما اثرت الوصل على القطيعه • والزمت نفسك المبادرة الينا فانها مطيعه • فقد عرفت في هذه الديار غربتي • لولا انسي بك لم افارق كربتي • حاش لله ما انا بغريب • وانت مني وان بعد الاهل قريب • فهلا قام مثلك يهون الخطب • ويعرف حد شك يضيع المدرك الرطب • فالندما لا تستحق خصال العمر • ولا تقع على الغرض نصالهم • فما كل الطيور يتجدد نفعها • ومعناها الذي وجب به رفعها • اما جمال البازي اصيد ما دام لا غير • ومعنى الهزار بغريده الممتاز به عن الطير • وحسن الصعو في صورته • فكل منها قد تفرد في رتبته • وقد ما يقا اللبيب • على المعاودة والتلبيب • ولا تزر غبا معتقدا بذلك تزداد حبا • اما تزداد حبا وودا • بان لا تخل من ملازمتنا ابدا • حتى اذا غابت عن الشمس كنت عنها خلفا • واذا غرب البدر كنت عنه نايبا وان لم ازرك كلفا • فالحر اذا جاوز الثلاث • حرم كما نص عليه سيد الذكور والاناث • هذا ولا برحت راسخة في الود قدمك • ولا زلت منزها عن ان يعتريك ندمك • ما ارتاع الليل من النهار بالهجوم • وهبت الصبا في الصباح فاطفأت قناديل النجوم • والسلام ...

القطب الفقيه احمد بن عبد الرحمن الولي الغربلي الطرابلسي

هو الوسني هو الولي • ذو البرهان الواضح الجلي • من اهل الطريقه • وارباب المجاز الى الحقيقه • قطب الزمان الذي عليه دار • وواحد ابداله الذي بنيت له فوق قطب النجوم دار • الحاضر الغائب الغاني • القايل بلسان حاله بكل لاحق ما الغاني • توالت افعاله على الموافقه فدعي وليا •

نموذج من خط المؤلف العلامة القاضي

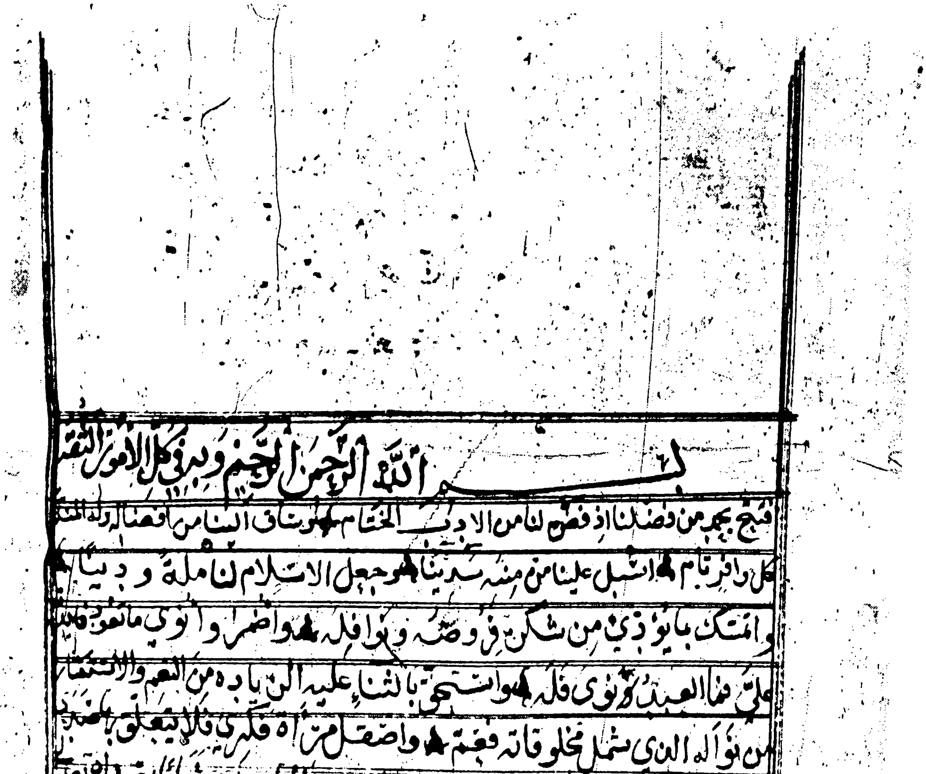
أحمد بن محمد الحيمي (مسودة كتابه طيب السمر)

أطال الله له الأوقات ه وجنبه من طوارق الليل والنهار الآفات ه وحرسه من الأيام فيما هوات ه هذا وانها جابه هذه السطور على استحيا ه معتبرة عن مشوق بعد في الأموات وإن كان من الأحيا ه لما طالت الغيبة ه التي هي للملوب مذيبه ه واسترسلت أيام الفراق ه والبعد الذي لم يتخلله اتفاق ه فأكرموا مثواها وأحسنوا قراها ه ولا استغني منكم عن جواب ه يأتي الينا فيسكن جوى الالتهاب ه ويقر العين ويشفي الخاطر ه ويهدي في الصباح نشره العاطر ه فالكتب عن التلاقي خليفه ه سيما إذا كانت عن عبادة لطيفه ه والله تعالى يرفع الينا منكم كل ما يسر ه ويجعل أيامكم في غير الابتهاج والأفراح لا تمر ه ويحفظ خليفته أنتم في مقامه ه ويطيل في سهوره وأعوامه ه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ه ما هزت النسيم الغصون وبهرت في الليل مشكاته آمين ه

أخوه القاضي العلامة الحسين بن أحمد الحيمي الخطيب

خطيب شجعته ه مثلها الزمان قد شح ه وجبين الروض من الحيا الذي مواعظه يرشح ه
كم خطب في محافل ه التقت بها الجحافل ه والرماح ترعف بالدماء ه وقد أحجم من كان مقدما ه وبوارق السيوف تلمع ه وسحاب القتام يهمع ه وأجفان الصوارم بالنجيع تدمع ه والنقع منعقد لسلامه ابدا الاتطع ه وهو في العلوم ذو تبحره ه قد استعبد في رقه من الفوائد الكريم الحر ه أخذ من كل علم بنصيب وافر ه وأسلم بجامع طرسه من لبلي المتناذكا فره ه سيما الفقه فقد مهد قواعده ه وأنجز فيه لمن طلب رشاده وقد فوى عدة إن أفتى فقوله ذا بله ه وإن سقى الانهاد فلا تذكر عندما الوابله ه وإن تكلم في مجلس الخصام ه فالعروه تسجيله من انفصام ه وهو يتلو أخيه الحسن في السجاعه ه

نموذج من مخطوطة المتحف البريطاني (ب)


بسم الله الرحمن الرحيم وبه في كل الأمور الثقة

أول المجلد الأول من نسخة شستربتي بدبلن (ش)


بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثالث من الأقسام * في ذكر فضلا مخلاف مدينة سام

من كل من فتح من العلم والأدب المقفل * وتفرق سكونهم في الجهات من لدن صنعا
الى منتهى اليمن الأسفل * اعلم زادك الله علما * ووفر عليك عقلا وحلما *
ان خلف صنعا من البلاد * ما جمع بعض أهلها بين الطارف والتلاد * ممن نفرت
عن محاسنهم تنفيرا * فظفرت منها بما ازدانت محامد السلف معها تحقيرا *
من أهل العصر الأماجد * الذين ما تليت آيات معاليهم الا خر لها القلم اي ساجد *
هم القوم يا ام مالك * وهم المصابيح في حلوك المسالك * لو ازدادوا الانجم في حلو
بمناديها لما ابت * ولو ما تحث نار ذكاهم نار الكواكب لما خبت * ولو خالطت
اذهانهم القاطعة سيوف الأغماد لما نبت * ولو بدا روض كلامهم المجاري للروض
الحقيقي لما نبت * من كل عالم هو علم * وطاعن في نحر الجهل برمحه وهو
القلم * طويل النجاد عظيم الهامه * قد احسن الله في مكاسب الفخار الهامه *
متكلم طلق اللسان * مجريات مسابله جواد حسان * منتزه فتاويه محض
وخيرا فادته اتبع من الظل * انعقد عليه الاجماع انعقاد الشهد * وانحل به
النوم من عيون العدا فاستبدلت السهد * لو ساجله البحر لنفدت لاليه دون
كلماته * او باراه الفلك لاستقصادون خطابه نجوم الليل في ظلماته * ومن
كل اديب * ما سوح ظرفه بجديب * ناظم مفلق مجيد * نظمه المتسق
عقد على جيد * تدعي الشهب مشابهة من نفثاته فيرمى بها من الأفلاك * وتزعم
اللآلي انتضاد كلماته فتمسك جنونها في سلاسل الأسلاك * يتمنا الكافور ان تكون
له طرسا * ويود المسك ان يماع له نفسا * وترغب الدرر في ان يكون له كلاما *
وتترجى الرماح ان ترى له اقلاما * نظمه الراس ونظم غيره الذنب * لم يحكه ثغر
المبتسم وان كان لم يفته الشنب * فهو ذلك ينبغي تخليد ذكر الجميع * واملاء
اخبارهم على الليل السميع * وابداع لطايفهم في هذه الأحقاف * واطلاع

أول المجلد الثاني من نسخة شستربتي (ش)

ورقت له عبارة حلوة وكان يعتزي إلى الأتراك وينتسب من الاتصال بهم لطيب الأرومة الأتراك
وبعنايه بعضهم ألف كتابه المسمى بالأنفاس اليمنية وبأنامل سطوره تناول من دوح الأمل ثمراته الجنية
فطل في نعمة ابرد من صبا العشية وجرت له الأمور على مقتضى المشيئة فأصبحت بأمره أيام العروس واو
منه أصيل القلوب وسحر النفوس وله نظم حلا حلاوة فأبان على الأتراك سلم دهاقا فمن نفثات قلمه
وسحر بيانه وكلمة مار بها فتيلا أحك في المعركة أخذ وبيلا وكان إذ ذاك غلاما جميلا فهو بدر في
الشفق من دمه غارب وغزال فر سفه من الأتراك أسود غاب وهو قوله

حييت يا ساحي الأجفان حيينا ٭ وبالرضى من رحيم الخلق لقينا
ومن كؤوس وأكواب مشعشعة ٭ ختامها المسك في الفردوس سقينا
يا شادنا سحبت سمر القنا دمه ٭ واستأصل السيف منه الرأس واللينا
سألتك صحبك لما فر واهربا ٭ ومزقوا فوقها الملك الأماريتا
وأفردوك لأسباب ما فرسها ٭ سوى الفوارس ومن كان منعوتا
فتية من كماة الترك ما تركت ٭ للرعد في حاله صوتا ولا صيتا
قوما إذا قوبلوا كانوا ملائكة ٭ حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا
ظننت أن لقاهم مثل دوركم ٭ في كوكبان بها صرت ممقوتا
وما عرفت رجالا قد نضوا حدقا ٭ لروح محربهم بيضا مصاليتا
ويح الذين تولوا عنك وانصرفوا ٭ لو أنهم ثبتوا ما صرت مثبوتا
قد كنت أهوى بأن تأوي إلى نصرك ٭ فالآن من لي بجعل القلب تابوتا
عذبتني بالجفا وقت الحياة وفي ٭ مماتك الآن فلا حرمتني القوتا
قبلت منك عذابا كان لي معا ٭ حيا وميتا فيا طول الجوى هيتا
يا زهرة قطفت من بعد [illegible] ٭ وزهرة غربت منك وافتكونا
لهفي على المقلة الكحلاء التي قصرت ٭ عن سحر أعينها أسحار هاروتا
والقامة اللدنة اللاتي إذا خطرت ٭ أو أنثنت عاد غصن البان مبهوتا
كأنما لاسمه لا بل لصيغته ٭ قد أبرزوه من الأبرار منحوتا
فقد عطر السفح منه اللب مختمرا ٭ كمثل دم الظبي منه صار مفتوتا
لو شاهدته النصارى قال عالمهم ٭ قوموا انظروا قد حوى الناسوت لاهوتا
لهفي عليه ولهفي منه يا كمدي ٭ كم قد جرا الصبر بالهجران تشتيتا
ولم جافاني وقت الحياة لمن ٭ أشهى إلى مهجتي من نهر طالوتا
سقى الإله طريحا أنت ساكنه ٭ وطفة الغمائم لا يخفوا الموافينا
حتى يرى حول ذاك القبر بينهما ٭ زهر الروابي حكا درا وياقوتا

قوله وفتية من كماة الترك البيت الذي يليه وهو قوله قوم إذا قوبلوا كانوا مضمنان من قصيدة
لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان الغزي الكلبي منها قوله

أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا ٭ واجعل لحج تلاقينا مواقيتا
فثغرك اللؤلؤ المبيض لا الحجر المسود حاشاه من وصم وحوشيتا

نموذج من مخطوطة المؤرخ زبارة (ز)

طيب السمر
في أوقات السحر

تأليف

القاضي العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني
المتوفى سنة ١١٥١هـ

القسم الأول: شعراء كوكبان

بسم الله الرَّحمَنِ الرَّحيْم
وبهِ في كُلِّ الْأمور الثقة

أفتتح بحمد من فَضَّلنا إذ فَضَّ لنا من الأدب الخِتام ، وساق إلينا من أفضاله وله المنّة كل وافرٍ تام ، أسبل علينا من مِنَنِه سدِيْنا[1] ، وجعل الإسلام لنا ملَّة ودينَا ، وأتمسك بما يُؤَدّي من شكره فروضَه ونوافِلَه ، وأُضمر وأَنوِي منه ما تعود فائِدتهُ عليَّ فما [أضمر][2] العبد ونَوَى فَلَه ، واستحق بالثناءِ عليه الزِّيادة من النعم ، والاستكثار من نَوا له الذي شمل مخْلوقاتِه فَعَمّ ، وأصقُل مرآةَ فكري فلا يعلق بها صَدَا ، بشهادتي له بالوحدانية التي أطلعت منها لمردة الجاحدين شهَاباً رَصَدا ، تعالى من هادٍ ، أرسل محمداً إلى الكافة ، وجعل رَوْضَةَ دينه بنَا حافة ، نقتطف منها ما هو أحلى في اللَّهوات من الثمر جنيًّا معسولاً ، وأعطر في الأنوف من الورد قطف في الصّبح مطلولا ، فهو المبعوث من خَيْر [الجماجم][3] ، الساقي لغصون الرماح بدماء المشاقِقِيْن وإذا ثمرُها منهم الجماجم ، ألبسه[4] الله من الصلاة بُرْدَا ، وأهدى إليه من السلام العَاطر بَرَدا ، وعلى آله الذين ما مِنْهمُ إلا فَاضل سَرِي ، وأشد صائل في وجه العدو المجتري ، وعشيرته وصحبه وحزبه ، الذِين جَادُوا بالنفس والنفيس في حُبّه ، من كل من لم يصغ في نصْرته

---

(١) السدين : الستر ، وفي اللسان : السدن الستر ، والجمع أسدان . وقيل النون هنا بدل من اللاَّم .

(٢) ساقط من (ش) .

(٣) بيض له في (ز) ، والجماجم يطلق على السادات والقبائل .

(٤) في (ز) سده .

لعادل ولائم ، فما زال تتوالى به المسرات للإسلام كأنها ولائم ، لا برح تسقي رياض قبورهم المُدام ، ويدور عليهم من الرَّحيق المختوم المُدام[1] ما انساب من البرق أيم[2] وتمَلْمَل تحت كثيب الغيم ، وهبّت[3] الرياح الثَّائب[4] وقدمت مبشّرة بقطر السحائب ، وما توارت الشمسُ من حجاب الغرب تحت الذَّيل ، لما زحف عليها السواد الأعظمُ من الليل ، فَرَّت خريدتها وهي تذعر وتَفْرَق ، وتركت من الهلال حجلها المطرّح من السماء على الدّيباج الأزرق ، ونثرت لُؤلؤَ عقدِها ، فإذا هو في الأفق نجوم تتلألأ بوَقْدِها .

هذَا وإني كنتُ في موجة الشَّباب ، وكأس الصبا مُنَشَّف[5] بالراح مُتوَّجٌ بالحَبَابِ، وأنا من الطّلب في إبَّانِه، معدود من الزمان في شُبَّانِه،أقنص من العلوم سانِحَة ، والأيَّام بكل مقترح عليها مانحة ، وقوس النشاط ضَرُوح[6] ، وزَمَان الإقبال لجثمان الكون روح ،وجوادي طرب العنان، يُواثِبُ الرّمحَ ويُسَاوِرُ السِّنَان ، يُلاعب خياله ، ويجازي من المَرَح ظِلاله ، ويلبس من النَّقع الممدود جِلاَلَه ، ونباتُ الأدب غضيض ، وغديره بالسلسل العذب يفيض ، وبُردُه حَبير ، والدَّهر نقَّادٌ خبير ، والزَّمان أصِيْل وسَحَر ، والأرض جميعها روضٌ ونَهَر ، والأرجاء تفوح بأرِجِ طيبٍ وزَهَر ، تشتعل بنار الوُرود ، حتى يظن الغبِيُّ بأنها خد لمليحةٍ رُود :

---

(١) المدام الأول المطر والثاني الخمر .

(٢) في المقامات للحريري : « ثم إنه انساب انسياب الأيم » قال : الثعبان وهو هنا شبه البرق ببياضها ، (وانظر لسان العرب ١٢/٤٠)

(٣) في (ز) هبّ .

(٤) الثائب : الريح الشديدة تكون في أول المطر .

(٥) أصلحه في (ش) بمنشّف .

(٦) شديد .

فالأرضُ في حُلَلٍ قد كاد يُحرقُها توقد النَّار لَوْلَا دمعُها الجاري
والطير في وَرق الأشجار شاديةٌ كـأنهن قيـانٌ خلف أسـتـارِ

اتخذ الأدب جُنّة ، وأسير من ظلال دوحة في جَنة ، أعد العلم روضاً أنقياً ، وأجعل الأدب له ورداً شقيقاً ، أصرف لتحصيله الهمّة ، وأضع تاجه المفصل على القمة ، أشتريه من ليلي بدراهم نجومه فهي النقد ، ومن نهاري بدينار شمس لا تحتاج إلى الحَكّ والنقد ، أسمح بالعمر في اقتنائه وأنا به شحيح ، وأقضي عمري من حديثه بتمييز العليل[1] من الصحيح[2] ، شنشنة موروثة من أخزم[3] ، وواحدٌ من جيشٍ لا يُغْلَب ولا يهزم ، فعلَى ذلك مضى الآباء والجدود ، وتوفَّرت لهم منه أقسامُ الجُدود ، (والجارُ أحق بصقبه[4]) والمدعوّ أعرف بلقبه ، فأنا والمنة لله من قوم كِرَام ، عديدهم أكثر وجيشهم عُرام ، إن سُولموا فبحارٌ وغُيُوث ، وإن حوربوا فأنمار وليوث ، إن لوينوا فأغصانٌ تُجْتَنَى ، وإن خوشنوا فمخاذمٌ[5] وقنَا :

قومٌ إذا قُوبلوا كـانوا مـلائكةً حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتَا

---

(١) العليل عند أهل الحديث : هو الحديث الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته مع أن الظاهر سلامته منها (انظر الباعث الحثيث ٦٥) والمعتل عند أهل اللغة هو ما كان أحد أصوله حرف علة وهي الواو والياء والألف .

(٢) الصحيح عند أهل الحديث : هو ما سلم لفظه من ركاكة ومعناه من مخالفة آية ، أو خبر متواتر أو إجماع ، وكان رواته عدول . وعند أهل اللغة هو ما ليس في مقابلة الفاء والعين واللام من فعل حرف علة وهمزة تضعيف ، وعند النحويين هو اسم لم يكن في آخره حرف علة . (انظر التعريفات ١٧٣) .

(٣) انظر الكلام على « شنشنة أعرفها من أخزم » في (المستقصى ٢ / ١٣٤) .

(٤) حديث «الجار أحق بصقبه» : أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي رافع . قال في النهاية : الصقب القرب والملاصقة .

(٥) جمع مخذم : القاطع من السيوف .

من صبابة حمير، الذين صيتهم في الأقطار من المثل أسيرَ، لهم في المجد أرومة، وفي الفخر مقام ما بلغه الغير فقال لن أرومَه، يستنزلون من المعاقل عُصْمَها، ويبتكّون بمُدى العزم عُرى العدو فيسرعون قَصمَها، كما قال جَدّنا القاضي نشوان[1]، مما يدع الصَّاحي بمثل الأعطاف نشوان:

أوما علمت بأنني من معشر | شمّ الأنوف من العديد الأكثر
قومي الذين تملكوا وتَمكَّنوا | في الأرض قبل تمكن الإسكندر
الخاتمون لسد ياجوج الذي | لا يُستطاع لردمه مِن مَظْهَرِ
والفاتحون لكّل ثغر مبهم | غلق على من رامه متعسر
والطّاعنون إذا الرماح تشاجرت | ثغر الفوارس تحت ظل العِثير
والضاربون الهام في يوم الوغى | بين الصوارم والقنا المتكسرِ
ولكم لحمير كم وكم من مفخرٍ | باقٍ إلى ميعاد يوم المحشر
نحن الملوك الأولون جميعنا | نُنْمِي إلى جدّ كريم العنصر
يا رُب مفتخرٍ ولولا سعينا | وقيامنا مع جده لم يفخر
افخر على من شئت إلاّ حميراً | فدع الفخار لأهله من حمير

إلاَّ أنَّ المَناصب العليَّة، ابتليت من الزّمان بأقبح بليَّة، لما نصب لحربها سُوقَه، وقدم عليها من الغوغاء الأفراد سُوقَة، قوم وجودُهم خزي وعار، النقص لهم حلية والفضيحة شِعار، حُمُر إلاَّ أن أذنابهم في الوجوه، لُؤماً ما فيهم إلاَّ بخيلٌ قد خاب من يرجوه، فهم بُخَلاً شحاح، زند جودهم شِحَاح[2]، يمنع عندهم من الحقير نزره وما عونُه، ويجهلون الأدب فلا يدرون ما أبكاره وما عُوْنُه[3] أسُود على أنهم سنانير، طريدتها الرغيف وغابُها التَّنانير.

(١) هو الأديب الكبير والعالم الجليل نشوان بن سعيد الحميري صاحب المؤلفات الشهيرة، كانت وفاته سنة (٥٧٣).

(٢) يقال زند شحاح: لا يورى.

(٣) جمع عوان. وهي النصف من النساء في سنها.

سنانير ، طريدتها الرغيف وغابُها التَّنانير .

ألا طعانَ أَلَا فرسان عادية   إلّا تجشؤكم حول التنانيرِ

فكم فيهم من فَدْم ، بينه وبين الصواب ردم ، يكثِر في دعاويه وشجاره ، على أنها تخبر مَرْآته عن نجارِه ، قد طَوَّل بالنعمة أذياله ، ووسع في أرض[١] الرفاهية أمياله ، معتقداً أن الفضل في العيش ، وأن الوقار في النزق والطيش ، وأن العُلا في جرِّ الإزار ، والأَصالة مُعَدّة في الثراء لا في مَعَدّ ونزَار[٢] عملاً بقول من قال ونزل تحت دوحٍ من الاعتقاد الفاسد وقال[٣] :

إذا كنت ذا نَشَبٍ في الورى   فأنت المسوَّد في العَالمِ
وحسبك من نسبٍ صورةٌ   تُخبّرُ أنكَ من آدم

على أنه مع ذلك لا يُعدّ في شيء من الخير ، كما أنه لا يُعدَ الغراب والبوم من جوارح الطير ، قد خلا عن النفع خلوّ المضمر عن الإعراب ، وجانبه مجانبة صوت الحمير لنغمات الإطراب ، وامتنع عنه منع الإدغام الألف ، لأنه لم يكن في حالٍ من الأحوال قد أَلِف ، فلا بدع ولا غَرْو أن يكون كشجر السَّرْوِ ، له رواءٌ وليس له ثمَر[٤] فقد ضاع فيه التزيين ضياع الطرز بمنديل الغمر[٥] ، لَكن ربما ضيمْ به الفاضِل ، وقد قام وليس من أكفانه يباريه ويناضلُ .

وَهَا أَنَا أَقُوْلُ أيُّ حُرٍّ لا يُضَام ، وأيُّ عقدٍ لم يتَبَدَّد بعد الانتظام ، ولم نر سيفاً سلم من الصدأ غراره[٦] ، ولابدراً بعد الكمال لم يدركْه سرَارُه ، وأي عينٍ لم

---

(١) ساقط من (ز) .

(٢) معد ونزار هما من أجداد النبي ﷺ ، انظرهما في كتب السير والأنساب .

(٣) لابن المعتز وانظرهما في (الغيث المسجم ١/٢٢٠) .

(٤) في (معجم أسماء النّباتات ٦٢) السرو له ثمر يسمى شجر السرو .

(٥) المنديل الغمر الذي فيه رهومة وسهوكه .

(٦) الغرار : حد السيف .

يصبها القذى، أيُّ كريمٍ خَلُص من الأذى !

وأَيُّ عقدٍ نظيم لا تبدده يد الزمان إذا ما السّمط منه وَهَى

فالعزيز في هذا العصر ذَلّ ، والمستنصر بشرفه خانه الشرف وخَذَل ، والحسبُ هان ، والأعرج سبق في الرهان ، والفضل كسد وبار ، وَمرَّ الدهر على وَبار منه فهلكت وَبار[1] :

ومرّ دهرٌ على وَبارٍ فهلكت جهرةً وبارُ

لما قَلَب مِجَنّه ، وأبدل سعيراً بعد جَنَّة ، فإذا سيفه قَضِيم[2] ، ونباته الغضُّ هشيم ، وأرضه يباب ، وسحابه ضَبَاب ، وبحره ثَمَد ، وسروره كمد ، إذ صَدَّر من لا يستحق الصَّدارة ، وأناف بين رياض المأرب والمقاصد داره ، وهو إذ ذاك أصم أبكم ، يقطع بأنه لا يعد من العالَم ويحكم[3] ، إنسانٌ إلاّ أنه جماد ، فليس عليه في خطاب من اتَّسم بالإنسانية اعتماد ، كأنه حُجَّة أبي علي[4] إذ خالف فيما شجر ، وقال بأنه يُسَمَّى إنساناً ما بُني على الشَّكْل المخصوص ولو من حجر ، فكم من رخيصٍ قد غلا ، وكم من مخفوضِ قدرٍ قد علا ، وكم من طيَّاشٍ قد توقَّر ، وكم من كَرْكيّ قد تصقَّر ، فأنا أستغفر الله من دهر لا ينادم فيه إلا الحمير ، ولا يُؤْكل على خوانه إلاّ فطير الجهل لما فُقِد من العلم الخمير ، فقد رفعت الأيامُ نذلا ، ووالت عليه جوداً وبذلا ، أضافت إليه جُمَل فوائِدهَا ، ورفعته فجرت مخالفة القياس على عوائِدها ، ولم تُبَالِ بلحن أحرق أحشاء المبرد[5] ، إذ رفعت

(١) أنشده سيبويه للأعشى . انظر اللسان قال : وبار أرض كانت لعاد ، فلما هلكت عاد اورث الله ديارهم الجن .

(٢) السيف العتيق المتكسر الحد .

(٣) في (ب) أو بحكم .

(٤) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي من كبار علماء المعتزلة،وفاته سنة ٣٠٣ .

(٥) هو عالم اللغة والنحو الكبير محمد بن يزيد المبرد وفاته سنة ٢٨٥ . انظر ترجمته في نزهة الألباء تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي (ص : ١٦٤) .

المضاف إليه مع أنه للجّر قد تجرد :

لا تلحن الأيامُ في إعرابها قد ترفع الأسما بالتَّقدير
والدَّهر بالتميز ينصب ناقصاً ويجيز خفض الكامِلِ الموفورِ

وكُنْتُ ممن قصده الدَّهر بالرزايا ، ولم يعرف التفاوت بين الرتب والمزايا ، أجرى نهر المجرة لإغراقي ، وأضرم جمرات النجوم لإحراقي ، بل أشرعها لحربي أسنة ، وَسدَّدها أسهماً لا أجد لي منها أكِنَّة ، وبعث لياليه المظلمة كتائب زنج لنزالي ، وأرسل أيامه النَّيرة جيوش رُوْم لقتالي ، توهّماً منه أني من الأفاضل ، وممن بِأَسْهُمِ أقلامه لِحُذّاقِ الرّماة يُنَاضِل ، وأني أعَدُّ من سراة الأدباء ، وصدور المتكلِّمين الخطباء ، حتى صَبَغ حَظّي في بحر لياليه الدَّهما ، وجار في معاملتي لمّا عاداني ظَنّاً وَوَهْما [1] :

إلاَمَ يا دَهرُ وحتى متى تشقى بأيامِك أيَّامِيَه
تُحقِّق الآمال مستعطفاً وتوقع النقص بآمَاليه
وهكذا تفعل في كل ذي فضيلةٍ أوهمّةٍ عاليَه
فإن تكن تحسبني منهمُ فهي لعمري ظِنَّة واهيه

وكيف أنكر من الزَّمان طوارقه ، ولا أشِيم في آفاق حوادثه بوارقه ، وقد جفاني حتى أقاربي ، وقلت في حقهم دَبّت إليَّ عقاربي ، فإذا هم بحماتهم قد كدروا مشاربي ، وحالوا بيني وبين ما أرجوه من نيل مَآربي، فهم عليّ يد ، وما لهم في الإفضال علي يد :

إذا جفاك الأهلُ مع رَحْمِهِمْ فما جَفَا الدهر بمستنكرِ

على أني وإن لم يساعفني الزَّمان بما أريد ، لست بحمد الله من رجال قصعةٍ

(١) كتب في (ش) وهو أحد الأدباء يقول : « في هذه الفقر تبجح واستعظام للنفس يمجه السمع السليم » .

وثريد ، أقنع بالدُّون وأكتفي ، واردُ الوَشَلَ فأشتفي ، إنّما أنا أحوم حول أمرٍمّا ، وأهِمّ بما لا يستطاع همّا ، وأملأ صَدْري في اكتساب العُلا غمًّا وَهمًّا ، أطِيل في الأطلال النّدا ، فلا يجيبني مجيبٌ حتى الصَّدَى ، والدَّهر المانع ، أكذب من صانع[1] ، يَعِد فلا ينجز وعْدًا ، ويلمعُ خُلَّب بارقه ، فلا يعقب رَعْدا :

أَلَا ليت شعري يا رباب متى أرى   لنا منك نُجْحاً أو شفاً فأشتفي

وما زلتُ أنْتقي وأنتقد ، وأشتعل من الهِمَّة ناراً أو أتّقِد ، وأبحث عمَّن بقي من فُضَالة الفُضَلاء ، وزُمرة النجباء ، وعِصَابة النُّبلاء ، سِوَى من أعرفهم من أهل قُطْري ، وغيرهم ممن لا ينصفهم بوصفه المُطْري ، ممن تاه بهم زماني ، إذ قلَّدوا بعقدهم الجماني ، وحَسُنَت بهم أوقاتي ، وتَمَّ من الأنس بهم وأنا الكليم ميقاتي[2] ، وفَخُر بهم عصري ، وَخَفّ بذكرهم من أثقال الزّمن إصري :

وسامحت دَهْراً قد جنى إذْ أتى بهم   مقَـدمةً للعـذر يلتمس العُـذْرا

مِن علماء رفع منارُهم ، وظهرت على علم الاشتهار نارهم ، سجد لهم البدر في الوجود ، وإذا سيما الكلف في وجهه من أثر السجّود ، من كل من نَجُب بلا استبضاع[3] ، ونشأ في مهده بلا استرضاع :

شخصٌ بدا لذوي النَّواظر غُرَّةً   زهراء زُين بها الزمان الأدهمُ

وهم مع ذلك أدباء[4] تَستْعير منهم البدوُر الكمال ، وتلتمس الخرد الحسان من

(١) في الأمثال : أكذب من صنع ، قال الزمخشري : ما زال الصناع مشتهرين بالكذب والمواعيد الباطلة والتسويف بما يستصنعونه إلى غد وبعد غد . انظر : (المستقصى : ٢٩٢/١) .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ [سورة الأعراف الآية : ١٤٢] وانظر كلام المفسرين حولها .

(٣) في (ش) استبطاء وفي (ز) استبظاع والإصلاح من (ب) .

(٤) ساقط من (ش) .

بنات أفكارهم الجمال ، قد طرَّزوا أردية العلوم بالآداب وفوّفوها[1] ، وجملوا غادة معارفهم بالقروط اللَّطيفة من الفصاحة وَشنَّفوها ، من كل أديب إذا زَوّج قلمه بدواته ، تولَّدت بينهما كواعب كلمات تأخذ اللُّبَّ بأدواته[2] ، يقظ ذي المعيَّة ، ملازم للفضائِل كما لازم المفعول معه واو المعية :

حتَّى لَو ان اللَّيالي صُوِّرت لغدت أفعـالـه الغُـرّ في آذانها شُنُفـا

كلماته في سماء القراطيس توائم النجوم ، ونفثاته خلال سحائب المداد قطرات الغيوم ، شاعِرٌ لا يطير مطاره ابن عُقَاب ، وحصن بلاغةٍ لا يقطع الصَّاعد ماله من عقاب ، طالما اشتقتُ إلى شعره ، وتحليتُ من بحر عَروضه[3] بدُرِّه[4] ، ونصبت لغزال غَزَله شِبَاك الخَطّ ، ففزت من اصطياده بما لم يفز به الغير قط .

جمعتُ من أدبهم ما لم يُجْمع ، وأسمعت من نفثاتهم ما لم يُسمع ، ورصفتُ منها عقداً هو بعقد اللآلىء ساخر ، وقلت مقالة من تَقَّدم : كم ترك الأول للآخر ، نفائس أرخص الدَّهر أثمانَها ، ودلائل فضلٍ بالغ في طمسها فاعتمد كِتمانها ، لئلاَّ يظهر فضل لصاحبها ، وجار أهداب أرديتها وساجها ، استدركتها من أيدي الضَّياع ، وحَمَّلْتُ علمها على عاتِق الشَّياع[5] ، وأخرجت كنوزها من الركاز[6] الخافية ، وعمرت قصُورَها وقد كانت طُلُولاً عافية ، وأبقيت ذكرَ من قالها بعد مماته فكأنه لم يفارق أيام عافيَة ، وعلمت أنَّ لكل زَمان حسنة تذهب بجنبها مَسَاوِيه ، وأن لكل عصرٍ جمالاً ما البدر مع كماله مساويه ، فَما خَلاَ صَدَفٌ من دُرٍّ ،

---

(١) في (ب) و (ش) وفوهوها .

(٢) ساقط من (ز) .

(٣) ساقط من (ز) .

(٤) في (ش) و (ز) دوره .

(٥) في (ب) و (ش) الشاع .

(٦) الركاز : الكنز المدفون في الأرض .

ولا تعَطَّل عصرٌ من وجود كريم فيه حُرّ ، نعم لكل روضٍ ثمر ولكل ليلٍ سمر ، ولكل شهرٍ[1] قمر ، ولكل إنسان خطاب وجوار ، ولكل جيدٍ قلادة ، ولكل معصم سوار :

ولكل قمريٍّ على غصن النقا سجــع يــردده ولَحن يُــطرِبُ

ولا شك ولا ريب ، أنَّ تأخّر العصر غير عيب ، فما فَضُل ناقِص بقدمِ عهده ، ولا انتُقِص فاضِلٌ لحِداثته ولو كان في مهده ، إنما يوصف كل منهما بما هو له من الأوصاف ، ويعطى حقه بلا زيادة ولا نقصٍ إن كان هناك إنصاف ، فالفاضل وإن تأخَّر دهره ، فقد جَاء بالنَّشر الطيِّب زَهره ، ورُبما غلبَ اللاحق السابق ، وربما فاق المسكُ العنبرَ بنشره العابق ، والجَنَّةُ في الأخرى ، وهي غاية مَا اتخذه العبدُ ذُخرا ، وشراب السُّكَّر آخره أحلاه ، كما أن بيع النفيس آخره أغلاه ، والطِّرز على أطراف الأكمام ، والسَّحَر والأصيل في آخر الليالي والأيَّام ، والسِّنان في طرف العامل[2] ، والخاتَم في المنتهى من الأنامل ، والراح التي بها يطاف ، عصرُها متأخِرٌ عن جَني كروم القِطاف ، والعنبر الأشهب إنما يؤخذ من شاطىء البحر ، ولولا طرفا السِّمْط ما ثبتت القلائِد في النَّحر ، وعلى آخر الكلمة يظهر إعرابُها ، وبآخِر الغِزلان يتضح تفضيلُها إذَا عُدَّت أسرابُها ، وبمنتهى السباق يَتبينَّ جوادُ الميدان ، وكم ازداد الثَّمر طيباً بتأخُّر اقتطافه من الأغصَان ، وآخر القوم في الهزيمة أثبتهم جناناً ، وأقطعهم عند الضرابِ سِيفاً وأطعنهم سناناً ، وقَد روي[3] أن الأطراف مقعد السَّادة ومنزل الأشراف ،ولذا قيل لبعضهم : من أين يُؤخَذ في الذكر ، أن منازلَ الأشراف في الأطراف فهي الحقيقة بالذكر ؟ فقال من

---

(١) في (ب) سهر بالمهملة .

(٢) الرمح .

(٣) أي عن أهل اللغة . قال في اللسان : الأطراف بمعنى الأشراف .

قول الله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِن أقصَى المدينَة رَجُلٌ يسعَى [1] ﴾ ، لأنه كان من أشراف قومه الذين طابوا أصلاً[2] وطالوا فرعاً ، فمن المعلوم أنه ليس بضائر لمدامة العصر [وقد تأخر عن تدلي العناقيد منها العصر[3]] ولا يعد في الدُّر من المعايب ، إذا تأخّر عن خروجه من الصَّدف وضعه على الترائب :

رُبّ عصريٍّ أخير جافي ... آخر الدهر بما فات الأُول
وسنان الطَّعن لا ينقصه ... كونه يوضع أَطراف الأسل

فسأشمّر على العادة ، وأجوز بالثناء على أهل عصري قِسَم السعادة ، أذكرهم في هذا النَّمُوْذَج ، وأطرّز بأشعارهم حواشي هذا الدِّيباج الذي سينسج ، وأهيم بمدحهم فيه هيام صَبّ ، وأحرز آدابهم فيه كما أحرزوا السبق في الميدان فأقلامهم له قَصَبْ :

وما عَبَّر الإنسانُ عن فضل نفسِهِ ... بمثل اعتراف الفضل في كل فاضِلِ

ومن انتصر لأهل زمانه ، ورفع من مكانهم وفي الحقيقة رفع من مكانه ، عُدَّ مِن الفُتُوَّةِ بأشمخ محل ، وسما إلى منزلةٍ يخدمه بها العبد الأسود وهو زحل[4] ، وحُمد في المحافِل ، وسارت بطيب ذكره القوافِل ، وسُمّي إنساناً وليس في كَبَد[5] ، وأثنت عليه القرون بلسان الأبد :

وفاضت له في الخافقين محامدٌ ... تطيب الرياض الوارفات لِطيبها

فسأترجم لحيٍّ منهم دَبَّ ، واشتغل في حياته بكسب الأدب ، فوجوده ألبس

---

(١) من سورة يس .

(٢) ساقط من(ز) .

(٣) ساقط من(ز) .

(٤) عند أهل الفلك يصور زحل على هيئة عبد أسود ، وسمِّي زحل لأنه بعد في الفضاء .

(٥) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ سورة البلد .

خناصر الليالي خواتم الزَّبَرجد ، وخلع على الأيام بروداً طُرِّزت بالعسجد ، فهو ذو أدبٍ مطربٍ ، وصيتٍ لَحِقَ في طيرانِه بعنقاءِ مُغرِب[1] :

تَعِزّ به الأرض البسيطة إذ مشى عليها ويزداد الوجود به بسطا
ويبتسم الروض الوريف بزهره وينشُر بالأوراق عن فَرجِهِ مِرطا

ومَيِّتٍ دَرَج ، وعن مَنازل أنْسِه قد خَرَج ، رماه الدهرُ بالكلال ، وصاده لمَّا نصب له شباك الدَّراري وفَخّ الهلاَك ، وسلّمه إلى يد الحِمَام ، بعد أن قطف زَهرته من الكِمام ، فمضَى مضيّ أمس ، وغربت شمسُه في بحر الرَّمس ، أقفرت منه معاهد الأنس وما خليت من ذكر محامده التي لم تُنْس ، حَلّ منزِلاً من البلى ، وأضحى لحجابِ الثَّرَى دونَه مسبلا ، فهو لصدفِ اللحد دُرَّة ، ولأدهم الظُّلمات في الأطباق غُرّة ، كأنه سيف في الغمْد تَعذَّر خروجه ، أو فِص نفيسٌ في حُقٍّ والقُطْن دروجُه :

إن غاب في الأرض فالدنيا قد امتلأت من فضله الجمّ ما قد طاب منتشقَا
الأفق ضاق به فضلاً فمن عجبٍ إذ ضمه كفن بالخيط قد رَتَقا
ما ضَمَّه اللحد إلَّا خلته صدَفاً على النفائس من درٍ قد انطبقا
وأصبحت فلقاً أنوار غـرّتـه تحت التراب وأما جسمـه فلقَـا

هذا على أن الأدب في هذا الدَّهر قد صَوّح من روضه النَّبات وذبل الزهر لما جفته الغمامة وصَدَّ عنه النَّهر ، ولم يبق لقوسه منزع ، ودفن معدنه لما مرت عليه الريح الزَّعزع ، خَلَقت مروطُه ، وتبدَّدت قروطه ، وبيع بالتَّافِه اليسير علْقُ مضنَّتِه ، وردم طريقه وأغْلِق باب جَنَّتِه ، فأفياء ظلاله قالصة ، ونفائِسه ضائعة كما

---

(١) عنقاء مغرب : يقال أنها طائر ضخم لا ترى في الدهور ، ثم كثر ذلك حتى سُمِّي الداهية عنقاء مغرب ، وقيل : سميت عنقاء لأنه كان في عنقها قناص كالطوق . وقال الزجاج : العنقاء طائر لم يره أحد . انظر : (اللسان : ١٢/٢٧٦) .

ضاع الحلي على خالصة[١] ، لا يلتفت إليه الرئيس ولا المرؤوس ، فطالما صَعَّروا عنه اللّيْتَ[٢] ولووا عنه الرُّؤوس ، حتى عاملوه بالإعواز ، وقد يستسمج العليل سُكَّر الأهواز[٣] ، ويقطب الشارب بلا سبب ، في وجه مدامةٍ طالما ضحكت له بثنايا الحبَبَ[٤] :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ... وينكر الفمُ طعم الماء من سقمِ

لكنني مع كساده ، وتطويل الزّمن في إعراض وساده[٥] ، أتعلّل بأن النائم من نومه كم هبَّ ، وأن النَّسيم الساكن عن أطيب النَّشر طالما هبَّ ، فكم غلا نفيس بعد بوار ، واشتاق خصر إلى وشاح ومعصم إلى سوار ، وتحلَّى جيد بعد عطل ، ورصع روض بعد المحل بلؤلؤ قطرٍ وطَلْ ، ووفى غريم بما في ذمته بعد أن مطل ،

---

(١) امرأة ذكرها في : (اللسان : ٢٩/٧) ولم يزد في التعريف بها غير ما ذكر . وفي المحيط : خالصة جارية كانت لهارون الرشيد يضرب بها المثل في ضياع الزينة على صاحبها ، لأنها كانت قبيحة المنظر ، إلاَّ أن الرشيد كان يحبها فكان يزينها بالحلي الثمينة والملابس الفاخرة ، رآها أبو نواس مرة فكتب على الباب :

لقد ضاع شعري على بابكم ... كما ضاع در على خالصة

فابتدر الخبر إليها فأرسلت به إلى الرشيد عقوبة لأبي نواس ، فاستحضره الرشيد ، ولما حضر مرّ بالباب فمسح دائرة عين ضاع من الشطرين فصارت همزة ، ودخل فزجره الرشيد على ذلك . فقال : يا مولاي ؛ إنما كتبت : ضاء شعري كما ضاء درّ ، وإن شئت فانظر ، فنظر الرشيد الباب فعجب . ويُروى عن الفرزدق مع جارية لسليمان بن عبد الملك ، والله أعلم بالصَّواب .

(٢) اللِّيت : صفحة العنق .

(٣) الأهواز : مدينة في جنوب غرب إيران عاصمتها خوزستان ، أصلها الأحواز . قال ياقوت : وسكرها أجود السكر (انظر أحسن التقاسيم ٣١٤ ، ومعجم البلدان ٢٨٤/١ ، والمنجد ٨٥) .

(٤) من البردة للبوصيري .

(٥) كناية عن النوم والتغافل .

وجُرِّد سيف بعد إغماده ، وأضرم جمر بعد إخماده ، واجتمع شمل بعد تَشْتيت ، وَوُصِل حبل بعد تبْتيت ، وَرُصِّف عقد بعد تبديد ، وبدا لسمطه الواهي تفقّدو تجديد ، فقد تحسَّن من الدَّهر طوية وَنية ، فتنفَق بعد الكساد في سوقه الوَنية [1] ، فللبيع ربح وغبن ، كما أن للعروض إثباتٌ [2] وخَبْن [3] ، والزمان المخبور ، تَمْرةٌ وزنبور ، وما كل داهية أَبِدَة [4] ، ولا كل نَفْسٍ على الاستمرار للهول مكابدة ، وقَدْ يزول البؤس ، ويبتسم ثغر العبوس :

ما أحسن الأطماع يُرجَى نيلُها والصبُّ بين مُصَدّقٍ ومُكـذّبِ

فلذا قلتُ لعاثره لعا [5] ، ولم أنع الفضل وغيري له نَعى ، لاستنشاقي من روح الفَرَح ، أعطر شميم وأطيب أرج ، وانتظار الفرج عبادة [6] ، وطالما مَحَا الصَّبر آثار البلى فأبادَه .

وفي أثناء ذلك الانتظار ، اشتغلت من آداب العصريين بسبك النُّضَار [7] ، وأذبته بنار الانتقاء في بَوْتَقَة الانتقاد، وأفرغته أقراطاً تعنو لها الغادات وتُقَاد ، وأتيت في هذا المصنف عَلى فضلهم منها بدليل ، واستغنيت عن الكثير من أشعارهم بالقليل ، فقد اختصر في الإيراد غاية الاختصار ، واقتصر على المقصود

---

(١) الونية : اللؤلؤة أو العقد من الدر .

(٢) ضرب من المديح .

(٣) الخبن : عند أهل العروض إسقاط الثاني الساكن من الجزء كحذف السين من مستفعلن .

(٤) آبدة : داهية .

(٥) لعا : دعاء للعاثر بأن ينتعش ، ومعناه سلمت .

(٦) إشارة إلى قوله ﷺ : « انتظار الفرج عبادة » حديث أخرجه الترمذي من حديث حماد بن واقد ، سنده إلى ابن مسعود مرفوعاً . وقال البيهقي : تفرّد به جماعة وليس بالقوي ، وحسَّن ابنُ حجر إسناده ، وفي الشهاب (٦٢/١) عن ابن عمر مرفوعاً : « انتظار الفرج بالصَّبر عبادة » .

(٧) الذهب والفضة .

منتهى الاقتصار ، وأقنع بإيراد النَّزر ، وأكتفي من بحر العروض بالجزر ، لا لإخسار[١] وتطفيف ، وإنما هو لتلطيف وتخفيف ، أولكون أمّ طبع الناظم نزور ، ونسيمه عليلة نزورها فلا نثقل إذ نزور ، والشّعر على الفضل عنوان ، فسواء منه البيت المفرد والدِّيوان ، وفي التمثال قنوع اللَّبيب ، وفي العنوان ما يغني الأديب ، والزهرة تدل على الروض النَّضِير ، والنَّهلة الباردة تشهد بعذُوبة الغَدير ، واللُّؤلؤة تخبر عن العقد المرصوف ، واللَّمعة من الوصف تنبيء عن كمال المَوْصوف ، وإذا عرفت الإجادة ، فدع عنك سيف التطويل ونجاده ، وبذلك رقّ هذا الكتاب ، فكأنَّه بيني وبين الزَّمان عتاب ، دار[٢] به رسولُ النَّسيم ، وطار من كافور رقه ومسك مداده بأعطر شميم ، وجعلته كما ترى أقساماً ، ونحت صَخْره فإذا هو أغلظ ما نحت أقسى ما[٣] ، وختمته بنفحةٍ من نفحات الشام ، ووضعتها مسك ختام لتلك الأقسام .

وَسَمَّيتُهُ : (طيْبُ السَّمَر فِيْ أوقَاتِ السَّحَرِ)

فإن لطف عند من له ذوق ، وطاب عند من استمسك بذيل الشوق ، فنسيمٌ[٤] لطيف الهبُوب ، وسَمَرٌ حديثه شهي محبوب ، لاشتماله على ذكر أناسٍ يهيم السَّامع بصفاتهم فإذا هي غزال كِناس[٥] ، وإن لم يستلطف ، واستسمجه من ذاق من أوراقه ثمرها الذي يقطف ، فَبَديهةٌ من صَدِيت مِرْآة جَنَانِه ، وعادته لما عاداهُ الدَّهر أطرافُ بنانه ، وجهد كئيب عُشبه قَفّ[٦] ، وجواده عن السّباق قد

(١) في (ز) اختصار .
(٢) في (ش) و (ب) بدر .
(٣) في (ش) و (ب) وأقساما بزيادة ألف .
(٤) ساقط من (ز) .
(٥) الكِناس جمع أكنسة ، وكنس : بيت الظبي .
(٦) هو ثمر الآس .

وقف ، غُراب شَبَابه نتف الجناح ، وقُمْرِيُّه[1] بعد تغريده على القضبان ناح ، أبلَت الأيام ردنه القشيب ، ودارت طاحونة[2] اللَّيالي فلصق بعارضِه غبار المشيب ، بعد أن فقد اللِّدات والأتراب ، وكان لا يقنع منهم بالوصل حتى قنع بذكرهم في وصل كتاب ، لما تبدد عقدهم وانتثر ، وفُقِدت من شخوصهم العين ، فرضي من آدابهم بالأثر :

وهكــذا من فــاتــه مــطلبٌ يقنــع من بعــد بمــا دونــه

فأنا غريب ، بعيد من هذا العالم قريب ، وما الغربة فراق الأهل ، ولا البُعد في قطع الحزن والسهل،وإنما الغربة فقدان النظير والشَّبيه ، والبعد التنائي في الرتبة والمقام النبيه ، وهذا كما قال بعض الحكماء في كلام له تَسَّجع ورق الحكمة على فَنَنه : الغريب من فقد إخوانه ونظراءه وإن كان في وطَنِه ، وقال الشهاب الخفاجي[3] في فِقَره التي هي دراري الدياجي وأنا ثمة غريب الوجه واليد واللِّسان ، وليست الغربَة فقد الأهل بل فقد الأحبة والإخوان ، وقال : ليس الغريب من تناءت دياره بل من فُقِّد من الكرام نظراؤه وأنصاره[4] ، وكما قال البستي أبو الفتح[5] لا برح أهلاً للثناء والمدح :

---

(١) القمري : ضرب من الحمام حسن الصوت .

(٢) ساقط من (ز) .

(٣) هو شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي المصري ولد سنة (٩٧٧) وبرع في علوم البلاغة والأدب ، وكانت له المؤلفات السائرة ، توفي سنة (١٠٩٦) انظر : ترجمته في (خلاصة الأثر ٢٣١/١ ، وسلافة العصر ٤٢٠ ، ومقدمة الريحانة) .

(٤) انظر مقامة الغربة للمذكور في (ريحانة الألباء ٣٧١/٢) .

(٥) هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي ، شاعر مجيد ، له ديوان شعر مطبوع ، وهو صاحب القصيدة :

زيــادة المــرء في دنيــاه نقـصــان ... ...

توفي سنة (٤٠٠) . انظر : (الوفيات ٣٥٦/١ ، والأعلام ٣٢٦/٤) .

وما غربة الإنسان في البعد والنوى ولكنها والله في عدم الشَّكْلِ
وإنّي غريب بين بُستٍ[1] وأهلها وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وقال أبو عمرو الشجَري رحمه الله تعالى :

وليس اغترابي في سُجُستَان أنني عدمت بها الإخوان والعيشُ والأهلا
ولكنه ما لي بها من مُشاكِلٍ وإن الغريب الفرد من عَدم الشكلاَ

وقال السيد جمال الدين محمد بن عبد الله بن شرف[2] الدين رحمه الله تعالى[3] :

لعمرك ما غربتي في الوطن لفقد الصديق وفقد السكَن
ولكن شمائِلنا ما استوت وهل يستوي بقبيحٍ حسنْ[4]؟!

نعم أيها النَّاظر في كتابي هذَا ، أنا متّخذ فضل تجاوزك عن سقطاته معاذا ، فإن غضضت طرفك فيه عن العيب ، ولم تشق بيد الانتقاد منه الجيب ، فسجية من سَتَر العوَار ، وأطفأ بثلج حلمه متضرّم الأوزار :

وطبع كريم بَدت عورة لعينيه فاحتال في سَتْرِها

وأنا أعلم أنما كل عينٍ ذات كحل ، كلاًّ والله ولا كل صوت فيه صحل[5] ولا كل ثغر ذو شنب[6] ، ولا كل ما فُضّ عند الختام ابنة العنب ،

---

(١) بست : مدينة قديمة في أفغانستان على ملتقى الطريق ، وفي ياقوت (١/٤١٥) : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، وأظنها من أعمال كابُل .

(٢) انظرهما في (خلاصة الأثر ٢/٢٤ ، وسلافة العاصر ٢٥ ، ونفحة الريحانة ٤/٣٢٨)

(٣) هو أديب اليمن الكبير محمد بن عبد الله شرف الدين ، صاحب النظم الرائق والشعر الحميني ، وفاته سنة (١٠١٦) .

(٤) ديوانه (١٩١) ط مكتبة ذمار الوطنية .

(٥) صحل صوته صحلاً : بَحَّ وخشن .

(٦) شدة بياض الأسنان .

وما كل مُحبٍّ مشوق ، ولا كل قدٍّ ممشوق ، ولا كل دقيقٍ خصر ، ولا كل معمور قصر ، ولا كل طالع قمر ، ولا كل ندمة سَمَر ، ولا كل أحمر ورد وشقيق ، ولا كُلّ وادٍ نعمان والعقيق ، وما كلّ طير له سجع ، ولا كل سماءٍ ذات رجع :

ولو أنَّ كل حصاةٍ تزين ... لما جعل الفضل للجوهرِ

اللهم كما أنعمت بتيسير الابتدا ، وأنطقت طَيْره على قُضب الأقلام فَشَدَا ، أنعم تفضُّلاً بِبلاغ الختام ، واجعل هذا الهلال في سماءِ القرطاس أي تام ، وأعن على قطع هذا البحر بالسَّبح ، وعاملنا عن زلّات اللِّسان بالصَّفْح ، واصرف عنا موجبات السَّخط، وسوّ ما جرى به القلم وقد خط ، أنت مولَى الأمّة ، والأولى للعبد المرقوق بالرَّحمة ، فإنك أوصيتَ بالضعيفين [1] ونحن أحدهما ، لا نخرج عنهما ولا يفوتنا عددهما ، لكَ المنة ، متعالياً عن الضِنَّة .

---

(١) الضعيفان : هما اليتيم والأرملة .

القسم الأوَّل في إيْرَادِ مَحَاسِن كَوْكَبَان المنيف ، وذكِر مَن بَرَز مِن قُطْرِه الرَّفيعِ الشَّرِيف

لما كان حصن كوكبان[1] الذي رأسه شمخ ، وقدمه الثَّابت تحت الأرض السابعة قد رسخ ، وطني الذي به أتطاول وهو بي يفتخر ، وروضي الجاري نهره لخدمتي فهو على رأسه يخر ، إذا استوطنت جِنَانَه ، فهو لسيفي قراب ولسهمي كنَانَةَ ، تعينَّ علي أن أهزَّ في مدحهِ من الأقلام القُضُب ، وأن أقدم ذكر أهله هنا تقديم بسم الله في الكتب ، فحُبُّ الوطن من الإيمان[2] ، وحسن الثناء عليه مما يشترى بأوفر الأثمان ، فكم هزتني الأريحية لسكونه ، وأشجاني الفراق حتى لقدود غصونِه ، هذا آدم عليه السَّلام فارق الجنة ، وترك ما تَفضَّل الله به عليه من عظم المنة ، وخرج مزعجاً عنها ، ورغب في الرجوع إلى الأرْض لما كانت طينته منها ، فلم لا أحب أرضاً طينتي من تربها ، وغرال عيشي[3] الرَّغيد من شُربها ، غُرِس في

(١) كوكبان : حصن ومعقل شهير ، يطلّ من الشمال الشرقي على مدينة شبام الأثرية ، ويرتفع عن سطح البحر بنحو (٣٠٠٠) متر ، وهو آهل بالسكان ، وبه آثار قديمة . قيل : سُمِّي كوكبان لأنه كان به قصران مطرّزان بالأحجار الكريمة الثمينة والنقوش الجميلة، وكان لهما بريق ، وسمّى كل منهما كوكب ، فقيل كوكبان . بينما يرى الهمداني أنه سُمِّي باسم كوكبان بن ذي سفال بن أقيان بن زرعة . وقد اتخذ المطهر بن شرف الدين كوكبان عاصمة له بعد أن عدم مقره في وادي ظهر ، وذلك في القرن التاسع . كما أن كوكبان كما يقول الدكتور حسين بن عبد الله العمري مركز آل عبد القادر من أحفاد الإمام شرف الدين . انظر : (معجم البلدان والقبائل اليمنية لإبراهيم بن أحمد المقحفي ص ٥٤٣) .

(٢) حديث : « حب الوطن من الإيمان » قال الصَّغاني : موضوع ، وقال السخاوي : لم أقف عليه . انظر : (تمييز الطيب ٦٨ وكشف الخفا ١/٤١٣) .

(٣) (ز) عيشتي . و« غرال العيش » : خصبه ومُتَّسعه .

منابتها غصني وَعودي ، وأُنجزَت من مأرِب الصِّبَا بها وُعُوْدي ،وانهملت بماء اللَّذات بوارقي ورُعودي ، أول أرضٍ لصق بجسمي ترابُها ، وسبقت بي في ميدانها من دُهمِ الشَّبَاب عِرابُها [١] ، إلا أنها بَرَّت بي صغيراً ، وعقَّتني مع عدم استحقاقي العُقوق كبيراً، لكن رُبّ حَسنَةٍ لم تُنْس، ورُبّ وحشةٍ لم تَمح ماسلف من الأنس ، والحرّ لأدنَى مِنّةٍ شكور ، والحليم لأسباب الجفاء غير ذكور ، كما قلتُ :

قاطعيني يا عزُّ إنْ عَزَّ وَصْلُ … أنتِ عندي في الغيد بيت القصيدِ
طوِّلي إن رغبتِ في الهجر والبعد … بـلا عـطفـةٍ عـليَّ وزيـدي
أنـا راض بما رضيت فـوصلي … يوم قطعي والقـرب في تَبْعيدِ
إن تَفِرّي [٢] فقد سَعَيْتِ زماناً … لمقـامي بالنجُّـح سعي الـبريـدِ
[منـك مَرَّت لنـا ليالي أنسٍ … فافعلي بي من بعدها ما تُريدي] [٣]
قَلِّديْني بـالجزع إن شئْتِ إنِّيْ … غـير نـاسٍ لعقـد دُرٍّ نَضيْـدِ
لست أنسى فاللؤلؤ الرَطب إن زا … ل فذا السّمط أثره في جيدي [٤]
هي هذي سجيّة [٥] الفرد في الأ … حرار تمتاز عن سجايا العبيـدِ

نعم وهذا الحصن الذي هو كوكبان ، جبلٌ يخفق قلبُ الرياح في شعابِه ، خفق جنان جبان ، يَرُوع نسر السَّماء في وكرهِ ، خوفاً من أن يصطاده من رَقا على ظهره ، شامخٌ به شمم ، له من منازل الفلك أمَم ، باذخٌ ركين ، مكانه في السَّماوات مكين ، يسمع به زَجَل ملائكتها لقربِه منها ، ولا تُسمع أصوات أهل

---

(١) جياد الخيول .

(٢) تفرّي : تقطعي .

(٣) ساقط من (ش) .

(٤) في (ش)الجيد .

(٥) في (ز) تحية .

الأرض لبعده عنها ، ذو محلٍّ عالٍ ، طال فلا تناله الأوعال ، أمنع من لَهَاة الأسد ، وأعلى من السّنام على سائر الجسد :

سامَى السمآءَ فمن تطاول نحوهُ للسّمع مسترقاً رماه بكوكب

لا يتصل بأكنافه نسرٌ ولا عُقَاب ، ولا يَرَى الطالع في عِقَابِه إلا جنَّةً وهل تَسْمَعُ بِجَنَّةٍ في عِقَاب ، حَسُن فلو بَرَزَ خالاً في الوجنات لم يَشُنْهَا قُبح ، وطال حتى لو كان ليلاً لم يسفر له صبح ، قد شَمَخَ أنفا ، ولبس من الهلال سِوَاراً ومن الثُّرَيَّا شنْفًا ، نَشُر على عطفيه رداء الغيم الذي يروق ، وقد طُرِّزت حواشيه بذهب البروق ، له من قوسِ الغمام شارب ، ومن خمره حُمْرة الشفق مُدام شارب ، كأنه بلا نُكْرٍ ولا جحود ، دعامة لسقف السماء أو هو لخيمتها الزَّرقاء عمود ، أو كأنه كرسي ساج[١] أو تُسلِّم رقابه البُراق ليلة المعراج ، أو كأنه غادة لها من الغمام مروط ، ولها من الزُّهر المنيرة شنوف وقُرُوط ، يزاحم مناكبه السماء ، كأنه المراد بقول ابن نوح ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ تأزَّر بالسَّحاب وارتدى ، وأوقد مشاعل النجوم وبها اهتدَى ، كأنها على رأسه في الظُّلم ، جواهرُ في تاج أو نارٌ على عَلَم ، إذا تحدَّرت السيول مِن رأسه الذي علا ، حسبتها سلُوس لُؤلُؤ[٢] قد أذِيلت على الطُّلاَ :

رسا أصله تحت الثرى وسما بِه إلى النجم فرع لا يُنال طويلُ

وهو فلك أقمارٍ لم تتكلَّف ، ومنزل نجوم من الكلمات التي تتألف ، قد بَرَزَ منه ولله المنَّة ، أفاضل أدركوا الكمال وهم في بطون أمهاتهم أجِنَّة ، نيطت بهم المكارم ، قبل أن تُناط بهم التَّمائم ، فما ظنك بعد وضع العمائم ؟ من كل من غُذي بلُبَان العُلَى في مهده ، وتسنَّم غوارب الفضائل قبل أن يركب على نهده[٣]

(١) نوع من الخشب ، وهو الخشب الهندي .

(٢) سلوس لؤلؤ : أي خرز أبيض ينظم في القلائد ، أو القرط من الحلي .

(٣) النهد : الفرس الحسن الجميل .

يُحَرِّكُ من فهمه بَحْراً عَجَّاجاً ، ويُنْزِل من معصرات أفكاره ماءً ثجاجاً ، فهو صارمٌ لم يحتج إلى صقل ، وروضٌ لم يفتقر إلى بَقْل ، حلَّى معصمي الدهر من علمه وأدبه بسوارين [فما ظفر حاسده فيها أدركه بسوى رين] [1] ، له فِكرٌ من كل دقيق أدق ، ونقدٌ أنفذ في شواكِل المشكل من سهام الحدق ، وربيع أدبٍ خَضِل ، أوشك من سَلك [2] تحت دوحه المُدْهَمّ أن يَضِلّ ، يعود بجنبه نيسان [3] الشهور تَشْرِيْنا [4] ، فيقول : هذه رياض آداب بدنانير زَهْرها تَشْرِينا ، فممن نزل به نزول الشَّمس في الحمل [5] ، وطلع من خلال منازله طلوع بدرٍ قد اكتمل ، برز من عرينِه أسدًا ، حتى حُمّ ليث الغاب من بروزه حسدًا ، وخطر فيه لطيفاً فلذلك نسيم الصّبا اعتلّ ، وألْقى على فراش الرَّوض عن ذيلٍ بَعَرق الندى قد ابتل ، الملاذ الذي أضحى للمتقين إماما ، والأستاذ الذي لم تكن زيارة المعالي له لماما ، بل هي ملازمة له على كل حال ، ومقبله إليه بوجهٍ جميل وعُنق حال ، شيخ والدنا الذي به تخرَّج ، ومفيده الفاتح له أبواب رياح من العلوم بها قد تفرَّج ، وقطف من ثمارها وأزهارها ما حلا وتأرَّج ، من قَدَّمته همته ، قبل أن تنبت لـمّته ، حتى قُدِّم في هذا التَّصنيف كما يليق ، وصُدِّر في مجلس صدوره فهو بالتَّصدير خليق ، فهو المُجَلِّي في حلبة الزَّمَن ، وهو فخر كوكبان على الخصوص وعلى العموم يُمن اليمن .

---

(١) ساقط من (ز) .

(٢) في (ب) سلك .

(٣) نيسان : اسم شهر بين آذار وأيار أيامه (٣٠) يوماً ، واللفظة سريانية .

(٤) تشرين : هما أول وثانٍ ، الأول أيامه (٣١) والثاني (٣٠) يأتيان بعد أيلول .

(٥) الحمل : برج في السماء من البروج الربيعية .

السَّيِّدُ العَلَّامَة جَمالُ الدِّيْن مُحَّمد بن إبرَاهِيْم المُفضَّل[1]

بحرٌ مائج ، وإمام تائِج[2] ، سيف يماني ، وعقد جماني ، واسع الهجيج[3] ، متضوّع الأريج ، ما اقتصر على ضربٍ ولا على فنّ ، بل له في كل العلوم تحقيق مات به الجهل فله من أوراقه كفن ، أما في التَّفسير والتَّأويل ، فهو ذو ملابس لا تحتاج إلى تهويل ، ميَّز المحكم فيه من المتشابه ، ومضى في أوضح سبيل من إبَانَة المنطوق والمفهوم ومشى به ، له في الكشف عن الناسخ والمنسوخ ، قدم لا تزول لأنها ذات رسوخ ، لا يُجَاريه جارُ الله[4] وكيف يسابق الصَّحيح ذو عرج ، فإذا كفَّ عن مسابقته عذره ذو الحِجَا وقال : ﴿ ولا على الأعرج حرج ﴾[5] ، وعلى الجملة فألسنة الأقلام تخرس عند وصفِه ، وأسماط السطور تتبتَّك عند نظم درّه ورصفه ، فمن أبان علومَه ، فما أبان من العجز إلَّا كلومه ، وكان ذا خلْقةٍ لا تُشابه البشر ، وَزيّ شاع جلاله في النَّاس وانتشر ، فما هو من بَشَر بل من

---

(١) محمد بن إبراهيم بن المفضل ولد سنة (١٠٢٢) وأخذ عن أغلب علماء عصره ، وبرع في جميع العلوم . من مؤلفاته : « نظم الورقات » و « السلوك الذهبية في خلاصة السّيرة المتوكلية » وغيرهما . توفي سنة (١٠٨٥) انظر ترجمته في (مطلع البدور وخلاصة الأثر : ٣١٨/٣ والبدر الطالع : ٩٥/٢) .

(٢) يقال إمام تائج : أي صاحب تاج .

(٣) الوادي العميق .

(٤) يعني جار الله الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨) وكان به عرج .

(٥) الآية : ٦١ سورة النور .

أملاك ، سيما إذا للمسائل الشاردة أملاك ، فإذا نظرته غانية كريم [1] ، قالت ﴿ حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ [2] ، حتى أخبرني حيٌّ [3] والذي عن والده اللَّذين نَمى في روضهما غَرْسي ، أنه كان إذا رأى صاحب التَّرجمة قال ما هذا إلا كما قال الله لموسى : ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ [4] ، وقد طرَّز أردان علمه ، بعسجد أنَاتِه وحلمه ، فكلامه لُبَاب ، وسحابه الثقيل غير ضَباب ، فهو موفور الوقار والسَّمت ، قليل الكلام حتى علَّم أحجال الغانيات الصّمت ، لا يتبجَّح بعلمه في المحافِل ، ولا يتقلقل إذا تلاقت يوم الجدال لا يوم الجلاد الجحافل ، فلو أعطى البحر رجاحته لما اضطرب ، أو رُزق البدر سكونه لما غرب ، أو النجوم لما سارت في الأفلاك ، أو الدُّرُ لما انتقل من الأصداف إلى الأسلاك ، وهو مع ذلك ألطف من صَبَا ، وأرق طبعاً من كل من صبا ، تتلعَّب به اللَّطافة تلعّب النّسيم بالغصون ، وتقلّبه الرقة كَما قلَّبت أيدي الخُرّدِ الحسان درّها المصون ، يداعب ويَهزل ، وينحط عن جبل وَقارِه إلى وهط المجون وينزل ، وروض ذاتِه فَيْنَان ، يتحدَّر من العلم والأدب فيه عينان ، والليالي السود له جواري ، قد تحلَّت لدخولها مجلسه بدرر الدَّراري ، وله خطّ لا يلحظ المُقل بعده إلى ابن مُقلة [5] ، إذا مدَّ سلاسله على البياض فهي لعقائل الحسن عقلة ، لا يَرَى العذار المنمنم من كُفَاتِه ، فهو لا يبرح يطعن في محاسنه سمر ألفاتِه ، عَرفْتُه وأنا صغير ، ورأيتُ منه بدراً يعير البدر أنواره ويغير ، وإلى الآن لم يغب عني شيءٌ من معارفه ، ولم يخلقْ لديّ بمرور الأيَّام ما تجدد من مطارفه ، ومن تأليفه « السلوك

---

(١) أي ذات وجه حسن .

(٢) الآية : ٣١ سورة يوسف .

(٣) لفظة حي عند أهل اليمن بمعنى مقام .

(٤) الآية : ٤١ سورة طه .

(٥) ابن مقلة : هو محمد بن علي ، وزير من الشعراء الأدباء ، عُرِف بجودة خطه ، توفي سنة (٣٢٨) انظر : (وفيات الأعيان : ٢/٦١) .

الذّهبية في السيرة المتوكلية اليحيويّة »[1] ، وله : « اللآلى المتَّسقات في نظم الورقات »[2] ، ولما دَنت عن هذه الدار نقلتُه ، وسهرت من الأوجاع الملازمة له مقلته ، خلع ثوب العافية وألقى أرديتها الضَّافية ، ولبس ثوب مرض ، لما انتَهى زمان إفادته وانقرض ، إذ أصابه يرقان[3] فاقع ، ألبَسَه من ذَهَبه ردناً اتسع خرقُه على الرَّاقع ، وجعل نَهاره المنير أصيلا ، وخضَّب بزعفرانه منه نصِيْلَا ، تمكَّن منه تمكن الصّبغ من الرِّداء ، ولاصقه مُلَاصقةً آلَتْ به إلى الرداء ، فإذا نجوم ألفاظِهِ بنات نعش ، ومداد دويه ثياب حداد بعد أن كان في معاصم الأوراق بمنزلة النَّقش ، رماه الحِمام فأصاب الغرض ، ومات فدفن جوهره[4] الفرد في العرض ، أحسن الله من الحور جِوَارِه ، وجَنَّبه من مقام جهنم بواره ، وجعله بجنة الفردوس ثاوياً ، ولرضوانه ورحمته حاوياً .

وشعره يفعل بكل ذي طبع رقيق ، ما لا يفعله السُّكْران سكر الريق[5] وسكر الأباريق ، طريقته في المطولات طريقة البها زهير[6] ، فما نهره عند غديره العذب

(١) هو في سيرة جده الإمام يحيى شرف الدين ، منه عدة مخطوطات ؛ منها مخطوطة في جامع صنعاء الغربية في سنة (١٠٧١) وآخر بمكتبة المتحف البريطاني برقم (٣٧٣١) ، وثالثة بمكتبة الأمبروزيانا بإيطاليا برقم (G١١٢) وغيرها .

(٢) من الكتب المعروفة ، شَرَحَهُ في القرن الثالث عشر العلامة عبد الرحمن بن محمد العمراني في كتاب بعنوان : « سلك اللآلىء المنتسقات » مخطوط بقلم المصنف ، في جامع صنعاء ، وآخر بعنوان « الجواهر المعتنقات » للعلامة أحمد بن إسماعيل العلفي . انظر كتابنا : « مصادر الفكر الإسلامي ، ص ١٨٤ ط قطر » .

(٣) اليرقان : مرض معروف يصيب الناس ، ويسبب اصفرار الجلد ، واللَّفظة يونانية .

(٤) الجوهر الفرد عند المتكلمين : هو الجزء الذي لا يقبل الانقسام ولا يتجزأ .

(٥) في (ش) الرقيق .

(٦) هو البهاء زهير بن محمد المهلبي العتكي ، شاعر كان من الكتاب ولد سنة (٥٨١) بطريق مكة ، ونشأ بقوص ، واتّصل بخدمة الصالح أيوب بمصر ، له ديوان شعر ، وفاته سنة (٦٥٦) . انظر : (وفيات الأعيان : ١/ ١٩٤ والأعلام : ٣/ ٥٢) .

إلاَّ نُهير ، وله في المقطوعات نمط معجب ، ونَهج مرقص مطرب ، ومن قصائِده المطولة ، الموجبة للهيام والوله ، قوله :

دعني وشأني فما تجدي الملاماتُ ... وقد بدت لشقيق الخد لاماتُ
ولا تلم أن جرى دمعي المصون دماً ... وللحاظ بقلب الصَّب رشقاتُ
هيهات تنفع في ذي لوعةٍ دنفٍ ... يوماً صريحات عذلٍ أو كناياتُ
صبٌّ أسير هوىً أضحى بمهجتِهِ ... لكل سيفٍ من الأجفان مشقاتُ
رام استتاراً فخانته مدامعه ... وللدّموع على الأهوى علاماتُ
وكيف يكتم والآماق شاهدةٌ ... وللفؤاد جوىً تبديه زفراتُ
سقى الغمام بسفح الغور عهد هوىً ... أيَّامه الغُرّ أعياد منيراتُ
مضت لنا فيه لذَّات لفرقتها ... لا العيش عيش ولا الأوقات أوقاتُ
على رياضٍ كجنات النَّعيم زهت ... جادت عليها سحابات مَطِيراتُ
والشرب قد[1] قلّدوا في كل غانيةٍ ... سموط نظمٍ أجادتها استعاراتُ
والعيش يزهر والأيام مشرقَةٌ ... والدَّهر عيد وللأرواح راحاتُ
وللزهور ابتسامات تقابلها ... من الثّغور النَّضيدات ابتساماتُ
وللغصون استلام في تمايلها ... وللقدود على الألحان رقصاتُ
ما كان أسرع ما ولّت على عجلٍ ... كأن أعوامها في الدهر ساعاتُ
مضت فلا القلب عنها يبتغي بدلاً ... وليس تسليه ألحانٌ وقيناتُ
يا من لهجرانهم في القلب نار جوىً ... لا تنطفي وعلى الآماق عبراتُ
وأضلع نحلت تُطوى على كبدٍ ... حلت بها من تجافيكم جراحاتُ
متى يفوز بلقياكم أسير هوىً ... قَضَى وما قُضيت منكم لباناتُ
طوى بسيطات عتبٍ في الفؤاد لكم ... إلى اللقاء فلا تطوى البسيطاتُ

---

(١) ساقط من (ش) .

فـربَّما تسمـح الـدنيـا بقـربكم يـوماً فللدهـر دولاتٌ ودوراتُ
إن فاز منكم بما يرجوه عن كثبٍ نـال المـرام ووالتـه السعـاداتُ

وله :

قلت إذا أنكـر ودي جاحـداً ناسِّيا ما مرَّ من تلك العهود
هـذه لامُ عـذارٍ قـد بـدت في أسيل الخد أم لام الجحود[1]

ومثله قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي[2] رحمه الله تعالى :

وشـادنٌ زَوْرَتـه جَـنَّـةٌ وهجـره النّيران ذات الـوقـود
كم في الهوى يجحد وجدي به حتى بدا في الخد لام الجحود

وله :

يا غزالاً بسيـوف اللحظ من جفن عينيـه لقـلبي أو لَمَـا
أتـرى يحـظَى المـعنَّى مـرة منك في الدَّهـر بثغرٍ أو لَمَى
إن يـفـز مـنـكَ بمـا أمَّـلهُ وينـل حلو التَّـلاقي أوْ لَمَـا

وهو من قول مجيرالدين بن مكانس[3] رحمه الله تعالى في التورية[4] :

(١) لام الجحود : هي التي تأتي بعد كون منفيّ ، أي بعد « ما كان » أو « لم يكن » « لتوكيده » ، ولا تدخل إلاّ على الفعل المضارع فينصب بـ « أن » مضمرة وجوباً بعدها نحو « ما كان جيشنا ليهزم » .

(٢) من شعراء عصره المبرزين . سيأتي ذكره .

(٣) هو مجيرالدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن مكانس ، وزير شاعر ولد بمصر سنة (٧٤٥) وأصله من القبط ، وولّي نظارة الدولة ، ووزر بدمشق ، له ديوان شعر توفي سنة (٧٩٤) . (الدرر الكامنة ٢/٣٣٠) .

(٤) التورية عند أهل البديع : هو أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية ، ويريد المتكلم المعنى البعيد ويُورِّي عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك . انظر : (خزانة الأدب لابن حجة ٢٣٩) .

قـال خِـلّي لحبيبي صـل فَتىً فيك قد أضحى معنىً مغـرمَا
قـال هـل يـولم إن واصلتـه قلت إن فـاز بثغر أو لَمى[1]

ومنه قول شهاب الدين أحمد المعروف بقعود[2] ، أحد مَن ذكرهم العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[3] ، وفيه القول بالموجب[4] :

لي حبيبٌ من هجره زاد سكري وسلوّي هـواه أقبـح ذنـب
جاءنِي دَاعيـاً وقـال ائت إني أولِم اليوم قُلْت قلْب المحبّ[5]

وقال صاحب الترجمة رضي الله عَنه ، ومن خطه نقلتُ :

وجـدت في صحبة كتبي غِنىً عن حال من أن تصفه الود حال
صـامـتَـةٌ لـكـنهـا دائـمـاً تخـبر عن ماضٍ وآتٍ وحـال
وصِرْت في حضرة أنْسي بهـا أحمـد منها الجَبْرَ في الاعتزال

وهو من قول القاضي صلاح الدين الصَّفدي[6] رحمه الله تعالى[7] :

وجدت في عشرة صحبي أذىً لما لزمت البيتِ في الوقت زال

---

(١) البيتان في (ريحانة الألباء ٢/١٣٤) .
(٢) هو أحمد بن أبي بكر ، من الأدباء الشعراء ، توفي سنة (١٠٠٧) انظر : (خلاصة الأثر ١/١٥٩) .
(٣) انظر : (ريحانة الألباء ٢/١٣٣)
(٤) القول بالموجب : هو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام فيعمد المخاطب إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم . (خزانة الأدب ١١٩) .
(٥) البيتان في (الريحانة ٢/١٣٤ وخلاصة الأثر ١/١٦٠) .
(٦) هو الأديب الكبير صلاح الدين ، خليل بن أيبك الصفدي ، مولده سنة (٦٩٦) وبرع في علوم الأدب والتاريخ ، له مؤلفات كثيرة ووفاته سنة (٧٦٤) انظر (الدرر الكامنة ٢/٧٦) .
(٧) البيتان في : (فض الختام للصَّفدي ٢٤٧) ط الحناوي .

واعجباً من أَشْعَرِيّ[1] غَـدَا يحمد رأي النَّاس في الاعتزال

وقال رُباعيّة :

أفدي رشا كالبدر حسناً وسناً قد أحرم في هواه جفني وسنا
إن رمت لخـده التثامـا وجنـا أبدا حور اللحاظ سيفاً وجَنَـا

ومن نثره الذي هو نثار ، وفِقَره التي يُهَيَّج بها الغرام ويُثَار ، وسجعاته التي تُنزهّ قدم منشئها عن العثار ، منشور أجاب به مستناباً على أستاذه القاضي الإمام العلامة الحافظ ، الذي ما فاه بمثل كلامه المتكلم ولا لفظ اللاَّفظ ، وجيه الإسلام ، عبد الرحمن بن محمد الحيمي[2] فارس الأقلام ، وصورته :

قدوتنا وأستاذنا وسيدنا ، الذي ملأ صيته الآفاق والدُّنا ، شمس الدهر وبهجة العصر ، والذي قصر الفضل على شخصه الكرِيم بجميع أدوات القصر ، من لا ينكر فضله سوى الأرمد ، وجيه الإسلام ، وإمام الأعلام عبد الرحمن بن محمد ، ذو الفضل الذي رسخ على أثبت أساطين الوفا ، ورفع ركنه الشريف على أعلى مقام في الصفا ، والذات التي لو لم يكن للزَّمن فضل إلاَّ السخاء بمثلها لكان حسبه وكفى ، واحد الدَّهر الذي ما لشخصه ثاني ، ومنشىء بدائع المعاني الذي لا يعلم غيره من كتاب بيانها إلاَّ أماني ، بليغ أثمرت غصون أقلامه ناضر الزَّهَر[3] ، وناضر بهرت أضواء أفكاره في المشكلات فعاد السُّهى بها كالقمر :

مـالـك رايـة البيـان محـلٌّ غتق الدهر بالكلام الثمـين

رمت أن القلم يجري في ميْدان بيانه فعجَز ، وسمت القريحة أن تنظم يسيراً

---

(١) في طبعة فض الختام السابقة سفري خطا .
(٢) سيأتي في الكتاب .
(٣) في (ب) الزهرة .

مَدِحه فما استطاعت الكمال من كامِلٍ[1] ولا رَجَز[2] :

جَلّ عن مذهب المديح فقد كا د يكـون المديـح فيـه هجـاء

فثنيتُ عنان القلم مقهقراً عن مِنْبر هذه الخطابَة ، وعدتُ إلى بذل الدعاء الصالح عساه أن يوافق الإجابة ، فقلت : اللهم كما جمَّلت بجمال محاسنه العصر ، وكملّت بكمال محامده وجه هذا الدّهر ، وجعلته لنا أسعد فخرٍ تناهى به السعد والفخر ، أطل لنا وللمسلمين في أيام عمره ، وأدم أنسنا بكريم جنَابِه وشريف قدره ، وتَمّم لنا الاستفادة من دُرَر علومه الفاخرة ، والاستضاءة بأنوار معارفه التي قُصِر عليها شرفُ الدُّنيا والآخرة ، وزده في المقام الأرفع دَرَجاً ، وبوّئه في مقامات خواصِك موطناً لا تَرى فيه أمتاً ولا عوجا ، إنك القريب المجيب ، الملبِيّ تفضُّلاً للدَّاعي المنيب ، وبعد فإنها وردت معاهدته الشريفة على محبه الصَّب وأسير ودّه الذي لم يَسِرْ إلاَّ وهو متلفتٌ إلى عامر جنابه الكريم بالعين والقلب فأنّست وحشتي ، وأنزلتها أعزّ محل من عيني ومهجتي ، وحلت بلا عالم تكن قبل حلت ، وأذكت نيران شوقي ، وحَملتني[3] من أعباء الوجد المبرّح فوق طوقي :

مولاي رفقاً فما أبقيت لي جلداً فـإنني أيهـا الإنســان إنسـانُ

ولقد فارقت تلك الحضرة ، ورحلت عن ذلك المقام الذي عليه من بهجة المعارف نَضْرة ، وثمر الشوق إليها دان ، ولسان الحال والمقال ينشدان :

فـارقها لا عن رضىً وهجـرتها لا عن قِـلًى ورحلت لا متخيّراً

فاليوم لبُعده مثل السنّة ، والعام أيام قربه كالمختطف من السِّنَة :

فـالعام مثـل اليـوم في قـربـه واليـوم مثـل العـام في بُعـده

(١) من بحور الشعر معروف .

(٢) من بحور الشعر معروف .

(٣) في (ش) وحملني وحملتني .

والمرجوّ من الله أن يمنّ بالجمع المريحْ ، ويتفَضَّل بقرب العَوْد إلى ذلك المقام الذي ثبت فضله بالنَّص الصَّريح ، فإنه الذي يقرّب البعيد ويعيده ويرد الذاهب وهو أهون عليه أن يرد ثوب الجمع وهو جديد ، هذا ومملوك وُدِّه النائِب في هذه الخدمة ، والمتجاسر على إجابة مولاي وهو يعد هَذَا الإقْدام أعظم وَصْمة ، محمد بن إبراهيم يقبل ذلك الكَفّ والقدمَ ، ويبرز الدعاء الصّالح إلى الوجود فيخرجه عن العدم ، وقد سمع لنفسه الحقيرة ذكراً حسناً في ذلك الكتاب ، وتأمَّل ما نفث به في حَقِّه ذلك الخطاب ، فازداد شوقه المتدارك ، وبكى فرحاً حيث ذكر هنالك ، ولولا أني واثق من مولاي بأنه يستر ويصفح الصفح الجميل ، وأن أمواه علومه على عثرات مملوكه تسيّر وتسيل ، ما تجاسرت على الإجابة صلفاً ، ولا قابلت ذلك الدُّر المصون بشيء لا يساوي جزعاً ولا صَدَفاً ، فكتبت وقد اضطربت الأ نامل وَجَلاً ، واصفَّر وجه الطِّرس حياءً وخَجَلاً ، فأسبل من فضل سترك عليه ، وقابله بكرم برك المعهود لديه ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه ، ومنحنا من خط سيدي بالحظ الوافر من قربه ، والسلام .

السَّيِّدُ شهَابُ الدِّيْن أحمد بن الحَسن بن أحْمَد بن حَمِيْد الديْن [1]

الدُّرَّة العَصْمَاء ، التي لم نَرَ في محاسنها وَصْمَا ، بحرٌ عميق المغاص ، وبر رحب الأكناف والعِرَاص ، عالم لبس من العلم منَّة [2] ، ووصل جبل العرفان ولم يرتبه [3] لهج بالعلوم والآداب ، فعاد مَرْبعهما به في غاية الخَصْب بعد إجداب ، مع جمال محيًّا ، يشير إليه البدر مستلماً بكفّ الثريًّا ، تُعْرف فيه نضرة النَّعيم ، ويكاد يخرج بمرِّ النَّسيم ، وله يَدٌ في الفِراسَة ، أوضحت في ركوب المطهَّمة مِراسَه ، يَسْكرُ لها أبو الصّهبآء ، وتصير الفرسان معها له نَهْبا ، فإذا أمسك العنان ، وجذبه بأطراف البنان ، صرَّف مركوبه كيف شاء ، وإذا هو تحته كالمعربد إذا انتشى ، يسوقه سوق الرياح للسّحاب ، فيخاله النَّاظر طيراً جناحه الركاب ، يكاد أن لا يثور له نقع ، ولا يسمع لحافوره على الأرض وَقْع ، فكم اشتاقت للركوب لها الضّمر ، وفتحت أجفانها البيض وَهزَّت معاطفها السّمر :

كأنّهم في ظهور الخيل نبت رُبَى ... من شدة الحزم لا من شدة الحُزُم

وأما لطف شمائِله فقد أسقم النَّسيم ، وأما درّ كلامه فقد أبكى يتيم الدر حتى

---

(١) هو أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين بن مطهر بن شرف الدين ، من أفاضل الأدباء ، توسَّع في ترجمته صاحب مطلع البدور ، وبيّض لوفاته . انظر أيضاً : (نفحة الريحانة ٣٣١/٣ و البدر الطالع ٤٥/١) وفيه وفاته سنة (١٠٨٠) وفي كتابنا هذا سنة (١٠٧٤) .

(٢) كذا في (ب) و(ش) نسبه وفي (ذ) بتة .

(٣) في (ب) و(ش) يرشد .

قيل في المثل : أبكى من يتيم ، فرياض آدابه باقلة ، وفصاحته صيرت قُس الكلام باقلة، نظمه سيّد يستخدم الزّنجيين المداد والقلم ، ويستخدم الروميين القرطاس والدّر إذا انتظم ، وله في النّثر طريقة وسطى ، أنالته من حسن التعبير قسطا ، وقد ألَّف كتاب « ترويح المشوق في تلويح البروق » (١) ، ذكر فيه من أهل العصر من ذكر ، وأورد من أشعارهم ما يموت لحسده العليل من نسيم البُكر ، وأورد من نظم نفسه ، دراري تُضيء منها في ظلمات نفسه ، إلاَّ أنه لم يُحسنْ فيه طريقة التَّصنيف ، ولم يجد في ذلك العقد التَّنْضِيد والتَّرصيْف ، وقد طالعته مُتَأمِّلاً ، ولبستُ حُلل أوراقه متجمِّلاً ، ولما عاداه لفضله ذوو الإحن ، وتجرَّع ما تجرع من الغصص والمحن :

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سَعْيَه فـالكل أعـداءٌ له وخصـومُ (٢)

غَالَى بنفسه عرفانُه بقيمتها ، لما لم تهطل فوق حديقته غمائم الإنصاف بديمتها ، فلم يطب له بمنهل كوكبان الوُرود ، وقد اشتعل من الغيظ عليه بين ضلوع أغصانه جمرُ الوُرود ، ونظرته عيون نرجسه شزراً ، ولم يقطف من ثمار الآمال إلاَّ نزراً ، فقَوَّضَ منه خيامَه ، ونَبَّه من ليل غمومه نيامَه ، وخرج خروج السَّهم من الكنانة ، وانسلَّ كما انسلت من الصَّدف الجُمانة ، انقضَّ انقضاض البازي من القفص وشَمَّر تَشمير الحازم عند إمكان الفرص ، وسَرى إلى مدينة صنعاء كما سرى الطَّيف ، ونزل بها من الإكرام نزول الضَّيْف ، وحمد هنالك السُّرى ، وحَنَتْ عليه من قطر اليمن أم القُرى :

قلقـل ركـابـك في الفَـلا ودع الـغـواني لـلقـصـورِ
فـمـحـالـفـو أوطـانهم أمثـال سُكَّـان الـقـبـورِ

---

(١) من أشهر كتب المترجم له ، منه عدة مخطوطات منها مخطوط بقلم المؤلف دار الكتب المصرية (١٣٦ أدب) وأخرى بالمتحف البريطاني (OR ٤١٩) ونسخ أخرى .

(٢) من شعر لأبي الأسود الدؤلي .

لـولا التّنقـل مـا ارتقى　　درّ البحـور إلى النُّحـورِ

واستمر سكونه بصنعاء ، إلى أن عاد في حافاتها بعد غِناءِ المَسرّة بوفوده ينعى ، فمات وما مات إلَّا العلم والأدب ، وبكاه الطَّير على غصونه المائسة وندب ، لا زال محفوفاً بالولدان والحور ، ولا برحت حَصْباء جَدَثه قلائد أعناق ونحور ، وشعره كالشهب في الأفلاك ، ونظمه يغبط اللآلىء في الأسلاك ، فمن جوهره الفرد ، ونفحة حدائقه الجنيَّة الورد(١) قوله :

لا عـوض عنكمُ ولا بـدلُ　　فليعلم الحاسـدون والعـذلُ
يا ساكني السَّفح من رُبى إضم　　يا حبذا السفح والذي نـزلوا
وحقّكم ما سلوت مذ ظعنت　　بكم متـون الجيـاد والإبـلُ
وكم سَألت الأطلال من ولـهٍ　　يـا جيرتي هـل يجبني الطلل
يا طلل الحي هات لي خبراً　　ما صنع النازحون مـا فعلوا
حاشاك ياربع لا بليت وإن　　أبـليتـني بـادّكـار من رحـلوا
لا زال من أدمع الغمام على　　مربعك الرَّحب عارض هـطلُ
يـا غـائباً هـان بعـد فـرقته　　كـل عـظيم وحـادثٍ جللُ
لا وليـالٍ قـطعتهـا غُـرر　　قـارَنَها المـشـتري لا زحـلُ
وأنت كالشمْس في الدِّيار لنا　　تُشرق من نور وجهك الكِللُ
لم أنسَ يوم الفراق حين دنا　　التـوديعُ والخـدُّ زانـه الخجـلُ
واضطرب الخافقان قلبي والـ　　قـرط فذا حـائِـر وذا وجِـلُ
وحقّ من تسجد الجباه لـه　　حِلفة صبٍّ ما شانها خطلُ
مـا تَيَّم القلب بعـدكم بشرٌ　　هل يطعم الماء من به العللُ
والنَّفس لم تسلُ عن محبَّتكم　　لا عـوضُ عنكم ولا بـدلُ

(١) في (ش) الوردية وفي (ز) الفرد .

وله في الجناس التَّام[1] :

يـــا مـــن أطـــار فـــؤادي ... بـــســـجـــعـــه والـــفـــواصـــل
إن كـــان مـــا قـــلـــت حَـــقّـــاً ... مـــن حُـــبّ وصـــلي فـــواصـــل

وله مرثية لبعض الأكابر وقد مات في شهر شَوَّال :

ويـــح شـــوال لـــقـــد روعـــنـــا ... وشـــوى الأكـــبـــاد بـــالـنّـيـران شي
لامـــه لام حـــروبٍ فـــتـــكـــت ... فهي في نحو المراثي لام كي

قلت : هذا نظم حسن سيّما مع قوله « وشوى الأكباد » لأن شوالاً إذا حذفت لامه بقي شوا ، ولامه لام كي ، والكي يناسب الشي بجامع الإحراق . ومع قوله أيضاً في « نحو المراثي » لأنَّ لام كي تناسب النَّحو فإنها ذكرت في علم النَّحو مع ذكر أنواع ومعان أخر جاءت للّلام نَصَّ عليها النحاة . إلَّا أنه لا معنى لقوله لا حروب وقد أثبت أنها لام كي ، وهو الأنسب بها ، وكان الأولى به أيضاً أن يذكر بأن شوَّالاً بعد حذف لامه يصير شوا سيّما وقد قال وشوى الأكباد فلَيْته قال في البيت الآخر :

فـــهـــو شـــوَّاءٌ وهـــذي لامـــه ... هي في نحو المراثي لام كي

وقد ذكرتُ هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردي[2] رحمه الله تعالى :

قال من أهواه صف صُدغي بما ... فـــيـــه تـــوجيـــه وحـــبـــه إليّ
قلت إن الصدغ لام قد كوى ... نصبُها قلبي فهذي لام كي

(١) الجناس التام : هو ما تماثل ركناه واتفقا لفظاً واختلفا معنى من غير تفاوت في تصحيح تركيبها واختلاف حركتها ، سواء كانا من اسمين أو من فعلين أو من اسم وفعل . انظر : (خزانة الأدب ٣٠) .

(٢) هو : زين الدين عمر بن مظفر بن محمد بن الوردي المعري ، فقيه وشاعر ومؤرخ ، ولد سنة (٦٩١) وولي القضاء بمنبج ، له مؤلفات ، توفي سنة (٧٤٩) . (فوات الوفيات ٢/١١٦ ، والأعلام ٥/٦٧) .

وقال آخر :

لام العذار مذ بدَت كوت فؤادي أيّ كي
حذار يا أهل الهوى اللّام هذي لام كي

والأصل في هذا قول محمد بن العفيف[1] رحمه الله تعالى[2] :

ومستترٍ من سنا وجهه بشمسٍ لها ذلك الصدغ فيّ
كوى القلب منيّ بلام العذا ر فعرَّفني أنها لام كي

وقال ابن الفارض[3] :

نصباً أكسبني الوجد كما تكسب الأفعال نَصباً لام كي

---

(١) هو محمد بن سليمان بن علي عفيف الدين التلمساني مولده سنة (٦٦١) برع في الشعر ، وله ديوان مطبوع توفي سنة (٦٦٨) . انظر : (فوات الوفيات ٢/٢١١ والأعلام ٦/١٥٠) .

(٢) ديوانه (٢٤٤) ط شاكر هادي .

(٣) من قصيدته الشهيرة :

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعماً عرِّج على كثبان طي

أخُوْه السَّيّد مُحَمَد بن الحَسَن بن أحْمَد بن حَمِيْدِ الديْن (١)

ذو فخر ومجد ، سَرَى صيته ببطن تهامة وظهر نجد ، فهو المهذب الطريف ، الجامع بين التليد الطَّريف ، كم له في الفضل من حديث ونبا ، وصارم عزم ما كلَّ حده ونبا ، في عيش نعم لمساً وطابَ شما ، وأقعده من الرّفاهية رتبة شَمًّا ، أبهى من الخِضَاب ، وأبهج من النبت في الهضاب ، أخصب مرتعه ، ورحَب في أكناف النّعمةَ مربَعه ، وهو لوالدي من الخُلَّان ، فعطفُ الدهر له بصحبته ق.. لان ، فكم نادمه ولا كمنادمة الحبيب ، في رياضٍ كساها المُزْن بُرده القشيب ، وله طبعٌ ومزاج ، أَنَمَّ على لطف شمائله من الزُّجاج ، فهو على الناس أنفر من الغزال ، لا يبرح متخليّاً لطارق الأوهام ولا يَزَال ، قد أعارهُ الحليُّ وساوسه ، وخلع عليه الانقباض ملابسه ، لمّا ملكته السَّودا (٢) ، وسلكت به طريقاً لا يَرَى له منها عودا (٣) ، وقد أصاب بتخلّيه ، وطلوع بدره في فلك الوحشة وتجلّيه ، فالأسد لا يخالط الثعالب ، ومُنَزَّهُ العرض لا يجالس ذوي المثالب ، وشعره يُعَدّ في العَدَم ، فما بنى أبيات القَريض بل هدم ، فلم يَثبت له من النَّظم في ديوان ، غير قوله (٤) وفيه على فضله أي عنوان :

---

(١) من الأدباء ترجمته في (نفحة الريحانة : ٣/٣٥٣) .

(٢) في (ش) السواد .

(٣) في (ش) عواد .

(٤) قلت : في نفحة الريحانة قصيدة دالية أوردها له أولها :

حث المطي إلى الأوطان يـا حادي   أما ترى السّعد قد ناداك بالنّـادي

يا نازحين عن اللّوى والأجرع   أوحشتم لمـَّـا رحلتم مــربعـي
فلكم تركتم بين كثبان اللّوَى   صَبّاً غريقـاً في بحار الأدمـع
لا يستفيق من الغَـرام فدأبُـه   أن لا يصيخ إلى الملام بمسمع
هيهات أن يصغي لعذل عواذلٍ   ومن البلية عذل صبٍّ لا يعي
قف يا عذول عن النَّصيحة واتَّئد   ما قلبُ سالٍ في الهوى كالموجع
لو ذقت ما قد ذقت من ألم الهوى   لرجعت عن عذلي بأحسن مرجع
ما أنت يا خالي الفؤاد بذائدٍ   قلبـا ملامـك فيـه لمَّا ينجـع
كم قلت للطَّلل القديم برامةٍ   حييتَ من طللٍ بتلك الأربُع
والوُرق في الأغصان قد ناديتها   بالله يا وُرق الحمى نُوحي معي

صَاحِبُنَا السَّيِّد أحمَد بن عبد الرحيم بن يحيَى(١)

روحُ اللُّطف إن كان له روح ، حديث مَجْده غير مستوفى ولا مشروح ، كان في طليعة شبابه يسبح من الثراء في عُبَابِه ، يركب الخيول المطَهَّمة ، ويلبس الثِّياب المسَهَّمة ، معدوداً في الدول ، مَحفوفاً بالأرقَّاء والخول ، مقتفياً بذلك طريقة آبائه الأول ، ثم مال بعد ذلك إلى خموله ، وتناول من التَّخلي كأس شموله ، واشتغل بالعلوم ، وداوى بالأدب منه الكلوم ، فأضحى في كل فَنٍّ ذا عِرفان مقرر ، وغوصٍ للخفيَّات ونظر ثاقب محّرر ، وأمَّا في المعاني فله مزيّةٌ نالها بتشمير همته ، ورتبة مرفوعة تركت السّعد يجري له في خدمته ، وكان كثير الخروج إلى الصَّحرا ، يقطع في الهواجر من السراب بحرا ، لا يدع الحركة أبدا ، ولا يجد من التعب كبَدا ، مع نفور عن النَّاس ، كما ينفر غزال الكناس ، وهو لي من أجلاَّء الجلسا ، لا يفارقني نهاراً ولا غَلَسَا :

سيـدي صاحبي أنيسي جليسي طوق جيدي معاشري تاج راسي

كنت أستنشق كمامه ، وأستمطر من الإفادَة غمامه ، وروضه إذ ذاك قد اطلع من شيبة ثغامه ، فله دُرر كلمات ، منتظمة في سمط ماله من السّمات ، تتعَلَّم منها الغيد ترصيف عقودها في الجيد ، فمجلس محاضرته ، ونفثات محاورته ، ألذ من مقام الخلاعة ، وقد حسر الوقور عن وجه رجاحته قِناعه ، ومالت سمات الأوتار بغصون(٢) القدود ، وأرتك الصَّهباء صنعها وتأثيرها في الخدود ، إذ مالت القناني

(١) لم أجد ترجمته وهو ممّن انفرد بهم المؤلف .

(٢) في (ش) ما بغصون .

عن نسمات الأغاني ، وجيء بكافور الختام المعقود ، وقد رُعِفت أنوف الأباريق بدم العنقود ، مع عذوبة في حديث لسانه ، أندى على الأكباد من ندى بنانه أشهى من خطاب الخَوْد ، قبل ابيضاض الفود ، وكانت بلسانه عقدة أحلى من العسل المعقود ، لها في أعضاء السَّامع نشوة ولا كنشوة ابنة العنقود ، تفعل ما لا يفعله السِّحر إذا عُقد ، فكم من عقلٍ عندها مع وَفرته قد فُقِد ، دعى الله من عهده سالفاً ، وأنس بعد فراقه من كان له آلفا ، وله شعرٌ من خير المنظوم ، وبنات فكرٍ ذات حشاء مهضوم ، من ذلك قوله من قصيدة كتبها إلي ، وأدار معتقها عليَّ :

برقٌ سَرى شقّ جيب السحّب يلتهبُ ... كأنه القلب بالأشواق يضطربُ
أهاج لي وجد قلبٍ كنت أكتمه ... فالدمع في الخد مثل الغيث ينسكبُ
آهٍ لي الله مالي لم أزل أبداً ... يهزني مثل غُصن البانة الطّربُ
شوقي إلى جيرةٍ من دون وصلهمُ ... بيض حداد وسمرٌ لدنه قُضُبُ

منها في المديح :

أعني الشهاب الذي طالت محامده ... حتى تقاعد عنها السّبعة الشهبُ
من حاز في المهد ما أعيا الأولى سلفوا ... حتَّى وهى العزم منهم أو وهى الطلب
قد باء بالعلم في جهلٍ وفي صغر ... علمٌ لعمـر أبيه زانه الأدبُ
فالله يحرسـه من شرّ حاسـده ... يكفيه في الدَّهر ما تأتي به النوبُ

وكتبت أنا إليه أستدعي منه مجموع الشّيخ شمس الدّين محمد بن الحسن بن علي النَّواجي المصري (١) رحمه الله تعالى المسمَّى بتأهيل الغريب (٢) وقد أعرته إياه

---

(١) هو من أدباء البديع عرف بالنظم الماجن ولد سنة (٧٨٨) ومن مؤلفاته « حلبة الكميت » في الخمر والندماء ، و« مراتع الغزلان في الحسان من الغلمان » و« خلع العذار » وفاته سنة (٨٥٩) . (الضوء اللامع : ٢٢٩/٧ والأعلام : ٨٨/٦) .

(٢) قال العلامة خير الدين الزركلي : رأيتُ نسخة منه بمكتبة الليثي بمركز الصف بمصر كتبت سنة (٨٩٢) .

فمكث لديه كثيراً :

أيا شمس الهُدى لقيت خيراً ... تفضل لي بمجموع النواجي
فإني ما بَرحتُ حليف حُزنٍ ... ووجدٍ منه قال له النَّوى جي

فأجابني بقوله :

نظامُك قد حكى خمر الزجاجِ ... وأطفأ نوره نور السِّراجِ
وأطلع لي الزَّواهر في مدادٍ ... فما هي غير زهرٍ في دياجي
أتتني غادةٌ منه سبتني ... بطرفٍ فاتر الحركات سَاجي
فهاك كتاب آدابٍ بديع ... وما هو غير مجموع النَّواجي
ودمت تكاتب الأحباب طُرّاً ... بمنضود العقود من الأحاجي

ولما وقف على كتابنا المسمى : « عطر نَسيم الصبا »[١] أعجب به فكأنما رجعت له به أوقات الصِّبَا ، وكتب مُقَرظاً له من النَّظم والنثر قوله :

شذا المسك لما فاح دل على المسك ... وفضل ذوي العليا مُشْتَهرٌ محكي
لقد ضاع عطر للنَّسيم التي سرت ... فهام بها لُبّي[٢] وضاع بها نسكي
لك الله يا نجل الأكارم ما الذي ... أتيت به في غاية الصوغ والسَّبكِ
أملت بما حَرَّرت منا معاطفاً ... وخضت ببحرٍ للآلىء على فلكِ
وأبديت من تلك الفصول جواهراً ... فما هي إلا الدر لاح بلا شكٍّ
وهان بك الماضون كابن نباتة ... وكالناظم الحلي والفاضل السبكي
ودامت معاليك العلية ما غدت ... تآليفك الغراء تنظم في السلكِ

---

(١) من أشهر كتب المؤلف وأحسنها ، بناه على أسلوب كتاب : « نسيم الصبا » للحسن بن عمر بن حبيب ، وهذا كتاب طبع بصنعاء سنة (١٣٦١) بعناية العلامة الأديب الشهيد أحمد بن محمد المطاع المتوفي سنة (١٣٦٩ هـ) .

(٢) في (ش) التي .

استنشقت عطر نسيم الصّبا ، وقطفت من أثناء خمائله زهور الرُّبى ، وطالعتُ فصوله ، وعرفت فروعه وأصوله، فتمايل عطفي من الطرب ، وقُضي به لي من الزَّمن الأرب، وفهمت مغزاه ومقصده، ودخلت أبواب جنتَّه التي هي على الأعداء موصدة ، ونظرتُ إلى مؤلِّفه ، وناظم درّه ومرصّفه وإذا هو في إقبال زمانه ، [وفي مبتدا حينه وأوانه ، قد جاء بما لم يأت به ذوو المشيب][1] ، ونشر ما يروق نشراً ويطيب ، من فِقَر كأنها المُدَامة ، واستشهاداتٍ من النَّظم كسجع الحمامة ،فعلمت أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشا ، وأن العلم والأدب نورُ مودع في القلوب والحشى ، فمن اصطفاه الله لهما ظهرا عليه ، وقصدا بلا نَصب ولا تعب إليه . فالله يحرس القاضي شهاب الدِّين ويديمه ، ويجعله روضاً يتَنزّه فيه جليسه ونديمه ، ويبقيه لهذا العصر جمالاً ، ويزيده فَضْلاً ومجداً وكمالاً ، ويُحيي به مالم يمت من فضائل آبائه ، ويكبت به الحسّاد ويشرح بما أولاه صدور أحبابه ، وينشر في الخافقين ما عظم من أخباره وأنبائه ، إنه الولي الحميم ، الواهب الكريم ، وصلى الله وسلم على محمد النبي المعظّم ، وعلى آله وصحبه ذوي العقد من المجد المنظَّم ، آمين .

---

(١) ساقط من (ز)

فَصْلٌ

لما زَفَّ الرَّبيع عروس أزهاره ، وتلقَّاه الرَّوض بالشَّراب المعتّق من أنهاره ، سألني أن أصف متلوّنَ زهوره ، وأذكر ما تدفَق من نهوره ، فامتثلت أمره ، وأدرت عليه من الكلام خمره ، ووضعت في الربيع فَصْلاً ، طال في الأدب فرعَاً وطاب أصلاً ، فإذا هو فصل الرَّبيع حقيقة ، قد سقاه الفكر بعين غديقة ، يشتمل على منثور ، ومنظوم يهيج به الغرام ويثور ، يأتي نحو كراسين لم أظفر منهما الآن بأثرٍ ولا عين ، وذلك في وصف روضٍ سقي ما ، وتَخطّر نسيمه البارد سقِيما ، حُلَله بيد المزن تنسج ، وهواه كهواءِ الجنة سَجْسَج[1] ، قد أنجز الغيث له الوعد ، ودَرَست عليه لسان البرق من أوراق السحائب سورة الرَّعد ، ونشرت[2] ملاءات النبات في الأندية ، فتلفَّعت بها أردَاف الهضاب وخصور الأودية ، إذ تدفقت الأنهار ، وتَنوعَت الأزهار ، من نرجسٍ غضّ ، وورد عليه دمع الغمامة يَرفضّ ، وشقيق ثقيب ، وَنَمَّام هو على الزُّهور عتيد رقيب ، والغصن كالقد المائل ، له من سندس الأوراق غلائل ، وأزرق البنَفْسج أسنة لامعة ، كأنما بها شقائق النَّعمان جراحات بالنَّجيع هامعة ، وكافور الطَلِّ الرفيق ، في حِقَاق المرجان من الشَّقيق ، وخَدُّ الورد مضرّج ، ومَلْبوس الأوراق بطرز الزُّهور

---

(١) هواء سَجْسَج : معتدل طيّب .

(٢) في (ز) نشرة .

مُعَرّج ، وعِطْف الغُصن من خمرة القطر مزرّج[1] ، والرُّمان كنهد كاعب ، والنَّارنج كأنه كرة لاعب ، فطرب ذلك السَّيد لما طرق سَمْعَه ، واهتزّ عطفُه ، إذ جئت في وصف الرَّبيع بلمْعة ، وصفا وقته وطاب ، وقال مخاطباً لي ولست بأهل منه للخطاب :

ليت الربيع بما قد قلت فيه درى ... حتى يحيّيك بالزهر الذي ابتسما
زَهرٌ من القطر قد دارت سلافته ... من فوقها حَبَب كالدّر إذ نظما
وينثر الطل إكراماً لذي أدبٍ ... بأنفَسِ الدّر من ألفاظِه كَرُمَا
لو أجلستك على أحداق نَرْجسهَا ... رياضة عند ذي الإنصاف ما وَلما[2]
فلا برحت شهاب الدين في أفقٍ ... من العُلَا ما هما غيث الرّبيع بما
لا زلت من روضَة الإقبال متكئاً ... عـلى نمارق أزهـارٍ ومنتعـمَا

واجتمعت أنا وإيّاه ، في فلك مجلس شمسه المنيرة محيَّاه ، ولدَيْنا خليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي بلَّ ضريحه الندى،وسقاه وابل يُزيل صداه ومن العجب أن يزيل الماء من الصارم الصدا ، في يومٍ صفت مشاربه ، وقُضِيَت لدى الأرب مآربه ، وقد رَقّ الجوّ فحكى الزّجاج ، وركضت خيول المسرة فثار من السحب العجاج ، والأربُ طلق المحيَّا ، والنسيم قد خطر فحيا ، ومنازل الاجتماع مقرَّطة بالثريا ، وأذيال الخافقين قد فعمت الأنوف ريًّا ، فدارت بيننا كؤوس آداب ، ، وهمل على روض مقامنا غيث مذاكرةٍ ألذَّ من القطر بعد إجداب ، وكل أحدٍ منَّا أدّى من ودائع الآدب الأمانة ، ونكت جواهره من

---

(١) المزرج : النشوان ، وهو مأخوذ من الزَّرجون . قال الرّاجز :
هـل تعرف الـدَّار لأم الخـزرج ... منهـا فـظلت اليـوم كـالمـزرج
(٢) اكتفاء من قوله : « أي ما أنصفتك ولما وفت لك لذلك » .

الهمْيان[1] فما غادر جمانة ، وأتى بالجد والمجون وسلك في أوديةٍ كلها شجون ، حتى انتهى الكلام ومضَى القول بسلام إلى ذكر الرماة وما قيل فيهم من الأشعار ، فأملى السَّيد في مليح رامي قول بعض الأدباء الذين ليس بهم عار :

وأهيف القد ذي دلالٍ طائر قلبي عليه واجب
كالشَّمس في كفّه هلالٌ يرمي إلى البدر بالكواكب

فقال الشيخ : ما سمعت أرشق من قول ابن قرناص[2] في مليح رامي مورّياً :

أتى إليّ مائساً والرّدف قد أقلقه
يرشق ثم ينثني لله ما أرشقَه

فقلت أنا لهما : قد نظمت في صَيَّاد يرمي بالقوس فيحسن الرّماية وأنشدتهما قولي :

ولم أنس صَيَّاداً يصيب لقوسِه رنين عجيب عند إرسال نبله
كأني بها للصَّيْد أنّت توجعاً وقد قطعت قبل الوقوع بقَتله

فاهتزَّ السَّيد وارتاح ، وتمايل الشيخ والتاح، وقالا : هذا مَعْنىً عجيبٌ مبتكر ، يدُور كأسه بما ينشط من السَّكر ، فقلت لهما : وكذا مولانا الوالد عجب لهذا المعنى الذي هو على صفحات الدَّهر خالد ، رحم الله تعالى الثَّلاثة فإنهم سابقون ، ودَلَّنا إلى سبيل الهداية فنحن بهم لاحقون .

---

(١) الهميان : شداد السراويل أو تكته ، وما يجعل فيه الدراهم ويشد على الحقو . قيل : هو معرّب هميان بالفارسية .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن قرناص الخزاعي الحموي ، شاعر أديب ، له ديوان شعر توفي سنة (٦٧١) (النجوم الزاهرة ٢٣٨/٧ والأعلام ٦٣/٥) وانظر : (الأدب في بلاد الشام) للدكتور عمر موسى الباشا ص (٦١١) .

المَوْلى الأمِيْر عَبْدُ القَادِرُ بن النَّاصِرِ بن عبد الرَّبِّ(1)

ملكٌ بل مَلك ، يجود ويسمح بما مَلك ، وشمس رياسةٍ لها من المجد فلك ، وبدر إمارةٍ تقول له البدور أمَّا الكمال فلك ، طلع من مثار النَّقع في غياهب ، وحُفّ بهالة العَطايا والمواهب ، سليل ملوكٍ طوّقوا الأعناق قلائد نِعَم ، فما سمع سائل منهم لا كما سمع لفظ نعم ، طلعوا في سماء التَّواريخ أنجماً تدور ، وسفروا تحت ليل مِدادِها كَوامِل بدُور ، فهم جمال الكتُبِ والسِّيَر ، لم تمح ذكرهم الثَّابت أيدي الغير ، وهذا الملك ، درٌ في عقدهم سُلِك ، فهو جواد طَلْق اليَدين ، منقاد إلى التنويل كأنه عليه دين ، بحرٌ عُبَاب، جَزْرُه للأعداء ومَدُّه للأحبابِ، سَهمُه في المنائِح غير منيح(2) ، وأياديه تنظم له على جيد معاليه أبهى سَنِيح(3) تزْهر بنداه الهضْب ، ويقطع بحدّ عزمه العَضب ، إن قعد على سريره ، نعق غُراب قَلَمِه بصريره ، فهو لتفريق الخزائن غراب بين ، يفني عين الذهب فالشمس تَودّ أن لا يقال لها عين ، فَغَم مسكُ مداده بالطِّيب ، فرعُفَت مناخر الدُّوِيّ بدم التَّتريب ، وإن برز في المواكب ، فبدر حوله من رهطه كواكب ، مع فِراسةٍ في

---

(1) هو عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب بن علي شمس الدين بن الإمام يحيى شرف الدين ، مولده بكوكبان ، وبها نشأ ، وقرأ القرآن ، وأخذ عن أكابر عصره ، وتولّى إمارة كوكبان . توفي سنة (١٠٩٧) .

(نفحة الريحانة ٣٠١/٣ وخلاصة الأثر ٤٦٩/٢ وملحق البدر الطالع ١٢٤) .

(2) المنيح : قدح بلا نصيب ، وقدح يستعار تيمّناً بفوزه ، أو قدح له سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلاّ أن يمنح صاحبه شيئاً .

(3) السنيح : الدّر أو خيطه قبل أن ينظم فيه والحلي .

لطافة ، وخفَّة تبرز من حصانِهِ[1] في كَثَافَة ، فإذا هو نسيم يحرِّك من جواده الجبل ، ويطرده فإذا مواقع حافوره في خدّ الميدان مواقع القُبَل :

لو مرَّ يركض في سطور كتابةٍ أحصى بحافِر مُهره ميماتهَا

مع نسكٍ وبرارة[2] ، وشهامة تشحذ غِرَارَه[3] ، فهو ميمون النَّقيبَة ، ذو جبِلَّةٍ سامِية نجيبةَ ، له في اللَّيل قيام ، وسائر الملوك على مهاد الغفول نيام ، يكتحل بإثمد السهر ، وتهزّه للذكر نُسيم السَّحر ، فطالما صفن في محرابه ، ولازم ما هو أحرى به ، مع ركوع وسجود ، وطرف لا يعرف الهجود ، وله في العلم مذاكرة وإلى حلقاته مباكرة ، لا يشتغل بما هو فيه عن الدّرس ، فلِحُليّ ملكه وإمارته وسواس وجرس ، ولغصون أقلامه في جنبات حدائِق الإفادة نماءٌ وغرس ، وله في الطب والحكمَة ، مايبرىء به داء الأكْمه[4] ، حتى يعود أبصر من زرقاء اليمامة[5] ، وأهدى إلى أغصان الرّياض من الحمامة، عرفتُه وهو أشيب ، وكافور شعره من المسك أطيب،ولم يفُضّ الكبر فاه، ولا تغيّر في نطق إذا فاه،فما سقطت له ثنيّة ، ولا هوت له ثمرةٌ جنيَّة ، حتى زاره الحِمام ونزلت به المنية ، فمات وهو وافر القوة ، وألْقي من جدثه في هُوَّة ، بل في روضة من رياض جنة المأوى ، ثمرها يانع وحميمها[6] أحوى ، ولما مات تزلزل الكون ، وذوى من نبات النّعمة

---

(١) في (ز) حطانه .

(٢) في (ش) برادة .

(٣) في (ش) غرازه .

(٤) الأكمة : الإنسان يولد أعمى .

(٥) هي امرأة من بني جديس من أهل اليمامة يُضرب بها المثل في حدّة النظر وجودة البصر ، ويقال لها أيضاً زرقاء جو ، وهو اسم لليمامة قال المتنبي :

وأبصر من زرقاء جوّ لأنني إذا نظرت عيناي شاءهما علمي

انظر : (خزانة الأدب للبغدادي ٣٩٩/٤ والأعلام ٤٤/٣) .

(٦) الحميم : الماء البارد والحار من الأضداد .

الجون[1] ، كاد جبل كوكبان أن يخرَّ على رأسِه ، لَمَّا عقدت المأتم في مجالس مسراته وأعراسه ، ويُشَقّق جيوبه من الغَمامة ، ويُلقي ما لاثت على هامته من العمامة ، ويبدّد من الزَّهر المنيرة عقوده ، ويلطم من ورد رياضِه الجَنيّ خدوده ، سقى الله مَلْحدَه ، وتعاهد بمثجّ القطر مشهده ، ما ضحكت البوارق ، فبكت الغمامة بدمع المُفارِق ، وله من شعر الملوك ،ما يفضّل على ذهب المسلوك ،فمن نظمه السّمط الغالي ، في النَّسب العالي ، حذا فيه حذو العلامة النَّهازي[2] الذي لا يوازن الدُرّ نظمه ولايوازي ، ونظم أيضاً في الفقه ترتيب أبواب النكت[3] ، التي ألّفها القاضي جعفر بن أحمد[4] فنثر كنانة إفادته وَنكَت ، ومن شعره الذي أعرب عن فضله وأبان قوله يستدعي بعض خواصه إلى الرياض من شبام[5] كوكبان :

مولاي قد أصبحت شبَام ... يضحك في روضها الكمام
الطَّير في دوحها خطيبٌ ... أغصانُها ركّعٌ قِيامُ
تطلبُ منْك الوصول فامنن ... بزَوْرة الروضِ والسلامُ

---

(١) الجون : النبات يضرب إلى السواد من خضرته .

(٢) هو العلامة صالح بن الصديق النهازي الخزرجي نشأ في ناحية صبيا ورحل إلى مدينة زبيد ، من مؤلفاته « الأنهار المتدفقة » وغيره توفي سنة (٩٧٥) انظر : (البدر الطالع ١/٢٨٤ وكتابنا مصادر الفكر ٥٧) .

(٣) هو المعروف بنكت العبادات وحمل الزيادات ، في الفقه على المذهب الزيدي ، طبع أخيراً .

(٤) هو العلامة الكبير جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولي الأنباوى ، من علماء الزيدية الكبار ، رحل إلى العراق للأخذ وطلب العلم وتبحر فيه ، له مؤلفات كثيرة ووفاته نحو سنة (٥٧٣) انظر : « مطلع البدور خ » .

(٥) شبام كوكبان : وقد يقال لها شبام حمير ، عرفت قديماً باسم يحبس ، وتارة باسم شبام أقيان ، وهي مدينة أثرية على سفح جبل كوكبان غربي صنعاء بمسافة (٣٤ ك .م) . انظر : (معجم البلدان ٣٤٢) .

وله من بعض الأراجيز التي يمدح بها أيضاً شبام كوكبان ويصف رياضها أغزر الله حياضها :

أغصانها تميس كالقدود وزهرها يزهر كالخدودِ
ترى الأقاح في الرياض باسِما والغصن في تحريكه مُسَالِمَا
النَّهر في حافاتها ينحدرُ والطّلّ في أوراقها ينتثرُ
للطَّير في أغصانها هديلُ من كل طيرٍ[1] لونه جميلُ
تظلّ إن أصبحت فيها فَرِحَا تختال كالنَّشوان فيها مَرحا
ساحاتها قد أُلْبِست قطيفة خضراء من خالقها شريفة
قد لبست من الأصيل عسجدا والغيم يكسو روضها زمرّدا
للزَّهر في منظرها ألوانُ من أبيضٍ وأحمرٍ أفنانُ

وله :

لست أسلو عن جيرة بالمُصلَّى وظِبا حاجرٍ وقد بُتُّ أصْلا
والذي قد سَبا فؤادي خشفٌ هو حِلْوٌ من غير أن يتحلَّى
قسماً بالصَّفا والركن إنّيْ كلَّما أعْرضْتُ عنه قلبي قال : لا
من مجيري من بابلي لحاظ لدم الخلق يا رفاق استحلّا

(١) في (ب) طين .

ولدهُ المولى الأميرُ الحسنُ بن عَبْدِ القَادِر بن النَّاصر[1]

أقسم بالله قسم من برّ ، أنه لأفضل من اهتزَّ لذكره عودُ منْبر ، حلية الزمان فما الذَّهب وما الجُمان ، شمس مالها دلوك ، وملك لا يشابهه أحد من الملوك ، لو نظره عبد الله بن المعتز[2] ، لخلع إجْلالاً له من الأدب حُلل الخَز ، ولحطم أغصان أقلامه التي هي بنسمات البلاغة تَهتز ، بليغ أما غيره فذنب وأما هو فراس ، ذو نجدة وفصاحة أقرّ له فيهما أبو فراس[3] ، طريق مجده أكْثم[4] ، وفرس عزمه أرتم ، قرطاسه معْقل غادات الأدب الحسان ، وروض بلاغته غدا بنهره وأوراقه ، رب السيف والطيلسان ، بدر مجد له الفلك وطن ، وهمام كلمات نفثاته أبلغ ما اختلج في آذان الدَّهر وطَن ، يساقط في الأسماع ، ما يذوب عنده الجلمد ويَنْماع ، من لفظ كأنه الدّر ، إذا سمعه لبيب انتشى وسُرَ ، أبهج من لؤلؤ الندى وأنْضر ، وقد نثرته أكف السَّحاب على بساط الرَّوض الأخضر ، له ذكاء أقطع من سيف القِراب ، وهمة في الطَّلب هو معها إلى حلقات العلم أبكر من غراب[5] ،

---

(١) هو الأديب الكبير نابغة كوكبان مولده سنة (١٠٦١) وأخذ عن علماء عصره ، وكان من الرؤساء . سكن حدَّة وتوفي سنة (١١١٢) انظر : (نسمة السحر والبدر الطالع ١/٢٢١ ونفحة الريحانة ٣/٣٠٣ وحديقة الأفراح ٩ ونشر العرف ١/٥٦٢) .

(٢) شاعر وخليفة عباسي توفي سنة (٢٩٦) .

(٣) هو الشاعر المشهور : الحارث بن سعيد ، أبو فراس الحمداني المتوفى سنة (٣٥٧) .

(٤) الأكثم : الطريف الواسع الضخم .

(٥) من الأمثال الشائعة انظر (مجمع الأمثال ١٠٤ والمستقصى ١/٢٨) وفي التمثيل والمحاضرة ٣٦٤ : خذ من الغراب بكوره وكتمانه للسفاد .

وأخلاق ألذ من زورة الطَّيف ، وأرْوح من نهار الشِّتاء وليل الصَّيف ، وهو لوالدي تلميذ ، قد سقاه من كؤوس إفادته ما يُنْبَذ عنده النَّبيذ ، وليَ بعد أبيه مَنْصبَه ، فأصبحت به سفوح العدل والرفق مُخْصَبة ، فهو للإمارة في حياة والدِه المعْقب[1] ، يرقب منها ماهو حقيقٌ بأن يُرْقَب ، حتى نالها بسلام ، وخضع له الكهل والغلام ، ثُمَّ عاداه لفضله الدَّهر ، وجنى عليه فجنى من حدائِقه الزَّهر ، أبرق عليه وأرعد ، وتهدَّده بالخطوب وأوعد ، فأمطره رعدهُ من المحن وَبْلَا ، وسدد إليه من سهام قطره نَبْلا ، فأصبح يقلِّبُ كَفيه ، وَيُمزق شفَّيْه[2] ، في تفكّرٍ وتفكُّنْ[3] وفوات بعد تمكُّن ، فحبس وسُجِن ، وشرب ماءً قد أجِن ، وإذا هو في القيد يرسفُ ، وبدره في منازل الاكتئاب مُكْسِف ، فهو جواد مشكول[4] ، لا يُدْرِكه في الحلبَة فسكول[5] :

إن قَيّـدوه وبالغـوا في عَصْرِه ... فـالكـرم يعصر والجـواد يُقَيَّـدُ

التَوى الأدهم بسَاقَيْه فما هان ، لأنه طال ما ركبه في الجياد يوم الرّهان ، يُقبِّلُ قَيْده قدمه ، ويوالي عليه الفَضْلُ أسَفَه وندمَه ، وقد زاده الله تعالى بالصَّبر مَدَدًا ، لما لبث في السجن مثل ما لبث يوسف الصديق عددًا ، لاقى من أيامه ما لاقاه الحسين بكربلا ، ولم يَحْظ منها بمسرة[6] نَعَم وإنما غُصَّ منها بكربِ لا ، بهذا تحقَّق أن الكمال عليه مقصور ، وأن نوع الفضائل فيه لا في غيره محصور ، فمهلاً أيها الزَّمان لقد جُرْتَ ، ولمثل هذه الغوائل طالما دُرتَ :

---

(١) المعقب : هو الولد الذي ترشح للخلافة بعد والده .
(٢) مثنى شف وهو الستر الدقيق .
(٣) تفكّن الرجل : تعجب وتفكر وتندّم وتأسف وتلهف على ما فاته بعدما ظفر .
(٤) جواد مشكول : الشكال في الخيل أن تكون ثلاث قوائم محجلة والواحدة مطلقة .
(٥) الفسكل : الفرس الذي يجيء في آخر الحلبة .
(٦) في (ز) بسمرة .

وهكذا تفعل في كل ذي فضيلةٍ أو همةٍ عَاليَة

وديوان شعره[1] ذائع وشائع ، تُمَدُّ منه على مناكب الدَّواوين وَشَائع[2] ، طار مطار العنقا ، وزَيَّن دُرُّه مِن الملاح عُنْقًا ، تكتفي به الغَانية عن العَقود ، ويستغني الشارب المثَّمِل بمعانيه عن ابنة العنقود ، ما هو إلا روضٌ زُفَّت به عروس الأشجار ، ولها بحلل الأوراق تخبُّط وعِثار ، وفوقها من جواهر الزُّهور حلي ، ومن لؤلؤ القطر نثار ، وبيني وبينه مكاتبات ، تصبحُ في خدمتها الكواكب السَّيَّارة وثبات ، إذا ردَّد طائر القلم منها ألحانَه ، أدار على السَّامع ما لا يديره من شرابها الْحانة ، عمرت أبياتها أيدي المودّة ، وأمالت نسيم المحبَّةِ فيها من غُصن القَلم قَدّه، وقد أثبتُّ له من مَنْظُومِه، ما أثبت الفلك الدَّوار من نُجُومه، واطلعتُ من أشعاره ، ما اطلع الرَّوضُ الأُنفُ من أزْهاره ، وقد اكتفيت عن إيراد مطولاتِه المبدعات ، بما أوردته له من لطائف المقطّعات ، كَقوله :

نهدت فانشق جيب العنبَري فسَبت منّا فؤاداً قَسوري
لا تلوموا واسألوا ما فعلت من قديمٍ عبْلَةٌ في عنترِ

وقوله في تشبيه الورد الأحمر :

أقول مُذ شَبَّه الوردَ الأنامُ وما وفت تشابيهم في ذاك بالأرب
كأن حمرتَه من حول صُفْرتِهِ نار يُخلّصُ فيها معدن الذّهب

وقلتُ أنا في تشبيهه أيضاً :

حمرة الورد فوقها صفرةٌ منه حكتها في الانتقاع الرحيق
كالجراح الطّري ذُرّ عليه من قشور الرمان شيءٌ سحيق

---

(١) منه عدة مخطوطات منها مخطوطة : بمكتبة المتحف البريطاني برقم (٣٩٣٦) وأخرى بجامع صنعاء (٢٣٧) أدب . انظر كتابنا (مصادر الفكر ٣٣٨) .

(٢) الوشبعة : اللفافة .

وقوله مشبهاً لصقرٍ رمي بسهم فهَوَى والسَّهم مغروز فيه وهو تشبيه بديع :

أرأيت صقرَ الجوِّ حين هَوَى ... من سهم من بهرت رِمَايتُه
فكأنه في شكلِه طَبَرٌ ... والسهم معتَرضاً هراوته

وقوله مشبهاً لِسُبْحة من اليسرِ[1] أهداها لبعض إخوته وهو تَشْبيه بديع أيضاً :

لا زلتَ في اليسر قد وافتك مسبحة ... من خيرة اليسر ياخير الأصاحيب
تريك إذ نسقوها مع مؤذنها ... سِرْباً من النحل دبّت خلف يعسوب

وقوله في بندق مصدَّف :

يا حسنه من بندقٍ ما زال في ... يوم الكفاح على السلاح مُشرّفَا
جعلوا به صَدَفاً يشير بأنَّه ... ما زال بالغرض البعيد مُصدَّفا

وقوله مضمناً :

وغانية لها عنقٌ طويلٌ ... يُرى مثنَى السموط به فَرادا
أقول لمن يلاطفها خداعاً ... أرى العنقاء تكبر أن تُصادا

وقوله مُورِّياً :

فارقتُ في جَمالها ... كل عذُولٍ وخليل
لكنني فارقتهم ... طُراً على وجهٍ جميل

وأحسن منه قول شهاب الدين الخَيْمي[2] رحمه الله تعالى ، ومنه أخذ :

---

(١) اليُسْرُ : شجر له حب أسود طيب الرائحة ينظم في سلك .

(٢) هو شهاب الدين محمد بن عبد المنعم الخيمي ، بالخاء المعجمة ، شاعر يمني الأصل مولده سنة (٦٠٢) بمصر ، وله ديوان شعر بمكتبة فلورنس برقم (١٨٦) ، وفاته سنة (٦٨٥) . (الأعلام ٦/٢٥٠ وفوات الوفيات ٢/٢٢٩) .

وعـــذول لـــح في عـــذلي إذ لم ير الخال على الخد الأسيل
لـو رأى وجـه حبيبي عـاذلي لتفـاصَلْنـا عـلى وجـهٍ جميـل

وقوله وكتب به إلى خليلٍ له أسمر اللون ، وقد فارق بعض الثغُور التي هو فيها ، وانفصل عنه ، وهو معنى في الأسمر بديع :

قـل لعفيف الـدّين إن جئتـه معـاتبـاً من بعـد رَدّ السَّـلام
فارقت هذا الثغر من بعد ما قد كنت يا أسمر فيه الوشام
وصـــار لما غبت مستـــوحشاً فـما يُـرى قَطّ لَـهُ ابتِسَـام

وقوله في صديق له كريم شجاع :

ولي صـديق لـو لقى عنتـراً وحـاتمَاً لم يـذكـرا في العـرب
للجـود والنَّـاس غـدا جـامعـاً فاعجب له من واهبٍ لم يهب

وقوله وهو في السجن والقيد معتقل بقصر[1] صنعاء اليمن المشاد [أيضاً[2]] :

لقد قُلت للزُّوّار في السجن عندما تباكوا وأبدوا لي توجّع راحمِ
ألم تعلموا أن القيود خلاخل الرِّ جال وأن السّجن خِيْسُ الضراغِم
ولا عار في سجن إذا هو لم يكن على سَببٍ يخزيك بين العوالم

وقوله في تشبيه السّيف الذي يظهر عليه جوهره[3] :

هـذا حسام فـاصـل رق كـما راق بـه الـفـولاذ والسَّـنـاءُ
كنور شمسٍ داخل من كُـوَّةٍ يجـول في بـاطـنـهِ الهَبَـاء

---

(١) هو قصر غمدان الشهير ، يقع في ربوة مشرفة على صنعاء (انظر : جواهر الدّر المكنون لزيد بن علي الوزير ص ٤٩٨) .
(٢) زيادة من (ش) .
(٣) في (ز) جواهره .

وقوله في تشبيهه أيضاً وهو مثلهُ في معناه :

حسـامٌ قـاصِـلٌ قد خَصَّروه فـأضحى للفرنـد بـه رواءُ
كنور الشَّمس يدخل من مضيقٍ فيـظهـر في جـوانبـه الهبـاءُ

قال رحمه الله تعالى وكتبه على حاشية هذا التشبيه ما لَفظه : تَشْبيه السيف الذي فيه الفولاذ وهو الجوهر بشعاع الشَّمس الدَّاخل من الكوّة الذي فيه الهباء من التشابيه البديعة التي لم يسبق إليها ، والهباء هو ما يَسْطع من دُقاق التراب ، وهو أيضاً ما تراه منبثّاً من الأجسام التي تظهر في نور الشمس الداخلة من كوَّةٍ كالذّرِّ والحمد لله على ما منح انتهى من خطه ولفْظه سقى الله ثراه .

قُلْتُ : لا شك ولا ريب أنَّ هذا التَّشْبيه في منتهى الغرابة ، وغاية الحُسْن ، ولستُ بمسلم له أنه لم يسبق إليه كما زعم ، فإنه أخذه عليه السَّلام من قول الأديب الفصيح المنشىء ، إمام الترسل في المتأخرين علي الحنائي[1] رحمه الله تعالى في رسالته السَّيفية التي أوردها له العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخُفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[2] حيث قال في النثر عند ذكر السَّيف ما لفظه

كأنه جدول ماءٍ جرى في ساحة روضٍ فَظَهر منه رُؤوس نباتِه ، أو لمعة ضياءٍ دخلت من كُوَّة بيتٍ فبدت على صورة ذاتِه ، انتهى .

إلاّ أن المَوْلى الحسين طاب ثراه زاد في معناه بذكر الهباء وكون جوهر السَّيف يشبهه ، فأغرب غاية الإغراب ، وأودع هذا السَّيف من الحسن في قراب ، ظَفر من هذا التَّشبيه بالحُسْنَى وزيادة ، وعطَّل في ميدانه بمجلى ذهنِه جياده ، لا زالت آيات أدبه مَتْلُوَّة ، وطريقته في مثل هذه الغرائب مَتْلُوّة ، وكؤوس نفثاته الخمرية

---

(١) هو علي بن الحنائي بن أمر الله الحميدي ، ترجمته في (ريحانة الألباء : ٢/٢٤٩ ، والعقد المنظوم في تراجم علماء الروم : ٢/٣٧٥) ووفاته سنة(٩٧٩) .
(٢) (ريحانة الألباء : ٢/٢٦٢) .

مملوَّة ، وغروس بنات أفكاره عَلَى مَنَصَّةِ الدَّفاتر مجلوة ، ويعجبني للمولى الحسين رحمه الله تعالى ما جاء [1] في جواب أجاب به على لُغزٍ في بندق وهو قوله من النظم في وصفِه :

نشـأ منـه غيمٌ فيه رعــدٌ وبـارقٌ ... وليس لمطورٍ به قطّ إخصابُ
ومذ جاء بالتَّعصيب[2] أربى على ذوي ... السّهام[3] وفيها قلتُه ليس يُرتَابُ
وأدرج آيات الدخان المبين في الـ ... حديد وما خَطَّاه قوم ولا عابوا
به النَّصر أيضاً والتَّغابن حاصلٌ ... إذا زلزلت في الصّف من ذاك أحزابُ
فقـل لِمُريـدٍ طـاعـةً منـه إنَّـهُ ... مَرِيدٌ ويخشى من سُطَاه ويُهْتابُ
فإنَّ آية الكرسي في الصَّدر قرّرت ... أطاع فلازم حفظها فهو غَلَّابُ

ولما استدعى رحمه الله تعالى كتابنا المسمَّى : « الأصداف المشحونة ، بالجواهر المكنونة »[5] شرح الوسيلة المشهورة ، التي تغدو عندها يتائم اللآلىء مقهورة ، أرسلت به إليه ، وكتبت من نظمي عليه :

بعثتُ ذا السِّفْر من حالي على خَجلٍ ... نحو الذي طاب أعراقاً وأعرافا
فما رأيت على طول المدى أحداً ... أهدى إلى البحر قبل اليوم أصدافا

---

(١) في الأصول ما جاله .
(٢) التعصيب عند أهل الفرائض هو كون الوارث عصبة أي من قرابته يأخذ ما أبقته الفرائض ، وهو هنا توجيه بهذه المسألة .
(٣) ذو السهام هم : أصحاب الحصة والنصيب من الميراث .
(٤) هنا توجيه بسور القرآن الكريم : « الدخان » « الحديد » « النصر » « التغابن » « الزلزلة » « الأحزاب » « الصف » .
(٥) هو من كتب المؤلف القيمة شرح فيه وسيلة الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين التي أولها :

إلهي بسر الذات ذاتك في الأسما ... بعرشك بالكرسي كرسيك الأسمى
انظر ديوانه ص ١٣٢ .

فأعاد الكتاب إليَّ بعد مدة وقد كَتَب تحت نَظمي هذا من نظمه قوله :

البحر أنت بلا ريبٍ فلا عجبٌ إذا بعثت لنـا دُرّاً وَأَصْـدَافَـا
وكم سبيل إلى العليا سلكت فما وجدت عن نيلها دراً وإصْدافَا

* * *

أخوه المولى جمال الدين محمد بن عبد القادر [١]

أحد تلاميذ أبي ، فهو فاضل له مقام عن غيره أبي ، قرأ عليه فهدت مَنْطِقَة ، وألبَس حُسْنَاً أيامه مَنْطَقَة ، سماء معارف ، ويَمٌّ عوارف ، بحر عذبٌ ذو لجب ، إذا حُدِّث عنه فليس يُقضى عنده العجب ، طاهر الذَّيل ، لا يعرف الكُميت [٢] إلا من الخيل ، نجب وهو في مهده ، قبل أن يركب على نهده [٣] ، وكان له خَطٌ ، مَا رقَم مثلُه من قَطّ قلمه قَطّ ، هو للغادات طرر [٤] ، وللغزال مسك سُرد ، وللغلام عذار بديع السرد ، إذا دبَّ النمل منها على النّار والورد ، فهو يَصْطاد إنسان العَين ، إذا نصب شبك المسك في أرض الكافور واللُّجين ، وَطومَاره [٥] للرِّقاع ظرْف ، وطرسه روضٌ للقلم الرِّيحاني [٦] به تضوّع وعرف ، وله في الأدب شراب هو من الخمرة في الأعضاء أدَب ، يصير به رقّ الكتابة [٧] حُرًّا ، ويثمر به

---

(١) ترجمته في(نشر العرف : ٦٧٢/٢) نقلاً عن كتابنا هذا ، وهو الذي جمع ديوان أخيه الحسين .

(٢) هنا توريه بالكميت وهو الخمر .

(٣) النهد : الفرس الحسن الجميل (سبق) .

(٤) جمع طرة : وهو أن تقطع للجارية في مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج وقد يتخذ من رامك .

(٥) الطومار : الصحيفة .

(٦) من الخطوط معروف ، وهو هنا أراد به تورية بالخط والمشموم .

(٧) هنا تورية بالرق المكاتب . والرق : قرطاس الكتاب .

قَلَمُه ولم نر قبله غُصْناً أثمر دُرّاً ، وقد أملاني منه ما أملى ، وجاد لي من جواهره بما لا أستطيع له حملاً ، ومات ولنا منه عِدات يرجى نجازها ، وآمال فيه حال بيننا وبين كعبتها حِجَازُها ، مِن أقوالٍ نُسِبت إلى الجَفْر[1] ، ولاحت عليه مخايلها وهو غلام جَفْرٌ[2]، وسار بأخبارِهَا الطِّيبة السَّفْر ، حتى أشارت الأنامل إليه ، ولذا فإن أخاه المولى الحُسَين قال في حَقِّه مُجيباً عليه :

أعِد نظراً في الجفر إن كنت تفهم الر ... موز ففيه ما يَسُرّك سِرُّه
باسم أبيه واسمه واسم أُمِّهِ ... دليل جلي إن خفي عنك أَمْرُهُ
وما قد جرى في اللوح لا بُد أنَّهُ ... يكون ولكن كُلّ أمرٍ وعَصْرَه

فخاب الأمل ، وخسف الهلال وما اكتمل ، وسقط في الحُفرة وهوى ، وألقى العصا من يده واسْتقّر به النَّوَى ، بعد أن أحرم من ميقاتِه ، وتَجرَّد عن ثياب حياته ، ودار حول أركان نعشه وطاف ، وشرب من زمزم حتفه شربة هي السّم الزعاف ، سقَى الله عهده ، ووطأ بالإستبرق مهدَه .

أنشدني من لفظِه لنفسه ، واطلع من نجوم نظمه في ليل نفْسَه ، قوله في مليح يسمَّى مصطفَى ، امتَلأ إناء محاسِنِه وَطَفَا ، وأرسل لحظُه السَّحار وَطَفَا ، حبس في خيمة أضحى المحبُّون حولها في قعود وقيام ، وقُصِر فيها فإذا هو من الحور المقصورات في الخيام :

وشخص يسمَّى مصطفى صار فتنة ... بما فيه من حسنٍ وذلك منظورُ
لقد قصروه في الخيام عن الورى ... فلا تعجبوا من فعلهم فهو مقصورُ

وأنشدني ما زاد به طَرَبي ، قوله في فتاةٍ موسومة بالجمال يقال لها ابنة العِنَبِي :

---

(١) كتاب ذكر فيه علم الحرف ينسب إلى بعض أهل البيت .

(٢) الجفر : الصَّبي إذا انتفخ لحمه وأكل ، والجفر كتاب فيه العلم الإجمالي بلوح القضاء ، انظر الكلام عليه بتوسع في كشف الظنون (١/٥٩١) .

بنتٌ لصاحبنا الموسوم بـالعنبي تسبي وتخلب عقل العجم والعرب
ترى الأنام سكارى من محاسنها وكيف لا وهي تدعى بابنة العنبِ

أخبرني ألبسه الله تعالى من الرِّضوان رَفْرفة ، إنه لما اطلع أخوه المولى الحسين على هذه النكته المستظرفة ، سكر لها ولا كسكر ابنة العنبِ ، وارتاح لها ولا كارتياح المحبّ إلى بارد الشَّنب ، وقال : يا أخي سبقتني إلى هذه اللَّطيفة ، وأنا أحق بها ، واعتصرت هذه الخمرة الشهية من كروم عنبها ، وأزلت عن هذا اللُّبَاب القُشور ، وأبرزت هذه الغادة لما ضُرب بيني وبينها بِسُور ، وما الأدب إلا كنز مدفون في الركاز ، يأذن الله باستخراجه لمن شاء من خلقه فيبرزه غاية الإبراز ، فسبحان المانح ، بكل معنى سانح ، وكنت أنا وإياه في بستان رصّع تاج دوحه باللآلىء غيثُه الهتّان ، تحت شجر ، أظلّ من حجر ، وقد أشعل الربيع نيران الورود ، وأضرمت جمراته في جوانب الحدائِق فما جمرات[1] الخدود ، فلولا النُّهور المتدفقة ، لأصبحت بها الرياض محترقة ، وقد جال الطل في النَّرجس الذي بَقَل ، جولان الدَّمع في مراض المُقَل ، وسيف النهر بيد الصَّبا مصقول ، وحديث الأزاهير برواية النَّسيم منقول ، إذا سرق النَّسيم الدَّنانير والدَّراهم من الزّهور ، صاحت به من الدَّوح العَّالي حُرَسُ الطيور ، فأجابتها بالخرير والتَّدفق جواسيس النُّهور ، وقوام الغصن عالٍ سام ، وجوهر الماء في السوَّاقي يقبل التجزِّي والانقسام ، وقد كدنا نطير من السُّرور بنيل الأرب ، لَمّا علَّمت الأغصان أعطافها الميلان من الطَّرب ، نتَنَاشد الأشعار المناسبة للمقام ، وقد وقف الغصن على ساقه لخدمتنَا واستقام ، فكان مما أنشدني من لفظه لنفسِه قوله :

قـالـوا فـلانٌ لأخيـه جفـا ولم يكن قط لـذا بـالحقيـق
لا تعجبـوا من فعله وانظرُوا يا قوم ما أسود قلب الشقيق

---

(١) في (ش) حماره .

قال : ولما اطَّلع عليه أخي الحسين بن عبد القادر أيده الله تعالى كتب تحته من نظمه قوله :

كم من أخ قد جفا أخاه وكدَّر العيش ثم نكَّد
إشارة الروض قد كفتنا تريك قلب الشقيق أسود

قال : ولما اطلعتُ على نظم أخي هذا كتبت تحته من نظمي قولي :

سلخت بيتي يا أخي كُلّهُ وقلت لي إنك لم تسْلخ
فقم وحاكمني إلى حاكِم أتلو عليه إن هذا أخي[1]

قال : ولما اطلع عليه أخي الحسين كتب تحته من نظمه قوله :

سلخته مذ قلت قلبي غدا أسود يا ذا السؤدد الشَّامخ
فلا تساورني لسمي إذا دعوتني بالأسود السَّالخ[2]

وكتب رحمه الله تعالى إلى أخيه المولى الحسين ، يستدعيه إلى داره المحمية عن كل شين قوله :

إمام النّاس في العصرِ وربَّ النظم والنَّثرِ
لقد أعددت مَطبوخاً لكم من قهوة القشرِ
فبادر كي تُدارُ بِنَا ففيها الشَّرح للصَّدرِ
وقد أخليتُ مجلسنا عن الثُقلاءِ بالقصرِ
وصار اليوم مبتسماً بلا زيدٍ ولا عمرو

فأجاب وأجاد :

نفيس الدّر والشذْرِ على اللَّبَّاتِ في النحرِ

---

(١) اكتفاء من قوله تعالى : ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ﴾ .
(٢) الأسود السالخ : الثعبان الأسود لأنه ينسلخ من جلده .

بـل الشِّعْـر القـويـم أتى   إلـيـنـا غـالي الـشِّـعْـرِ
مـن الـعِـزّى عِـزّ الآل   سـامـي المجـد والـفـخـرِ
حَبَـانـا قهـوة في الـصّبـح   فـاقـت قـهـوة الـعَصْرِ
فسُحقـاً عنـدهـا سُحْقـاً   لأنـواعٍ مـن الخـمْـر
حـلاوة سُـكَّـرٍ فِـيْـهـا   فَـخَـلّ مـرارة الـسُّـكْـرِ
ومـا أشْـبـهـهـا بـالمسْـكِ   في لـونٍ وفي عِـطْرِ

وكتب من نظمه على كتابنا المسمى « الأصداف المشحونة ، بالجواهر المكنونة » ، مقرّظاً له قوله :

أرى عقود الدّر إن ما فصّلت   بـأحمر اليـاقوت أو بـالشَّـذرِ[1]
حقيرة في جنب ما أودعه الـ   أصداف قاضينا الرفيع القدر
حـرَّره شرحـاً بـديعـاً واضحـاً   يفـوق مـا حـبّر كـلّ حـبر
أودعــه مـن كـل فنّ جمـلةً   مـفـيـدة ثـالجـةً لـلصّـدْر
وجـاء في تـأليفـه بكـل مـا   يعجـز عنـه أهـل كـل مصرِ
أحمـد من ألّفــه فـإنــه الـ   مَجيـد فينـا بـل مجيـد العَصْرِ
مُـطّلعٌ مضـطلعٌ منقـح الـ   ألفـاظ في نـظم لـه ونـثرِ
بينَّ ما أشكل في الوسيلة الـ   لـتي لهـا سر وأيُّ سِرّ
إذ كشف الـرَّحمن عن عبـادِه   من بعدها الطاعون في ذا القطرِ
فقُـل لمن ألَّف فينـا شرحهـا   نلت به الأجر وفخـر الدَّهـرِ

ومن نثره الذي يفوق من الدُّر النثار ، ونفثاته المعدودة من جميل الآثار ، ما أجاب به عليَّ في كتاب ، وذلك قوله في صَدْر جوابه وياله من جَواب :

القاضي العَلاَّمة الفاضل مع مراعاة النكتة ، الخطيب البليغ الكاتب الذي لم

(١) قطع الذهب .

ير في عصرنا مثله البتَّة ، صاحب التآليف الجيّدة ، والمصنفات التي هي لسائر الكتب سيِّدة ، فما تأليف الحريري والبديع ، فإنها ذهت نَضارتُها فأزرت بِنَضارة زَهر الربيع ، الناشئ في اكتساب الفضائل على أقوام سنن ، شهاب الدّين أحمد بن محمد بن الحسن ، صان الله فَضْله فإنه عين خطباء الزَّمن ، وأهدى إليه أفضل سلام وإكرام ما توالت من الله سبحانه عليه المِنن ، وما واظب الطائع من النَّاس على تأدية الفروض والسُّنن ، هذا وإنه وصل إليّ كتابكم الكريم ، ولفظكم القوي وخطكم القويم ، فسرَّني وشرح صدري ما شرف من أقوالكم ، وحمدت الله تعالى على عافيتكم وصلاح أحوالكم ، وكاد أن يرجع إليَّ شبابي ، وذكرت ما مرَّ لنا نحن ووالدكم استاذنا فمنه جُل اكتسابي ، من مناقلة العلوم والآداب ، والظفر منهما بأوفر القسم وأتم الأسباب ، وجرى دمعي على خدِّي ، ولكن ذكرت أنك بقية في الفضائل فزدتُ لله في شكري له وحمدي ، فما مات من السلف ، من كنت له نعم الخلف ، هذا والله يديم البلاغة بدوامك ، ويزيد منها في منيحتك وإنعامِك ، ما سَرَّ منَك ورود كتاب ، وطُوي في رقك روض خطاب ، والسَّلام .

وكتبتُ أنا إليه وقد وصلني من أخيه المولى الحسين سقى الله ثراه نظمٌ وكان وصوله بواسطته :

يا عز دين الله عِش ... في نعمةٍ مُخَالَطه
أبيات مولانا غدت ... منها العقود ساخطة
كأنها حسناء في ... وعدِ اللّقا مغالطه
لجَعْدها من المداد ... في الطّروس ماشطه
أو روضةٌ لزهرها ... بدُرٍّ قطرٍ ناقِطه
فإن تكن عقداً فما ... غيرك فيها واسِطَه

وكتبتُ إليه جواباً من النَّثر لما وصلني منه مكتوب مصحوباً بأبيات بائيّة ونثر حسن من أخيه المَوْلى الحسين رضي الله عنه أيضاً وهو قولي :

أطال الله لكم البَقاء ، وأسعدكم بما لا تعرفون معه الشَّقاء ، وخدمتكم عني التَّحيَّة السنَّية ، بروضة رقمت برودها الزُّهور الجنيَّة ، وَخَمَل طيرها في الخمائل ، وخطب فصيحه على منبر غصنها المائل ، وَصَلني منكم ذلك الوصل ، ونفذ إلى أغراض أغراضي ذلك النَّصل ، فمال عطفي به طربا ، وقضى إنسان عيني من التمتع به أربا ، فها أنا لم أنظر مثل قافية اشتمل عليها ولم أربى ، فأبيات المولى الحسين لما أعربت ، ونطقت حمائمها باللّحن على أنها أعربت ، أوجبت اطّراح الوقار إذ أطربت ، وهو إمام النّظم بلامرا ، وقريضه النسيم العاطر وقد شرى ، طالما أورث العنبر عاراً مُتضوّع ماله من الأشعار ، حتى رمى بنفسه في النار ، وقال النار ولا العار ، فنظمه على الحقيقة مُدَام ، إلا أنه يشرُف عن النجاسة وعن دوسه بالأقدام ، ونَثْره الذي هو المنثور ، يهيج به الغرام الكامن ويثور ، قد نعش بنشره الميت ، وجرى بنا في حلبة المسرة فعطّل الكميت ، يقتطف النرجس من روضه المَطْلول ، ويعصر ماء الورد من ذَيل نَسيمه المبلول ، فالله درَّه من فارس [نظم ونثر لم يلحق ، ومن بدر فصاحه استدار في منازل العليا فلم يمحق][1] ، وسلام عليه وعليكم ، يُنْهى إليه بعد أن يُنْهَى إليكم ، يستمر أداؤه أبداً ، ويظهر بحره من بياض الطُّروس زَبدا، وينتخب منتقيه من اللَّفظ النّفيس زُبَدَا ، ما افترت الغيوم ، في وجه روض سهوم[2] .

---

(١) ساقط من (ش) .

(٢) كأنه اسم موضع أو نزهة هناك .

جَدُّنَا قَاضي القُضَاة الحَسن بن أحمد الحَيْمي[1]

رِئْبال وأي رئبَال ، دامي الظّفر مورس[2] السِّربال ، غِشمشم يغشى الشجر ، وشجاع يتصدَّع له قلب الحجر ، كثير جِهَاد ، في أرض جهاد ، مُسْعر حرب ، وأسد طعن وضرب ، إذا هزَّ حسَامه ، فهو أشجع من أسامة[3] ، فَمَا حُمّ[4] الأسد ، إلا لما أجنته ضلوعه له من الحسد ، طالما قطع أودية جَلْحَاء[5] ، غير مفتقر إلى الكتيبة الملحاء[6] ، وطالما جعل رمحه للرُّؤوس سلكا ، وطالما أوقع بالبغاة فطعنهم مخلُوجَة[7] وسُلْكا[8] كأنهم فراخ قطا ، لدى بازي أجدل بمنْسَره قد سطا ، مَتَى وَجَّه عزمَه إلى الفلك ، كاد أن يفترس أسده[9] الذي سلك ، فإذا لم يخش من بسالته ، فما ظنك بجَدْي[10] الأفق وغزالته[11] ،

---

(١) أديب وعالم وسياسي ، مولده بكوكبان ، وتولى السفارة إلى ملك الحبشة . توفي سنة (١٠٧١) . (البدر الطالع ١٩١/١ ، مصادر الفكر ٤٨٩) .

(٢) أي مصبوغ بالورس (معروف) .

(٣) من أسماء الأسد .

(٤) إشارة إلى أن الأسد تعتريه حمى في النَّهار .

(٥) أي ملساء .

(٦) أي الكتيبة البيضاء من السلاح .

(٧) طعنة مخلوجة : منزوعة .

(٨) يقال سلك السّنان في المطعون : دخل .

(٩) إشارة إلى الأسد البرج الذي في السماء .

(١٠) الجدي من النجوم في السماء .

(١١) الغزالة من النجوم .

وإن تناول السيوف والأسنَّة ، ارتاعت حتى في بطون الأمهات الأجنَّة ، كم سقى غصون الرِّماح من دم الأعداء صَيّبا ، فأثمرت من رؤوسهم ثَمَراً جنيّاً طيِّبَا ، وقاد كتيبة شَهْبَا ، فصَيَّر نُفوس الناكثين وأموالهم نهبا ، وفُتح له من الفتح روضه الأنضر ، وجنى بأنامل السُّمْر ثمرات النَّصر من بين ورق الحديد الأخضر ، وقد نشرت أيدي الخيول مطارف العجاج ، فطرَّزها الفرسان بالذَّهب من لَمَعان السيوف والأسنَّة والزِّجاج ، إذا خفقت الأعلام للجلاد فعلى راسه ، وإذا استضيء في لَيْلٍ العِثْير المُظْلِم فَبِنِبْراسِه ، ومما يفتقر من عجائبه إلى الإعلام ، بأنه عُرِّف في ساعه الجلاد باللَّام وهو يُعَد في الأعلام :

وما دخلت على الأعلام لامٌ

فكم جاد لله بنفسه ومالِه ، وقاسى الخشونة ، وفي الحديث : « ليس أخو الحرب من يضع خُوْر الحشايا عن يمينه وشِمِاله »[1] ، رحَل إلى أرضِ الحبشة وَسُنَّار[2] ، وشمّر بعزمٍ تقدح من أطرافهِ النَّار ، وجاب البرّ وخاض البحر ، ووضع قلادة الذكر الجميل من الزمان على النحر ، ثم جاهد في أرض الشَّحر وحَضْرَمَوْت ، وألقَى بنفسه في حومة هي على الحقيقة موت ، ثُمَّ خلَص من الشَّرّ ، ولَبِس حُلَل الثناء التي تُنْشَر ، ومات في وطنه على فراشه الناعم ، وحُرِّم جسدُه على طاعنٍ وطاعم ، بعد أن شيّد ركن الثناء وبنى ، وقالت لسان حاله : لا نامت عيون الجُبَنا ، وهو مع ذلك في غاية الزُّهد ، ومنتَهى العِفّة التي حلَت له حُلوَّ الشُّهْد ، مع إقبالٍ وجَدّ ، ما ناله من شمر وَجَدَّ ، ولا ظفر به غيرُه من أب وجَدّ ، فلو رضيَ من الدنيا بزينَة ، لأوقرت ركائبه بالأحمال الرَّزينة ، ولنثر الفلك فوقه النجوم دراهم ، والبدور دنانير لم يكن له فيها مُساهم ، ولأحالت الرّياض له

(١) من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً ، ومعناه ليس أخو الحرب من يضع ليان الفرش والأوطية . انظر النهاية (٢/٨٧) .

(٢) سنّار : مدينة في السودان (مديرية النيل الأزرق) .

خصوصاً ، أوراقها ديباجاً وزهورها فصُوصاً ، لكنه عن الزخارف بمعزل ، إذا جَدَّ غيره في اللَّذات فهو يَهْزِل :

لو راودته الجِبَال الشم من ذهب   عن نفسه لأراها أيّما شَممِ

ولي القضاء والخطابة ، فأعذب وردهما وأطابه ، مع جلالة مقام ، وكلمة تقصر عن نفوذها السِّهام ، فقلمه أمضى من سيفه ، وأطعن من عامله في نحر من عامل الحقّ بميله وحيفه ، كم سلك في المنهج السوي ، وجنح إلى نصر الضَّعيف على القوي ، وحِمَاه لهيبته محترم ، لو لاذ به الشَّاب لأمن من أيامه الهرم ، أو هبط إليه البدر من الفلك ، لما سلك به المحاق فيما سلك :

والشمس لو أنها تأوي إليه لما   كانت عليها وربِّي للكسوف يدُ

وكان يجعل النَّهار لقراءة العلوم وتنقيحها ، ويعينّ الليل لقصاصة الكتب وتَصْحيحها ، فتارة بين علوم وتارة بين أعلام ، وحِيناً بين رماح خطّيّة[1] وحيناً بين أقلام ، ولم يَزَل متصدِّراً للأحكام ، وحلّ العظائم التي أحكمت غاية الإحكام ، فبمثله تُطْرد الأوابد[2] ويكابدُ به العدوّ ما يكابد ، إلى أن نزلت به أم قَشْعم[3] ، وإذا حادثه للوَرَى جميعهم قَد عمَّ ، رُفعت روحه إلى منازل السعداء ، فتنفس الكون بهبوب الرّياح تنفّس الصُّعداء ، فلولا دَمْع النهور الرَّقراق ، لاحترقت الأرض وما عليها أشدّ احتراق ، سقت ضريحه الأنوا ، وتعاهدت منه طيِّب المثوى ، وقد جمعت من أدبه الذّي نُقِل ، كتاباً لطيفاً منفرداً هو بذاته مستقل[4] ، ممَّا أودعه في كتابه المسمىَّ « حديقةَ النظَّر ، وبهجة الفكر ، في

---

(١) جمع خطّي : الرمح منسوب إلى مرفأ بالبحرين أو اليمامة أو هجر .

(٢) الدواهي .

(٣) أم قشعم : المنية .

(٤) يسمى « لذة الوسن » منه مخطوطة بمكتبة برلين .

عجائب السَّفر»[1]، وممّا أودع في غيره، وأفصح به هديل طيره، من محاوراته، ومكاتباته، وابتداءاته ومراجعاته، كتب إلى السَّيد العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدِّين رحمه الله تعالى المتقدم ذكره قوله:

أيا سادةً بانوا فبان الكرى عنّا ... وخان زمان بالفراق وما خنّا
رحلتم فلا والله ما العهد عهدنا ... ولا نحن في عيشٍ لذيذٍ كما كُنَّا
وأوحشتم والدَّار آنِسة بكم ... وحلتم عن العهد الأكيد وما حُلْنَا
علام وفيم الهجر يا أهل ودّنا ... وهل صنتم ذاك الوداد كما صُنَّا؟!
نسيتم حقوقاً ما رعى الدَّهر عهدها ... وأيامنا بالأمس في الروضة[2] الغَنَّا
ليالي لا واشٍ ينمّ بسرّنا ... ولا عُرف الهجران منكم ولا منَّا
رأيت زماني كلما ظَنّ صاحبٌ ... بخلٍّ وفاء لم يحقّق له ظنّا
فصبراً على ريب الزمان فإنني ... جعلت احتمال الصبر من خلقي فَنَّا

فأجابه بقوله:

فؤادي كفيل بالوفا مثل ما كُنَّا ... سَواء أقمنا عندكم أو ترحَّلنا
وعهدي لكم عهد مني كما تعرفونه ... وأحنى ضلوعي من تناسيكم أحنا
وعَهدي[3] لكم لو كان بعدي فراسخاً ... فكيف بقدر الميل إن غبتُم عنَّا
أعدّ وفائي فرض عين مؤكَّداً ... عليَّ ولو سن الجفا فيه ما سنَّا
عتبتم ولا ذنب لذا العتب موجبٌ ... لدي ولكن عاتبوا الدَّهر والوجْنَا[4]
فكم رحلةٍ روّعتمونا بوقعها ... وأوحشتم الأهلين والصَّحب والْمَغْنَى

---

(١) هو من أشهر كتب أهل اليمن في الرحلات، طبع في سنة (١٩٥٨) بمصر ويعرف أيضاً «بسيرة الحبشة» ضمّنه أخبار رحلته إلى تلك البلاد.

(٢) يعني روضة صنعاء.

(٣) في (ش) و(ب) وهذا.

(٤) الوجنا: الأرض الغليظة.

وكم جرعةٍ جَرّعتمونـا فراقكم فذوقوا وإن لم نرضه بعض ما ذقناَ
ودمتم على بُعد المـزار وقربـه ولكن خذوا لي من تجافيكم أمنا
إذا لم يكن ليَ حِلْو سَلْوي لبُعدكم فلا بُد من أن تمنحوا بالوفا منّا

وكان بينه وبين السيد إسماعيل بن إبراهيم الجحّافي[1] ، من الود الذي ليس بمغمور ولا خافي ، ما لو كان بين السّماء والأرض لن ينفتقا ، أو بين زحل وسائر النجوم لن يفوتها في المنزلة بالارتقا ، فإنه كان إسماعيل له خَليلاً لا ذبيحَا ، وكان يَسْفر له وجه حُبِّه صبيحاً لا قبيحا ، وبينهما مكاتبات بصفاء الودّ قد مُزجت ، ومشاعرات نفحاتها بالنّشر الطيب قد علجت[2] ، كتب إلى السّيد المذكور ، وقد أهدى لي سُبْحَة يُسر قوله :

تعهَّدتني بالبر يا ثاني البحر ويا ثالث الشمس المنيرة والبدر
ويَسَّرت لي من فضلك الجم سُبْحةً مُيَسِّرة للذكر من أحسن اليُسْرِ
وهل هي إلاّ الدرّ في سلك نظمها وأنت الخضم البحر تقذف بالدُّرّ
ويعجبني منها السَّواد لأن لي غراماً به ما زال يخطر في فكْرِي
وكم لك عندي من صنائع جمَّةٍ أعـدِّدُ منهـا لا تعـدّد للحَصْرْ
علي لك المدح الذي أنت أهلهُ وإن لم أوَفِّ الحق من واجب الشُكْر
فلا زلت يا مولاي في خير نعمةٍ تجود لمن صافاك بالنّعم الغُـرّ

فأجابه بقوله :

قـلائد دُرٍّ دائـرات على نحـرِ ولاز[3] وشام حُف مبتسم الثَّغر

---

(١) سيأتي .
(٢) في (ب) و ش « ملجت » .
(٣) كأنه من عامية ذلك الوقت ، واللاز عندهم اللازورد اللون المموّه بالذهب والزرقة وهو حجر (انظر الجماهر ١٩٥) .

وروض أقَـاحٍ ألَّفتـه ونشَّرت نسيم فجاء الحسن في اللفِّ والنَّشر[1]
نـظام أتـاني من أخٍ متبـوِّءٍ محَلّاً سما قدراً على الأنجم الزُّهر
طـربتُ لـه والله حتى كـأنني شربت به كأساً لذيداً من الخمر
وقلت لمن أنشـاه مولاي إنّني سُحِرت لعمري والبيان من السِّحْرِ
عيـون معانيـه البديعـة أذكرت «عيون المها بين الرصافة والجسر»
وحـرَّكن وجدي بـالحبيب وإنما
«جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»
أمولاي لا تعجب لإهداء سبحة منظمةٍ سوداء من أحسن اليسر
فإني أردت الفأل في كل ما ترى ويكفيك أن السّود أحظى من الغُرِّ
عليك بذكر الله فيها مشركـاً محبك إني لا أريد سوى الذّكرِ

أقول : قوله في الجواب سحرت لعَمري والبيان من السِّحِر ، هو يشير به إلى قوله ﷺ « إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً[2] » وقد اختلف في معناه فقيل المراد المدح ، فإن البيان الفهم وإنما شُبّه بالسِّحر لحدّة عمله وقبوله في القلوب وتَعجّب السّامعين منه ؛ لأن بعضه يوضح المشكل ويكشف عن حقيقة المجمل بحسن بيانه فيستميل القلوب كما تستمال بالسّحر . وقيل المراد الذَّم ؛ لأن السّحر تَمْويه وقد يقع من البيان ما يلبس الحق بالباطل والباطل بالحق لما في البيان من إبداع التَّركيب وغرابة التأليف ممَّا يجذب السَّامع ويخرجه إلى حَدّ يكاد يشغله عن غيره ، فَشُبِّه بالسّحر الحقيقي ويشهد له قوله عليه الصَّلاة والسَّلام « الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق »[3] قيل والأول أصح ،

(١) اللف والنشر : عند البديعيين هو أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنصّ على واحد منها وإما إجمالاً فتأتي بلفظ يشتمل على متعدد وتفوّض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق .
انظر : (خزانة الأدب ٦٦) .
(٢) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب .
(٣) حديث « الحياء والعي » الخ رواه أحمد في المسند والترمذي عن أبي أمامة .

وقال صاحب القاموس : معناه أن يمدح الإنسان فيصدَّق فيه حتى يصرف قلوب السَّامعين إليه ، ويذمّه فيصدق حتى يصرف قلوبهم أيضاً إليه انتهى .

وأقول : الظاهر أن طريقة المدح للبيان غير طريقة ذمّه ، فهو ممدوح من قبل البلاغة وحسن الصِّياغة ، مَذْموم من جهة الشرع إذا كان الغرض منه المباهاة بالبلاغةوالرَّغبة في السمّعة والاشتهار ، وَلَبْس الحق بالباطل ونحو ذلك مما يقبح لها : كما قال في هذا الحديث « إن من الشعر لحكمة » وجاء ذمّه في وجه آخر وبالجملة إن الشعر والبيان من جملة الكلام حسنها حسن ، وقبيحهما قبيح والله أعلم .

ولدُه مولانا شيخُنا الوالدُ الإمام العَلَّامة القَاضي محمد بن الحسن الحَيْمي[1]

رضي الله عنه إمام جمع شروطه ، ونَسج بأيدي العلوم مروطه ، وصاغ من خالص عَيْنها قروطَه ، يتّضع لديه الشريف الجرْجاني[2] ، وتنالُ الأكف من ثمار علومه ما لا يناله من الرَّوض كفّ جاني ، ذو صارم في الفنون مصقول ، يُسلّم له حجة الإسلام الغزالي في الجمع بين المعقول والمنقول ، ويكلّ عنه في الأصول السَّيف الآمدي[3] ويقول الفخر الرازي[4] بجنب اطلاعه على العلوم لقد ذهبت محامدي ، فما الجاحظ في الأدب والبيان ، وما ابن الجوزي[5] في الوعظ لذي العيان ، حلَّت المعارف بجنابه وأثمرت غصون الأقلام في جِنانه،بنى من البلاغة

---

(١) هو أديب فاضل ، والد صاحب الكتاب ، توفي سنة (١١١٥) (ترجمته في البدر الطالع ١٥٣/٢ ونشر العرف ٥٩/٢) .

(٢) الشريف الجرجاني هو علي بن محمد بن علي من علماء البلاغة والكلام ولد سنة (٧٤٠) ووفاته سنة (٨١٦) انظر (الأعلام ١٥٩/٥) .

(٣) السيف الآمدي : هو علي بن محمد بن سالم التغلبي : أصولي باحث ، من أشهر كتبه « الإحكام في أصول الأحكام » و« أبكار الأفكار » و« لباب اللباب » . توفي سنة (٦٣١) . (وفيات الأعيان ٣٢٩/١ والأعلام ٣٣٢/٤) .

(٤) الفخر الرازي : هو محمد بن عمر بن الحسين ، مولده سنة (٥٤٤) وبرع في علوم الكلام والتفسير ، من مؤلفاته « مفاتيح الغيب » و« ومعالم أصول الدين » و« المباحث المشرقية » توفي سنة (٦٠٦) (وفيات الأعيان ٤٧٤/١ والأعلام ٣١٣/٦) .

(٥) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي من مشاهير العلماء وفاته سنة (٥٩٧) .

أسُّها ، وفاقَ في الفصاحة قُسّها ، فهو أوحد البلغاء في الأقران ، طالما عجبت لعسَّالٍ من قلمه وهو مران ، إن خطب خطب من المعاني أبكارا ، واطلع على أعواد المنابِر من مواعظه أقمارا ، وإن أنشأ أنشى الأعطاف ، كنشوة الخمرة التي بها يُطاف ، وإن نظم نظم الجواهر واطلع في سماء طرسه وَلَيْل مداده الزَّواهِر ، فهو أعمق من البحر ، وأولى بقلائد الأدب من البحر ، مع هِمَّةٍ لو وُجِّهَت نحو الأفق منها نُصول ، لكان لخضاب الظلام من لحيته نُصُول ، فلذا قعد على كرسي الثُريا ، وقطف نرجس النجوم يفوح ريا ، وسعادةٍ لها تنفصل الصّعاب ، وتأتيه معها نجوم الظَّلام كأسهم الجعاب ، فيرمي بها من أراد وما أراد ، في يوم راحته على فراشه لا في يوم الطراد ، ولو رام طعن[1] زنجي اللَّيل البهيم ، لو أفاء عود الصّبح منه برمح قويم،فيفعل به ما يفعل بالأمس،وَيَصْترف[2] بدراهم النّجوم دينار الشمس ، فقد قابله الدَّهر من شمسه بوجهٍ جميل ، وإن كان قد دهش من فرحه به حتى أصابه يرقان الأصيل ، نزلته الأيام منزلة حبيبها ، فكم من رغائبٍ لها قد حُبِيَ بها ، وافته المحامد من غير أن يقصدها ويتعّمد ، ورجعت له شمس العلا ولا غرو أن ترجع الشمس لمحمد[3] وله كف تنويلها وكف ، وهمع صيبها فما وقف .

طالما أطلق أقلامه في الجود ، فما أسمعها آية الكرم إلاَّ خرت عند سماعها بالسجود، يُقال للمقتر انح داره ، فإن براحَتِهِ مأجودٍ طالما وإلا انحدَارَه ، فلذا استمسك العُفاة بأعتابِهِ ، ولاذ المسنتون[4] بأطنابه ، وقال للآمال إليَّ عودي ، فقد أرست سفينة النَّجاح من راحتي على جودي ، يطوف حوله الخائِف ، فإذا

(١) في (ز) طعم .
(٢) في (ش) ينصرف .
(٣) إشارة إلى حديث ردّ الشمس الذي روته أسماء بنت عميس .
انظر كتب السيرة .
(٤) جمع مسنت : المسكين المنقطع .

رَأى هو ورُئي قاصده قيل هذا الحرم وذا الطَّائف ، فكم حصل ليراعِه في النَّوال من جملة لفظيّة ومعْنويَّة ، وكم حدث من ليل حِبْره خَيْرٌ يفصح بتكذيب المانوية[(١)] ، فمقامه يذهبُ بالحُزْن ، وجوده يتعَثّر بخيوط الحياء منه المُزْن ، فهو ذو سماحةٍ وافرة الأيادي ، وفصاحَةٍ هو معها أبلغ من قُس الإيادي[(٢)] ، يهب الألف وهو مبتسم ، إذا كانت شواهد التعبيس لوجه غيره تسم[(٣)] ، ولذا مُدِح وقُصِد ، وزُرع الأمل بناديه وحُصِد ، قليل السَّفَه ، خفيف الشَّفه ، فما مَدَح مستجدياً ، ولا رُئي لغيره على الحاجات مستعدياً ، قرَأتُ عليه فهداني ، وقطفت من حدائقهِ ثمر عرفانٍ داني ، فإذا هو بَحْرٌ للدر فيه غُصْنَا ، وغيثٌ لو وقع على عودٍ قالحٍ[(٤)] لماد غُصْنَا، وقد نَظمت من آدابِه عقداً ، وجمعت من شعره مؤلفًّاً لا يُخشى له مدى الأيام فقْدا ، ومن مكاتباته التي منها مياه الرقة تقطُر ، ومحاوراته التي شك لآليها في سموط الأسطر ، ومن مديح الشعراء له ممّن ورد منهل كرمه وعَبّ ، وسميت ذلك المجموع « رعْي الأبّ »[(٥)] ، ومن تأليفه كتاب « عمدة الذَّخائِر في تهذيب الأخلاق وَالسَّرائر » ، وكتاب « إنْباء الأبناء بالطريقة الحُسْنَى » ، وشرع في مقامات عارض بها المقامات الزمخشريَّة ، وغرس منها روضاً سلب روض جار الله حسنه وريّه ، وقدح من زنده الذي لا قدح فيه ناراً وَرِيَّه ، ومازلت بين يديه لأخذ الفوا ئِد جاثما، متنا ولا من عبارته خمرة لم أكُ بتناولها آثمَا ، مُقَبّلاً لِكفّه ولأقدامه ، على الإفادة لاثما ، حتى غاض منه بحْرٌ مُغيَّم ، وأضحت العُلا وهي بَعْده أيِّم ، لما فجع

---

(١) نسبة إلى ماني ، من القائلين بالتّناسخ ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية ، يقول بمبدأ الخير والشر ، النور والظلام . وقد عاش بين عامي (٢١٥) و (٢٧٦) ميلادية .

(٢) هو قس بن ساعدة الإيادي، خطيب جاهلي يُضرب به المثل في البلاغة والحكمة .

(٣) يقال سمه : أغضبه .

(٤) يابس .

(٥) في (ب) الأدب وفي (ش) « عن الأدب » ومنه مخطوطة بجامع صنعاء .

فقده ، وقد كان منظوماً على ترائِب[1] الأيام عِقدُه ، تبكيه الغمائم ، وتندبه الحمائِم ، وتشق جيوبها بأيدي النَّسيم عليه الكمائِم ، سقَى ضريحه السّحاب ، حتى تزهر ساحاته الرِّحاب ، ما تعانقت الغصون بالقدود الرشاق ، وتصافحت بأنامل الزَّنبق الغضِّ وأكف الأوراق .

ومن لطيف نظمه قصيدته الذَّالية التي هي بنضار الألفاظ وجوهر المعاني حالية ، وهي قوله :

مُغْرى بحبِّك أين منك ملاذُه ... هيهات قد أودى به استحواذُه
ما شحَّ مذ عزّ التلاقي دمعه ... بل سَحّ منه وبلُه ورَذَاذُهُ
أشفى على مُرِّ التلاف وما شفى ... قلباً فهل من عندك استنقاذه
وهو اللَّديغ بأرقمٍ أرسلتَه ... للفزع ما أنجاه عنه لواذُه
وبفيك ترياق به تُرقى وما ... بسواه من لدغ الجفون عياذُه
خمرٌ يروح الرَّاح عند مذاقها ... في السّكر منبوذاً لها نبّاذُه
أيحلّ في شرع الهوى تعذيبُه ... كلا وإن يك عندك استلذاذُه
هلاَّ رفقت به فما كأخي الوفا ... في الحب ملاَّل الهوى ملاّذُه
عطفاً عليه ودع مقالة حاسدٍ ... واشٍ يطول بنمه أغذاذُه
يا أيها الرشأ الذي في حُبِّهِ ... من كل قلبٍ قُطِّعت أفلاذُه
عَجباً لجسمك وهو يشكو رقَةً ... ما لاذ إذ يلقى عليه لاذُه[2]
ولطرفك السَّحار تُرْسل سهمُه ... في دارعٍ وإلى حشاه نفاذُه
وسنان وَسْنان الجفون رأيتُه ... [ماضي الشَّبَا وفتورها شُحَّاذُه
والسّحر لم يختصّ طرفك إنما] [3] ... صُوِّرتَ منه فمن نرى عُوَّاذُه

---

(١) في (ز) تراتيب .

(٢) اللاذ : ثوب حرير أحمر صيني .

(٣) هذه المقطوعة ساقطة من (ش) .

فاستمل ما أُلْقِيه من بعض الَّذي ... أُلْقَى فإني في الهوى أُستاذُه
واسمع من الجمّ الغفير حَديثَه ... عَنّيْ ودع ما قاله شُذَّاذُه

وقوله في مليح أحول :

لا تظنّوا أن فيه حَوَلاً ... لا ومن قد صانه عن كل شين
إنما جاءَ رقيبٌ بينَنَا ... فاجتمعنا باختلاف الجهتين
فبعين قد رآه إذ رأى ... ورآني حذراً منه بعين

وقوله فيه أيضاً :

لا تحسبوه أحوراً أحولاً ... فليس في عينيه من ذاك شين
لكنه مذ مَدَحُوا عينه ... حَاول أن ينظر عيناً بعين

وقوله :

إذا جفاني حبيبي عن كراهته ... فلست أذكره سهواً ولا غلطا
كأنما هو حرف الرَّا يعرض لي ... في كلمةٍ وكأني واصل بن عطا[1]

وقوله في تشبيه حصن العروس[2] المحروس :

كأنما حصن العروس الذي ... قد لاح لي من بين أجناسِهِ
كاس فتىً ألقاه من كفّه ... فانقلب الكاس على راسِهِ

وكتب إليَّ رحمه الله تعالى مُلْغزاً في (سمادار)[3] وذلك في شهر ربيع الأول عام

---

(١) هو واصل بن عطاء رأس متكلمي المعتزلة ، كان يلثغ بالراء وقد ألف خطبة تعرف بالواصلية حذف منها هذا الحرف . توفي سنة (١٣١) .
(٢) العروس : حصن وبلدة في حضور ناحية بني مطر ، وهو مقابل لكوكبان من الجنوب . (معجم البلدان : ٤٤٠) .
(٣) سمادار قال في (ش) : سمادار لفظ فارسي بمعنى شيء مرتفع . والسميدار عند أهل صنعاء أقمشة ملونة يزين بها الجدار .

ثلاث عشرة سنة ومائة وألف وهو إذ ذاك بمدينة ذمار[1] المحروسة وأنا بمدينة شبام كوكبان قوله :

وما اسم لشيء يبتغي النَّاس أخذه فكم من فتى قد نال منه نَصيبًا
إذا قلت من اسمين ركّب أو تقل تركّب من فعلين كنت مصيبا
سمَا نصفه في الأفق فاعرف ونصفه تـراه على وجـه الثرى قـريبـا
كذا كله في نصفه صار دائراً فحقق وكن للغـز فيـه مجيبـا

فأجبته بقولي :

شفيـت فؤاداً لـلبعـاد كئـيبـا وطرفاً لطول البين سال نَحيبا
بنظمٍ سمَا قـدراً ودار بخمرة فدع عنك ثغراً للملاح شنيبا
وهَيَّجت منَّا الشوق للشعر بعدما نسينـا بأصـداف الفراق نسيبـا
وألغزت فيما لا بجرم وسالفٍ من الذَّنب أضحى في الجدار صليبا
تراه مع التعذيب يزداد بهجةً وحسنـاً إذا فكَّرت فيـه وطيبا
يحصل في التفصيل هذا ولم يكن لدى عدد عند الحساب صِعيبا
إذا قُلِب النّصف الذي صار أوَّلاً به كان من ماضي الزمان قَريبا[2]
وإن زيد حرف فوق نصفٍ مؤخرٍ به كان ملكاً في الملوك مهيبا[3]
وإن طال منه العُمر لم ترقط في ذوائِبــه عنـد السَّــواد مشِيْبــا
ضعيف القوى كم طاقةٍ جاز فاستمع لما قلت تلقَ الأمر فيه عجيبَا
ودم وابقَ ماهزَّ الحمام بسجعه على الدّوح ما بين الرياض قضِيْبَا
ومنَّ علينـا الله منـك بعـودةٍ يعود بها سفـح الدِّيـار رحيبَا

---

(١) ذمار : مدينة باليمن مشهورة ، تقع جنوبي صنعاء بمسافة (٩٩ كيلومتر) .
(٢) يعني : « أمس » .
(٣) يعني : (دارا) أحد ملوك الفرس .

وكتب من المنثور إلى الشيخ مصطفى بن فتح الحموي الشامي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى مُجيباً عليه ما صورته :

الصنو الشيخ المفيد علما ، أديب هذا العصر نَثراً ونَظما ، من شرُفت به مِنْ حماة[1] الأرجا ، وغَرّدت على غصن قلمه حمائم البلاغة فإذا هي من حمائم الروض أشجى ، السَّابق براعة ويراعة ، والجامع لفرائِد الفوائد التي تزيَّنت بالإضاءة وحُفظت عن الإضاعة ، وتخلَّق بأخلاق العلم والأدب فكانا لديه أنفق بضاعة ، محطّ الرجال والرِّحال ، وجامع خصال الكمال وكمال الخصال ، عنوان الفضل السامي ، مصطفى بن فتح الله الحموي الشامي ، أدام الله محامده ، وصاد بشباك خطّه من الفوائد أوابده ، ولا زال في ديار الشَّام عينا ، ووقاه من كمل خصاله بعد الكمال شينَا ، وجعله لحراسة المجد مصطفَى ، وفتح على أهل المعارف بمعرفة حقّه الذي من حَقّه الوفا ، وحمى حِمَاه مِنْ حَمَاة التي هي مَظْهر النُّبَلاء والظُّرفا ، وأناخ السَّلام الأطيب بمقَامِه ، وحَفَّه الله برحمته وإكرامِه ، ما ورد علينا البديع من نثره ونِظامِه ، وبعد : فإنه وَصِل إلينا كتابُه ، وفاجأنا على حين غفلةٍ خِطَابُه ، فوصلت إلينا بوصولِه الأفراح ، وفاجأنا بمفاجأته شراب المسرَّة لا شراب الرَّاح ، وكدنا من السّرور نطِير بأجنحة الأشواق ، ونغرّد بذكر محامده وفضائله مع ذوات الأطواق ، فأوسعناه رُحْباً وإكراماً ، وهِمْنا به حُبّاً وَوَجداً وغرامَا ، وأنزلناه حيث ينزل الإثمدُ من العين ، ووضَعْناه موضع التَّاج المصاغ من العين ، وذكر أنه تصدّى لوضع تاريخ في أعيان الزَّمان[2] ، وتصدّرَ لتحرير ذكرهم الذي تكفَّل لهم بالعُمْر الثَّان ، وتجرد لجمع فوائد الأسفار في بطون الأسفار ، واطلاع بدورها في ليل المداد لكي تبدو في غاية الإسفار ، فهذه حسنة من حسنات الدَّهر ، التي تمحى سيئاته بها محوَا ، وفوائده التي ينحوها من أتى من الخلف نَحْوَا ، على أنه قد

---

(١) حماة: بلدة بالشام معروفة .

(٢) هو كتابه المسمَّى « فوائد الارتحال » منه مخطوطة بمكتبة الشيخ العلامة حمد الجاسر .

ذهب زمان أهل الفضل ، واندرس ربع أهل القول الفصْل ، حتى جاء مُحيياً لسُننهم ، ناهجاً في الواضح الجلي من سننهم ، فلّله دَرّه من كامل لا يجارى ، ونبيه نبيل لا يُبَارَى ، وكتابه الواردِ بوُرود الرّبيع ، المشتمل على كذا كذا طريق من أنواع البديع ، يَشْهد بموضوعه أنه المرفوع ، وأن كلامه هو السّهل الممنوع ، فإنه جاء بألفاظٍ بديعة الاتّساق ، حلوة الجنى شهية المذاق ، مهدية من ثمراتِ الأوراق ما راق ، وذكر رغبته إلى أنَّا ننقل له ما لدينا من التَّراجم لأهل العصر ، ممن لا يدخل تعداد أوصافهم تحت المقدرة ولا يستطاع له الحصْر ، واستيفاء ما كان عليه والدنا رضي الله عنه من السِّمات التي تفردّ بها والخصال التي شمر لمنالها وتجرَّد ، وبلغ بها إلى حيث بلغ زحل في المرقى ، وأفصحت بالإعلان بها ساجعة الورقا ، وأنَّا أيضاً نرفع إليه مالنا من المسموعات ، والقراءة في أنواع العلوم المجموعات ، ونعدّد له مشايخنا الأئمة الأعلام ، ممن يتحطَّم دون استقصاء ذكرهم مبروّاتُ الأقلام ، وننقل له ما لنا من النَّظم أو بعضَه ، ونقطف له ما أمكن قطفه من زهوره الغَضَّة ، ليجعل ذلك في تاريخه مُخَلَّدا ، ويدعه في كل عَصْرٍ مجدَّدا ، فقد أحسن بذلك المطلب ، الذي أعلن عن صدق المودّة وأعرب ، وَكُنَّا نحب الوفاء بجميع الأغراض ، لولا عوائق تَصُد عن المرام من الحوادث والأعْراض ، فصدر إليه ما أمْكَن وإن قَلّ ، فخير الكلام ما هدى إلى المراد ودَلَّ ، وإذا أراد أستقصاء المطالب ، مما كان عليه والدنا من المناقِب ، فعليه بشيخنا العلامة نزيل البيت الحرام ، سَيِّدنا صالح بن المهدي المقبلي[1] رعاه الله فلديه من ذلك المقصود والمرام ، فإن والدنا أحد مشائخه الذين أخذ عنهم ما طاب مأخذا ، ونال ببركتهم ما أزال الشجا من حَلْق الفضل وأذهب عن عينه القذى ، واستيفاء ما أراده منَّا يصعب ويشق ، ويذوق القلم من مرارة رقمه مالم يَذُق ، ولو رام ذلك في كل أحد ، لأدَّى إلى استغراق الأوقات التي لا ترسم بحد ، وللزم الإحصار

(١) سيأتي ذكره .

وعدم الانحصار،وله أسوة في اختصار المؤلفين ممن تقدَّم في الأعصار، فليأخذ من كل شيء أحسَنه ، وليعتمد من كل لفظٍ أمتنه ، ونسأل الله تعالى لنا وله التَّوفيق التام ، والهداية الكاملة وحسن الختام ، والسلام عليه ما انهمل غمام ، وسَجَع على الغصون حمام ، حُرِّر في يوم الثلوث[1] المبارك لعله سادس عشر شهر شوال عام خمسة وتسعين وألف سنة .

وكان قد كتب إليّ عليه السَّلام كتاباً وهو بحصن مواهب[2] الكريم ومدينة ذمار لما غاب بها مدة طويلة بحضرة إمام الزَّمان وأثنى في كتابه على جوابي عليه في الإلغاز المتقدّم ذكره ، وأهدى لي هديّة سنيَّة وسألني عن حال ديار كوكبان المحروسة فكتبت إليه مجيباً عليه ما صورته ولفظه :

يقبل العبد كفّاً وسمت بالعطا ، وقدماً قسم لها في طرق المعالي أسرع الخُطَى ، للإمام الكامل في شروط اجْتهاده ، والعارف الذي أمهر عقائل العلوم في تحصيلها طويل سهاده ، البحر الذي نال قاصده درَّه وحوتَه ، والبَر الذي حَصْباؤه من جبال الياقوت منحوتَة ، شيخي وأستاذي ومولاي ووالدي وملاذي ، ومن ذقت على خوان إفادته أنواع فواكهي وملاذّي ، جمال الدنيا على العموم وجمال اليمن على الخصوص ، زاكي الأصول الذي عزَّت القياسات لماله من النّصوص ، وفاضل الزّمان ففضله في أنامل الوجود خواتم وفصوص ، من لو رُزقَت الصَّوارم ذكاه لما كلَّت ، ولو أعطيت سائر الرُّتب وجياد الهمم وتوضيحات العارفين عزمه لقيل في الثلاثة الأحوال جلّت ، ذو السَّماحة التي شكرها العفاة وشكاها النُّضار ، فلو هملت سحائبها على الرَّوض لما أضحى لقطر المطر في انتظار ، محمد بن الحسن دام ذا طرفٍ قرير ، مُتَبوّئاً من النعمة أرفع سرير ، نازلاً من رياض المآرب تحت

(١) الثلوث : لغة عند أهل اليمن في الثلاثاء ، وكذا الأربعاء فيقال له الربوع .

(٢) المواهب : مدينة شرقي ذمار بمسافة (١٠) كم ، وتتبع إدارياً عزلة منقذة . (معجم البلدان للمقحفي ص ٦٤٢) .

الظل الممدود فوق أعذب المشارب ، وقد نقشت يد النَّسيم معصم النّهر ، وفتَّحت بعد الغمض عيون الزَّهر ، ما خطرت الجنوب ، وهي متعطّرة الجيوب ، وما خلع الأفق [من الأصيل حُلَّة صفرا سُحِّفَتْ[١] بالغيوم ، ولبس من الشَّفق حلة حمرا مزرورة بالنجوم][٢] ، وخدمه عني السَّلام في أبهى حُلَّة من الكلام ، يطيب طيب الثّمار في المقاطف ، ويفوح فوحان الزَّهر في غصون رطيبه العاطف ، يكون لحضرته السامية أتبع من الظّل ، وألزم من الحمامة للرَّوض الخضل ، وحَيَّاه الإكرام ، ما سنحت الآرام ، إكرامٌ خمرة نفثاته لإحداث السّرور مأمولة ، قد اشتمل عليها القرطاس فهي على الحالين مشمولة ، يدار بمقامه في المغْدى والمراح ، وإن كنت قد أسأت في خطابه بذكر الرَّاح ، فإنه ما عرف منها ممزوجاً ولا صرفاً ، ولا أجال في ميدان اللَّذات للسَّبق إلى اللهو من كميتها طِرفًا ، هذا وإن كتابَه عليّ ورد، ولدرّه المنضود في أسماط سطوره سرد ،ولطرسِه جلا فإذا هو حديقة قد رصَّع زمرد نباتها جوهر البرد ، فحلَّ مني محلَّ الحبيب ، ونظر في دائي من الفراق نظر الطَّبيب ، فأبرأ من علّتي ما ظننت أنه بغير الاجتماع لا يبرا ، وأوسعني عنه الاعتزال للَّناس بِسُنَّته الحميدة حَبْرا ، وذكَّرني مرقومه شريف أنامله راقمه وعظيم راحَتِه ، وعلمت وقد سمح لي بدره المكنون أنه جرى على المعهود من سماحتِه ، وقلتُ هذا هو الفلك هبط إليَّ عن زواهِرِه، [أم هذا هو الصَّدف قد أهدى إليَّ بما انطبق عليه من جواهره][٣] ، أم هذا معدن التّبر الذي أمسيت به غنيًّا ، أم هذا هو الرَّوض دخل إلى منزلي غضًّاً جنيًّاً ، ولما أفقت من سكرة السّرور ، رجعت إلى الصواب من الأمور ، وقلت لا والله هذا طرسٌ وصل إليّ من أبي ، وحباني بألفاظِه النفيسة وكم مثلي بمثلِه منه قد حُبِي ، فأوسعتهُ عند ذلك تقبيلا ، ووضعته على

---

(١) أسحفت الريح السحاب : ذهبت به .
(٢) ساقط من (ش) .
(٣) ساقط من (ز) .

الرَّأس إعزازاً أو تَجْليلا ، وزال به مالازمني من الإيحاش ، وسكن به جأشٌ مني طالما بالأشجان جاش ، ورجع إليّ عقلي لأنه منذ فارقته طاش ، فأنا بعده أضيع من غَمْدٍ بلا نَصْل ، وأذوَى من فرعٍ قطع عن الأصل ، بل أضيع من بَيْضَة البَلد ، وقد عدمت الصَّبر وفقدت الجلد ، لما طفرت[1] منّي الوطاب ، وخَبُث الْوِرد وما طاب ، وحُرِمت منه الغَرف ، وفصل الدَّهر بيني وبينه كما فُصِل بين المضاف والمضاف[2] إليه بالظَرْف ، أتَدرَّع من الأيام لبوسِها ، وألبس لكل حالَةٍ ما يليق من لَبُوسِهَا ، إن ذكرت يا مولاي بين يديك مجالس درسي ، صوَّح من نار الشوق نبتي وَذَوى غَرْسي ، فأنا في البيت منقطع من الكآبَة ، وفي زاوية خمر لي كالمحبّ ينتظر من محبوبه الغائب مآبَه، فما سامرتُ الغيد الحسان شَغَفاً بجمالها، وإنما جالستُها لتعيرني درر عقودها المُنَضَّدة عَن كَمَالِها ، لأنظمها في علياك مدحاً إذا حبَّر مطوقي بإنعامك صدحاً ، فسقياً لإفادتك ورعياً ، لو أنه يمكنني لسعيت على الرَّأس إليها سعياً ، ولكنني سأتدرّع الصبر ، وأسأل الله لهذا الصَّدع تَعْجيل الجبر ، نعم أيها الوالد الذي تمكن حُبُّه في الخَلَد ، لَمَّا أفرط في البرِّ بي حتى كأني الوالد وهو الولد ، أراك أطلت التَّنائي والبعاد ، وأعرضت في هذه الغيبة عن سَلْمى وعن سعاد ، والمَيْلُ إلى الوطن ألْيق وأولَى ، والرجوع إلى الأهل مما يزداد به المرء طَوْلا ، فجفاء الأوطان شين ، ومن الحُوْب إطالة الرحيل عنها والبين ، وأما مواهب الكريم ، التي ليس فيها من يريم ، فما أراها تصلح لك دار إقامة ، فطالما شكا النَّسيم لوبائها سُقَامه ، فقد وجبت عن هجرتها[3] الهجرة ، ولو مَلأ الإنسان من إفضال من بها حجره ، كيف وما بها إلاَّ لئيم ، منّاع للخير معتد أثيم ، لا يعرف لذي فَضْل فَضْلَه ، ولا يدع له في أسباب الخيرات فضْله ، مع أن نظيرك

(١) في (ز) صفرت .
(٢) سيأتي للمؤلف شرح هذه الجملة .
(٣) الهجرة : هي المدينة المحترمة بعلمائها وطلبة العلم بها .

بها معدوم ، وطعام فضْلَك على موائدها غير مأدوم :

فأنت ذو غربةٍ لما نـزلت بها إن النَّفيس غريب حيث ما كانا

وأما ذمار وإن طابت ذكْراً ، فليست تصلح لأسدِك عَرِيناً ولا لبازِك وَكْرا ، سَوَى دَهَاء الخطب سَوَادها[1]، وعَطّل في ميْدان[1] الألف جوادها ، أم دخلت عليها المسرة من باب الفِلاك[2] ، وجعلت العمودي[1] لأفراخها أرفع الملاك ، وأطاعك مِصْرُها ، ومَدّ ظِلال الوفر عليك قَصْرُها[1] ، وجاءك الهناء بها يجّد ولا يهزل ، وعرف الطريق إليك فبات دون المنزِل[1] ، وخلعت عليك حمائمها أطواق ريشها ، وجَرَى جَيْشُها في طاعتك بجراجِيشها[3] ، وتَمّ لعدوك بها قَهْران[1] ، وبات طرفه بها للغيظ منك أيَّ سهْران ، فقد ساوَرَ أسدك بها هرَّان[4] ، ففارقها مفارقة نافرٍ وقال ، ودع من أهلها كثره قيلٍ وقال ، وأثنيتُم على أبيات ولدكم المملوك ، وجعلتم الجزع الذي أهداه بمنزلة الدّر المسلوك ، وأودعتم نظمه منكم ذَوْقاً سليْما ، وفُتنتُم به وما مِن حقِّه أن يفتن مثلكم حَلِيْما ، ومَا أقول إلَّا أن هذه فتنة العُقلاء ، ونظر الوالد إلى وَلَدِه بعين المحبّة على أنه لو أنصف لقلى ، وما تفضل به مولانا من الهدية وصل ، وحصل عليه المملوك فإذا هو على البُغْية المقصودة من الدنيا حصل ، لأن في ذلك دليلاً من المولى على الرّضى ، الذي لم أزل له في كل لحظةٍ متعرضا ، ولا أقول عند هذه الهدية التي يقال بجنبها للسخي[5] مَه ، بأنها تنزع الوَّغر من صدري وتذهب بالسخيمة[6] ، فإني

(١) أحياء ذمار في ذلك الوقت ، سيأتي شرحها .

(٢) قرية عامرة من عزلة جبل الدار ناحية عنس من قضاء ذمار (التعداد : ٣٣/٥) .

(٣) الجراجيش : حارة من ذمار (معروفة) وسيأتي ضبطه .

(٤) هِرَّان : جبل بركاني شمالي مدينة ذمار وكانت به قرية عامرة (المقحفي ٦٧٧) .

(٥) في (ش) للشيخ .

(٦) في (ز) تنزع .

أستعيذ بالله أن يشتمل قلبي له على حقد ، وكيف وهو الذي حلَّاني من الفضل بأبهى قلادة وأبهج عِقْد ، بل أقول مع ذلك الإفضال الذي أنا به أَنِس ، ما قاله مجد الدين بن فخر الدين بن مُكَانِس ، في خطاب والده وقد أهدى له شيئاً من النفائس :

تناهيت في برِّي إلى أن هديتني وقد كنتُ قبل اليوم في الغي ساريا
وأهديت لي ما حيَّر الفكر حسنُه فلا زلت في الحالين للعبد هاديَا

وسألتم عن حال الدِّيار ، لما عَزّ عليها منكم الازديار ، فحالها حال المُفَارِق ، الذي شابت لهول نَأْيِ أحبابه منه المَفَارِق ، فكوكبان لبُعْدِكم ضَيّق الأرجا ، لم يقتعد السّرور من الهِلَال فوق جواد جَبَلِه سَرْجَا ، قد فات ثغرُه لما غبتم عنه الشَّنَب ، وعدم سفحه الرَّاس منكم فلم يلف من أبنائه سوى الذَّنَب ، ضاقت طرقه بالقطع ، وأعرض قمريه عن الصَّدح وقمرُه عَنِ السَّطْع ، وأمَّا مدينة شِبَام فقد أضرم الشَّوقُ أوَارَهَا ، وعمد النّقص إليها اما غابت محاسِنُكم عنها فكشف عُوَارَهَا ، فلا سَفْحها بالسفح الذي تعهدونَه ، ولا بَرُّها بالبَرّ الذي كنا نرى شعب بَوَّان[1] دونَه ، قد أظلم أُفقُها اكتئابا ، وضاق واسعه لبعدكم فما زال يسأل الله لكم إليه إيَابَا ، وعلى الجملة فالمقال في شرح الحال يطول ، وعنده أصابني الخرس فماذا أنطق به وماذا أقول ، فالأولى وهي طريقة الأدب التي يليق بي سلوكها ، أنّي أقصرِّ العبارة فقد حان من شمس مقالتي دلوكُها ، صوناً لسمعك عن هذا الهذر والهُرا ، والكلام الذّي رثَّت حِبَالُه وفُصمت منه العُرا ، ولكن كُلُّ فلكٍ يطلع بدْره ، وكل طائر يصيدُ قدْره ، فلو أنّي خشيت سيْل بِلْعتي[2] ، لجوزت الخُسْران في بيع سِلْعتي ، ولكن فعلْت ما فعلتُ وقلت ما قلتُ ، وأنا أعلم أني قَصَّرت فيما جئتُ به

(١) شعب بَوَّان : بلد بأرض فارس بين أرجان والنوبند جان ، وهو أحد منتزهات الدنيا . (مراصد الاطلاع ٢٢٨) .

(٢) في (ز) تلعتي و (ش) بلغتي .

وماطلتُ ، فتجاوز عنه بعفوك ، ورمِّم متخرقه برفوك ، فلا حرج ولا جُناح ، وهل نهض بازي بلا جناح ، وأنت في غِنى عن توسيع المجال ، وبَسْط العبارة في الفضلة من المقال ، مقال عاهدتك بحروفه المسطورة ، فودَّت أن تكون له صحيفة كل روضة ممطورة ، وتمنَّت القلائد اللؤلؤيِّه المصفوفة ، أن تكون له سطوراً منسوقة مرصوفة ، وقالت النّجوم ليتني له الكلمات فقال اللَّيل وأنا الحِبر ، ونادت الغيد بمجمع الملاح لو أنْصفت لقلَّدت هذا ولم أقلَّد بالجواهر والتبر ، فاقبله مِنَّا ، وتناول رقَّه منَّا ، والله يمنّ علينا بعودك سَالمًا ، ويأسو بقربك قلباً ظل له تنائيك[1] كالما ، ويُبقيك ما قرن في المجد طريف بتالد ، ويحرسك ما اشتاق عبدٌ دُعِي بالوَلد إلى سَيِّد دُعي بالوالد ، والسَّلام .

قولي في هذا المنثور « وفَصَل الدَّهر بيني وبينه كما فُصِل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف » معنى هذه الفقرة ظاهر لأنه يجوز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظَّرف في الشّعر ولذا قال ابن دَانيال[2] رحمه الله تعالى :

فقد يحدث الظَّرف بين المضاف ... وبين المضاف إليه انفصالا

والفصل بالظرف بين المضاف والمضاف إليه يقع سواء كان الظرف حقيقيّاً كقول عمرو بن قميئة[3] :

لمّا رأت ساتيدَ ما استعبرت ... لله در اليومَ من لامها

---

(١) في (ز) ثنائك .

(٢) هو شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي ، طبيب وشاعر ولد سنة (٦٤٧) له « طيف الخيال » و « ديوان شعر » توفي سنة (٧١٠) . (فوات الوفيات : ١٩٠/٢ و الأعلام : ١٢٠/٦) .

(٣) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك التغلبي البكري ، شاعر جاهلي صحب امرأ القيس إلى قيصر ، وهو الذي عناه بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا

ومات في الطريق نحو سنة (٨٥) قبل الهجرة .

فقد فصل بين المضاف وهو قوله دَرّ وبين المضاف إليه وهو من[1] بالظَّرف الحقيقي وهو اليوم المنصوب على الظَّرفية قال محمد بن الوليد[2] لا يجوز في اليوم إلاَّ النَّصب لأنه لو خفض لم يكن لمن ما تَعْمل فيه انتهى كلامه ومنه أيضاً قول الشاعر :

كما خُطَّ الكتاب بكفِّ يوماً   يهوديٍّ يقارب أو يزيل

فقد فَصَل فيه أيضاً بين المضاف وهو قوله « كفّ » وبين المضاف إليه وهو قوله « يهودي » بالظَّرف الحقيقي وهو قوله « يوماً » المنصوب على الظَّرفية أيضاً ، وكان الطرف مجازياً بأن يكون الفاصل حرف جر ، كقول ذي الرمَّة[3] :

كأن أصوات من إيغالهن بنَا   أواخر[4] الميس أنقاض الفراريج

فقد فصل فيه بين المضاف ، وهو قوله : « أصوات » وبين المضاف إليه وهو « أواخرالميس » بالظَّرف المجازي وهو من « إيغالهن بنا » وأما الفَصْل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظَّرف فمستكره ضعَيف منعه البَصْريون وأجازه الكوفيون ، كقول الشاعر :

فزججتها بمزجّةٍ   زجَّ القلوص أبي مزادَه

فإنه فصل بين المضاف وهو قوله « زجّ » وبين المضاف إليه وهو « أبي مزاده » بغير الظَّرف وهو القلوص ؛ وحَكى الكسائي عن العرب : هذا غلام والله زيد بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بالقسم ، قال : سمعتُ بعض العرب تقول أنَّ

(١) من (ز) سقط .
(٢) هو محمد بن الوليد بن ولاد نحوي من أهل مصر وفاته سنة (٢٩٨) . (بغية الوعاة : ١١٢) .
(٣) هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي ، شاعر غزل شعره في ثلاث مجلدات ضخمة ، وفاته سنة (١١٧) . (وفيات الأعيان : ١/٤٠٤ و الأعلام : ٥/١٢٤) .
(٤) ساقط من (ز) .

الشاة لتحن فتسمع صوت والله ربها . قال البصريُّون : لا حجة في هذا البَيْت الذي رواه الكوفيّون لأنه يُروى لبعض المدنيّين المولَّدين وليس من شعر العرب ، وأمَّا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالقسم فيجوز لأنه يدخل على أخبارهم للتَّأكيد ولا يجوز القياس عليه .

قولي : وأما « ذمار » إلى قولي « هرّان » هذه الفقر فيها ذكر أسماء بقاعٍ معروفة بمدينة ذمار المحروسة وما حولها ، هو السواد في قولنا « سوادها » وكذلك ميدان الألف وباب الفلاك والعمودي والقصر والمنزل والجراجيش في قولنا « بجراجيشها » بالجيمين والشين المعجمة ، وقهران وهرَّان وهو الحصن المعروف ، فافهم المقصود

قولي : وما أقول إلّا أن هذه فتنة العقلاء قد ذكر الأفاضل أن من طبع الإنسان افتتانه بابنه وافتتانه أيضاً بشعر نفسه [أيضاً] قال الشاعر :

ويسيء بالإحسان ظنّاً لا كَمَن ... هــو بـابنــه وبشعـره مفتــونُ

وقال الرياشي(1) رحمه الله تعالى(2) :

نعم ضجيع الفتى إذا برد الـ ... ـليـل سُحَيْراً وقـرْقف الصَّـرْدُ
زينهـا الله في الـفـؤاد كـما ... زُيـن في عـين والـدٍ ولـدُ

ولكن يُقال لهذه الفتنة فتنة العقلاء ، وإليه أشرتُ أنا في الفقرة ، قال الشاعر :

والمـرءُ يفتن بـابنــه وبشعــرِه ... لكن ذلـك فـتنـة الـعقـلاءِ

---

(1) في الأصل الرياسي بالسِّين المهملة والإصلاح من عندنا ، وهو أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي ، كان عالماً راوية عارفاً بأخبار العرب ، توفي سنة (٢٥٧) مقتولاً في ثورة الزنج . (الوفيات : ٢٨/٣) ط إحسان عباس .

(2) قلت : هذان البيتان ليسا له ، وإنما رواهما عن الأصمعي . (انظر الوفيات : ٢٧/٣) .

قولي : (ولا أقول عند هذه الهديّة) إلى آخر الفقرة الثانية في الفقرتين كما ترى الجناس والسَّخيمة بالسين المهملة والخاء المعجمة واحدة السخائم وهي الحقود ، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ « الهدية تذهب بالسَّخيمة » أي الحقد وفي الحديث[1] أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام : « تهادوا تَذْهب الإحن والسَّخائم » وإلى هذا أشرت أنا أيضاً لمّا قلت في التَّورية مع الاكتفاء :

أهـدَى لـنـا هَـدِيَّـةً ... من لُـطفِـه يحكى الـرّخا
أذهـب عـنـا إحـنـاً ... إذ جـاد فضـلاً وسخـا(ئم)

(١) من حديث الأحنف . (النهاية : ٢/٣١٥) .

السيِّد عيسى بن لطف الله بن المطهَّر بن شَرَفِ الدين[1]

هذا ممن قرب عهدُه ، وكاد أن لا يخرج عن أهل العصر عدُّه ، فلم أستحسن اطِّراح ذكرِه ، ولم أسمح بعدم إيراد شيء من بنات فكره ، فأقول :

هو ماجد استدرك من الفضل ما قارب فوتا ، وأحيا ميِّت المعالي ولا غرو فعيسى عُرِف بإحياء الموتَى ، فرع رياسة وفراسة ، وثمرة رَوْضٍ أحسن المجد غِراسه ، هو بحرٌ لا فالبحر مالح ، وهو روض لا فالرَّوض قد يكون ذا غصنٍ قالح[2]، وهو بَدْر لا فالبدر لا يعتريه النّقصان، وهو شمس لا فالشمس تنكسفُ ببعض الأزمان ، نعم هو بحرٌ ولكن سائِغ شرابُه ، وهو روض ولكن لا تَذْوَى من غصونه رطابُه ، وهو بدر ولكن لا يشينه السِّرَار[3] وقد بدا ، وهو شمس ولكن لا تنكسف أبدا ، له غصون فخر أورقت ، ما نال باسقها الأعداء سوى حُطَّت درجاتهم أورَقت [ولا جنى ثمرها منهم أحدٌ سوى همعت مدامعه في طلبُ العُلَى أورقت[4]] كف الدهر به خضيب ، وبُرد المحامد بمعاليه مفوّف قَشِيب ، تَنُم نسمات لطفه على الأزهار ، وتفعل في أعطاف الغصون من السّكرة ما تفعله سلافة

---

(١) أديب ومؤرّخ ، من مؤلفاته « روح الروح » في التاريخ ، وجمع شعر الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين ، وفاته سنة (١٠٤٨) . (خلاصة الأثر : ٢٣٦/٣ و البدر الطالع : ٥١٦/١) .

(٢) يابس .

(٣) السِّرار : الشهر آخر ليلة منه .

(٤) ساقط من (ش) .

الأنهار ، مع فصاحة وعرفان طاب للسامعين منهما صنفان[1] ، وتخيُّرٍ للأدب وانتقاد ، ورياضةٍ لجموح البلاغة حتى أصبح بعِنَانه يُقاد ، وهو في علم النجوم صاحب الدَّقائق ، وفي أسراره الغامضة مجمع الحقائق ، طالما حمل لواءها على المناكب ، حتى كادت أن تُسمَّى به أعلاط الكواكب[2] ، وطالما أخبر قبل الوقوع بالخير والشَّر، حتّى حكم له بانفراد مزيّته ولم يُعَد من مَعْشَر أبو مَعْشَر[3] ، فكأن المجرّة زمام الفلك ، وهو بِيَده يروضُه فأين ما شاء سلك ، لأنه في علم الفلك قَوي الحِبَاك ، فما رقم جداوله فيه لصَيْد حوتِ السَّماء الأشبَاك ، فهو بيت الكوكب وشرفُه ، الزَّاهرة بِطَالعِه غُرَفُه ، له في منازِله النّعمة والقبول ، والاستِعلاء برفع الطَّبيعة فما إليه وصُول ، وله قُوَّة وإقبال ، ولمن أراد لحاقه الإدبار والوبال ، ما لسهمه ردّ ، ولا لتثليثه وتربيعه وتسديسه من عَدّ ، فما له عن مراكزه من هبوط ، ولا له في أحكام سواقطه من سقوط ، وأما في علم التَّاريخ ، فصاحب اليد الطُّولَى ، التي تقصر عندها الشَّماريخ[4] ، وله فيه كتاب « رَوْح الرُّوح[5] ، فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح» [6] ، وقد طالعته في خِلْوَة ، وذُقت له عبارة حِلْوَة ، وكان يَعْتزي إلى الأتراك ، وينصب من الاتصال بهم لطَيْر الثَّروة الأشراك ، وبعناية بعضهم أَلَّف كتابه المسمَّى بـ« الأنفاس اليمنية » ، وبأنامل سطوره تناول من دوح الأمل ثمراته الجنية ، فظلَّ في نعمةٍ

---

(١) في (ز) عرفان .

(٢) أعلاط الكواكب : الدراري التي لا أسماء لها . تقول العرب : لو كنت من العرب لكنت من أنباطها أو من النجوم لكنت من أعلاطها .

(٣) أبو معشر : هو جعفر بن محمد البلخي ، عالم فلكي ، له مؤلفات في الفلك ، ووفاته سنة (٢٧٤) . (وفيات الأعيان : ١١٢/١ و الأعلام : ١٢٧/٢) .

(٤) رؤوس الجبال .

(٥) في المطبوع من هذا الكتاب « الفتن » .

(٦) في التاريخ طبع أخيراً بالتَّصوير .

أبرد من صبا العَشيّة ، وجَرَت له الإرادة على مقتضى المشية ، فأصبحت أيَّامه أيام العروس ، وأوقاته أصيل القلوب وسحر النفوس،وله نظم حلا مذاقا ، يدير على الأتراب كأساً دِهاقا ، فمن نفثات قَلَمِه ، وسحر بيانه وَكَلِمِه ، ما رثى به قتيلاً ، أخذ في المعركة أخذاً وبيلاً ، وكان إذ ذاك غلاماً جميلاً ، فهو بَدْرٌ في الشَّفق من دمه غاب ، وغزال افترسته من الأتراك أسود غاب ، وهو قوله :

حُيِّيت يا ساجي الأجفان حييتَا ... وبالرِّضَى من رخيم الخلق لقِّيتا
ومن كؤوسٍ وأكواب مشعشعةٍ ... ختامها المسك في الفردوس سُقِّيتا
يا شادناً سفحت سمر القنا دَمَهُ ... واستأصل السيف منه الراس واللَّيتا[1]
غالتك صحبك لما قهقروا هرباً ... وَمزَّقوا فرعاً تلك الأماريتا
وأفردوك لأسدٍ ما فرائسها ... سوى الفوارس أو من كان منعوتا
في فِتيَةٍ من كماة الترك ما تركت ... للرَّعد في حالةٍ صوتاً ولا صيتَا
قومٌ إذا قوبلوا كانوا ملائكةً ... حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا
ظننت أن لقاهم مثل دَوْركم ... في كوكبان بهذا صرت ممقوتَا
وما عرفت رجالاً قد نضوا حنقاً ... لروح محربهم بيضاً مصاليتَا
ويح الذين تولَّوا عنك وانصرفوا ... لو أنهم ثبتوا ما صرت مثبوتا
قد كنت أهوى بأن تأوي إلى نظري ... فالآن من لي بجعل القلب تابُوتَا[2]
عَذَّبتني بالجفا وقت الحياة وفي ... مماتك الآن قد أحرمتني القوتا
قبلتُ منك عذاب الحالتين معاً ... حيّاً وميتاً فيا طول الجوى هيتَا
يا زَهرةً قطفت من بعد ما ابتسمت ... وزُهْرَةٌ[3] غربت مذ وافت الحوتا[4]

---

(١) الليت : صفحة العنق .
(٢) هذا البيت ساقط من (ش) .
(٣) الزهرة : معروفة ، وهي كوكب سيّار .
(٤) الحوت : برج من أبراج السماء .

لهفي على المقلة الكحلا التي قُصرت عن سحر نعستها عن سحر هاروتا
والقامة اللَّدنة الَّتي إذا خطرت أو انثنت عاد غصن البان مبهوتا
كأنما راسُه لمَّا بدا صنَمٌ قد أبرزوه من الإبريز منحوتَا
قد عَطَّر السَّفح منه الدَّم حين جرى كذا دم الظَّبي مهما صار مفتوتا
لو شاهدته النَّصارى قال عالمهم
قوموا انظروا قد حوى الناسوت[1] لاهوتا[2]
لهفي عليه ولهفي منه يا كمدي كم قد جرى الصَّبر بالهجران تَشْتيتَا
وكم حماني في وقت الحياة لمى أشهى إلى مهجتي من نهر طالوتَا
سقى الإله ضريحاً أنت ساكنُه وُطْف الغمائم لا يجفو المواقيتا
حتى يُرى حول ذاك القبر مبتسماً زهر الروابي حَكَى دُرّاً وياقوتا

قوله في « فتية من كماة الترك » البيت ، وكذا البيت الذي يليه ، وهو قوله « قوم إذا قُوْبلُوْا » هما مضّمنان من قصيدة لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان الغَزّي[3] الكلبي منها قوله :

أمط عن الدّرر الزّهر اليواقيتا واجعل لحج تلاقينا مواقيتا
فثغرك اللؤلؤ المبيض لا الحجرال مسودّ حاشاه من وصم وحوشيتَا
قابلت بالشنب الأجفان مبتسماً فلاح من ناظريك[4] السّحر منكوتا
وكان فوك اليد البيضاء جاء بها موسى وعيناك هاروتَا وماروتا
جمعت ضديّن كان الجمع بينهما لكل جمع من الألباب تشتيتا

---

(١) الناسوت : هي الطبيعة الإنسانية ، والكلمة (سريانية) .
(٢) اللاهوت : الألوهية ، زيدت فيه الواو والتاء مبالغة، كما زيدت في جبروت وملكوت .
(٣) من الأدباء الشعراء ترجمته في (خريدة القصر : ٤/١ و ابن خلّكان: ٥٧/١) وفيه وفاته سنة (٥٢٤) . وانظر (الأعلام : ٥٠/١) .
(٤) في (ز) ناظيرك .

جسماً من الماء مشروباً بأعيننا يضم قلباً من الأصلاد منحوتا
مسكاً حسبت فؤادي صار فيه دماً فلا يغادره مسحوقاً ومفتوتا
المسك من سرر الغزلان مكتسبٌ والله ينبته فيهن تَنْبيتَا
ونشر ذكراك أذكى الطِّيب رائحةً ونور وجهك ردّ البدر مبهوتا
غيَّرت طرفك[1] في هجري وقلت له لو استطعت إلينا في الهوى جيتَا

ولصاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى في مرآة ناظور بديعة التَّركيب ، حسنة التَّقريب :

حبَّذا مِرْآة عينٍ جمعت كلّ الوَسَامه
كلّ من ينظر فيها فهو زَرْقاء اليمامه

وهذه زرقاء اليمامة جارية من قبيلة جَديس كانت تنظر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام وهي مشهورة ، ولها أخبار مذكورة ، ونقلتُ له من خطّه قوله :

وحبيبٌ قال : صِفني بوجيزٍ في المقاله
قلت : غصنٌ في كثيبٍ وغزالٌ وَغزاله

ومن هذا قول الشيخ عز الدّين الموصلي[2] رحمه الله تعالى :

قيل صف هذا الذي همت به قلت في وصفي مع حسن المسالك
هو كالشمس وكالبدر وكالغصـ ـن وكالظَّبي وما أشبه ذلك

وقوله :

كتَم العاشقون وجداً دفيناً وغرامي أبدى الجوى والرَّسيسا
فإذا كان في القيامة نودي من قتيل الهوى تقدَّم عيسَى

---

(١) في (ز) طيفك .

(٢) هو علي بن الحسين بن علي الموصلي ، شاعر مشهور له بديعية ، ووفاته سنة (٧٨٩) . (الدرر الكامنة : ٣/١١٢) .

وقوله مضَمناً :

تَعرَّضت من ليلى لوصل فأعرضت وعَزَّت عن اللّقيا وما برحت تعلو
فَلمَّا تقضىً حسنهُا وجمالها دعتني لوصلٍ حيث لا ينفع الوصلُ

وقوله في مليح جزَّار ذبح كبشاً ثم أمسك السّكين بعد التَّذكية بفمه :

يا واضع السكين بعد ذبيحةٍ في فيه يسقيها رضاب شفاته
عدها إلى المذبوح ثاني مَرَّةٍ وأنا الكفيل له بردّ حياتِهِ[1]

قلت : ولا غرو أن يتكفَّل عيسى للميت بردّ الحياة ، وقوله رحمه الله تعالى في تشبيه المريخ :

كأنما المريخ لما بدا في ليلة السحب مع دجْنَه
يا قوتة قد صانها أهلها وأودعوها في حَشَى قُطْنَه

وقوله رباعية :

أقسمتُ بنون حاجبيك المقرون ما قاسى هواي فيك قيس المجنون
كم تسهرني بطول صدٍّ وقلى كم تذهب غاضباً عَلَيْ يا ذَا النون[1]

وهو مأخوذ منِ قول صفي الدِّين الحلي[2] رحمه الله تعالى[3] :

عاتبته فتضَرمَّت وجناتُه وازورَّ ألحاظاً وقطَّب حاجِبَا
فأراني[4] الخدّ الكليم وحاجباً ذا النون إذ ذهب الغداة مغاضبَا

---

(١) اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ .

(٢) هو صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن علي الحلي ، ولد بالحلة سنة (٦٧٧) ، واشتغل بالتجارة ثم تقرّب إلى الملوك ومدحهم ، له ديوان شعر ، ووفاته سنة (٧٥٠) . (الدرر الكامنة : ٣٦٩/٢ و الأعلام : ١٨/٤) .

(٣) ديوانه (٩٦) ط دار صادر .

(٤) الديوان ، فإذا بني .

وقال عمَّنا القاضي العماد الخطيب الوزير يحيى بن الحسن الحيمي[1] رحمه الله تعالى في قصيدته النونية الآتي ذكرها في ترجمته إن شاء الله تعالى :

من نون حاجبه وسين جبينه ... ما زلت أقرأ نون مع يسينِ
إن قلت صلني صال حيش مغضب ... منه وصار مغاضباً ذو النونِ

وله أعني صاحب التَّرجمة في الدُّوبيت نظم كثير ، وطريقة تبعث الهوى الكامن وتثير ، تعد من آيات عيسى ، لما أحيت من ميت الغرام رسيساً[2] ، منها قَولُه :

يا من بعيونه سقاني خمرة ... حتى أمسيت ذاهلاً في سكرة
لا تنْكر قَتْلتي ولا تجحدها ... فالشَّاهد في الخدود تلك الخمرة

وقوله :

في الحب كمثل قضيتي لم تجرِ ... الدَّمع من العيون أمسى يجري
أقسمت بسافح الدما في بدر[3] ... لا أموت جوىً إن لم يزرني بدْري

وقوله :

يا مخجل بالجمال شمس الإشراق ... لي قلب إلى لقاك أمسى خفَّاق
لولاك لما شجاه نوح الورقا ... في اللَّيل ولا رعى نجوم الآفاق

وقوله :

قد زان فويتني العذار السائل ... لولاه لما أجريت دمعي السائل
لم يرحم مدمعي ولا رقَّ له ... هل يُحمَد في الأنام ردّ السائل

---

(١) سيأتي .

(٢) الرسيس : الثابت .

(٣) يعني غزوة بدر .

وقوله :

أفدي رشأ إلى الجمال انتسبا ... بالحسن وبالدلال للعقل سبا
قد ذَوقني لَمَّا جفاني وَصَبا ... والصَّبْر ممزق كتمزيق سبا

وقوله :

يا محرق مهجتي بنار الحسرة ... الصبُّ غَرامُه قديم الهجره
من دَمع مقاه مستهل لكن ... من طلعة وجهه المليح الغُرَّه

وقوله :

أفدي رشأ قاسيت منه وصَبَا ... يَهْتز قوامه إذا مرّ صَبَا
منه قد ذقت إذ جفاني وَصَبَا ... والقلب إليه مال وجداً وَصَبَا

وقوله :

أشكو يارَبّ حادثاً يبريني ... يَنْهدّ ببعضِه ذُرَا يبرِين
إن لم منه يا سيدي تكفيني ... في الحال فقد دنوت من تكفيني

وقوله :

ياربّ بحرمة الرَّسول المختار ... الشَّافع للعباد من حَرِّ النار
بلغني ما أريده وامنحني ... يارب بفَرجة تزيل الأكدار

وَلَدُهُ السَّيِّد جَعْفَر بن عِيْسَى بن لُطْفِ الله[1]

ذو محاسن فاقت ، وشمائِل رَقَّت وراقت ، روض أدبٍ مريع ، قد أدهم نَبَاته بشباب الربيع ، فما أعطر شميمه ، وما ألطف نَسيمهُ ، وما أبرد ظِلّه ، وما أبهج في الأوراق طَلّه ، وما أغرد أطياره ، وما أطيب أثماره ، وما أنفح أزهاره ، وما أحلى أنهاره ، حمامةُ أدبه مطوَّقة ، وأسهم ذكائِه مُفوَّقة ، نظم من الشّعر عقداً ، ممّا تقل الزُّهر أن تكون في شرابه نقداً ، وحبّره حتى لا يجد الطّاعن به نقداً ، ونظمه في الحميني كثير ، ومقامه فيه مقام أثير ، كان يُهْدي إليَّ مِنْه جنيًا غضًا ، ويسمعني من معانيه ما يغضّ الرَّوض لَديه طرف نرجسهِ غَضًا ، حسداً منه أن يرى ما يُفضحه نشراً وبهجة ، ويكذّب نَمامه ويعقد من بنفسجه اللّهجة ، حاز من الكمال فنونه ، وسَلَب من البحر دُرّه فَعنْبره فنُونه ، وكان يُرى في زيّ الخبال ، والقلق الذي لا يخطر ببال ، لَمّا أفرط في الرّقّة السيَّالة ، وطاوعت نسيم اللطف أغصانه الميالة ، فسهمه طائش ، وهو له من قوادم الخفة رائش ، ومن شعره قوله[2] :

في القلب من لحظات الخِلّ[3] أشجانُ   وفي الفؤاد من الهجران نِيرانُ
وكيف أعرض[4] عن ذكر الحبيب وفي   قلبي جَوىً وسحاب الجفن هتَّان

---

(١) ترجمته في (نفحة الريحانة : ٣/٣٣٠) ولم يؤرخ لوفاته .
(٢) أوردها المحبي في النَّفحة .
(٣) النفحة : « الحب » .
(٤) النفحة : « افتر » .

وللفؤاد اشتياق في هَوَى قمـرٍ تشجيه من نغمات الطَّير ألحان
وكم تعللت بالإعراض عنه وكم بَكيت حتى بكى لي في الحمى البانُ
وشفَّني فيه شوق لا أطيق له وكيف أصـبر عنه وهـو فتـانُ
حسبت أن الكرى في الحبّ يسعدني فصحّ فيه بأن النَّوم[1] خـوّانُ
قد كنت أملك عقلي قبل رحلتِهِ والآن قد رحلت بالعقل أضغانُ
وكل من لامني في الحبّ قلت له : مهلاً فإن عذاب الصّب سلْوانُ
يـا محرقـاً لفؤادٍ أنت سـاكنُـه رفقاً فقد فتكت بي منك أجفانُ
خالفت فيك أناساً طَالما عذلوا وما دروا فيك أن اللّوم عدوانُ[2]

وقوله رباعيَّة :

في خدّك للجمال ورد وزهـور تسقيه من العيون سحب ونهور
في حكم هواك كم على الصَّبّ تجور يا بدر دُجىً في فلك القلب يدور

---

(١) النفحة : « القوم » .

(٢) هذا البيت ساقط من النفحة .

السيد إبراهيم بن المفضَّل[1]

صارمٌ به دمُ الأعداء مطلول ، وروض أريض بندى الآداب مطلول ، ذو حاشية رقيقة ، وعين طبعٍ غديقة ، لولا رُدْنُه لسال لُطْفاً ، ولولا احتشامه لمال بالرّقص من الهوى عِطفاً ، سَبق في ميدان الفضل وجَلَّى ، وأزاح بخمرة كلامه هموم الصدور وجَلاَّ ، طالما اجتمع بأُلاَّفه ، فأسكرهم وافتخر عليهم بسُلافه وأسلافه ، وكان يفتخر بولده محمد وَيزهو ، ويجمع به أطراف التَّطاول ولا يسهو ، وبمثل ذلك الفاضل يُفْتخر ، ولمثل ذاك الكنز النَّفيس يدَّخر مَن ادّخَر ، وقد سارت أشعاره ، وسهلت به من القريض أوعاره ، فأصبح ينظم للأجياد من دُرِّهِ سموطَاً ، وَيَسْبُك من ذهنِه الخالص للطُّلا قروطاً ، مع رقَّة وَسلاسَة ، وحسن تعبير أحكم أساسه ، وله في القَنَاعة رتبة تجلّ عن الأطماع ، وأخبار مستحسنة تُصْغي لها الأسماع ، لا يبالي كيف أضحَى ، ولا يَسْأَلُ مِن الأيام إلا رشاشاً ونَضْحَا، فهو ممن رضي ببُلْغَة العيش ، وممن لا يُخالطه لحاجة الزمن طيش ، فنفسه من الحبس عن التهوّر في عِقَال ، وعلقمُ الفقر عندَه أحلى من شُهْدِ الغِنَى ولذا إنه قال :

لقرض شعيرٍ تافلٍ[2] غير مالحٍ بغير أدام والذي يعلم النَّجْوَى
مع العِزّ في بيتي وراحة خاطري ألَذّ على قلبي من المن والسَّلوَى

---

(١) ترجمته في (نفحة الريحانة ٣/٣٥٤) وهو والد محمد السابق الذكر .
(٢) التافل : في كلام أهل صنعاء غير المملوح .

وكان إلى طريق الخمول ذا ميل ، وإلى وهط التنكر ذا تحذُّر ولا كتحدّر السيل ، مع صون وتعفف وتخلُّقٍ بأخلاق أهل التصوّف ، فله طريق في الطَّريقة ، وله مجاز [١] في سبل الحقيقة [٢] ، ووقتٌ [٣] ومقامٌ [٤] وحال [٥] ، وَوجْد [٦] وتواجدُ [٧] اتصال [٨] ، وحضور [٩] وشهود [١٠]

---

(١) المجاز : اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما كتسمية الشجاع أسداً . (انظر التعريفات : ٢٥٧) .

(٢) الحقيقة : اسم أريد به ما وضع له وهي الشيء الثابت قَطْعاً ويقيناً . يقال : حق الشيء إذا ثبت . (انظر التعريفات : ١٢١) والحقيقة عدا الصوفية هي إقامة العبد في محل الوصال إلى الله . (مصطلحات الصوفية ٧٩)

(٣) من مصطلحات الصوفية، وهو حالك في زمان الحال لا تعلق له بالماضي والمستقبل، وقيل ما هو غالب على العبد وأغلب ما على العبد وقته . (مصطلحات الصوفية : ٢٦٨).

(٤) جمعه مقامات ، وهي مثل التوبة والزهد والفقر والصبر وغير ذلك ، والمقام معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيها يقام فيه من مجاهدات . « مصطلحات : ٢٤٨ » .

(٥) الحال : هو ما يرد على القلب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض ، وتسمى الحال بالوارد ، ولذا قالوا : لا ورد لمن لا وارد له . وقيل : الأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه . (مصطلحات : ٧٣) .

(٦) الوجد : هو خشوع الروح عند مطالعة سر الحق ، وقيل عجزٍ الروح من احتمالٍ غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر ، وقيل مصادقة الباطن من الله تعالى وارداً يورث فيه حزناً أو سروراً . « مصطلحات : ٢٦٤ » .

(٧) التواجد : استدعاء الوجد . وقيل إظهار حالة الوجد من غير وجد . « مصطلحات : ٥١ » .

(٨) الاتصال : هو أن يرى العبد ذاته متصلة بالموحد الأحدي وألا يتقيد بوجود نفسه ، وأن يرى السالك اتصال المدد والجود من غير انقطاع حتى يبقى الموجود باقياً بالله . « مصطلحات : ١٠٠ » .

(٩) هو حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء اليقين فهو كالحاضر عنده وإن كان غائباً عنه . « مصطلحات : ٧٨ » .

(١٠) هو أن يرى حظوظ نفسه ، وبعكسه الغيبة ، وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه =

وتجريد[1] وتفريد[2] وفناء[3] ووجود[4] ، وهجوم وَبَوادِه ، تدل في الفوز عَلَى سبقِ جَوَادِه ، وفي شعره ما يدل على ذلك ، وفي أبيات قريضه ما ينبىء على أنه ممن سلك هذه المَسَالِك ، ولم يزل على هذه الأخلاق ، حتى عاد من الشبيبة ذا إملاق ، ورماه بالنَّحْس أبو سعد[5] وزَجْر في سحاب لُمته البيضاء من نذيره الرَّعد ، فأفْضَى إلى الحتف أمرُه ، ودار عليه من شراب المنايا خَمْرُه ، فأصبح في جدثه من السُّكرة صريعًا ، واستبدل عن طيب العيش من التراب طعاماً ضريعاً ، سَقَى الله من أعضائه ما شَحِبَ[6] ، ولا برحت نسيم البُكَر تجرّ على مسك تُرابه ذيلها المُنْسحب ، وله شعرٌ تَهتَزّ له معاطف اليراع ، وتجلب الأقلام إلى أسواق الدَّفاتر منه أطيب المتاع ، فمن آيات إبراهيم التي يشرب عندها الحاسد من دموعه شرب الهيم ، قوله :

= فلا يراها . « مصطلحات : ١٤٢ » .

(١) هو خلو قلب العبد وسرّه عما سوى الله ، بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض ، وبباطنه عن الأعواض ، وهو أن لا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئاً . « مصطلحات : ٤٣ » .

(٢) هو أن ينفرد عن الأشكال وينفرد في الأحوال ويتوحّد في الأفعال ، وهو أن تكون أفعاله لله وحده ، فلا يكون فيها رؤية نفس ، ولا مراعاة خلق ، ولا مطالعة عوض . « مصطلحات : ٤٦ » .

(٣) هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات وكلّما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية أخرى ، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث . « مصطلحات : ٢٠٧ » .

(٤) هو فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية ووجود الحق لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة . « مصطلحات : ٢٦٤ » .

(٥) أبو سعد : يضرب به المثل في طول العمر ، قيل اسمه مزيد بن سعد ، وقيل هو لقيم بن لقمان بن عاد ، ويقال إنه أسنّ حتى اتكأ على العصا ، وإنه أول من فعل ذلك . يقول العرب لمن أسنّ وحمل العصا : « قد أخذ رمح أبي سعد » وقد كنوا الهرم بأبي سعد وأبي زيد ، ويقال في كنية الدهر أبو سعد . « المرصع : ١٩٩ »

(٦) شحب : هزل .

لَوى الجيد لما رآني ومالا رشأ فيه قاسيتُ بالحبِّ مالا
عزيز المنال بديع الجمال حوى الحسن أجمعه والكمالا
كثير المطال له خالقي من المسك صاغ على الخدّ خالا
تبدّى لعيْني فلما رأى خيالي [صار][1] التبدّي خيالا
فرحت وفي مهجتي جمرةٌ أكرر في الرَّبع عنه السّؤالا
فقالوا : ومالك من حاجةٍ ومارمت منه فقلت الوِصَالا
فقالوا : لقد رُمت مالا يرام نرى ذلك الأمر منه مُحَالا
فقلت : سلوي عن وَصْلِهِ بمدح المطهر[2] مروّى النِّصَالا
مليك رقَى في سما المكرمات مَحَلًّا تعذَّر من أن يُنَالا
له همَّة في طلاب العُلاَ يقصّر في وصفها من أطالا
به أَلْبَس المجد لما نشا جلالاً وزاد المعالي جلالا
مَدَى الدَّهر أنعمه لم تزل بما نرتجيه علينا توالى
إذا رمت في النَّاس مثْلاً له فهيهات هيهات تلقى منالا
حماه إلهُ الورى ما شدَت حمام الأراك وما البرق لاَلاَ

وله :

ألا يا من بلا ذَنبٍ تجنَّوا وسلوا عنًّا
إذا عزّ تلاقِيْكم فَمنّوا وَسَلُوْا عَنًّا

قلتُ : جملة المتكلّف هنا للجناس إلى ارتكاب الإيطاء[3] فيه وهو من العيوب الظَّاهرة التي لا تخفى ، وله في مليح ناسخ :

---

(١) ساقط من (ش) .

(٢) هو جده المطهر بن يحيى شرف الدين صاحب الفتوحات العظيمة مع الأتراك وفاته سنة (٩٨٠) انظر في ترجمته (كتب تاريخ اليمن) ومن أهمها كتاب (روح الروح) .

(٣) الإيطاء : عند الشعراء هو تكرير القافية لفظاً ومعنىً وهو عيب .

لا غرو إن حسنت في الخط وضعتُه وصار خط يديه فوق ما يصفو
فالنّون حاجِبه والصَّاد مقلتُه والميم مبسمُه والقامة الألفُ

أقول : معنى هذا النظم ظَاهر وهو أن هذا المليح إذ أحسن خطه وصار فوق ما وُصِف فلا بدع لأنه أخذ طريقته الحسنة وقوة حروفه عن حروف من جماله ، فكأنه حَرّر خَطَّه عليها ، هذا مراد الناظم.ولاح لي معنىً لم يكن من مقصده[1] وهو أن حسن الخط من هذا المليح لا يقاس به غيره ، لأنه قد استبد به وحواه بالنّصّ الذي ماله قياس فله فيه نص ما أي نص ، أي نص لأن مَجْموع الحروف هذه التي نَصّ عليها في البيت نَص مًّا كما تَرَى ، وهذا لم يكن من قصد النَّاظم قطعاً ، وليته قال في البيت[2] الأول هكذا :

وناسخ نَصُّه في حُسْنِ وضعته بلا قياس فيا أهل الخطوط قفوا

وله :

إن هــذا الـدَّهــر حَـقّــاً سـقــطت فـيــه المــروَّة
لا يُـنَـال الحـقّ إلاَّ بـيـسَـارٍ أو بـقُـوَّة

وله رباعيّة :

يا خالق كل خَلْقِه من طينِ من غـيرُك إن منعتني يُعطيني
هيهات ولا عطاك إن قد نفذت أحكـام قضاك لي بـه يُخْطيني

---

(١) في (ب) مقسطه .

(٢) كتب في (ش) « التفسير الأول أحسن وهو مراد الشاعر » .

أخوه السيد يحيى بن المَفَضَّل[1]

سيدٌ واحدٌ كسادة ، وفاضل ليس يخشى الفضل مع وجوده كَسَاده ، ذو سهمٍ قامر ، وَنَوالٍ سابغ غامر ، يجلو ما ابيض من ناطفه ، ويطيّب ما اصفر من ثمر حدائقه في مقاطفه ، ويلين ما اخضرّ من غصن قلمه فَيهتزّ عن معاطفه ، له حلل فخار موشعة ، وحديث مجدٍ تسكر منه خَمْر الدِّنان المشعشعة ، بدرٌ ذو سنا ، ينعت بالفضل للتوضيح والثنا ، وكان ذا نسك وتَقْوى ، واحتمال في الطَّاعة لما لا تثبت معه الجبال ولا تقوَى ، فَسقى الغيثُ لحده وحيًّا ، وَسَلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حَيًّا ، ومن شعره قوله :

دنياك لا تركن إليها وكن ... مفوَّضَ الأمر لحكم القضَا
فما مضى منها كأن لم يكن ... وما بقي منها كما قد مَضَى

وهو نظم لقول بعض الحكماء: ما مضى من الدنيا كأن لم يكن وما بقي كما قد مَضَى .

---

(١) هو ممن انفرد به المؤلف ولم نجد له ترجمة في غير هذا الكتاب .

وَلَدُهُ السَّيد أحْمَد بن يَحْيى الخَطِيْبُ

كان لكوكبان خطيباً ، يهزّ بنسيم كلماته من المنبر غُصْناً رطيباً ، إلاَّ أنه كان في الخِطَابَة ضَيِّق العَطَن ، فطالما قرع الآذان وعظُه المكرَّر فما طَنّ ، فهو مكرر لا يحلو ، وكلامٌ عن مجّ الأسماع لَهُ لا يخلو ، وفي المثل أثقل من مُعَاد ، ولو كان عندي حديث سَلْمَى وسُعَاد ، حتى لقد كان يحفظ العامَّة خُطَبه غيْباً ، لما يكررها عليهم ولم يدر أنَّ ذلك يُعَدُّ عيباً ، والخِطَابَة مفتقرة إلى بحْرٍ ذي مدّ ، وباع طويل في البلاغة يحمد ، ولكنه كان مِن أعيان الأفاضِل معدوداً ، فله روْض أوصاف جميلة لم يزل ظلُّهُ ممدوداً ، مَا بَرِح بجمع العلوم مُشْتغِلا ، منهمِكاً في اكتساب الآداب التي سعرها غلا ، يكتُبُها نهاراً وَلَيْلا ، ويصبو بها كما صبا الوامق بهندٍ وليْلى ، ويضبطها ضبط عالم ، فإذا جمْعُها لديْه جمع سالم[1] ، يكتب ما ظفر به من الغثّ والسمين ، ويحرص على فوات الخيط من الخرز والعقد من الدّر الثمين ، لا يفوته ما وقف عليه أصلاً ، سواء كان قطعه من الحديد أو نَصَلا ، حتَّى جمع كتاباً سَمَّاه : « نزهة النواظر » ، قد احتوت ورقاته على أرضٍ مقفهرّةٍ وروضٍ ناضر ، ونَوَّه فيه بذكر كل بادٍ من الشّعراء وحاضِر ، في أربع مجلدات كبار ، نفق بسوقها ما كسد وبار ، وهي التي يقول فيها خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح

---

(١) الجمع السالم عند النحاة : هو الاسم الذي ناب عن ثلاثة فأكثر بزيادة آخره هي الواو والنون في حالة الرفع ، والياء والنون في حالتي النصب والجر ، وسلم بناء مفرده عند الجمع نحو : معلم معلمون ، فرح فرحون ، وكذا في جمع المؤنث السالم . انظر كتب النحو في ذلك .

الهندي ، وكَتَبَهُ عَلى أحد أجزائها لَمَّا فاح له شميمها النَّدي :

هي نزهَةُ القلب الذكي وخلَّةٌ   يفـترُّ عن دُرَرِ المعاني ثَغْـرُهَـا
كـالـرَّوضــة الغَنَّـاء إلا أنَّــه   بـأنامـل الأذواق يُجْنَى زَهْـرُهَـا

وكان مقامه للأدباء مجمعًا ، لأنها تروق حديقته وأخباره منظراً ومَسْمَعا ، يجتمع به الأكابر ، وتنطق في جوانبه ألْسنَة الأقلام عن أفواه المحابر ، كأنه سمط الجواهر ، أو فلك النجوم الزَّواهِر ، وشِعره كثير جِدّاً ، وشُهب كلامه مما يفوت الحاذق عَدًّا ، إلّا أنه شِعر متوسّط بين الركاكة والإجادة ، قد رويته منه بالإجَازة[1] من ولَده والوِجادة[2] ، وقد قال بعضهم : الشّعر شعران جيِّد مُحكّك ، ورديء مُضْحِك ، ولا شيء أثقل من الشّعر الوسط ، وروي أن إسحاق بن إبراهيم المُوصلي[3] قال : شر الغِنَاءِ والشعر الوسط لأن الأعلى منهما يطرب والرَّذل يُضْحِك ، والوسط لا يُطْرِب ولا يُضْحِك ، ومن زهر شعره المتفتح من القِرطاس على شَطِّه ، قوله وهو مما نقلته له من خطه :

هيهات ما لك في الملاحة مُشْبِهٌ   أبداً ولا لك في الجمال نظيرُ
الـطّرف نـرجسـة وثغـرك لُؤْلُؤٌ   والخـد وَرْد نـاعـمٌ ونـضـيرُ

---

(١) الإجازة : هي إذن المحدّث للطالب أن يروي عنه حديثاً أو كتاباً من غير أن يسمع ذلك منه ، أو يقرأه عليه فيروى عنه لموجب ذلك من غير أن يسمعه منه أو يقرأه عليه . انظر (منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عترص ١١٥) .

(٢) الوجادة : هي أن يجد المرء حديثاً أو كتاباً بخط شخص بإسناده فله أن يروي عنه على سبيل الحكاية فيقول : وجدت بخط فلان حدثنا فلان . . . انظر (منهج النقد ص ٢٢٠) .

(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي بن النديم ، كان من أشهر ندماء الخليفة العباسي برع في الغناء وله مؤلفات فيه . توفي سنة (٢٣٥) . (وفيات الأعيان : ١/٦٥ و الأعلام : ١/٢٩٢) .

وقوله في مليح فحّام :

فحّـامنـا قـد أصـاب قلبي　　من طـرفه إذ رنـا بِسهْمِه
ابيضَّ شيبي عليـه هجـراً　　واسـود حظي سـواد فحمه

وقال العلامة أبو حيان[1] رحمه الله تعالى فيه[2] :

وَعلقتـه مسود عـينٍ ووفـرة　　وثوب يعاني صنعة الفحم عن قصد
كأن خطوط الفحم في وجناتِهِ　　لُطَاخة مسكٍ في جني من الورد

وقلتُ أنا فيه :

ناديتُ عن نـارٍ بقلبي ثوتْ　　فَحَّام حسنٍ شَعْره فـاحمُ
لا يشتعل فحمك باعد بِه　　فـلي فؤادٌ بـالهَـوى جاحِمُ

وقلت فيه أيضاً :

ذا الفحم بين يديْ مَن　　قد عَزَّ منه التَّلاقي
أطفاه من نار قلبي　　بماءِ دمعي المُرَاق

---

(١) هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي ، برع في علم النحو والتفسير من مؤلفاته « البحر المحيط » توفي سنة (٧٤٥) . (الدرر الكامنة : ٣٠٢/٢ والأعلام : ١٩٢/٧) .

(٢) البيتان في (فوات الوفيات : ٧٤/٤) ط إحسان عباس .

وَلَدُهُ صَاحِبُنَا عَبْدُ الله بن أَحْمَدَ بن يَحْيَى

نديمي وجليسي ، اتخذته وقد أوحشني الزّمان أنيسي ، ما مضى وقتٌ إلاّ وهو لي قرين ، ولا مَّرت لمحة إلا لأسده ودادي لأسده عرين ، طالما زارني زيارة الحبيب ، وقد غفل الواشي ونامت عين الرَّقيب ، أعُدُّ عليّ وُفُودَه ، كرجوع أيام الصِّبا عَلَى من بَيّض المشيب لِحيَتَهُ وفوْدَه ، فكم تقضىً من ليل هو لي فيه سمير ، لَمَّا لم ألْفُ من أبناء الزَّمن سوى الحمير ، ليلٌ قمرُه قد انصَاحَ[1] ، وقمريه يهز الأعطاف إن صاح ، يعاطيني من حديثه صرفا ، ويجاريني في ميدان ركبت فيه أدهم الليل طِرْفا ، لأنه لعين الدهر إنْسان ، وعارفٌ لنا من علمه وأدبه أُنْسَان ، خاض من العلوم أعمق عُبَاب ، وأتاه الله كتابها فقال : ﴿ إني عبدُ الله أتاني الكتاب ﴾[2] ، قرأ على والدي فحصّل ، ولبس من تاج النحو المفصل[3] ، واضحاً في علم البيان والمعاني ، ذا مقام يفتر على بلوغه المعاني ، فعليه بعد والدي المُعَوَّل ، لما لاحظه السّعد[4] فيه بشرح مطول[5] ، وله في اللُّغة عقد نَضِيد ،

(١) خلص .

(٢) سورة مريم الآية (٣٠) .

(٣) هنا تورية بكتابين من كتب النحو ، أولهما كتاب « التاج المكلل شرح المفصل » للإمام أحمد بن يحيى المرتضى المتوفي سنة (٨٤٠) ، و« المفصل » كتاب في النحو للزمخشري وشرحه المارّ ذكره .

(٤) السعد : هو سعد الدين التفتازاني ، من أئمة اللغة وفاته سنة (٧٩٣) وهو صاحب حاشية السعد على الكشاف المنسوب إليه .

(٥) المطول : من مؤلفات المذكور ، وهو في البلاغة .

يقصر عنه الجوهري [1] فيعافه كل جيد ، وكان ذا لهجٍ بشعر أبي الطيِّب الكندي ، وبنَظم خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي ، قد وُضِعَا منه على طرف الثّمام ، يُغرد بهما في المجالس ولا كتَغريد الحمام ، لم يكتف منهما باليسير ، ولم يخف عليه فيْهما ما يفتقر إلى تفسير ، لأنه خبير ماهر ، ذو طرفٍ في طلاب العلم ساهر ، وشعره يقصر عن كماله ، والنظم الحسن لا يطاوعَه بانعماله ، فهو إذا هَزَّ عامل قلمه وسطا ، يُعدّ في البَلاغَة أُمَّةً وَسَطا ، وفي آخر عمره أدرك السَّرَار كامل قَمره ، فعاداه الدّهر وحاربه ، وتَباعد عنه الغِنَى وما قاربه ، وما زال عنه نَفُوراً ، ولم يبرح لنعمة وجوده فيه كفوراً ، فضاق به الحال أشدّ ضيق ، وعومل من التّقصير في حقه بما لا يليق وهكذا الدَّهر اللئيم ، ينبذ الفاضل بالعراء غير مليم :

يا دهر ما أنصفت فيما جرى ومن لذي فضلٍ بأن تُنْصِفَه

ولكنه مع ما جرى ، بلا من النظر في العلوم والأداب محجرا ، لا يبالي بالدَّفَع ، وعلى أيّ جنبٍ من صَرْعَتِهِ وَقَع ، لا يتوجع مِن دهرٍ إلاَّ عليه أو صابَه ، فسَيّان من عدو الزمان أأذاقه حلْوه أوْ صَابه ، ولم يزل لي خليطا ، أخوض مِن عِرفَانِه بحراً محيطا ، إلى أن نزل به الحِمام بغتة ، ولزم شخْصُه سكوته وَصَمْته ، فكان موتُه لدي من أعظم الخُطوب ، انزوى به ما بين عينيّ في وجه الزَّمان بالقطوب ، فما هَزَّت عطفي بعده مَسَرَّة ، ولا عَذُب لي وِرْدٌ ولو كان نهر المجرَّة :

حسبُكَ الله يا زماني صَبْري في الإساة منك صَبْر حَلِيْم
ما كفاك الجفا ولا طبت نَفْساً بالتّجافي حتى استلبت نديمي

وقد رثيته بقصيدة ، نصبتها شباكاً للصبر لَمّا عزّ علي أن أصيده ، سقى الله أعضاءه غيثاً هنياً ، وساقط عليه من نخلات الجنة رُطباً جنيّاً ، ما لبِس الغصن من الورق رفرفه ، فأكثر الطَّير فوقه من الشغف به رفرفه، وما سبح في مرج الخضراء

(١) تورية بالجوهري اللغوي ، وهو إسماعيل بن حماد الجوهري أبو نصر ، له « الصحاح في اللغة » توفي سنة (٣٩٣) .

من المجرة عذب نهره ، واطلع الروض المُدْهمّ من اللَّيل زُهر زَهره ، ومن شعره ما كتبه إليّ وهو قوله :

إلى متى للتداني منك أنتظرُ — يا غصن يا ظبي يا شمسُ ويا قمر
أظل فيك ولي شوق أبوء به — تَحيّرت عنده الأفهام والفكرُ
أبيت أرعى نجوم الأفق من قلقي — على الوساد إذا ما هَوّمَ السَّمَرُ
كأنني أحمد السَّامي وقد سهرت — عيناه في العلم لا أودى بها السهر
فهو الشهاب الذي سامى البدور عُلاً — برتبة حازها تعنو لها البشرُ
فهمت فيه من العليا متضحاً — (وما علي إذا لم تفهم البقرُ)
كم قد حباني بآدابٍ منوعةٍ — يفرج الطرف منها روضها النضرُ
كأنها في سواد النَّفس إذ ظهرت — ماء الحياة وأني عندها الخضرُ
إليكها يا شهاب الدين صادرةً — عن الوِداد ومنه يعذب الصدر
أودعت سمعي درّاً في محاورةٍ — فقد بدت من نظامي تلكم الدُّررُ
واسلم فلي فيك وِد لا تغيره — وإن تغيّر عنَّا دهرنا الغيَرُ

قوله : « أودعت سمعي » البيت فيه معنىً حسن ،ولعله أراد أخذ معنى نظم الإمام الزَّمخشري رضي الله عنه يرثي شيخه أبا مضر[1] لما قال[2] :

وقائلةٍ ما هذه الدّرر التي — تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها الدّر الذي كان قد حشا — أبو مضرٍ أذني تساقط من عيني

ومنه قول القاضي ناصح الدِّين الأرجّاني[3] رحمه الله تعالى :

---

(١) هو محمد بن جرير الضبي ، يقال إنه أول من أدخل مذهب الاعتزال إلى خوارزم توفي سنة (٥٠٨) . (معجم الأدباء : ١٤٥/٧ و الأعلام : ١٦٧/٧) .

(٢) انظرهما في : (وفيات الأعيان : ١٧٢/٥)ط إحسان عباس .

(٣) هو ناصح الدّين ، أبو بكر بن أحمد الأرجاني ، كان قاضي تستر وعسكر مكرم برع في الشعر ، له ديوان مطبوع توفي سنة (٥٤٤) . (وفيات الأعيان : ١٥١/١) .

لم يبكني إلاَّ حديث فراقِهم ... لمَّا أسَرّ بِهِ إليَّ مُوَدِّعي

هو ذلك الدّر الذي أودعتم ... في مسمعي ألقيته من مدمعي

وقول الآخر :

حَدَّثوني عن بدورٍ في الحِمَى ... ما الذي أطلعها بالأجرعِ

كُلَّما ألقيتموا في مَسْمعي ... دُرراً ألقيتُها من أدمُعي

وقول الآخر :

وقفت أحَلِّي الأرض من فيض أدمعي ... فجاء العَذَارَى يلتقطن المدامعا

يغرن على تلك اللآلى لأنها ... بقيّة ما أودعن مني المَسَامِعَا

ومنه ما جاء للعلامة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخُفاجي رحمه الله تعالى ، مما أودعه من المنثور في كتاب « الريحانة » ، وذلك قوله في مقَامة الغُربة[٢] ، المسمَّاة بِدَفع الكُرْبة ، ولم تَنْثر دُرر المدامع ، إلاّ من دُرٍّ[٣] أودعه مِن نَعيْت في صَدَف المسامع[٣] ، انتهى . إلا أنه زاد الشهاب رضي الله عنه هذا المعنى حُسْناًظاهراً باستعارة الصَّدف للمسامع ، فإنها استعارة لطيفة يعرفها من استخرج دُرَر الأصداف من مغاص بَحْر العروض بيد الآداب .

أقول : ومن نظم الأرجاني أخذ السيد العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير[٤] رحمه الله تعالى في مرثيته لإمام الورع الزَّاهد العابد الفقيه إبراهيم بن أحمد الكينعي[٥] عادت بركاته قوله[٦] :

---

(١) (نفحة الريحانة : ٢/٣٧١) .

(٢) مطبوعة الريحانة : « إلا من در مودع في صدف المسامع » .

(٣) من العلماء الأفاضل ، من مؤلفاته « نهاية التنويه » ، وفاته سنة (٨٢٢) . انظر : كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ص ١٢٩) وفيه مصادر ترجمته .

(٤) من الزهاد العباد وفاته سنة (٧٩٣) . « مطلع البدور » .

(٥) أوردها صاحب (مطلع البدور) وأولها :

شجر السعادة والكرامة أينعي ... للقاء سيدنا الإمام الكينعي

ليست دموعي هذه بمدامعي[1] لكنها كلمُ الخطيب المِصْقعِ
كانت فرائد لُؤلؤ من وعظه في مسمعي فتحدَّرت من مدمعي

ومنه أيضاً ما جاء لمولانا قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه في مرثية شيخه وأستاذه السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل رضوان الله عليه وهو قوله :

أبكيه دَمْعاً غَدَا حليّاً لغانِيةٍ يزين منها الطَّلا لو أنه جمدا
نثرت من أعيني ما كان أودعَه من دّر ألفاظِهِ في السمع منتضدا

ومنه ما جاء لي في كلام منثور وهو ما لفظه : أيها المودّع سَحَرا ، المودع بقلبي شرراً ، لا تعجب لدمعٍ رأته الغواني فتسابقت إليه ، والتقطته ظَنّاً منها أنه من دُر عقودها الذي أشفقت عليه ، فهو الدُّر الذي أودعته سمعي منظوماً مُنضّدَا ، أرجعته من عيني لك منثوراً مُبَدَّدا ، انتهى .

ومثله قول الصَّغاني[2] رحمه الله تعالى في النَّظم[3] :

أقول والشمل في ذيل النوى عثرا يوم الوداع ودمع العين قد كَثُرا
أبا الفضائل قد زودتني أسفاً أضعاف ما زِدْت قدري في الورى أثرا
قد كنت تودع سمعي الدّر منتظماً فخذه من جَفْن عيني الآن منتثرا

وَينتظم في سلك هذه الدّرر ما جاء لي في بعض مراثي مولانا الوالد عليه السلام وهو قولي :

لا تنكروا أدمعي المفتر لؤلُؤها بما أغاض[4] نظيم المبسم الشنب

---

(١) مطلع البدور : بمدامع .
(٢) هو العلامة رضى الدين الحسن بن محمد الصَّغاني ، من علماء اللغة وفاته سنة (٦٥٠) . انظر : (الفوائد البهية : ٦٣ والأعلام : ٢/٢١٤).
(٣) الأبيات في (تاريخ ثغر عدن : ٢/٥٥) .
(٤) في (ب) اعاظ وفي (ش) أغاظ .

لقد ملأ السمع لفظاً كالمدَام فما مُساقط الدَّمع إلّا فائض الحبب

وكتب إليّ صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى لمَّا وقف على شيء من كتابنا المسمى « مستقطر اليَزْدي المعتصر من زهور الوردي »[1] ، شرح منظومة القاضي زين الدين بن الوَرْدي رحمه الله تعالى اللاَّمية المشهورة قوله :

دم يا شهاب المعالي أصدر علاك وأورِد
بهمةٍ لك واجمع عِقد العُلى المُتَبَدِّد
أرْسل سهامك فَضْلاً إلى الأقاصي وَسَدِّد
واسجع على لدن غصنٍ من اليراع وردِّد
ملأت سمعي عِلْماً عن ذهنِك المتوقِّد
شممت مستقطراً مَّا لِنَدِّة قَطّ من نِد
لله درّك كم للأ نام بالعلم تُرشِد
لو شاهد الصَّفدي مَا حَرَّرت فيه لأبلد
من غير شكٍّ ورَيْبٍ أنت الإمام المُجَدِّد
لا زلت للفضل جمعاً في عصرنا مُتَفَرِّد

واعلم أن بيني وبينه مكاتبات ، تصبح بها الأيام متزينّة وتبات ، كتب إلي من المنثور في ذيل كتابٍ قوله :

وأمَّا أنا فالدَّهر محسنٌ إليّ ، مقبل بوجه إسعاده وإسعافه علي ، ذلك الإحسان وجودُكم ، وذاك الإقبال تفضّلكم وجودُكم ، بذلك أتحمَّل منه كل نائبة ، وأصبر لجميع صروفه حاضره في الذهن وغائبة، وجميع إساءته أرضاها، وقد شابه بها كل مسيء وضاهى ، في جنب حسنةٍ بها سمح ، وعطيّة بوافرها منح ، ولبابها بعد

---

(١) هذا الكتاب من مؤلفات المؤلف المفقودة لم نقف عليه ولعله يوجد في بعض المكتبات الخاصة .

الإغلاق فَتَح ، فالحمد لله الذي جعل لحزني سروراً ، وزادني بوجودكم حُبُورا ، وألهم دَهْري إلى الجبر بعد الكسر ، وإلى الإطلاق من أغلال الكرب بعد الأسر ، أنتم قصْدي من الزَّمان ، وأنتم بُغيتي من الأوان ، ليت شعري أعَلم إحسانه إلي بوجودكم حتى أعُدّه مُحْسِنَا ، أم جهل ذلك الامتنان له علي في ذلك الامتنا ، وما أظنه إلاَّ جهل فتركني وشاني ، ولم يفطن لما أنا فيه فإن عدُوِّي زَماني ، لولُوعِه بمعاكستي ، ونشاطه إلى مماكستي ، أحسن في الإصباح والمبات، وأصاب ولليله كما يقال إصابات ، والسَّلام .

وكتبتُ أنا إليه في يومٍ بارد ، والرَّوض من دموع الغمامة وارد ، وقد أصبح حصن كوكبان السَّامي ، مُكلَّلاً لتاجه بلؤلؤ القطر الهامي، لما أسْدلت السحاب أستارَهَا ، ورفعت الرُّعود أصواتها ولم أقل حركت أوتارهَا ، أستدعيه إليَّ وأستعجله بالوفود عليَّ ، ما لفظه :

اشتد في يومنا هذا البرد ، فازْرقَّت منه الأجساد حتى استحال بنفسجها خَدُّ الورد ، هَمَت وأرهمت السَّماء[1] ، وبلّت أردية الرِّياض المعَرَّجة بالماء ، وشاب الدَّوح المدهَمُّ بأبيض من ماء العارض الماطر، وقد بصق فَمُ الجوّ ريق الثَّلج في وجهه فإذا هو مكسور الخاطِر ، ولبس الأفق من السّحاب فروى ، فلا بدع لما جَرَى منه ولا غَرْوَى ، وسَئِمت الأرض من الرَّشّ والطشّ، وقيل للغصن : أتشرب ؟ فقال : من لي بالعطش ، وبدا السَّرْوُ الباسِق[2]، من مائِه الذي هو دُرّ مُتَنَاسِق ، كأنه منارات من البلّور المصَفَّى ، لأنها إذا نقصت النّهور فالغيث قد وفَّى ، والماء كأنّه طوفان نوح ، وقد ظَلَّت الحمائم خَشْية على فراخِها من الغرق تنوح ، ونحن في مجلسٍ يحمد ، قد لبس فرو الدُّخان من الندّ ، وتورّد خدُّه بالجمر ، ودارت فيه قَهْوة القشر فماذا يراد بالخمر ، فبالله عليك إلاّ ما أجَبْت النِّدا ، وسقطت علينا

(١) يقال : أرهمت السماء : أتت بالرِّهمة ، وهي المطر الدائم الضعيف .
(٢) السرو : شجر حسن الهيئة قويم الساق .

سقوط هذا النَّدَى ، وانحدرت إلينا انحدار السَّيل ، ورفعت أرديتك عن البلل وشَمَّرت الذَّيل ، فالشوق إليك لا يُحد ، وأسبَابُه لا تُحصَى ولا تُعَد ، قد أخرس وصفُه فُصَحَا ، فما تناول خمرته مُحِب فصحا ، لا برحت في الرِّياض نازِلا ، مادام طرف نَوْرِها لعيون نرجسها مغازِلا ، وما عاتب النَّسيم النهر ، وَعنَّفه عن إدارة شرابه على الزَّهر ، فقطب وَجْهه وجَعَّده ، ونَفَاه عن الرَّوض وَبعَّده ، والسلام .

قولي « وقد بصق فم الجو » إلى آخر الفقرة ، هو كقول القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر(١) رحمه الله تعالى في النَّظم :

لا تلوموا دمشق إن جئتموها ... فهي قد أوضحت لكم ما لديها
إنها في الوجوه تضحك بالزَّهر ... لمن مَرَّ في الرّبيع عليهَا
وتروها بالثَّلج تبصق في لحية ... من جاء في الشتاءِ إليهَا

ومنه أخذ القاضي صلاح الدِين الصَّفدي رحمه الله تعالى قوله في رحبة مالك بن طوق(٢) :

تُبًّا لها من بلدةٍ لا أرى ... فِيها مُقَامي واضح النَّهج
لأنها في وجه سكانِها ... وأهلها تبصق بالثلجِ(٣)

وكتبت إليه مُجيباً عليه وقد وصلني منه مكتوب يشكو فيه من الدَّهر ما لفظه :

وصلني منك أيها اليقظ ، ما أودعته يدي حرز النفائس فحُفِظ ، وضَنَنت به حتى على نفسي ، فما ظنك بعد ذلك بعرسي . مِن دُرٍّ لفظٍ يليق بالنّحور ، فلا

---

(١) هو محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي ، أديب ومؤرخ من أهل مصر له « تشريف العصور » في التاريخ . مطبوع وديوان شعر ، توفي سنة (٦٩٢) . (فوات الوفيات ٢١٢/١ والأعلام ٩٨/٤) .

(٢) قرية على الفرات بين الرقة وعانة ، أحدثها مالك بن طوق في خلافة المأمون (مراصد الاطلاع ٦٠٨) .

(٣) البيتان ، في (الغيث المسجم ١١٨/١) .

يفتقر معه إلى منة الأصداف والبحور ، فَهزَّ عطفي وأنشاني ، وأذكرني خطابك مشافهة فما أنساني ، لا أسخن الله لك عينًا ، ولا أبدى لمحاسنِك الكاملة شَيْنًا ، وذكرت تتابع الصَّوارف ، عن النهوض لكسب المعارف لا العوارف [1] وشكوت من دهرٍ كالم ، هو سِلْم الجاهل وحرب العالم ، فالحرُّ إذا نزلت به نائبة ، كانت ملابس صبره عن الدُّروع نائِبَة ، والحرُّ حرّ وإن مسه الضرّ ، والعبد عَبْدٌ وإن مَلك الدُّر [2] ورب جاهل مجدود ، وعالِم من خير الزَّمان محدود ، وإذا كان الدَّهر بحر العجائب ، فكيف يسوغ ماؤه المالح لشارب ، أم كيف لا يخشَى منه الغرقْ ، ولا يُصيب راكِبه من هوله الفَرق ، والإخوان خُوَّان ، والزَّمان للمفضول على الفاضل من الأعوان ، وللدّهر فلتات مَجْلس ، فاللائق بذي الحجى أن يكون مَقَاده من مقاد المزموم [3] أسلس ، وهو كما لا يخفى ألأم من أسلم [4] ، فغير ذي عقلٍ عندي من قال أنا من نكايته أسلم ، سيما فاضل أغاظه بسماتِه ، وباراه بقوس كماله فلم يُعد من رُماته ، فإن لم يسعدك بالجاه والمال ، فأقسم بمعاليك ما ذَنبك إليه سوى الكمال ، والزَّمان وضِيْعٌ يُحبّ الوضيع ، مشغوف بعناد ذي مقام رفيع ، طالما قَدَّم على الرئيس المرْؤوس ، وساوى بين الأقدام والرؤوس ، وغلط لَمَّا لم يُفْرق بين القعود والجلوس ، فاصبر فمُنتَهى الخوف أمان ، وارتقب فكم تَنْويل أتى بعد حِرْمان، والدَّهر تارة وتارة ، فاللبيب من اختصر في شكايته العبارة، فَمَا عَبَس روض بالشِتَاء ، إلاَّ ابتسم بالربيع إذا أتى ، ولا أظلم ليل دامس إلاَّ أنار بعده نهارٌ

---

(١) جمع عارفة : وهي العطية والمعروف .

(٢) سيأتي للمؤلف الكلام عليه .

(٣) ساقط من (ز) .

(٤) هو أسلم بن زرعة ، جبى أهل خراسان جباية لم يجبها أحد ، ثم بلغه أن الفرس كانت تضع في فم الميت درهماً فنبش القبور واستخرج الدراهم . قال صهبان الجرمي :

تعوذ بنجم واجعل القبر في الصفا ... من الطود لا ينبش عظامك أسلم

فقيل : ألأم من أسلم . (انظر المستقصى ١/٢٩٨) وسيأتي للمؤلف الكلام عليه .

شامِس ، وبَعْد الحربِ سلمٌ ، وربَّما طمس الجهل بأيدي العلم ، وكم من محروم استبدل بالنَّصَب راحة ، وأدار له الدَّهر على رَغْمه في كاس المسرة راحة :

وكما يملّ الدَّهر من إعطائه فكـذا ملالتـه من الحِرْمَـانِ

والكذوب قد يصدق في وعده ، وربَّما جاد الشَّمع بخالص شَهْده ، فأجمل عند سؤال زمانك في الطَّلب ، فما أظنَّه لفرط شُحِّه إلا ممَّن سَكَن بحلب[1] ، وترقب فرصَة تُنتهز ، وأشحذ الشَّفْرَة للمَحَزّ ، وثقف الرمح للمَهَزّ ، واغتنم الفرصة وبادر ، فإنَّ الدَّهر كما عرفت ألأم من مادر[2] ، وقد يمدر الحوض بعد أن صَفا ، ويرجع إلى عنصره القدم فيعامل بالجفا ، فإنه زمن لا يشبه الأزمان ، مُصافاته كدرٌ وعطيته حِرْمان ، جبرُه هيْض ، وبَردُه قيض ، فلهفي على زمن مفقود ، أنا عن رجوعه أعجز من الثَّعلب عن العنقود[3] لكن ما أُهين حُر عزّ بخالقه ، ولا افتقر غَني بسؤال رازقه ، ولله ألطاف تَسْري من حيث لا تُدْرَك ، وكم أخذ بيد عبدِه وقد شارف على العثرة فاستدرك ، والسلام . تتمة في هذا المكتوب ألفاظ تحتاج إلى بيان وسنوضّح منها بعضاً .

قولي : « الحر حر وإن مَسَّه الضُّر » هذه الفقرة والتي بعدها مما روي عن الله عزَّ وجل قيل : إن الله تعالى أنزل في بعض الكتب الظَّالم نادم وإن مدحه الناس ، والمَظْلوم سالم وإن ذمَّه النَّاس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك

(١) سيأتي الكلام على ذلك للمؤلف .

(٢) في الأمثال : أبخل من مادر ، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة . انظر (المستقصى ١/١٣) .

(٣) من الأمثال وفيه قال حامض لما لم يدركه :

أيها العائب سلمى أنت عندي كثعاله
رام عنقوداً فلما أبصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى أن لا يناله

(انظر المستقصى ١/٢٣٥) .

الدُّنيا ، والحرّ حر وإن مَسَّه الضُرّ ، والعبد عبد وإن ملك الدّر ، ذَكره الإمام الجوزي رضي الله عنه في كتابه الذي تَكلَّم فيه على سورة يوسف ، الصِّدِّيق عليه الصلاة والسلام .

قولي : « وهو كما لا يَخْفَى ألأم من أسلم » هذا مثل من أمثال العرب وهو أسلم بن زرعة جبى أهل خراسان جِباية لم يجبها أحد قبله ، ثُمَّ بلغه أن الفُرس كانت تضع في فم الميت درهَماً فنبش القبور واستخرج الدَّراهم .

ففي هذه الفقرة مع الفقرة التي تليها الجناس كما هو ظاهر .

قولي : « وغلط لَمَّا لم يعرف بين القعود والجلوس » ، نَصَّ في « شرح المصابيح » أن الفصحاء يَسْتعملون القعود في مقابلة القيام والجلوس في مقابلة الاضطجاع ، وحكي أن النضر بن شميل[1] دخل على المأمون، وقام بين يديه ، فقال له المأمون : اجلس فقال : لست بمضطجع ، وقعد فقال له المأمون : كيف أقول قال : قل اقعد. وقال الحريري رحمه الله تعالى في «درّة الغواص»[2] ذكر أنهم يقولون للقائم اجلس ، والاختيار على ما حكاه الخليل بن أحمد أن يقال لمن كان قائماً اقعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً اجلس ، وعَلّل بعضَهم هذا الاختيار بأن القعود هو الانتقال من علو إلى أسفل ، ولهذا قيل لمن أصيب برجله مقعداً ، وأن الجلوس هو الانتقال من سفلٍ إلى علو ، ومنه سميت نجد جلْسا لارتفاعها ، وقيل لمن أتاها جالس ، وقد جلس ومنه قول عمر بن عبد العزيز للفرزدق :

قل للفرزدق والسَّفاهة كاسمها إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

أي اقصد نَجداً انتهى كلامه .

---

(١) هو النَّضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التَّميمي ، أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة . توفي سنة (٢٠٣) .(وفيات الأعيان ٣٩٧/٥ والأعلام ٣٢/٨) .

(٢) (درة الغواص ٨٨) ط الجوائب .

ولَمَّا اعترض المعترض على الشيخ ابن الحاجب رحمه الله تعالى حيث قال في « الكافية » في بحث المصدر بأنّه قد يكون من غير لفظ الفعل ما لفظه وقد يكون تغير لفظه نحو قعدت جلوساً ، قال بعض الشارحين : لا يقال هو ممنوع لأن الجلوس لا يكون مستعملاً في جميع موارد القعود كما هو مقرَّر عندهم لأن الجلوس إنما يستعمل في مقابلة النَّوم لأنّا نقول القعود والجلوس مترادفان مالم يذكر مقابل كل منهما من الاضطجاع والقيام ، ودليله ما قيل في المصابيح جلست بَيْنَ يديه .

قولي « فما أظنه لفرط شُحِّه إلاّ ممن سكن بحلب » ، فيه إشارة إلى ما ذكره الشّيخ عز الدين الضرَّير قال : كان السُّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقول : إذا كنت في حلب فلا يسألني أحد في صلة فإني أجد في نفسي شُحًّا في حلب لا أجده في مكان غيره . وقال بعض الحكماء:من أقام ببغداد سنة واحدة وجد زيادة في علمه ، ومن أقام بالموصل سنة واحدة وجد زيادة في عقله ، ومن أقام بحلب سنة وجد شُحًّا في نفسه لا يجده في غيرها ، ومن أقام بدمشق سنة وجد في طباعة غلظة وفظاظة ، ومن أقام بمصر سنة وجد في أخلاقه رقَّة لا يجدها في غيرها . ودَليل ذلك ما جرى على العزيز صاحب مصر مع زوجته « زليخا » حيث قال لها : استغفري لذنبك . قيل إن طينة مصر جبلت على قلة الغيرة والله أعلم.

وقلتُ أنا أيضاً في النظم :

يا منْ يشُحّ على سُوّالِه وَهُمُ ... قد أقلقوه بتعنيف وسوء طلب
أفِضْ عليهم فأنت اليوم في سعة ... بكوكبان محلّ الجود لا بحلب

السَّيد حسَين بن يحيَى بن المفضَّل

ناسخ لم يخل عن عرفان ، وكاتب لم يفته من العلم والأدب صنفان،فشجرة أدبه غينا . أفاض عليها من ماء رقته عينا ، فادهمَّ ودقها حينا ، واقتطف ثمرها سنيا ، وكان لوالدنا أخص الخلان ، وممن تزيَّن بوده في السِّر والإعلان ، فكم كاتبه في رقة ، وسقى روضه من ودقه ، وشعره موزون مقفى ، ونهر نظمه من عسلٍ مصفى ، ولمّا حان منه لأحبته الوداع ، مرض ومادت من ألم الصُّداع، فلو لم يكن للرؤسا راسا، لما أصابه ذلك الألم راسا، أصمت وخرس ، لما عاجله الحِمام معاجلة أسد مُفْترس ، فما ثقّل على حبيب ، ولا ملَّه عائد ولا طبيب ، فمات وهو وافر البدن ، يضيق عنه الجدَث والكفن ، وأوْدِع من اللَّحد في جرابِه ، وفاض الدَّمع لمصرعه وجرى به ، لا زَال ربُّه عليه بالغفران منعما ، ولا برح القطر لإناء ملحده مُفْعما ، ما لبس العارض أخضر الجرد ، وما أُستقطر بنار الخفر من خدود الغيد ماء الورد ، ومن شعره قوله :

قلت للجاهل الغبي تَزوَّد   لا تـزدني ذَمًّـا شنيعًـا ومقْتـا
وامضِ فيـها أتيتــه بســلامٍ   خَصمي الدهر ليس خصمي أنتا

وهو كقول ابن سناء الملك[1] :

خـاصمني مَـن سكـت عنــه   فـظن أن لــيس لي لـسـان

---

(١) هو هبة الله بن جعفر ، شاعر جيد من مؤلفاته « دار الطراز » في الموشحات ، وديوان شعر . وفاته سنة (٦٠٨) . (وفيات الأعيان ٢ /١٨٨) .

فقلت : ما أنت لي بخصمٍ وإنما خَصمي الزَّمان[1]

وقول عُمر بن مظفر الفهري[2] اللغوي المصري[3] :

سكتّ إذ سَبَّني من لا خلاق له فقيل لي خفت منه أنه لَسِنُ
فقلت والله ما عيّاً سَكت ولا ذا النحس خَصْمي ولكن خصمي الزمنُ

ومنه ما جاء لي في كلام منثور وقد أوردناه على طوله وهو قولنا :

أما الكرام ، ومن ينال بهم المرام ، فهم قوم قد قلَّ عددهم ، وإن كثر في العفاة مَدَدهم ، فعدوا من المجد على السَّنام ، واشترت العيون رؤيتهم بلذيذ المنام ، تود جميع الجوارح ، لو أنها أبصار تجول من رياض ذاتهم في مسارح ، واعلم أيها المعدود في الأشرار ، أنك لست ممن تتحاسد عليه القلوب والأبصار ، وما تركت ذكرك ، إلا لأنظم في سلك الإهمال قدرك ، وما إعراضي عن هجاك ، إلا لعلمي بأنه قد فقد حجاك :

ولو كنت امرأ تهجو هجونا ولكن ضاق فتر عن مسير

نزَّهت أوراقي عن نجاسة اسمِك ، وطَهّرت فم الدواة ولسان القلم عن النّطق بفواحش رسمك ، فأنت لديّ منوط ، بامرأة نوح وامرأة لوط ، وإن فاهت بذكرك الأقلام ، فهي شياطين تُوسَوس في صدور السُّطور بطارق الأحلام ، ولما علمت الدفاتر ، بان الغرض ذكرك فيها وهو غرض فاتر ، ودَّت الخروج من جلدِها ، وأرادت من منظوم الكلام نثر عقدِها ، فمكان أنت فيه كثير الحزن ،

---

(١) ديوانه (٥٥١) ط مصر سنة (١٣٨٨) . وانظرهما في (فوات الوفيات ١٥٤/٣) .

(٢) هو عمر بن مظفر بن سعيد الفهري ، كان من شعراء مصر توفي سنة (٦٣٨) . (فوات الوفيات ١١٥/٢ والأعلام ٦٧/٥) .

(٣) البيتان وردا في (فوات الوفيات ١٥٥/٣) ط إحسان عباس .

ومنزل غبت عنه متوافر المنن ، وعينٌ تُشاهدُك فيها القَذَى ، ولسان تنطق باسمك دأبها والفحش والبَذا [ولست بمتوجّعٍ إلاّ من الدَّهر ، في تحملي غُصَصَ المغابط والقهر ، لأنه جعلك لي خصماً ، وقصم بمُديتك الكليلة عُرَاي قَصْماً] [1] ولست تعَد لي كفواً ، فهل أستطيع لهذا الخرق رفواً ، لا والله لقد اتسع علي الرَّاقع ، وخالط هذا الشراب السُمّ الناقع ، فامض على حالك ، وحظّك في العلا الذي هو أسود حالك ، فإنّك للذّمّ لا تتألّم ، وَوجهك من حديد وعرضك من الزّجاج المثلّم :

لك عرض مثلّم من قَوارير | ووجه ململم من حديد

قولي : « فأنت لدي منوط بامرأة نوح وامرأة لوط » يعني أني لم أذكرك لبغضك كما أن الله سبحانه لم يذكر في الكتاب العزيز المرأتين المذكورتين باسميهما لبغضه لهما . روت عائشة عليها السلام قالت : قلتُ : يا رسول الله امرأة نوح وامرأة لوط لِمَ لَمْ يسمّهما الله عزَّ وجل في القرآن ؟ قال : « لبغض الله عز وجل إياهما » فقلت : « يا رسول الله فما اسمهما ؟ فقال : « قال جبريل عليه السَّلام كان اسم امرأة نوح واغلة وامرأة لوط واهلة » .

وقال الإمام محمود الزَّمخشري رضي الله عنه في « الكشاف » : وأما ما رُوي أن عائشة سألت رسولَ الله ﷺ كيف سمى الله المسلمة يعني مريم ولم يسّم الكافرة ، فقال : « بُغضاً لها » قالت : فَما اسمها ؟ قال : « اسم امرأة نوح واغِلة واسم امرأة لوط واهلة » فَحديث أثر الصَّنعة عليه ظاهر بَيّن . ولقد سَمَّى الله جماعة من الكفار بأسمائهم وكَنَّاهم ، ولو كانت التسمية للحبّ وتركها للبغض لَسَمَّى آسيَة وقد قَرَن بينها وبين مريم في التَّمثيل للمؤمنين ، وأبَى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تَنُمّ عليه ، وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك [2] .

---

(١) ساقط من (ز) .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ، ج ٤ ص ١٣٣ ط دار الفكر .

السَّيِّدُ روح الدين عيسى بن مُحَمَّد بن عَبْد القَادر [1]

عالم أبان زُبده ، وبحر أظهر زَبَده ، هو للفضل روح ، ومِمن تندمل به من جَسَده القروح ، قادَ من المجد عَصِيًّا ، وانتبذت به المعالي مكانا قَصِيًّا ، فما بَلَغَ مكانه من رام لحاقه ، ولا سرى لقصد منزلته بَدْرٌ إلاَّ أدرك محاقَه ، رَوضٌ لبس معصفر الأصيل ، وماجدٌ يُعَد في السَّرَاة المعْرق الأصيل ، ذو حَسَبٍ لُبَاب ، وقلمٍ كأنَّهُ حُبَاب ، ولفظ منسّق كأنه حَبَاب ، وصَدْرٍ لسعة الحفظ يضيق عنده العُبَاب ، جَرَت في حلبة الفخر سوابقه ، وطالت في مغارس النبّوة بواسقه ، ارتضع من المعالي ثُدِيًّا ، واقتطف زَهْر العلوم نديًّا ، أعمل في طُرُق المحامِد عِيْسا ، وأحيا مرموسها وهل أحد أولى بذلك من عيسى ؟ زار مريضها وعاده ، وجعل إحياء ميّتها سجيَّة وَعَادَه ، وهو ممن جثا بين يدي والدي على رُكبه ، ونال ببركته من العلوم أقْصَى أربه ، حذا في ذلك حذو أبيه ، حتى صعد إلى المقام النبيه ، فعزّ له النَّظير وفقد الشبيه ، وهو إذ ذاك مخضل الشباب ، مخضرّ الفتّوة من قطر الرَّباب ، تلمع مصابيحه في ليل شعره ، وتحفّ هالة عذاره بمنير بَدْره ، فهو ممن غُذِي بالعلوم طفْلا ، ورأى حفظها عليه فرضاً إذا اتخذه الغير نَفْلا ، وركب مع الحداثة على نهده ، ونطق بالبلاغة صغيراً ولا غرو أن يتكلَّم عيسى في مهده ، ما أتت بمثله القرون ، فهو قول الحق الذي فيه يمترون ، وهو لي بَقِيَّة الخُلطا ، وما قلت إفكاً

---

(١) هو عيسى بن محمد بن عبد القادر بن ناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين، وفاته بعد سنة (١١٤٠) . انظر (نشر العرف ٣٢٨/٢) .

ولا أتيت غلطًا ، لأني لم ألف الآن نظيره ، ممن أبرز لي روض محاورته نَضِيرَة ، فنفثاته تَذْهب بالهمّ ، وثمار كلماته جنيت عن شَعَرِه من الرّوض المُدْهَم ، وبَيْني وبينه من المكاتبات ، مالم تكن صلات المودَّة فيها عِنده بيت الشِّعْر من المكاتَبَات ، لم تزل معانيها البديعة تبارى ، وتَتَسابق في ميدان الطّروس تسابقاً يريد به الحسود تَبَارا ، وقد أملاني من أشعاره ما أملى ، وكَرَّر عليَّ منها ما قلت معه لا شك أن المكرر أحلى ، من كل بيتٍ تنهدم له القُصور ، ويظهر بجنبه ما للغير عنده من القصور ، فمن أبياته التي يقال لكل فصيح عند هامَه ، ومسحات أدبه التي تبرىء الأبرص والأكمه ، قوله في الجناس مع التورية[1] :

جيران جيرون[2] جيروا ... ولا تجوروا علينَا
زوروا ولا تسمعوا للـ ... ـوشاة زوْراً ومينَا
لولا نرى ذا وهذا ... في النَّاس عَيباً وشينَا

وقوله في التورية مع الاكتفاء[3] :

إذا اختلفت آرام رامة أسحارا ... إلى وطني قال العذول دع العارا
ودعهم يزورون القفار وأهلها ... وإن سكنوا[4] داراً فلا تدخل الدارا

(١) أوردها المؤرخ زبارة في (نشر العرف ٢/٣٣٨) .
(٢) جيرون : بلد يرد في الشعر ، وجيرون المعروفة سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها ، وهي بدمشق ، في وسطها كالمحلة باب الجامع الشرقي إليها يسمى باب جيرون . (المراصد ٣٦٩) .
(٣) الاكتفاء : هو عبارة أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلّقة بمحذوف ، ويتقاضى ذكره ليفهم به المعنى فلا يذكره لدلالة ما في لفظ البيت عليه ، ويكتفي بما هو معلوم مما يقتضي تمام المعنى كقول بعضهم :
لا أنثني لا أنتهي لا أرعوي ... ما دمت في قيد الحياة ولا إذا
(شرح الكافية ١٠٥) .
(٤) نشر العرف : دخلوا .

فقلت له رأيي مخالف ما ترى (م) فلا أتبعه وهي تختلف الآرا

وقوله في التورية مع الاكتفاء أيضاً[1] :

قلت لمن يفعل في عرنينه إذا قرا
مرآهُ وطرفُه طرف عقابٍ في الورى
مِرآة الأنف لمن لا يستضي بلا مِرَا

وقوله مضمّناً مع التَّورية في مليح يُسمَّى محبوباً[2] :

أفدي بنفسي من يُدعَى بمحبوبِ فذاك من كل شيء جُلّ مطلوبي
وأستعيذ بباريء الخلق كلهم بأن أكون مُحبًّاً غير محبوبِ

وقوله مضمناً مع التَّورية وكتب به إلى من يضع العزائِم وهي عبارة عن الرُّقا [3] :

عَزَمت على فعل العزائم في الورى وقصدك وجه الله والله عالمُ
وما كل قارٍ يؤت سرّاً وإنما على قدر أهل العزم تأتي العزائِمُ

وقوله يذم شارب الخمر[4] :

الخمر تذهب بالعقول وما بها عِوَضٌ ومُبْعِدة لكل نعيم
تبّاً لشاربها إذا هو لم يتب ما خاف أن يُكوى على الخرطوم

قلت التَّورية في هذا النظم ظاهرة لأن الخُرطوم في اللّغة الأنف أو مقدمهُ أو ما ضممتَ عليه الحنكين كالخُرطم ، وهي أيضاً الخمر السَّريعة الإسكار ، أو أول ما يجري من العنب قبل أن يُداس ، وبذلك عرفت التورية . والمعنى أن الخمر إذا

(١) (نشر العرف ٢/٣٣٨) .
(٢) (نشر العرف ٢/٣٣٨) .
(٣) (نشر ٢/٣٣٩) .
(٤) (نشر ٢/٣٣٨) .

أذهبت بعقل شاربها صار مجنوناً ، ولذا قال : تَذْهب بالعقول . والمجنون طال ما كُوِي بالنَّار ليبرأ ألُمه معناه فَهَلَّا خشي مع ذهاب عقله أن يُكوَى ، وفيه إشارة غامِضَة إلى قول الله عز وجل : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ وهذا معنى حَسَن مع ما يشبه تجنيس الاشتقاق بين قوله تبّاً وبين قوله لم يتب ، وأحسن منه ما جاء لي في كلام منثور مسجوع ففيه مع التورية الاقتباس وهو قولي :

أما شارب المدام ، فلومُه المكرر المدُام ، لا يذكر في كل وقت ، إلّا بالمذمَة والمقت ، فتبًّا له من شارب[1] هام بشمطا ، وفتىً افتتن بالعَجوز فأخطا ، لا يذوق في الجنّة رحيقها المختوم ، وتقول خزنة جهنّم ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ ، انتهى .

وقد جاءت التورية بالخرطوم للشيخ علاء الدين الوداعي الكندي[2] رحمه الله تعالى على غير هذا النمط وذلك حيث قال :

دارت مـراشفـه علـيَّ وكـأسـه فسكرت في الحالين من خُرْطُوْمه

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة[3] رحمه الله تعالى قوله[4] :

رشفت من مبسمــه خمــرةً فيـا لهـا سكـرة خـرطـومٍ

وقوله في التَّورِيَة ، أعني صاحب الترجمة ، وهو ما كتبه إلى من يستدعي منه قصيدة من نظمه :

---

(١) في (ز) شاب .

(٢) هو علي بن المظفر الكندي الوداعي ، أديب متفنن شاعر ، له « التذكرة الكندية » خمسون جزءاً ، وديوان شعر ، وفاته سنة (٧١٦) . (فوات الوفيات ٢/ ٨٧ والأعلام ٥/ ٢٢) .

(٣) هو جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري ، من الشعراء المجيدين ، وفاته سنة (٧٦٨) .

(٤) ديوانه (٤٥٥) وفيه :

مـيـم فـم يـسـكـرني ذكـره فـيـالهـا سـكـرة خـرطـوم

لي بنت فكرٍ منك سمعي شَيِّقٌ   فما لرامٍ غيرها في الدنا مرْمَى
فاملأ لنا كاسات ألفاظها التي   إذا ما احتساها سمعُنا تطرد الهما
رَوَيْنـا إذا أمليتهـا كلهـا لنـا   وإياك تُمْلي بعض ألفاظها نَظْما

وأحسن منه ما كتبه الحافظ الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني[١] رحمه الله تعالى من نظمه إلى القاضي العلامة بَدْر الدِّين الدماميني[٢] رضى الله عنه في شَهر رمضان المعظم وهو قوله[٣] :

أليس عجيباً بأنا نصوم   ولا نشتكي من أذى الصوم غَمَّا
ونَـسْـغَـبُ والله في نُـسْـكِـنَـا   إذا نحن لم نـرو نَثْراً ونَـظْما

فأجابه الدَّماميني بقوله[٤] :

ألا يـا شهابـاً رقى في العلا   فـأمـطرنـا نوؤه العَـذب قـطرا
إلى فقـرٍ منـك يـافـقـرنـا   ونَسْتغن إن قلت نـظْماً ونَـثرا

أقول : هَذَا نظم لطيف ، فإنه فيه نَاسَب ذكر الشهاب الارتقاء في قوله : « رقى في العلا » وكذا قوله : « أمطرنا نوؤه العَذْب قطرا » لأنَّ العرب كانت تقول في النجوم : مطرنا بنوء كذا ، ولذا قال ﷺ : « لا تقولوا مطرنا بنوء كذا » وفي القطر تَوْرية لأن قطر المطر معروف ، والقطر[٥] طعام معروف يتخذ بأرض الشَّام

---

(١) من مشاهير العلماء وفاته سنة (٨٥٢) انظر في ترجمته (الجواهر والدرر) لتلميذه السخاوي .

(٢) هو بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني المخزومي ، عالم بالشريعة وفنون الأدب ، لازم ابن خلدون وتصدر لإقراء العربية بدمشق ، ثم رحل إلى اليمن فدرس بجامع زبيد نحو سنة ثم انتقل إلى الهند وتوفي هناك سنة (٨٢٧) . من مؤلفاته « نزول الغيث » انتقد فيه شرح لامية العجم . انظر : (الضوء اللامع ١٨٤/٧ والأعلام ٥٧/٦) .

(٣) انظرهما في (خزانة الأدب لابن حجة ٣٤٤) .

(٤) انظرهما في (خزانة الأدب ٣٤٤) .

(٥) القَطر : سكر يُذاب بالماء ثم يُغلى على النار حتى يأخذ قوامه ، ويستعمل في بعض الحلويات . (محيط المحيط : ٧٤٣) .

في شهر رمضان الكريم وغيره ، ولعل الشيخ شهاب الدين أرسل للقاضي بدر الدين رحمهما الله تعالى بشيء منه ، ولذا قال : « أمطرنا نوؤه العذب قطرا » ، وفي قوله : « إلى فقر منك يا فقرنا » ما يشبه تجنيس الاشتقاق ، وفي قوله : « نثراً » تورية لأنه يصلح أن يكون فِعلاً مضارعاً معطوفاً على قوله : « ونسْتَغن » فهو من الثَّراء بالمد الذَّي هو كثرة المال ، ويصلح أن يكون اسماً معطوفاً على قوله : « نظماً » ، لأنَّ النَّثر نقيض النَّظم وبذلك عرفت التَّورية فلله درّ البدْر ، لقد جاء بما شرف في القدرِ والأصل في هذا كله ما قاله أبو حفص المطوّعي [1] في الأمير الميكالي [2] وهو :

كلام ابن ميكال الأمير بلفظهِ ... ينوب عن الماء الزّلال لمن يظما
فنروَى مَتى نروي بدائِع نظْمِهِ ... ونَظْما إذا لم نرو يوماً له نَظْما

وكتب أعني صاحب التَّرجمة إليَّ مُلْغزاً في نجمٍ قوله :

ما مُفْردٌ إن حذفوا ثلثه ... تَعُدُّه في الجمع ذُو الحلْم
وفي المثنَّى عَدّ ما أسقطوا ... منه ذوو اللُّبّ وذوو الفَهْم
وفي السَّما والأرض حقّاً يرى ... وقَلْبُه واقٍ من الكَلْم
لسورةٍ اسْماً غداً كُلُّه ... ومثله البعض بلا وهم
واحذف وصحّف لترى موضعاً ... عُظّم فيه معدن العلم
أو سورة وهو مع قلعهم ... للعين بعد الخرم للنَّظم
اسم وفعل ثم حرف أتى ... وهو جلي مثلما النَّجم

---

(١) هو أبو حفص عمر بن علي المطوعي ، أديب له شعر رقيق من أهل نيسابور ، خدم في شبابه الأمير أبا الفضل الميكالي . له كتاب « درج الغرر » توفي سنة (٤٤٠) تقريباً . (يتيمة الدهر : ٣١١/٤ والأعلام ٥٥/٥) .

(٢) هو أبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي ، أمير من الكتاب الشعراء ، من أهل خراسان ، وفاته سنة (٤٣٦) . (يتيمة الدهر : ٢٤٧/٤ والأعلام : ١٩١/٤) .

فأجبته من النَّظم والنثر بقولي مرتجلاً :

بلغْت بـالمجـد إلى النَّجم ... وفـقـتـه في سـعـة الـعـلم
وجئت بـالنَّـظم كشهب السما ... يهْـدي إلى مقصـوده فـهمْـي
ألغـزت في شيء غـدا ثلثـه ... طـول المـدى يسبـح في اليمّ
وتـارة يَـصْـحـبـه كـاتـبٌ ... للنَّـثر في القـرطـاس والنّـظْم
مـن الجـواري كله وهـو لا ... يُمْلك فـاعجب منه في الحُكْم
واعـذر لتقصيري فـلي خـاطـرٌ ... بـأسهم الـدهـر هـو المـرمي
ودمت مـا جَـرَّ الصَّبا ذيْلَه ... من نـاعم الـزَّهـر عـلى كمٍّ

والنَّجم إذا هَوى ، ماضَلَّ من لنظمك قَدْ هَوى ، ولا أخطأ من رعى نجْمه بالنّظر والضم ، واهتدى به في ظُلمات المداد إذا كفّ السَّاري وأحجم ، فإنه طلع في ليل النّفس شهابُه ، وَطَما بالدُّرر النَّظِيمة عُبَابُه ، فَحَيَّر الفِكْر عند وصفه ، وبهر النَّاظر في بديع رَصْفِه ، فلا أدري ماذا أقول ، وقد دُهشت الأبصار وحارت العقول ، إذ لك معدود من النّجوم السَّارية ، أم من النَّفائس التي تُشْتَرَى بِقُرْطي[1] ماريَة ، أم من الزّهور الجنية ، أم من الجواهر التي هي عن المدح غَنِيَّة ، فاعذر[2] فِكْراً أجاب على فرق ، وحار لمَّا رأى من نظمك ما على فَرق ، ومُحِبّاً أصابه بريقه من الدَّهش الشَّرق ، كَلَّف نفسه ما ابتدر فظهر قصُورُها ، وأجبر قدمه على المشي في طريق السّباق فعزَّ مرورها ، والسَّلام .

وكتب إلي لُغْزاً في لوح فأجبته من النَّثر بقولي :

واللوح المحفوظ ، لقد وصل إلي دُرّ ذلك اللُّغز الملفوظ ، فإذا لِزَنْده قدْح ، وإذا لطائِره الغرد صدح ، فأحيا من الهمّة ما هو كميّتها ، وأدار على الأسماع

---

(١) يضرب بهما المثل ، فيقال : خذه ولو بقرطي مارية ، وهي امرأة يمانية ، قيل إنها بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا . انظر : (سرح العيون : ٤٣٥) .

(٢) ساقط من (ش) .

ما أضمرته الدّنان من كُمَيْتها ، وأسال من القرائِح ما جَمَد ، ونَبَّه طرفاً[1] به من الحوادث رمد ، فنحن في دَهرٍ ضاعت فيه لذوي الفضل الحُرُمات ، وزمانٍ عاش فيه العبد والحُرّمات ، وهو لُغزٌ في شيء معروف ، لا يُعُدّ من صروف الزَّمان على أنه من الصّروف ، كثيراً ما يأنس به الصِّبْيَان ، ليس من ذوي النّطق ومنه يعرف التّبيان ، لا يَسلم من الزّمان وضَيْره ، مصروف الاسم وثلثاه لامتناع الشيًّء لامتناع غيره ، فلا شك في ذلك ولا ريب ، ويشهد له قول معدن الحكمة « نعم العبد صهيب »[2] ، ثلاثي الحروف ، أوله كعذار الحبيب وثانيه كصدغه المصفوف ، يُعْزَى إليه النًّقل ، ويساكن الحجر ولا ينسب إليه العقل ، ومن عجيب حاله الذي حار فيه اللَّبيب بلبِّه ، أنّ حَوَل غيره في طرفه وحَوَله في قلبِه ، والله يعمّ التحيات ذلك السُّوح ، ويجِري عليه أنهار المنن ما جرى قلمٌ على لوح ، والسلام .

كتب إليَّ أيضاً أبياتاً أثبتها في غير هذا الكتاب ، فأجبته بنظم ونثر ، أما النظم فمذكور حيث أشرنا إليه ، وأما النثر فهو قولي :

هذا وإنها وردت إليَّ أبياتُك أيها النَّجيب ، وزَخَر بحر عروضها علي من درر الفصاحة بالعجيب ، فهزَّت العطف طرباً ، وأوسعت المحب برقتها حَرَبا ، وحمدت الله سبحانه، لَمَّا أبدى هزار الأدب على غصن قلمه ألحانه، وتبلجت أقمارُك ، وطابت في ليل الشَّباب أسمارُك ، وعلمت أن الفضل لا يخلو من

---

(١) ساقط من (ز) .

(٢) حديث « نعم العبد صهيب » قال الملا علي القاري : اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية ، فبعضهم يرويه عن عمر ، وبعضهم يرفعه . وقال السخاوي : رأيت بخط شيخنا ـ يعني العسقلاني ـ أنه ظفر به في مشكل الحديث لابن قتيبة ، ولم يذكر له ابن قتيبه سنداً . (الأسرار المرفوعة : ٢٥٣) وفي الفوائد المجموعة . قال السيوطي : لم نظفر به في شيء من كتب الحديث . انظر الشوكاني : (الفوائد المجموعة : ٤٠٩) .

أهْله ، وأن ذا الهمّة لا يعوقه عن نيل المجد مسافة حَزْنِه وسهله ، وأن العُلَى في الشيب والشباب، وأن استخراج الدُّرر لمن خاض العباب ، والله يبقيك لترائب الأدب عقداً نفيسًا ، ويحيى بوجودك ميت الفضائل ولا غرو فإنه ما عُرِف بإحياء الموتى غير عيسى، وخصك الله بأسناء السلام، ما تاق ذوو الألباب إلى المحاورة بالكلام .

وكتب إليَّ قصيدة من نظمه ومعها منثور مسجوع من نثره ، والتزم في القصيدة والنثر حرف اللام ، ففيهما من البديع التَّوزيع والمنثور المذكور هو قوله :

يقبل الأعتاب من الباب ، ويسلم على أولي الألباب ، سلاماً يجلو من العين القذى ، ويقول التحلّي بلؤلؤ البديع ولطائفه ألذّ الغذا ، السلام المرفوع على كواهل الملائكة الكرام لأنه أبلغ من سلامهم المنصوب ، على القاضي أبي العبّاس ذي الفضائل التي ملأت الفضاء بالمسموع والمكتوب ، الفاضل الذي فَضُل عليه ، فألفى ألفاظه وفواضِله وفواصله فاضلة لا فاصلة لديه ، التي أقلامه في الأقاليم تفعل ما لا يفعل القاصِل[1] ، فلم تزل المعاني للاماتها وألفاتها تقول لم أزل القاصِل ، ذلك العلم المفرد الكامل ، العالم الكاتب[2] العامل ، لا زالت الكتُب لديه وأهل الفضائل يطلبون المكاتبة من فضله للرّق ويزملون إليه ، له الفضل بقبول البيوت الدَّاخلة في القصور ، التي يطلب الجواب الذي يزيل الجوى في الغدوّ والمراح مثلما يطلب الإنسان في اللَّيالي المظلمة البُدُوّ للبدور ، وعلى الرسول المختار ألف صلاة وسلام وعلى آله ، ما طلع هلال وما حلَّ خليلٌ خليْلاً بأقوا له ، والسَّلام .

قوله : « السلام المرفوع على كواهل الملائكة » إلى آخر الفقرة ، هذا معنى حسن وفيه زيادة على قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في بعض قصائده :

---

(١) يقال : سيف قاصل قاطع .

(٢) في (ب) و (ز) الكامل (مكررا) .

واقْـر مـرفــوعــاً ســلامي لَهُمُ ودع النَّصب تصب مَعْنىً خَفِيّاً

والقَصْد أن السَّلام المرفوع في إعرابه يفيد الثبوت والاستمرار وهو سلام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فهو أبلغ من السَّلام المنصوب لأنه إنما يكون في الحال فقط وهو سلام الملائكة عليهم السلام ، كما حكاه الله عزَّ وجل في كتابه بقوله : ﴿ قالوا سلاماً قال سلامٌ ﴾ قال تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنّا منكم وجلون ﴾[1] وفي هذه الفقرة الاستخدام بالضَّمير لأنه أراد بقوله المرفوع على كواهل الملائكة الرفع وهو الحَمْلُ ، وأراد به في قوله لأنه أبلغ الرفع في الإعراب .

ومنه ما جاء لي في خطاب رجل من أهل البيت عليهم السلام وفيه التَّورية في النَّصب كما هي ظاهرة وهو قولي :

سلام السلام إليك يُهْدى ، أنضر من زهرٍ بلته الأندا ، سَلَام مرفوع على أجنحة الملائكة الكرام ، مرفوع في إعرابه لا كسلامهم المنصوب فما لنا فيه مرام ، فإنّي أبرأُ من النَّصب في حق مثلك لأنه يؤدي إلى الخفض ، وأتمسك بودّك تمسكاً لا يؤول والعياذ بالله إلى الرّفض ، انتهى .

وكتبت أنا إليه من النَّظم أستدعي منه كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي رضي الله عنه قولي :

أعيسى لقد أحييت بالعلم مَيِّتاً فكُلٌّ وقد جاراك يمشي على استحيا
وها أنا مرموس بلحد غمارَتي فَمُن على مَيْت الجهالة بالإحيَا

وكتبت إليه أيضاً لأمرٍ اقتضاه قولي :

رفع الضياء وحـلّ فينا منـزِلاً بُرهانُه لذوي العـداوة ما دُفـع
والله مـا أنا في المقـال بكاذبٍ من كون عيسى في البرية قد رفع

(١) الآيتان (٥١ ـ ٥٢) سورة الحجر .

وكتبت إليه وأنا أرْمد أستدعي منه « ريحانة » الشّهاب الخفاجي رحمه الله تعالى قولي :

يا ضياء الهدى اجمعوا لي في رو ض ودادِ ما بيننا ذي فُنُون
بين ريحانة ومنثور سجعٍ وشقيق غض الجنى من عيوني

* * * *

أخوه شَرف الدّيْن الحُسَيْنْ بنُ محمَّد بن عَبْدِ القَادِر[1]

فرع سيادة ، ودرّة قِلادة ، حائز الشرفين ، كريم الطرفين ، طالما زاد محاسن غَيْره تَشويْها ، وأضرم من ذكائه لأكباد الحُسَّاد ناراً تشويها ، نشأ بصعدة ، وأنجز له الزَّمان بها وَعْده ، وتَقَلّب بحجر جَدِّه ، ونال بقربه منه غاية حدّه ، فما نشأ إلا كما نشا ، إذ نقع منا سجيّته مضطرم الحشا ، فللّه دَرّه من سري ، ومن متوقّف عن الشُّبه غير جري ، ومن حَرِيِّ في دينه فهو بالمدح حَرِي ، نجيب ما قارف ذَنباً ، وصينٌ عظمت في وَصْفِه الأنبا ، ما اختط عذارُه ، إلا وقد اخْتُطَّت في مَنازِل النّجوم دارُه ، حاز غاية اللَّبابة ، وذاق من العِرفان لُبابَه ، سَما في علم التاريخ والأعصار ، قريحة فيه طيبة لم يستول عليها الإعصار ، وخمرة ألفاظه لم تفتقر إلى مَزَّار[2] وعَصَّار ، فهو فيه قد أزرى بِزَيْده وعَمْرِه ، وأضاف به مع الحداثة أعماراً إلى عُمْره ، مع حسن تعبير ، كأنه في الأنوف العبير ، وفي الأسماع دُر يتَقَلقل في الصَّدف ، وفي الأبصار زَهْرٌ تَنبلج في الغَدَف[3] ، وفي طبعه حِدّة ، لا يخالط الهزل جِدَّه ، ولا تُخلق الأيام حُلَلَه فهي ذات جِدَّة ، وَلَمَّا خرج من بلاد الشَّام[4] ، وخال من بِدِيارنا بارق فضْلِه وشام[5] ،واستطلع شبابه الأسود الذي هو في ثغر

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٦٢٦/١) نقلاً عن كتابنا هذا ، ولم يؤرخ لوفاته .

(٢) المزَّار : هو الذي يصنع المزر ، وهو نبيذ الشعير والذرة .

(٣) الغدف : الظلمة .

(٤) يعني جهات صعدة والبلاد الشمالية .

(٥) شام البرق : نظر إليه أين يقصد .

كوكبان وِسَام ، وفَد إلى شبام كوكبان ، وَوضح بدرُه بمنازِل والدِه فيه واستبان ، ورجع الفرع إلى أصله ، وانضم الغِمْد إلى نَصْله ، ابتهج به سَفْحُه ، وبرد من الهجير لفحُه ، وخمد أوارُه ، واستتر بأشجار فَضْله من نَهْره عَوارُه ، وله نظمٌ لم يزِل للصّدور شارحًا ، منه ما كتبه إلى أخيه روح الدّين عيسى مطارحًا ، وهو قوله :

ماعَرَّسَ النَّاس في البيداء أو باتوا ... إلا تذكرت هل للوصل أوبات
وهل لأيّامنا الغُرّ التي سلفت ... بقرب ريَّانة الأعطاف عَطْفاتُ
أيـام كُنّا بسلعٍ والغُـوير ولي ... من ثغرها الأشنب المعسول رشفات
أيـام شرخ شبابي مُقْبـلٌ وبـه ... يحلو لي الدَّهر إن مرت سويعات
ونحن في ظل عيشٍ وارفٍ ولنا ... فيُّ الصَّبـابـة إرواء ورايـاتُ
نختال بين جنـان والنّهور بهـا ... والطَّير يشدو وللأغصان ميلاتُ
وللنَّسِيم خـلال الدَّوح هينمـة ... عُجْميـة طويت فيهـا إشـاراتُ
والسُّحب تبكي وثغر البرق مبتسم ... والرَّعد تبدو له فيهن ضحكاتُ
وأنت شمسٌ تغار الشمس منك وهل ... للشمس خد وأجفان كحيلاتُ
مكسورة لا يَشن[1] الطرف كاسره ... كليلة قد مضت منها الحساماتُ
وخدٌّ مالكتي وردٌ إذا عـرَقَت ... مَآله مثل شمّ الطّيب نفحاتُ
وفرعها مثل جنح اللَّيل منسدل ... والفرق حاكته للصبح ابتساماتُ
وثغرها الدُّر لكن في الغريب وقد ... صيغَتْ عليه من الياقوت ضَبَّات
والقدّ يَهْزأُ بالغصن النَّضير وإن ... ما ماس بانت لغصن البان خَجْلاتُ
يكاد يقعدها ردف إذا نهضت ... وفي القعود لها بالخصر نَهْضات
كـأنما لـونها الدرّ النقي وقـد ... شـابته جمـر يـواقيت بَهيْجـاتُ
لميـاء عراقيـة الأطراف كـاعبـةٌ ... تجمّع الحسن فيها وهو أشتاتُ
ومن يرم وصلها جَهْلاً برتبتها ... حـالت دُوَين أمـانيـه المنيـاتُ

(١) في (ش) لا يشر وفي (ز) لاشثره .

فليس للروح روْحٌ بعد فرقتها ... إلا بِهِ من زكت منه الأروماتُ
عيسى المعيد حياة العلم فيه وقد ... كادت تفيض وتمحوه الجهالاتُ
صدر المجالس بل فخر المدارس إن ... ما أوردت مشكلات أو سؤالاتُ
فهـو المشار إليـه بـالبنـان إذا ... ما أعوزت من ذوي[1] العلم الجوابات
ففي الأصولين ما عبد السلام[2] وفي ... علم الفروع له فيه اختياراتُ
بحر الفصاحة ما قيس[3] يُقاس به ... إلا وبـانت له في الفضـل آياتُ
فالنّظم والنثر منه قد غَدا دُرَراً ... جلت مبـاديه فيهـا والختامـات

قوله : « وللنَّسيم خلال الدَّوح هينمة » الهَينمة بالهاء والياء المثنية التحتية بعدها نون وميم ، هي الصوت الخفي وقيل هي الحديث على هدوّ وسكون . وقيل هي الكلام الذي لا يفهم ، وهذا التّفسير لها هو المناسب للبيت مع قوله : « عُجْمية طويت فيها إشارات » وهذا تخيل حسن ، فإن صوت النَّسيم خلال الأشجار هينمة لا تكاد تفهم .

وقد جئتُ أنا بهذا المَعنْى في كلام لي منثور لما قلت :

أكرم بروضَةٍ تحت فروعها قِلْنا ، وشابهنا أغصانها لَمّا إلى ظلالها ملْنَا ، وقد نام الحَزَن وتَيَقَّظ السُّرور ، ومرت رياح الجنوب بالرسائل بين الحمائم فأحسنت المرور ، وأشرقت شمس الأفراح ، ودارت من القطر على الغصون الرَّاح ، فمال نشوانُها ومار ، وترنّحت أعْطافُها من الخُمَار ، وحدثت الصبا عن الرِّياض بلسان الشَّميم ، ونادت الطُّيور على منار الشجر ألا هذه أوقات النعيم ، والنّشر على الحدائق قد نَمّ ، والنَّسيم خِلالَ العَذبِ قد هَيْنَم ، بكلام فيه غَمْغَمة ، ولفظ فيه همهمة ، لا نَسْتبين حروفه من مخارجها ، ولكنها تسكر من الكروم في مدارِجها ،

---

(١) ساقط من (ز) .

(٢) يعني به القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام (سبق) .

(٣) القياس في الاجتهاد تفضيل الشيء على غيره ، وقيس بن زهير مشهور بجودة الرأي .

لأن له في أعضاء الغصون دَبيباً ، يُطرب لطيفاً ويهزُّ من النشوة لبيباً ، يفتقر ذلك الكلام إلى ترجمة ، ولكن الطّيور تُتَرْجِمُ عنه من فوق الفروع بما يوضّح معجَمه ، فما أوضحه عند مغرم أصاخ له سمعه ، وأجرى الشجرة منه دمعة في إثر دمعة ، والسَّلام .

قوله : « صيغَت عليه من الياقوت ضَبَّاتُ » ، هي بالضَّاد المعجمة جمع ضبّة ، وهي في اللُّغة حديدة عريضة يضبب بها . ولما أنشدني صاحب الترجمة أطال الله عمره هذه القصيدة قال لي : الضّبة من الياقوت حول الدُّر تخيّل حسن وقد ألمَّ هذا المَعنْى بقول القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي[1] رحمه الله في بعض قصائده :

ومن أدار يواقيت الشفاه على درّ الثنايا وزان الدر بالفلج

ولكنَّه جاء بغير لفظ الضّبة ، فقلت : نعم هذا تخيّل جيّد ، معناه لسائر المعاني سيّد ، ولكنه لم يوضح في بيته أن الضَّبَّة من أحمر الياقوت إذ هو ألوان مختلفة ، ولذا إني نظمت هذا المَعْنى مع زيادة الجناس التّام والتَّورية في النَّص فقلت :

وريم فاق ظبي البَرّ جيداً بِنَصٍّ في القياس وفات ضَبَّه
تَبَسم عن يتيم الدُرّ صيغت عليه بأحمر الياقوت ضَبَّه

واجتمعت أنا وصاحب التَّرجمة ببعض دور حصن كوكَبان السَّامي ، وبها من سواجع الحمام كل مسجٍ بنغمته ، فقال لي : إن الحمام في زمن بعض الخلفاء من بني العباس قد تناهت قيمتها حتى بلغت قيمة الحمامة الواحدة إلى خمسمائة دينار ، فقلت : نعم ، قد ذكر المؤرِّخون أنها جرت عادة الكبراء والعظماء باتخاذ الحمام في منازلهم سيّما في أيام الخلفاء ، وأكثر ذلك في أيام النَّاصر أحمد بن المستضيء[2] فإنه

---

(١) سيأتي .

(٢) هو الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله ، الحسن بن المستنجد ، خليفة عباسي ، بويع بالخلافة بعد موت والده ، وكان يُوصف بالدهاء ، طالت أيامه . وتوفي سنة (٦٢٢) . انظر : =

اهتمّ بأمرها ، واعتنى بشأنها ، وما زالت الخلفاء والملوك يطيّرون الحمام ويسابقون به . ولم يختص بذلك بنو العباس فقط بل قد فشا أمر تعظيم شأنها في غيرهم . قال الجاحظ[1]: قد تباع الحمامَة بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك شيء من الطَّير . ومن دخل بغداد والبصرة عرف ذلك . وتباع البيضة بخمسة دنانير والفرخ بعشرين ديناراً ، والله أعلم ، إنتهى .

وقد أشرت أنا إلى هذا في نثر مسجوع لي فقلت : أما تنظر إلى عَصرْ من مرَّ من الخلَفَاء ، والملوك الذين هم حنفاء لله وللأفضال خلَفاء ، كيف عظم عندهم الحمام الساجع ، لما بار مغرد الفصاحة في هذا الزمن الفاجع ، فذاك هو حظّي فيه الساجع اللاَّحن على الغصون ، وهذا دهرٌ بار فيه السَّاجع المعرب على الأقلام لوزن لفظه المصون ، أضحى ذاك اللاَّحن مطوّقا ، وظل سهم الرزايا إلى هذا المعرب مفوّقا ، نفقت بذاك بَيْضَة الحمام ، وكسدت بهذا بيضة البلد من الأنام ، وحظي بذاك الفرخ من الطير ، وحُظي في هذا الفرخ من أولاد الزّنى لا غير ، فويح الأفاضل من هذا الزَّمن المزْؤود ، الذي لا يقي من سهامه المسمومة الدرع المزرود ، والسلام .

واجتمعت أنا وصاحب الترجمة أيضاً في بعض المواقف فقال لي : إني رأيت عجيباً من جلال الدّين السّيوطي رحمه الله تعالى وهو أنه ذكر في كتابه « شرح شواهد مغني اللبيب » أن المعرف باللّام من الأسماء يكون غير النكرة ، فالرّجل مثلاً غير رجل ، وفائدته أنه إذا جاء المعرف في قافية بيت من الشِّعر مثلاً وجاءت النكرة في البيت الذي يليه فإنه لا يكون إيطاء وهذا من أغرب ما سُمع ، فقلت له : نعم هذا يعدّ عندي في غاية النكارة ، ثم قلت قد سبق الجلال السيوطي في النّص على هذا نجم الدِّين الرضي رضي الله عنه فإنه صرح في « شرح الكافية » في

= (تاريخ الخلفاء للسيوطي ٥١٣) .

(١) الحيوان ٣/٢١٢ ط مصر .

بحْث لام التعريف ، بهذا وسمَّى هذه اللَّام لام الامتزاج حتى قال في سياق ذكر اللَّام وما تأتي له ما لفظه : وللامتزاج بين اللَّام وما دخلته ، فكان الرَّجل مغايراً لرجل حتى جاز تواليهما في قافيتين ، ولم يكن إيطاء. هذا لفظه ونَصُّه عليه .

* * * *

أخوهُمَا جَمَال الدِّيْن عَلي بن محمد(١)

معدود من النجبا ، يسوق من عزمه لجبا ، ذو الهمَّة ، التي [بلغ](٢) بها من شامخ المجد القمة ، ربَّاه والده أحسن تَرْبِية ، فلما دعا المعالي لَبّته أسرع تلبية ، حفظ صارمه في غمد العفاف ، وبَلَّ ذيل نسماته بماء الصَّوْن فما له جَفَاف، فهو الفتى إذا قيل من الفَتَى ، وهو باكورة الخريف وفاكهة الشتا ، كنتُ أجتمع به بمقام والده ، الذي هو ربيع فضل يحيى بجعفره المتدفق نضير خالده(٣)، فأخَال الإنصاف وهو له نصيف ، وانظرْ مخايل السيادة عليْه هي روضة لا تخلق نضارتها في شتاءٍ ولا مَصِيف ، وقد تحلَّى بوقاره وأدار من أدبه كأس عُقاره ، وقد أتحفني بشيء من شعره ، مما هو أعظم سبب في هذا المصنف لذكرِه ، اختِرت له من قصيدة قوله :

يا مخجل البدر هل للهجر غاياتُ ... وهل لوصلك في العشاق ميقات
كم من عذولٍ غدا في الحب يعذلني ... ولم يكن لي إلى ما قال إنصاتُ
اللَّيل طرَّته والصبح غرتُه ... وعقرب الصّدغ ما منها وِقاياتُ
تحمى الثَّنايا التي كالدرُّ قد نظمت ... بالنبَّل منه العيون البابليـاتُ

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/٢٧٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) ساقط من (ب) و(ش) .

(٣) هنا تورية بالربيع الفصل المعروف ، والربيع بن يونس الوزير المتوفى سنة (١٦٩) ، والفضل هو ابن الربيع السابق . وجعفر في اللغة النهر الصغير ، وجعفر هو جعفر بن يحيى البرمكي وزير الرشيد المتوفى سنة (١٨٧) .

بَدْر غدا تحت ليل الشّعر مستتراً   لــه النجـوم عقــود لؤلؤيـاتُ

وله لما جاء القاضي البدري في ليلة الرابع عشر من الشهر :

أتــانــا الـقــاضي البــدري   بــليــلة رابــع الــعشر
فقلت لصحـبنــا لا شــكّ   هــذي لــيــلة الــبــدري

* * * *

السّيد الحسنُ بنُ علي الأخفَش(١)

له في السيادة نصيب ، وسهمان في الفضل هذا موفور وهذا يُصِيب ، فهو في شفة الدهر لعس ، وفي روض الزمن نسيم طاب منها النَّفس ، كان عاملاً على بعض البلاد ، فهو عامل يطعن حساده في السّلم لا في الجلاد ، وهو مع ذلك يحضر مجالس الدَّرس ، ويجني من العلوم باكورة الغرس ، يفوح منه أطايِب الشِّيم ، كما فاحت الأزهار غِبَّ الدّيم ، في طبع هو للصَّبا شقيق ، ولطف لجنبات الرياض المونقة شقيق ، فأوقات دهره به زاهية ، إذ عيون النقص والعيب عنها بوجوده سَاهية ، شمخت أطواده واخضرت من النعمة أعواده . كما اخضر من الفروع باسقها ، إذ نظم عليه من لآلىء الندى متناسقها ، سكن من حصن كوكبان بُرْجَاً،وركب من جواد جبله المنيف للهلال سرجا ، وارتقى بسلمه إلى الأفلاك ، فنظم درر دراريها في الأسلاك ، وورد من المجرَّة نهراً ، وقطف من بنفسج السما زَهْراً ، بين نرجس نجوم ذابل ، لا تفتقر إلى رذاذ ووابل ، وله شعر فاخر به الشُّعرا ، ونظم أرخص بمداده غوالي المسك سِعْرا ، فمن لمعات زُهره ، ونفحات زَهْره ، قوله من أبيات ، ما أتى نظيرها ولم يات(٢) :

فـوا عـجبـاه مـن غنـجٍ لـعـهـده محـبّـه غـدرا

---

(١) ممن انفرد به المؤلف فلم نجد له ترجمة أخرى ، وولده من مشاهير العلماء ، سيأتي . وفي (نشر العرف ١/٥٤٦) ذكره استطراداً عند ذكر ولده .

(٢) أوردها في (نشر العرف ١/٥٤٦) .

ويـاحُـرَقـاه مـن دعـجٍ بِسحـر لحـاظـه سَحَـرا
وكـم لاقـيت من خَـطَر وقـد عـايـنـتـه خَـطَرا
وكـم وجـدٍ أكـابـده أثـار بمـهـجـتي شَـرَرًا
أقـول لـه وقـد عـاينت (م) بـدر جمـالـه سَـفَـرا
سلبت القلب أحـرقت الـ فـؤاد أذقـتـني الـصَّـبِرا
ويـا غـصـن الأراك أمـا كفى ما في هـواك جَـرَى
فـلي قلبٌ يـذوب جـوىً وطـرف حـالـف السَّـهـرا
ولا انـفـك مـن ولـهٍ أديـر بـقـلبـي الـفِـكـرَا
وصـلَّى الله مـا لمـعـت بـروق في الـدُّجَى سحَـرَا
ومـا غـنـت مـطوقـةٌ وأبـكَـى شـجـوهـا المَـطَرا
عـلى مَن طـاب عنصـرهُ ومـن أسري بـه فسَرَى

وقوله رباعية :

أفـدي قمـراً بحسنـه الهـاني لو مَنَّ[1] علي بالوصال ألهاني
يـا من بلحاظ طـرفه أعيـاني قد سَال دمي عليك من أعياني

وقوله :

من حرّ صَبَابتي ومن تـبريحي صـيَّرت كنـايَتي بكم تصريحي
يا من تلفت على هواكم روحي في ذاك كفـايـة عن التَّلويـح

(١) في (ب) و (ش) مرّ .

وَلَدُه السَّيد العَلاَّمة الحُسَين بن الحَسَن الأخفش[1]

مجتهد أيامه ، لم يُقَلَّد إلاَّ جيد الدَّهر بدُرر كلامِه ، عين الأعيان في الزَّمن ، وسَعْد العصر ويمن اليمن ، أمّا في النَّحو فهو الأخفش[2] على الحقيقة ، والمترع منه بكأس عبارتِه خَنْدريسه ورحيقه ، وأمّا في الأصول فهو طَيّب الفروع ، وأمَّا في التَّفْسير فهو ثبت الجنان لا يهوله المشكل ولا يروع ، وعلى الجملة فهو جامع الفنون ، الذي إذا رامَ العلماء مجاراته قيل لهم ما هذا إلاّ جنون ، فقد أعجز مُجَاريه ، وَوَرد معين الإفادة في مجاريه ، كَسَته همته بُرْد المعالي فَمَا عَسَى ، ولا بدع فقد صَحَّت في الحسين أخبار الكسا ، شَدَّت المجد من عزمه أمراس ، وألهى فضله عن الغير فلا يُدْرى أهو ذنب أم راس ، لا يفتر عن الطلب لحظة ، ولا يبرح يَرْعى في حدائِقه لحظة ، مع زُهدٍ وقُنُوع ، فهو على النَّعيم غير هلوع ، لا يبالي كيف أمْسَى فلا تَسمْع في ناديه من الجَزَع على الدنيا إلاَّ همسا ، طاهر الحشا عن الشبهات ، لاكسائر الأكابر الذين لا تَسمع منهم فيها غير هات ، فهو مذ جَعَل

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن علي بن محمد بن الأخفش بن الحسن ، الملقب بالشامي بن محمد بن صلاح بن الحسن بن جبريل . قال زبّارة : والحسن بن محمد هو الجد الجامع لبني الأخفش وبني الشامي ، وأن جدهم لقب بالأخفش لتبحُّره في علوم العربية كالأخفش النحوي المشهور قلت : وقفت على رسالة في نسب آل الأخفش وآل الشامي لصاحب الترجمة . وانظر في ترجمة المذكور (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/٥٤٤) .

(٢) هم ثلاثة أكبر وأوسط وأصغر . انظرهم في كتب التراجم .

القناعة همًّا ، وتلفع بُرْدَ الزَّهادة لَمَّا يأكل التراث أكلاً لماً ، وقد جَرَت بينه وبين والدنا مراجعات في مسائل ، ودارت بينهما أوراق اكتست من عرفها زهر الخمائل ، تحتوي من العلوم على طرائق ، ومن الفوائِد على كل عذبٍ رائق ، وهو في الجدال أجدل ، وذكره فيه طيّب ولا كطيب المَنْدل ، وكنت أراه في همة ما لحاسده منها إلَّا الهمَّ ، وتَشْمير في الدَّرس دون مضاء سيفه اللَّهذم ، وكدّ يُمْدح عليه إذا كان حظ العاجز الذمّ ، وقد ولي الخِطابة ، في أوقات مرَّت كمرِّ السحابة ، فهي لضيقها أقصر من إبهام القطا[1] ولقلة ساعاتها كهِبة شحيح كُلِّف على العطا ، ما هي إلَّا أقصر من جلسة الخطيب[2] ، وأسرع من مرور النَّسيم في روض يطيب ، ولما حَسَدنا عليه الدهر اللئيم ، بادر بنقله عنَّا إلى جَنَّاتِ النَّعيم ، فمات وهو طريُّ الشَّباب ، متلفع منه بأفخر ملبسٍ وجلباب ، وانطفأ مصباحَه ، وأسِن[3] من الحياة قراحه ، وقد سمعت والدنا يقول بعد مماته ، لو عاش هذا الشِّبل ومُدّ في حياته ، لأبرز من العلوم ما لم يبرز ، ولأحرز منها في صناديق الدَّفاتِر مَا لم يحرز ، إلّا أن المنية حالت بينه وبين الأُمنية ، سَقَى الله جدثه صَيِّبًا ، وحَيَّاه بنسيم الرحمة طيِّبا ، ما تَغنَّت ذَوات الأطواق ، وصَفَّقت لرقص الغصون أكف الأوراق ، وقد مسحت الغزالة بذيل الحَرارة ما رَشح به جبين الرَّوض من عرق القطر الذي والى انحداره ، وله شِعر مسك مداده دَاري[4] ، وكافور قرطاسه يفوح بما يطيب لكلّ لبيبٍ داري ، كقوله وقد رحل عن وَطَنِه ، فازدادت أسباب اكتئابه وحزنه[5] :

---

(١) من الأمثال قال جرير :

ويوم كإبهام القطاة مزين ... إلى صباه غالب لي باطله

(المستقصى ١/٢٨٣) .

(٢) أي جلسة الخطيب بين خطبتي الجمعة .

(٣) في (س) أحسن .

(٤) نسبة إلى دارين فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند فينسب إليها .

(٥) أوردها في (نشر العرف ١/٥٤٥) .

يا رفاقي إن غبت عنكم فقد طا ... ر بـروحي إليكم الاشتيـاقُ
لست أرضى بالبعد عنكم ولكن ... قـدرُ الله دفعـه لا يـطاقُ
أضرم البـين في فؤادي نـاراً ... تـتـلظّى ومـدمعي مـهـراق
غير أني فوضت أمري إلى الله ... فـأرجـو أن ينقضي الافـتراقُ
ويـطيبُ اللِّقـا ونَفْتـح أبـوابـاً ... من العـلم نـابهـا الاغـلاق
خانها الدَّهـر مَسّها الهجـر لمَّا ... رفـع الجهـل راسـه والنّفـاقُ
يَسَّر الله فتحهـا واجتـماعـي ... بكـرام طـابـوا وفـاءً وفـاقـوا

وسيأتي من نظمه ، ما يُبادر إلى الدر النَّسيق بخطِّه وهَضْمِه ، وذلك في ترجمة شيخنا السيد الحسين بن الحسن العَوامي ، الذي زَهَت[1] بعرفانه وتَنْقيحه أيَّامي ، ما يدلك على رسوخ قدمه في الفصاحة العربيّة ، وعراقته في الرُّتب الأدبية الأبية ، وكذا في ترجمة العلامة العماد،الفقيه يحيى بن محمد الحارثي ، سقَى الله ملحده ملثّ العهاد .

(١) في (ش) هزت .

أخُوهُ السَّيّد مُحَمَّد بن الحَسَن الأخفَش[1]

له فَضْل كبت حُسّاده وسَاء عِداه، لما مُدَّت لاقتطاف زهرات الأدب بنانَه وساعِدَاه ، مال إلى الفضل مَيلان الغصن الرَّطيب ، واستنشق من مسكِ المداد وكافور الأوراق ما يطيب ، ولازم الأفاضِل فَعُدّ فاضِلاً ، وما برح بهم مباهياً لأقرانه مناضلاً ، والذي ألبسه تاج العرفان المكلَّل المفصل ، صاحبنا السَيّد عبد الله بن أحمد بن يحيى بن المفضل ، فإنه هَذَّب طبعَه ، وغَرَس في جَنَبات اللبانَة نَبْعَه ، وحفر عن ماء قريحته العذب فأغزر نبعه ، فأصبح نَهْرُه متشعِّبَا ، وما زال بفنون الآداب متلعِّبا ، وكان بشعر أبي العلاء المعري ذالهج ، فطالما اجتلى من بنات فكره عرائس تبدو عن بهاءٍ وبهج ، رأيته صحيحاً ثم رأيته عليلاً ، وقد ألبس اليرقان روض شبابه أصيلاً ، وصبغ لحيتَه ذَهَباً، وعاد عمره بيد المنية منتهبا، فمات وليل شبيبته عَتِيم ، وكان دُرّ أدبِهِ بوجوده ذا أبٍّ فإذا هو بعده يتيم ، لا زال في بقاع الجنان نازِلاً ، ولا برح في عرصاتها للحور الحسان مغازِلا ، وشعره من القليل أقلّ ، فلم أسمع منه ما عنه النَّاقل نقل ، غير قوله في مليح بالقانصي يلقب ، طالما انتظر وصاله وترقَّب[2] :

ريمٌ أخــاطبُـه بــودٍّ خــالصٍ أنت الذي أبديت فيك خصائصي

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ١/٥٤٥).

(٢) انظرها في (نشر العرف : ١/٥٤٦).

حلّيت مذ أحكمت عقد جوانحي   في القلب لا تعدو شراك القانصي

وأحسن منه ما جاء لي في غلام مال إلى رجل يلقب بالقانصي أيضاً[1] :

محبـــوب قلبي آنسٌ للوفــا   ما ظله في الوصل بالقالصِ
فهـو غزالٌ لا يُـرى نافـراً   أعيــذه من شرك القانصي

(١) في (نشر العرف : ١/٥٤٦).

السَّيِّد أحْمَد بن يحيى بن الحسن بن محمد الأخفش

أقسم بما قسم له من العُلا ، ما ألفيتُ له نظيراً في الملا ، هو روحٌ والكون جسْم ، وهو المُسَمَّى في المجد اسْم ، عارف كل عالم لديه جاهل ، ومستوطن لسوح الفضل فهو به آهل ، ما طلب العلوم طالبٌ كطلبه ، ولا انقلب مغتنم لها بأسعد من منقلبه ، قرأ بصنعاء قراءة فحص وكدّ ، وتَحَدّر بها ماء نهره فما رَكَد ، ثم لما عاد ، وطرد بالقرب البعاد ، أخذ على والدي في رَيْعَان عمره ومقتبله ، وسقَى رياضه مما تحدَّر من سيل[1] جبله ، ففتح له من علومِه الخزائن ، وزَانه بحلي الإفادة منه زاين ، فكم لزمه ولبدره رقب، فإذا هو ألزم للمرء من نَبْز اللَّقب ، طَالمَا انحدر من كوكبان إلى شبام انحدار المطر ، وجثا بين يديه ليقضي من إفادته الوطر ، ثم يَصْعد في إثر انحداره ، ويعود عود الغائب إلى داره ، ويقطع في كل يوم عقبته الكؤود ، فلا يُضْجره اقتحامها ولا يَؤُود ، لهمَّةٍ قد تعلقت بالكواكب ، وزاحمت زُحل بالمناكب ، وغرامٍ بأبكار العلوم لا يعرض له الملل ، وانهماك في تحصيل الفوائد كل عظيم من المتاعب عنده جلل ، وكنت أحضر بمقام قِراءتِه على أبي، فلا تحتجب عني عقائل فوائِده لأني غير أجنبي[2] ، فأجتلي منها بُدوراً ، وأخترق من أوراقها خدوراً ، وأرفع عنها سجوفاً وستوراً ، وكان كثيراً ما يقول لي بلا حصر ، عليك باغتنام وجود والدك في هذا العصر ،

---

(١) في (ز) سبيل .

(٢) في (ز) اجنى .

فخذ عنه ما عنده ، واقدح بالمساءلة زنده ، واقرأ عليه ولا تمل ، واجعل ملازمة الدَّرس عليه من خير العمل ، فقد عزَّ في هذا الزَّمان له النَّظير ، ولذا أنا به لمن رام مشابهته نغيظ ونضير ، وكان إذا تلا المثاني ، أغنى سامعه عن نغمات المثاني ، يكل عند درسه جدّ أبي موسى ، ويجرح فؤاده بنصال تفضيله عليه فلا يوسى ، وقَدْ سمع منه ما لا يسمعه من أوتار العود ، لما أخذ عليه مزماره الذي أعطي من مزامير آل داود ، تكاد تؤوب معه الطير والجبال ، ويهتزّ من القدود الأغصان وتتحرك من كثبان الأرداف العَبَال[1] ، ويزُف لمعرس على سوطه عِرْسَه ، ولذا قال فيه المولى الحسين بن عبد القادر وقد سمع دَرْسه :

صَيِّتٌ إن تلا مزامير داود عليــه وقفٌ بــلا إشكــال
قدمتهُ مشـايخ حـين يتلو فاعجبوا من مُقدّمٍ وهو تالي

ولم يزل يجني من أفنان والدي ثمرات الفنون ، حتى عرض له وسواس وضرب من الجنون ، وأوهام بينه وبين الصَّواب متوسطات ، وإذا وهميَّاته ومخيَّلاته في منطقهِ مختلطات ، بدت من خيالاته لمع ، فقام منبر كوكبان يخطب في بعض الجمع ، ودعا النَّاس إلى نَفْسه وظهر منه في يومه خلافُ ما ظهر في أمسه ، فَحُبِس يسيراً ، واعتقل أياماً لا يُعدّ بها أسيراً ، فلم تكُ مدةُ حبسه مديدة ، وإذا حروف صرفه عن مرامِه بين الرخوة والشديدة ، ثم رُمي بِرسنه على غارِبه ، وأدير كأس تخليته على شاربه ، ولمّا أُطلق بريء من ألمه ، وعاد إلى أُنْسِه بقرطاسِه وقلمه ، واشتغل بقراءتِه وَدَرْسِه ، كما اشتغل الحلي بوسواسِه وجَرْسه ، حتى زاد مع عرفانه عرفانا ، وساكن فوائد قد باين نومه لتحصيلها أجفانا ، ولمَّا رأى الدُّنيا أغرّ من السَّراب ، وعلم أنها تمزج بالعلقم حلو الشراب ، لتّ نفسَه عنها لتًّا ، ورفَض زبُرجها[2] رفض التّمتام في منطقه لِلتًا ، وقال قول صادق لا يمين ، ليس لمخضوب

(١) الورد الجبلي .
(٢) الزبرج : الزينة من وشي وجوهر ونحوه .

البنان يمينِ ، فكان يعظ والده ، من الاغترار بشهوات لَيْست بخالِده ، ويوبّخه بالموجع من كلام الكلام ، ويلومه على الأخذ من بيت مال الله أعظم الملام ، لما رأى نصحه له لم ينجع ، ووجده من سهام تفنيده غير موجع ، اعتزل عن طعامه وشرابه ، وأخذ بتورعه الفوز وَشَرى به ، ونزع سيفه المصقول من قرابه ، واكتفى بالقليل من الحلال ، ولزم من العفة أحسن الخلال ، وأضحى بالقناعة في مُلك قارون،وشابه في زهادته أحمد بن هارون[1] ، وكان يحجّ عن الأموات بأجْرته ، ويعَاهد من البيت الحرام بقاع حجره وحجزته ، ويرمم بالأجْرة من معاشه ما اختل ، ويتَمسّك بذيل نسيم الاستراحة وهو بدمع بكائه مُبْتلّ ، فاستراح من الهمّ ، وقَنع بعيشٍ أخشن من الشَّيْهم[2] ، ورضي منه بكفافِه ، وحبس نَفْسه في سجن عفَافه ، حتى خلص من الدّنيا ومحنها ، وسلم من غوائِلها وإحنها ، ومضى إلى دار السَّلام بسلام ، ومات ولمته أغدف من الظَّلام ، لا زال في قبره ، موصولا من ربه بحبره ، يحمل النَّسيم من تُراب جَدثه أطيب ريح ، وتخبر بلسان نشرها عن رَوْض حَلَّه وهو الضريح ، وله في الأدب صراط سوي ، وفي بحور القريض بحرٌ عذب يظمأ الأديب منه إلى الرَّوي ، إلاّ أن شعره قد أفرط في عزّته ، لما لم يلتفت من النّظم إلى نسج بزته ، منه قوله :

أدعوك يا هذا وإن لم تسمع ... إلى طـريق للنَّجـاة مهيـعِ
كم تدَّعي أنَّك من أهل الحجَى ... لم يثبت الحق بدعوى المدّعي
قُم شمرّ العزم ولا تكسل فقد ... أطلت نوماً في وطيء المضجع
خل زمان اللّهـو عنك جـانباً ... ودع سفـوح المنحنى والأجـرع

---

(١) هو المعروف بالسبتي ، كان شاعراً وهو أخو الأمين والمأمون، وكان قد زهد في الدنيا ، وكان يتكسب بيده يوم السبت ما ينفعه في بقية الأسبوع ، فلقب بالسبتي . توفي سنة (٢٠٩) . (الأعلام : ١/٣٦٥).

(٢) الشيهم : الدُّلدل أو ذكر القنفذ .

مـرَّ الصِّبـا ودهـره في سكـرة ... عنهـا إذا كنت لبيباً انـزع
فـما لهـذا قـد خلقت إنَّمَـا ... خلقت لـلأمر الفـظيع المفـزع
فارجع إلى ربك واسأله الرِّضى ... ما دمت في عيش الحياة الأوسع
واذكر نزول القبر والدُّود بـه ... في الجسم منك بالدَّبيب تَرتع
مـا العيش إلا لذةٌ في حُلْمٍ ... ولـذة الأحـلام لَّما تـنفَـعِ
يـا رب وفقنـا وأدخلنـا غَـدَاً ... تحت لـواءِ الشـافـع المُشَفَّـع

وكتب إلى مولانا الوالد رضي الله عنه لما نَزَل من كوكبان إلى شبام للقراءة فوجده قد خرج أيام المطر إلى الزُّجَاجة وهي أحد منافِس جبل كوكبان المحروس للتنّزه والاستِرواح ، فعاد ولم يدرس ذلك اليوم عليه شيئاً قوله :

ألا قل لشيخي في الورى وإمامي ... ومـولاي شـافي غُلَّتِي وَأُوامي
أَلا إنني وافيتكم في زُجـاجـةٍ ... زجـاجـة مـاءٍ لا زجـاج مُـدَام
وجئت سفوح الدَّار وهي خليَّةٌ ... ولم ألف فيها غير سجع وحمام
وقد غاب عن أبراجها شمس مطلعٍ ... ونجم عُـلاً منكم وبدرُ تمـامِ
وعدت على أثري أكابد مصعداً ... صعيبـاً كأني طـالعٌ بِشَمَـامٍ [1]
بصفقةٍ مغبون رجعت فلم أفُز ... بِلُقْيَـا إمـامٍ أو بنَيْـل مـرامِ
وفي طاعة المولى يهون لعبـدِه ... ملاقاة أهوالٍ وضرب حُسَام
ولا زال موصولاً من الله دائماً ... بـأنعمـه مـا لاح بـرق غـمام

ولما كمل له على مولانا الوالد رضوان الله عليه سماع حاشية الشيخ الإمام لطف الله بن محمد الغياث [2] رحمه الله تعالى على الشرح الصَّغير ، وجدته قد كتب بخطه على النسخة التي أسمع فيها من كلامه ما صورته :

---

(١) الجبل المرتفع .

(٢) هو من علماء اليمن الكبار ، ولد بظفير حجة ، ومن مؤلفاته « المناهل الصافية » و « الإيجاز » و « حاشية على شرح التلخيص » ووفاته سنة (١٠٣٥) . (خلاصة الأثر : ٣٠٣/٣) .

أيها الطالب لا تشتغل بهذه الحاشية فإنها مما ألهى عن ذِكر الله والنَّظر في كتاب الله والمعاني والبيان إذا احتيج إليهما ، وهو في النادر ، فالتلخيص مغنٍ فلا تذهب أيامُك سُدىً ، ويستَحْوذ عليك الشَّيطان ، وقد نصحتك فانظر لنفسك المسكينة ، فإن الآلة إذا حصل منها اليسير قام بالمقصود . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

قُلت تعليله سَقى الله ثراه بأن الحاشية المذكورة مما ألهى عن ذكر الله والنظر في كتاب الله ، لازم في سائر العلوم على العموم ، فإن التَّجرد لفهم دقائقها يصرف المتجرد عن ذكر الله تعالى وعن النَّظر في كتابه العزيز لشغل فكره فيلزم بهذا أن نَبذ العلوم جميعها والنَّظر فيها من المهمات ، وليس كذلك فإنَّ ثوابَ الناظر في العلوم جزيل ، وجزاؤه عظيم جليل ، مما نَصّ عليه الله تعالى ورسوله ﷺ والسَّلف على تتابع طبقاتهم ، و إنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى .

وأمَّا قوله أن المعاني والبيان إذا احتيج إليهما وهو في النَّادر فالتَّلخيص مغنٍ فغير مسلَّم ، أنه في النَّادر فإن الكتاب العزيز مشحون بهما وبالتّوغُّل في علميهما يظهر للمتوغِّل في كتاب الله ما يُذهِل لُبَّه ويتيه بعقله من دقائِق وغوامض لولا توغله لم يصل إليها حتى يَزداد علماً بقدر الكتاب المعجز ، إذ يقف من معجزاتِه على ما لا يحيط به المكتفي باليسير منهما حتَّى يعلم علماً يقيناً أنما ذلك من صنع بَشَرٍ قطّ ، وأن الكتاب أعظم الآيات لرسول الله ﷺ وأجلّها كما نَصّ عليه العُلَماء ، فكيف يُعد الإكبَاب على البحث والتَّنقير عن غوامض المعاني والبيان مما ألهى عن النَّظر في كتاب الله ، وهو في الحقيقة نظر فيه بالتفتيش عن مُخَبَّآت المعاني والبيان في فواصِله الكريمة كما هو ظاهر ، فَمتىَ ذَهب وقتٌ في الغوص لاستخراج غوامض الكتاب سُدى ، ومتى استحوذ الشيطان على من شغل قلبه وقالبه في إبراز دفائن كنوزه ، وإيضاح الخفي من رُموزه ، نسأل الله تعالى العصمة عن مداحض الزَّلل ، ومعافاة القلوب والأبدان من العلل .

السيد يحيى بن إسماعيل الأخفش[1]

ثمرة شجرة نبوية ، وخلاصة سلسلة علوية ، عصابة على هامة المجد قد التفّت ، وقرط من أقراط ذهبية على جبين المعالي قد زُفَّت ، عقد في أجمل نَحر ، ودر من أعذب بحر ، عَلَم علم يشار إليه بالأصابع ، وحديقة عرفان طيبة المراتع والمرابع ، نصب شِبَاك علومه فصاد حمائم الثنا ، ومدَّ أنامِل معارفه فاقتطف حلو الجنى ، أرانا في بديعه اقتنائه ، وأرسل لجواده عِنانِه ، قلَمُه رمح مبنَّد[2] ، وأدبُه نسيم يفوح منه النَّد ، جرّ على وجه البسيطة أذيال كماله ، وزين الدُّنيا بما طلع من بدور جماله ، فهو على كُمّ المجد طرازٌ مُذْهَب ، وفي أفقِ المعالي بَرق بأبصار حُسَّادِه يذهب ، له بصنعاء اليمن غُرْبة ، ملأ فيها من شراب العلوم غَرْبة ، فكم رحل إليها طالباً ، ولنفائس فوائده إلى أسْواقِها جالباً ، فأنفق فيها بَضَائِعَه ، واشترى ما ليست الأوقات في طَلبِه بِضَائِعَه ، ولبث بها دهراً ، واقتطف من رياضها زهراً ، وتحدّر في حدائِقها نَهْرا ، واجتلى من عُلَمَائِها زُهرا ، ثم عاد إلى وطنه مشوقا ، وقد صار قَدُّ قلمه من المعارف ممشوقًا ، ولم يرض غير أرضِه بلادا ، لأنها إن هبَّت نسيم غيرها بالداء هبَّت له نَسيمها بلادا ، عاد عود السَّهم إلى الكنانة بعد إرساله ، ورجع رجوع السنان إلى عَسَّالِه ، وقد زان عِرفَانَه ، وحسنه إذ أسهر له أجفانَه ومَلأ منه جِفَانَه ، بسكينة لا يزحزحها الخطب ، ووقار لا يتألم معه لسيفه

---

(١) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف : ٨٢٨/٢) .

(٢) بند السيْف : حمالته .

من الشطب ، ألذّ من الظل الممدود ، وأبهج من ماء الشباب يترقرق على ورد الخدود ، وله بُرد مَرُوَّةٍ سابغ ، وَمَاء كُرم من خلال رياضِه نابع نابغ ، وسماحة تشرح الصدر ، وتنوِّه بما له في المعالي من شامخ القدر ، يَسْتَخدم الأحرار ، ويتوج من طويته بأطيب الأسرار ، وبيني وبينه أتَمُّ عَلاقَة ، ومودَّةٌ يتلقاها وجهُ الروض بالبِشر والطَّلاقَة ، فأنى له أوَدّ ، وعندي له من المحبَّة ما قام له أود ، لأنه إليّ كثير الميل ، ونسيم اشتياقه إلى مؤلفاتي بَلِيلُ الذَّيْل ، فكم طالعها مُنْصفا ، واستدعاها مِنْ صفَا ، فما كدَّر صفوه حسد ، ولا بار عنده فضلٌ ولا كسد ، وله شعر طرَّز به جلل علمه ، وحشّى بمنسوجه الدقيق أردية علمه ، كقوله في المدح ، وقد بالغ لزنده بالقدْح :

وهذا الذي أعنيه في النظم سيّدٌ بهمته القعساء قد أحرز العلما
وسَاد على الأتراب بالفضل والتقى وفاق بهذا العصر سادته الشّمّا
ودونهم قد أشرقت شمس عِلْمِهِ بِنَا فأزاحت من جهالتنا الظُّلْما
وأدرك بالفكر الجليل دقيقه فلله ما أعلى علاه وما أسما
وأتقن في العلم المُفصَّل دريةً ومحمله المعقود خلَّله فهْما
ومحكمه جَلًا به متشابهاً فما خفي المقصود إلاّ على أعمى
ونال بفرط العلم غاية سؤله وأتقن فيها الفَضل والحدّ والرسما
وشيّد في نيل الفصول مَذاهباً من العلم كانت قبل شارفت الهدما

ولما استدعَى بعض تَأليفي أرسلتُ إليه بما أمكن منها ، وكتبت إليه من النظم والنثر قولي :

سلام علي يحيى العماد وإن قَلاَّ سلام له ذيل بدمعي قد ابتلاَّ
فلي عبرة تنهَلّ كالقطر إن هما وترسل وبلاً من تنائيه لاطلاَّ
وما بَعُدَت دارٌ به غير أنَّهَا تَباعده الأيام لا حُمِدَت فعلا

ولا سفرت لي عن جناها حديقَةٌ إذا لم يكن فيها ولا بردت ظلّاً
إذا ما جليسي قال : هل مشبهٌ له أقول له : كَلَّا ولي خاطِرٌ كلّا
وإن قال : هَلْ قَد مُلّ عندك غَيْرُه وماذا غَدا في العلم قلت له : مُلّا
تيقنت وُدّاً منــه عنـدي مثلُه وتالله ما ألفيت قط لـه مِثْلَا
على أنني لم أتَّخذ لي من الورى فلاناً خليـلاً أو لقافيتي خِـلّاً
فلا زال ما حنّت إليه جوانحي وأضحت بنارٍ من تباريحها تصلى

ملام كالقطر الهامع ، يمنع عن دخول النقص فيه ويجمع أطراف الكمال فحدّه المانع الجامع ، على من ألبس ساق دهره حجاله ، وأبدى من الوقار ما علمنا معه أن كل حجى له ، ذي الذات التي لطفت شمائلها ، فإذا هي روضة أزهرت خمائلُها ، فارتاح إليها حتى الجماد، فإذا قيل لي: أين إرم قلت: هي ذات العماد، العالم الّذي شَمَّر للطلب فحَصَّل، وتزين به جبل كوكبان فإذا هو لهامته تاج مُفَصَّل ، فإليه أشار منه في الفضل المشير ، وبه افتخر لما جاءه بوجوده البشير ، اتسع ميدانه لما استقام في أحد طرفيه بجواد عزمه ، جواد فضل لم يخف وقد ركبه من قهقرته وهَزْمِه ، ذي العرفان الذي مَاء درايته نابع ، فهو في النَّحو للثَّلاثة[1] الأخافش رابع ، وهو مع ذلك كريم سَمُوح ، فطرفه إلى نيل الثناء طموح ، وليل شبابه بالسَّماحة أقمر ، فهو الأخفش الذي حكم لسخائه وعلمه بصرف أبيض وأحمر ، والتزم لكرمه باب حاتم ، وألزم سيبويه منعه عن غيره من كل فاتحٍ وخاتم ، مولاي العماد ، يحيى بن إسماعيل دام ما الغصن ماد ، ولا زال من المرتبة والعيش في رفعٍ وخفض ، ولا برح هو وباغضه ما بين طلبٍ ورفض ، ما طار نسر الفلك من المسرة ، واخضر روض الفجر لما سقاه نهر المجرَّة ، فاقتُطف منه زهر زُهره طرَيًّا ، زهر إن لم يحك الزهر الحقيقي عرفا فـريًّا ، فإذا جاء الروض

---

(١) الثلاثة الأخافش : هم عبد الحميد بن عبد المجيد ، وسعيد بن مسعدة ، وعلي بن سليمان . (انظر تراجمهم في كتب الطبقات) .

محاكياً له في نضارته قيل له لقد جئت شيئاً فريا ، هذا وإنه وصل إلى طرسه ، وتدلَّى لدي بكل فاكهةٍ حلوة غرسه ، فعبث سحره بنا ، لما بنى أركانه فأعرب عن فضله بذلك البنا ، يستَدْعي شيئاً من تأليفي ، ومحرراتي التي كلَّفْتُ نفسي عليها فكانت أعظم تكاليفي ، فلم أجد من تجهيز بعضها إليه بُدًّا ، لأنه المالك الذي امتلأ فؤادي له هَوىً وَوُدًّا ، مطابقة لمقْصَده ، وفَتْحاً من باب المذاكرة لموصده ، وهل يليق بالعبد في أمرٍ أن يخالف سيِّده المالك ، لا والله لا يحسن منه إلا طاعته في ذلك ، وإلا فمن اللاَّئق بي أن لا أعرض عليه مائي الآسن ، ومن الصَّواب أن أواري عنه ما هو مَعْدودٌ لي من المساوىء لا المحاسن ، فإني جئت فيما حَرَّرته بالهراء ، وأبرزت ما من حقّه أن ينبذ بالعراء ، لما وهت منه العُرى ، تَشَبَّهت بالكرام ، فعزّ علي المرام ، ولولا الوِئام ، ما هلك اللئِام ، فصدر إليه في حفظ الربّ ، مقترحه وهو كتاب رعي الأب ، الذي لا يجد فيه فاكهة ولا أبّا ، ولولا عرفاني بكرم أخلاقه لخشيت أن يوسعه سبًّا ، وكذلك كتاب « الوشي المرقوم على الدرّ المنظوم » ، وكتاب « نكت القلب » ، وإليه غيره فربما بملامسته له يظفر باليمن طَيْرُه ، فإن وجد مَسَاءة أو عثر على عوره ، في أحد تلك الكتب التي حَرَّرها من تعَدَّى طوره ، فذيل ستره أضفى ، وإن كان ذهنه للنَّقد من الماء أصفى ، والسَّلام .

فأجابني من النَّظم والنَّثر بقوله :

عتيق مدامٍ طاب لي شربه علا ... أصحّ فما أضنى فؤادي ولا علاَّ
سموط لآلٍ من نفيس جواهرٍ ... نظامك ما أبْهَى حُلاه وما أحْلى
زهور رياضٍ باكرتها يد الحيا ... وباءت بها الأغصان عن ثقلها حملا
طلاسم سحرٍ أم كؤوس مدامةٍ ... يطوف بها من لا أقيس به خِلاَّ
حكته وقد أبـدى محيَّاه بهجـةً ... بدورٌ فنار القلب من شغف تصلى
وشَرَّف ما وافى به من غرائبٍ ... فحرتُ له فِكراً وطِشتُ به عقلا

وما ذاك إلا أنه ذو بدائعٍ فعلن بلُبِّ الصب ما فعَلتْ جُمْلَا
شهاب الهُدى عَفواً فإني لم أجد لما رُمْتُه من كنه وصفك لي عقلَا
لك الله من قاضٍ قضى لي بحبِّهِ إلهي فلا زالت قضاياه لي عَدْلَا
لذا جئت بالمرفوض من كلمي ولا تحاشٍ لما أبديه من هذري جهلا
وقابلت ما حبَّرته من لطائفٍ بما مُلّ لما قيل نظمك ما مُلَّا
وعذراً فمثلي من أتى بنقائضٍ غدت لجميل العذر من ساترٍ أهلا
طلبنا فلم نظفر بمِثِل محامدٍ لأحمد من إبان نشأتِهِ تُمْلَا
وصلى عليه الله مَا ذَرّ شارقٌ ولا برحت آيات معجزه تُتلى

سَيِّدي الصنو القاضي العلامة ، اللاَّبس من سرد مدادِه في العلوم لامَه ، من افتخرت بوجوده لياليه وأيامُه ، وتاهت ببدائِع آدابِه طروسه وأقلامُه ، وخفقت في الخافقين رايات فضله وأعلامُه ، راضع ثدي المعالي ، وبدر سماء الكمال المتعالي ، شهاب الإسلام ، وإمام القراطيس والأقلام ، أحمد بن محمد الحيمي أسبغ الله عليه النّعم ، وَوَالى عليه إفضاله الذي عم ، ولا برحت شموس علمه مشرقة ، ورياض آدابه البديعة مونقة ، وسلام الله عليه ما تحلَّى جيد الزَّمان بذكره ، وتوشَّحت دواوين الأدب بنظمه ونثره ، إذا مَدّ بَحْره الزَّاخر ، وقذف بالدّر الفائق الفاخر ، وكشفت معارفه ظلمة الغياهب ، ورقت به همته السَّامية على الكواكب ، وحمى بيضة العلم والأدب في أعشاش أقلامه ، ورفع رايتها على الكاهل الباذخ من أيامه ، وارتفع فلا يناله نائل ، وصار الحقيق بأن ينشد فيه قول القائل :

ملك غدا ومقامُه وعماده يزهو على ذات العماد وَيَشْرُفُ
زُفّتْ إليه عرائِس مجلوّة[1] عُرفت به وبغيره لا تُعْرفُ
وكذا العوارف والمعارف كلها جمعت لديه ففيهما يتصَرَّفُ

---

(١) في (ز) محلولة .

وقول الآخر :

لا عيب في نعماه إلّا أنها   تنسي نزيل حماه حبّ الأوطن

أطال الله له الأيام ، وحفّه بكل إكرام ، ما تغنّى الحمام ، وهملت الغمام ، هذا وإنه ورد مشرفه الكريم ، ونزل بنا مسطوره العظيم ، المشتمل على ما يأخذ بالألباب ، ويتمكن في القلوب تمكن هواء الأحباب ، ويشهد لمنشئه بالإمامة ، والتّقدم في مراتب البراعَة والزعامة ، من النَّظم والنثر اللّذين لو تشخصا لفاخرت الأرض بهما نجوم السماء فحلاّ محل التّاج ، واحتاجت الغواني إلى التّزين بهما أيّ احتياج،فسكرت من حُميًا الهيام ، وأضرم بقلبي لاعج الغرام ، ولا شك بأن ذاك هو السِّحر الحلال ، والعذب السابغ الزلال ، فهو أحلى من الضَّرب ، وألذّ على النّقاد من الظَّفر بالأرب ، أبهى من الدرّ والياقوت ، وأشد تأثيراً في العقول من سحر هاروت وماروت ، عاينت من تلك الآداب ، روضة جادها صوْبُ الرَّباب ، أهاجت بلابل صَدْري ، وقدحت زناد فكري ، وأظْهرت كامن وَجدي ، وحملتني على الإتيان بما عندي ، فقمت على قدم الطَّاعة ، وحاولت المحاورة بقدر الاستطاعة ، وأتيت من نظمي بما هو كالمَدَر ، وقابلت بالحَصى تلك الدُّرَرَ ، وجزمت بالمجازاة غاية الجزم ، وقلت كما قال المتنبي : « على قدر أهل العزم » ، فما حُمِد عندك عبد الحميد[1] ، ولا عُرِف بجنبك فضل لابن العميد[2] ، ولم آتِ في تراخي الجواب ، بخلاف اللائق وضدّ الصَّواب ، لأنه لم يكن ذاك إغفالاً وإهمالاً ، وإنما كان تهيباً وإجلالاً ، وتحاشياً عن بعث ما يعد من الهذيان ، إذ لست من أهل البلاغة ولا لي في الأدب يَدَان ، وقد علم المملوك بأنه

(١) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري ، المعروف بالكاتب ، يضرب به المثل في البلاغة ، قُتِل مع مروان آخر بني أمية سنة (١٣٢) .

(٢) هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد الوزير الكاتب ، له مجموع رسائل . توفي سنة (٣٦٠) .

حاد بذلك عن نهج الصَّواب والسَّداد ، وجعل نفسه غَرضاً تُسَدّد إليه أسهم الانتقاد ، إلاّ أنه قد تجاسر فأجاب ، وجاءكم من ألفاظه القاصرة بالحمأة من العباب ، ولم يات بدرٍّ يلتقط ، وإنما أهدي إلى رفيع جنابكم بما يعدّ في السَّقط ، فاقبلوه فَضلاً ، وخذوه مَنّاً وطولاً ، وأغلقوا دون معائبه باباً ، وأرسلوا على وجه النقيصة منه نقابا ، والله يشكر لكم هذه المودّة التي لا تبلَى ، والمحبّة التي لا تزال عروسها تُنَص وتجلا ، فإنكم جددتم شريعتها ولا أقول على حين فترة ، وأصفيتم مشارعها وحاشا سلسالها أن تعلقه كُدْرَة ، أبقى الله تعالى أركان فضلكم مَشِيْدة ، وآثار مجدكم ممدوحة حميدة ، ومؤلفاتكم الجليلة ، والأيادي العظيمة الجزيلة ، فعلت بالألباب ، ما لا يفعله المكروه عندها من الشّراب ، شُغِلْتُ بمجالستها عن منادمة الأحباب ، وعكفتُ تحت ظلّ روضها المستطاب ، أجتني منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وأجمع من أوراقها أطايب قد اجتمعت ، والله يبقيك للعلم والأدب ركنا ، ولفواكهها بستانا[1] يجنى منه ما يُجْنَى ، ونسأله أن يصون كمالك عن الشِّين ، ومحاسن هذا الزمان بك عن العين ، ولا محا من صحائِف الوجود لك رقما ، بحق الرسول المشرف باسمه على سائِر الأسماء ، والسلام الأوفر الأهنا ، يرد إلى مقامك مُفْرداً أو مثنَى .

وكتب إليَّ هذا الجواب مع هدية منه أهداها لي من بياض الرّق الذي يكتب فيه ، فكتبت إليه ما صورته :

وصلني من المولى جوابه فأطرب ، ونظمه الذي كلّ بناء بيتٍ منه عن الحسن أعرب ، فأنا في سكر لا يُرجى له صحو ، قد صرفْت عنّي عنان الحزن ونحوت طريق المسرة فأكرم بذلك الصَّرف والنَّحو ، مصحوباً منه بدرج[2] الكتابة

---

(١) في (ب) بستا .

(٢) الدرج : قرطاس طويل يكتب فيه ويلف .

الصَّقيل ، وروض الرَّقم الذي يطيب به المقيل ، فكل قطعة منه بحجتها قائمة ، وكل ورقةٍ كورقة الحدائق رطيبة ناعمة ، بعث لي بالرق لما دخلتُ له تحتَه ، فكأنه قَصَد بذلك أني أقرطس فيه نفيس ألفاظه الذي أعتمد من جِبَال الدُّر نَحْته ، فأكرم بذلك الرق من وافد على حسب المراد ، وأحسن بذلك الدرج الأبيض الذي لا يُرى فيه الخَط الأسود إلا لخَطِّ المِدَاد ، بياض لكل عقيلة فيه من الأدب مُقْلة ، ولكل أديب فيه قبض داخل يسلب بحسنه عقله، فلقد وصل منه ذلك الوَصْل ، فناب لدي مع القطيعة مناب الوصل ، فشكر لأياديه التي عَمَّت ، ولبحار جوده العَذْبة فقد طمّت ، والسَّلام .

السَّيّد محمد بن النَّاصر بن عَبْدِ الرَّبّ[1]

روض ابتهج مونِقُه ، وماجد زَهَا به من الفخار رونَقُه ، ذو جَدّ لا يعرف الهزل ، ولفظ متين الحواشي وكلام جزل ، وحُللٍ من الفخر لينة اللمس لطيفة الغَزْل ، من أولاد الأمرا ، الذين يدخلون أبواب المعالِي زُمرا ، أسُوْد عرينها تحت مشتجر القنا وبدور كاملة الأنوار مشرقه السّنا، كان في عيش رغيد، بين ملاح تُسبي النهى وغيد ، والدَّهر عن لذاته في غفلة ، والزَّمان يسوق إليه من النَّعيم فرضَه وَنفْلَه ، في رياضٍ مونقة ، غصونها مهدولة مورقة ، تحمر بها خدود الوَرْد من الخجل ، ويسمع لطيورها تحت سجوف العَذَب زَجل ، حتّى تغَيّر حال كوكبان ومَنْ به ، ووافاه ميقّظ الخطوب وهو يتقلب على جنبه ، فأبدل ذلك الصَّفو بالكَدَر ، وغَدَر في عهده ولا بدع إذا غدر ، فإن الزَّمان ذو ختْل وغدار ، وفلكه طالما بالمحن لا بالمنح دار ، والدّنيا لكل فادحة ورزيّة دار ، فَرَحل إلى صَنْعاء المحمية الجناب ، وَخرّ راكعاً بجامعها[2] وأناب ، واتخذها لسربه مرتعا ، ولأوْطاره مَرْبعا ، حتى وافته رزية لا يستطيع عَنْها رَحيلاً ، وبَغَتَتْه مصيبة الموت التي غدا الفرار منها مستحيلاً ، فَوَرد من الحِمام أمرّ حوض ، بعد أن خاض في بحر الحياة أي خوض ، فدفن بمقابر تلك المدينة بجربة الروض ، قضى الله به من غُفْرانه أملاً ، وحسن مثواه كما أحسن في ختام عمره عملاً ، وبيني وبينه مودة

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٧١٩/٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) في (ز) ونشر العرف : لجامعها .

واتّصال ، ومحبة لا يغيرها البعد والانفصال ، وقد أملاني من أشعاره ، وسهّل لي من أوعاره ، شيئاً كثيرا جمًّا ، اخترت منه ما نظمته في جيد هذا الكتاب نَظماً ، وذلك قوله[1] :

إن الهوى قد أبان عذري ... فلا تلم في الغرام عُـذْري
هام فما نام مُذْ هـوى مَن ... مـقلتُـهـا لـلقـلوب تَـفْـري
ســاحــرة للعقــول تبــدي ... وجهـاً صبيح الجـمال بدري
إذا تــلطفــتُ في عِــتــابٍ ... تـبَسّـم عـن بـارقٍ ودُرّي

وقوله :

أدرْ كـاس المدامـة يـا نـديمي ... وغـذّ السمّع بـالنَّغَم الـرّخيمِ
وَسُفّ[2] الرَّاح في روضٍ تثنّت ... بـه الأغصان من مَرِّ النَّسِيم
وقــدغَنَّتْ بـه الأطيــار لحنــاً ... مع[3] صوت المناطق والبريم[4]
فــإن الــرَّاح لــلأرواح روحٌ ... يــذكــرنــا بـجنَّــات الـنَّعيـم
تُــدَار كؤوسهـا فينـا فتحكي ... خرير الشّهب في اللَّيل البهيم
ينادمني بها في الجُنْح[5] خَوْدٌ ... نظيم العقد ذو الخلق الوسيم

وقوله :

خمرة أفْرغت بكـاس الزُّجـاجِ ... قـد أديـرت مَشُـوبـةً بـالمـزاجِ

---

(١) أوردها في (نشر العرف : ٢/٧٢٠) .

(٢) سف الخمر : أكثر منه .

(٣) في (ب) معا .

(٤) البريم : حبل مبروم وخيطان مختلفان أحمر وأبيض تشدّه الجارية على وسطها وعضدها . وحبل للمرأة فيه لونان مزين بجوهر (انظر اللّسان : ١٢/٤٤) . وانظر أيضاً (معجم الملابس لدوزي : ٦٤) .

(٥) الجنح : من جِنح الليل طائفة منه .

أضرمت في الخدود جمرة نـارٍ ‌ ‌ أشعلت في القلوب نور السراج
تصرف الهم تطرد الغم فاغنم ‌ ‌ يا أخا الصَّفو شُربها في الدَّياجي
شحـذت بـالـذكـا ذهن غبيّ ‌ ‌ أنـطقت كل أبكم لا يناجي
وهي للجسم صحةٌ من سُقامٍ ‌ ‌ إن جرت في بواطن الأمشاجِ
وأدرهـا وقت الغـدو ليحـظى ‌ ‌ في رواح بـنشـطةٍ وانـزعـاج

وقوله :

لام على الشرب لابنة العنبِ ‌ ‌ كـل جهـولٍ وأحمق وغبي
وما دروا أنّ شربها سحـراً ‌ ‌ يُعَـدّ يـا صـاحبي من الأدب
فـاسـقـني خمـرةً مـعـتـقـةً ‌ ‌ صفراء مثل المذاب من ذهب
إن مُزِجت في الإناء رأيت بها ‌ ‌ جـواهـراً أطْلعت من الحبب
تـزحـزح الهـمّ ثـم تـطرده ‌ ‌ فـينـثـني مسرعـاً إلى الهَـربِ
جـالـبـة لـلسّرور جـاذبـةٌ ‌ ‌ نـابـذة لـلهمـوم والـكُـرب
ومـا احتساهـا يـزيـدني عجبـاً ‌ ‌ وإنمـا تـركُهـا من الـعجـب
نـحّ همـومي بكـأسهـا عَجَـلاً ‌ ‌ إن لمعت مثـل قطعـة اللَّهبِ
واغـنم فـللدهـر في تـقـلبِـهِ ‌ ‌ نهجٌ ولا تَسْـألَنّ عـن سَبـبِ
فـما صفـا بُـرْهَـةٌ لـذي أدبِ ‌ ‌ ولم يُـبـلّغـه مـنـتَـهَـى الأرَبِ
تَبّـاً لـدهـرٍ أذاقَنـا نـصبـاً ‌ ‌ ومـا أمـر الحيـاة بـالنَّصبِ

اعلم أن قد ورد في أشعار القدماء، وزَمر النُّدَماء، مدح الخمرة ووصفها بما يَسكر كإسكارها ، ويُحدث في الأعضاء نشوة خُمَّارها ، وقد جُمعت من ذلك مؤلفات نظماً ونثراً ككتاب « حَلْبَة الكميت[1] » للشيخ شمس الدين محمد بن

(١) هذا الكتاب من أوسع ما ألف في الخمريات ، رتبه على (٢٥) باباً في أوصاف الخمر والنَّديم والسَّاقي والمجلس وآدابه والأغاني والملاهي والخلاعة والأزهار والفواكه والخاتمة في التوبة وذم الخمر . قال السخاوي في «الضوء اللامع» : كان سماه أولاً الحبور والسرور في وصف =

الحسن بن علي النواجي المصري رحمه الله تعالى،وككتاب « مقطّعات الشَّراب » للعلامة بَدر الدين الدَّماميني رضي الله عنه[1] ومن الشعراء من لهج بمدحها كأبي نواس والشيخ صدّر الدّين بن الوكيل[2] وغيرهما ، وما أحسن ما جاء لضياء الدِّين أبي الفتح نصر الله بن الأثير[3] رحمه الله تعالى في وصفها من النثر المسجوع فقال :

مُدامة تنفي خواطرها الهموم ، وتسري مسرى الأرواح في الجسوم ، وتشهد بأن الكَرَم مُسْتمد من ماء الكروم [ويَتمثل حَببُها نجوماً إلاَّ أنها مضلَّة][4] والهداية للنّجوم[5]، انتهى كلامه .

= الخمور» وأنكر الخيرون عليه ، بل حصلت بسببه محنة حيث ادّعى عليه وطلب منه فغيبه . قال صاحب «كشف الظنون»:وهو كتاب مفيد ولا عبرة بذمه فإنه من الحسد والتعصب . (كشف الظنون ١/٦٨٧) طبع سنة ١٢٧٦هـ وسنة ١٢٩٩هـ .

(١) قلت : ألف في الخمر وأحكامه وأدبه وأشعاره ولغته العلامة محمد بن الحسن ، النحوي « أسماء الخمر » ، «وإكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش» للأفقهسي و «وإلقاء الجمر على من يشرب الخمر» للسنباطي ، و« تعظيم الأمر في تحريم الخمر » لابن كمال باشا و« تنبيه البصائر في أسماء أمِّ الكبائر » لابن دحية الكلبي و« تهويل الأمر على شارب الخمر» للدكدجي ، و« جليس الأنيس في أسماء الخندريس » للفيروزابادي ، و« حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح » لأبي عامر و« قطب السرور في أوصاف الخمور» لابن الرقيق ، وهو مطبوع وكتاب « الرَّاح والارتياح » للمسبِّحي ، وكتاب « مفاتيح الأرواح في امتداح الراح » وغيره . (انظر كتابنا معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي ص١٦٩) .

(٢) هو المعروف بابن المرحل ، صدر الدين محمد بن عمر بن الوكيل ولد بدمياط سنة (٦٦٥) وتوفي سنة (٧١٦) انظر ترجمته بتوسع في (الأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ٢/٢٠٣-٢١٦) ومن شعره في الخمر :

ليذهبوا في ملامي أية ذهبوا ... في الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب

لا تأسفن على مال تمزقه ... أيدي سقاة الطلاء والخرد العرب

(٣) هو نصر الدين بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، وزير من العلماء ، له مؤلفات عدة في البلاغة ، توفي سنة (٦٣٧) . (وفيات الأعيان ٢/١٥٨ والأعلام ٧/٣١) .

(٤) ساقط من (ز) .

(٥) المثل السائر ج١/١٥٠ ط الحوفي .

وقلت أنا مما جاء في كلام منثور في وصف الخمرة وهو ما لفظه :

عقيلة القَناني ، لا تبرز إلاَّ أيام التَّهاني ، أكتست صفرة المتيَّم ، وتشبه حبابها بثغر الحبيب المُنظَّم، تقهقه أباريقها حتى تنقلب، وتزحف على جيش الهموم ورايات سنا أكوابها تضطرب ، بها بلغت[1] الأرب ، وأصبحت بعد الإقتار أملك جواهر الحبب ، وشريت المسرة بلا ثمن ، وقطعت بالكميت منها جَرْن الحزن . انتهى .

وقلت أنا أيضاً في النَّثر المسجوع في وصفها ما لفظه :

قهقه الإبريق ، حتى غصَّ من الخمرة بالرّيق ، فكأنه طير يغرد ، ولسجعه في أبراج الهناء يردّده ، يلتقط بمنقاره حبَّ اللؤلؤ من الحبب النَّسيق ، وقد نثر على أرضٍ من الياقوت أو العقيق ، طالما ابتسم بثنايا الحبب ، وضحك من بكاء الشموع حتى انقلب ، ينطق عن لسانٍ حمرا من المدام ، ويرجع لفظه بتلجلج كتلجلج التَّمتام ، ويرعف بدم العنقود ولذا مازال يستنشق كافور الختام ، يجول الشراب في إناءٍ منه أرق ، كما جال في الذَّهن اللَّطيف معنىً غامض دَقّ ، ومن أعجب ما جاء به الشّرب وأغْرب ، إنَّ كأس الزجاج من رقته كاد أن يُشْرَب ، مع مدامة تجرِي في اللَّهوات جري الشَّمس في الفلك ، لولا إمساكه بالأنامِل وتقَيّده من الحباب بالسَّبك ، فقد عدلت الرَّاح لما أضاءت من الوجوه على الأسارير ، وجَزَت الشارب بإطلاقه من قيد الهموم مع حبسه لها في القوارير ، تقول عند شربها لقد أنجز بها من المسرة وعدي ، واتقيتُ بها الهموم كما اتقت المزج بما قال ابن نباتة السَّعدي[2] :

خندريس كأنها تتقي المـزج ... بـدرع مسرودةٍ من حِبـاب

(١) في (ز) بلغت بها الأرب .

(٢) لم أجده في ديوانه المطبوع .

فلا معوَّل على قول من عاب المدام ، فقال من جورها[1] أخذ الثأر من الرؤوس بجناية الإقدام ، وإنما هي ذات شهامة ، لا تُرى لها موضعاً إلا الهامة ، لا برحت في مقامات السَّرور لامعة ، وللندماء على إعراسها بابن الغمامة جامعة ، والسَّلام .

قولي في المنثور الأول : « تقهقهأباريقهاحتى تنقلب » هو كقولي في المنثور الثاني « وضحك من بكاء الشموع حتى انقلب » وهما من قول العامة في الضحك البالغ ضحك فلان حتى انقلب ، ومنه قول بدر الدين العري[2] رحمه الله تعالى :

أعجب ما في مجلس اللَّهو جرى ... من أدمع الراووق لما انسكبت
لم تــزل البــطة في قهـقهــةٍ ... ما بيننا تضحك حتى انقلبت

والبطة بالباء الموحدة والطاء : اسم الآنية ، وأحسن منه وألطف قول صدر الدين بن عبد الحق رحمه الله تعالى :

أسبــل الــرَّاووق لمــا صلبــا ... أدمُعــاً لكن رأينــا العجبَــا
بينــما الــرَّاووق يبكـي بــدمٍ ... ضحـك الإبـريق حتى انقلبــا

قولي في المنثور الثاني : « ولا معوّل على قول من عاب المدام » ، والفقرة التي بعدها فيه إشارة إلى قول كلام لنصر الله بن الأثير رحمه الله تعالى في منثور ذم به الخمر فقال : الخمر لا تفي لذة إسكارها ، بتنغيص خُمَّارها ، فهي خرقاء البنان ، بذيئة اللسان ، وتأنيثها يدلّك أنها من ناقصات العقول والأديان ، وقد عرف منها سنة الجور في أحكامها ، ولولا ذلك لما استثارت من رؤوس بجناية إقدامها ، انتهى[3] .

---

(١) في (ش) جوهرها .

(٢) كذا في الأصول ، ولعله بدر الدين العمري ، انظر : (الأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ٢/١٧) .

(٣) المثل السائر ج١/١٥٠

وهو من قول الرئيس[1] أبي غالب عبيد الله بن هبة الله بن الأضاعي في وصف الخمرة أيضاً :

ذكرت حقاً يدها القديمة إذ غدت　　وهناً تداس بأرجل العصَّار
لانت لهم حتى انتشوا فتحكمت　　فيهم فنادت فيهم بالثار

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة رحمه الله تعالى في تائيته المشهورة قوله[2] :

تذكرت عند قوم دوس أرجلهم　　فاسترجعت من رؤوس القوم ثارات

وما أحسن هنا قول القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ملغزاً في العمامة ، وقيل في الشملة[3] :

ومشمولة رقت وراقت فأصبحت
على الشرب تجلى حين تُهدى إلى الكاس
معتقة ما شمست بعد عصرها　　لإثم وكم فيها منافع للناس
وما وطئت بالرجل يوماً وكم لها　　إذا ما أديرت من صعود إلى الراس

ويُعجِبني هنا قول ابن زُهْر الإيادي[4] :

وموسّدين على الأكف خدودهم　　قد غالهم نوم الصبوح وغالني
ما زلت أسقيهم وأشرب فضلهم　　حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارهَا　　إني أملت إناءها فأمالني

---

(١) هو الرئيس عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ، وزير ، كان فاضلاً له علم بالأدب ، قتلته الباطنية سنة (٥٩٢) (الأعلام ٤/١٩٨) .
(٢) ديوانه (٦٨) .
(٣) رداء كالعمامة يستعمله العوام (دوزي ١٩٥) .
(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي ، من نوابغ الطب والأدب وفاته سنة (٥٩٥) . (الأعلام ٤/٢٥٠) .

ومن اللاَّزم إيراده هنا قول أبي نواس[1] :

إذا هي حلت في اللهاة من الفَتَى … دعـا همّه من صـدره برحيـل

ولما استدعى صاحب الترجمة رحمه الله تعالى كتابنا المسمَّى « الأصداف المشحونة بالجواهر المكنونة » طالعه على نسق ، ثم لما أكمل المطالعة أرجعه ، وكتب إليّ معه أبياتاً داليّه من نظمه مقرظاً له ، فكتبت إليه مجيباً من النَّظم والنَّثر قولي :

لقد زدت في الأصداف درًّا منضَّداً … يليق بأن الغيد تنـظمه عقـدا
فلو علم الغواص بادر أخـذه … ولم يقتحم لليم جزراً ولا مدا
مدحت كتابي وهو بالذم لم يزل … خليقاً فشرفت المحب وما أبدى
ولو كنت من أهل الحجى لكتمته … ولكن طيشي جاوز الرسم والحدّا
فدم في نعيم لا انقضاء لدهره … وأيامه الغرّاء حصراً ولا عدّا

عادت الأصداف إلى البحر ، ورجعت جواهر المكنونة إلى النحر ، وقد تشرفت بنظرك فارتفعت إلى النجم الثاقب ، وافتخرت على سائر الأصداف لأن درها لم يفتقر إلى الثاقب فإذا هي ملآنة بجواهر نفيسة ، تظل الجواهر حياء منها وهي في ظلمات اليم حبيسة ، مصحوبة بالتقريظ الشريف ، المباهي بنضارة قرطاسه للروض الوريف ، والله إنه لأطرب من عود ، وأحسن من نجاز الوعود ، وألذّ من نشوة الشباب ، وأشهى من مسامرة الأحباب ، فعين الأدب به شكرى ، وألسنة المادحين توالي له شكرى ، فلا زلت لمحبك بكل منيحة في الأدب مباكراً ، ولا برحت له بالعلوم والآداب مذاكراً ، ما التقط بازي الصبح الأشهب ، حبات نجوم لا تشبه الحب ، وقد كانت تحت جناح الغراب من الليل فطار فزعاً وفر وهو ينعق بالويل ، وسلام الله تعالى الأوفى وإكرامه الأصفى يخدمان مقامك عني ، ويؤديان ما يجب لك مني إن شاء الله تعالى .

---

(١) ديوانه (٤٨٢) ط دار صادر وفيه : إذا ما أتت دون اللهات من الفتى .

أخوه المهدي بن الناصر[1]

طيب الخيم والنجر ، له أخلاق ألذ من إغفاءة الفجر[2]، فما الروضة باكرها الغيث ، ومشت إليها السحابة بين العجل والرَّيث ، ويفتر ثغر زهرها ، ويصفق للطرب معصم نهرها ، وتغني بها ذات الأطواق ، وتقطر بدمع الندى من نرجسها الأحداق ، وتحمر بها من الورد خدوده، وتقوم من سفرجلها المصفر نهوده، بأحسن من أخلاقه اللطيفة ، ولا أعطر من شمائله الظَّريفة ، فكم سحر بها من ألْباب ، وكم أدار بها على الندماء من أكواب ، فأصبحوا من حبِّه في سكره ، لا يعدون أهم الأمور معها إلا دِكْرَه[3] وله في الكرم والجود ، طريقة يهوي لها حاتم طي بالسجود ، فنجوم الكرماء تخفَى عند بدره ، وسحاب القطر الهتَّانة تستمد من بحره ، فجوده جود وافر المال ، وماله مال من يُعَدّ في ذوي الإقلال ، وله فراسة يسوس بها الجامح ، ويقود بعنانها من الخيل السماك الرامح ، يطرز حواشي ميدانه ، مالا يطرزه المطرز المحكم في أطراف أردانه ، فهو أفرس من صيَّاد الفوارس ، وهو الماهر الخبير والمعاود الممارس ، وهو لي من أجل الخلطا ، والأتراب الذين لا أعدّ ودّهم غَلَطا ، فَبيني وبينه من الصّفا ، ما لو كان بين النسيم والمصباح لما انطفا ، فكم ركَضْنا في حلبة الصِّبَا ، بأدهم شباب ما وقع ولا كبا ، وبدر

---

(١) بيض له في (ز) .

(٢) من الأمثال انظره في تمثال الأمثال ١/٢٧٦ .

(٣) في اللسان : الدكرة جمع دِكْر، قال: والدكر لربيعة في الذكر وهو غلط حملهم عليه ادّكر حكاه سيبويه ، وكذلك ما حكاه ابن الأعرابي من قولهم : الدكر في جمع دِكْره إنما هو على الذكر . (اللسان ٤/٢٩٠).

الإقبال يحفّ بهاله ، والأمل إذا اقترح على الزمان خِصْلَةً جاد بهَاله ، فرماني به زمان المهدي[1] ، وأوقاتي أوقات الرَّبيع فكم تدبَّجت به هضابي ووهدي ، ولما تبدّلت السعود بالنّحوس ، وضاقت من حوادثَ جرت على الدِّيار الكوكبانية النّفوس ، جَرَّد نفسه للرحيل وعدم المقيل ، كما تجرَّد من غِمده الصَّارم الصقيل ، ونَفَذَ عنها نفوذ السهم ، وفارقها مفارقة الأبي الشَّهم ، وتَرك الغُراب بها ناعقًا ، لما ركبه في البحر العميق مُفارِقاً ، حتى نزل بجوار بيت الله الحرام[2] وساكن من هنالِك من الكرم ، وهام بحبّ ليلى ، وتمتع بوصلها نهاراً وليلاً ، ثم عاد إلى اليمن مشوقاً ، وعانق في رياضها من الغصن قدًّا ممشوقاً ، واعتزل الخلطا ، ولم يأتِ في فعله غلطا ، ولزم الخمول ، كما لزمت الدَّنّ الشمول ، وله شعر يترجم عن فضله ، ويعَبّر بلسانه أنه من ذوي الأدب وأهله ، منه قوله في بعض القصائِد ، التي لا تعد على الألسنة من الحصائد :

هي نفحة أهدى النَّسيم شذاهَا ... سَحراً فيا لله ما أذكاهَا
وتنَسَّمت أنفاسها في الروضة الـ ... غنَّا فنشر الروض من رَيَّاهَا
وتَثَنّت الأعواد من تحريكها ... وشَدَت على عذباتها وَرْقاها
نفحاتها كالنَّار في لفحاتِها ... أذكت غراماً كامناً لولاهَا
قدحت زناداً للغرام فمقلتي ... عين تقَسّمت العيون كراها
لله ما أهدى النَّسيم لروضةٍ ... من نشره فتأرجت أرجاهَا
أهدى سلاماً من غزالة طاسمٍ ... أبدته إذ مرَّت فما أجلاها
بعث الشجون وكنت أحسب أنها ... الأسرار في صدري أرى إخفاها
فأقامت الجون الهتون تسحّ في ... السَّاحات وَدْقاً لم تشح سَمَّاها

---

(١) يعني الإمام المهدي ، أحمد بن محمد صاحب المواهب ، وكان ممن نكل بالأدباء والعلماء .
(٢) بياض في الأصول .

فترى الزّهور ترشفت قطر النَّدى		وتخالها قــد فتّحت أفـواهـــا
قامت على ساقٍ فتحسب زَهْرَها		زَهْراً تشعشع ضوؤها وسنـاها
كَــلآلىء لاحت بثغــر بشينــةٍ		تحكي البروق إذا سرت وطفاهَا
لله أيـــام السُّرور وطـيـبــهـــا		جـذَلاً تقضّى صبحها ومسـاها

* * * *

السَّيِّد المطهَّر بن صَلاح بن حُسينْ بن شمس الدين[1]

مُطهّرٌ عن التنجيس ، مرتفع القدر فوق بَهْرام[2] وبرجيْس[3] ، عقد سيادته منضود ، ناهض للمجد ليس بمخضود ، ملء الأفواه إذا شكر ، وملء الأسماع إذا ذكر ، انحنى الهلال ، ساجداً له إذ عظمت منه الخلال ، يودّ في برجه الأعلا أن يكون لجواده سرجَاً أو نعلا ، كان على بلاد الطّويلة[4] عاملا ، يهزّ منه المجد على الأعداء عاملا ، وعيشه أخضر من المروج ، وبدره يتنقل في البروج ، من منازل عرف إلى فلك سروج ،في نعمة يقطر الماء من خلالها،وتنسج حلل الرياض على منوالها ، قبل أن يتلون الزّمان في معاملته بلون ليله ونهاره ، ويتعرى روضه عن ثيابه المعرجة بمنثوره وبهاره[5] ، ويلبس له جلد النمر ، ويطبق عليه غيم حادثه ويستمر ،ثم صدمة الدّهر بالميل والحيف ، وكمن له الفقر فيه كمون الحدّ في السيَّف ، وتيقّظ له بعد ما غفل ، وطلع نجم نحاسته فما أفل ، انثالت عليه غارة الاحتياج ، وهوت كواكب سعده من الأبراج ، جنت عليه الأيام وعَدت ، بعد أن أنجزت له من قبلُ ما وعدت ، فأصبح كما في أمثال من غبر ، أفلس من طنبور

---

(١) ترجمه في (نشر العرف : ٢/٧٥٠) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) بهرام : اسم المريخ وهو فارسي أصله بهرامج .

(٣) البرجيس : نجم ، قيل هو المشتري وقبل المريخ .

(٤) الطويلة: مدينة بالقرب من كوكبان بمسافة (٢٥) كم ، في سفح جبل القرانع بها مركز قضاء الطويلة المطل على بلاد المحويت من الغرب ، وإلى الجنوب بلاد حراز والحيمة .

(٥) البهار : نبت طيب الرائحة ينبت أيام الربيع ، ورده أصفر الورق أحمر الوسط .

بلا وتر[1] ، بل أفرغ في الحرب من القِراب ، وأخلى من القدح عقيب شرب الشراب ، وقد أولاه الدَّهر قهرا ، فأضحى وما له شامة ولا زهرا ، ولاجامد ولا ذائب ، وأمله في كل من رجاه خائب ، فلانت قناتُه ، وبَعُد عن روضه جُنَاتُه ، وهو مع ذلك ألين لطفاً من قضيب ، وأصبر على الذّلّ في الدَّهر من قضيب ، عرفته في غناه وفَقْره ، وشاهدت من الزَّمن الخؤون عاقبة أمره ، وكنت أستعيذ بالله من شر القَدر ، ومن سوء دهر طالما خان وغدر ، وقد أضحى ذا رأيٍ فائِل ، وهو للّنظم بما قاساه غير قائل ، وله شعر يروق ، تبتسم عنْ سناه ثغور البروق . منه قوله[2] :

لــك حــاجب يــا منيتي ... عن مقلتي حجب الكَــرَى
وســهــام لحـظك قــاتــلي ... لا شــك فيــه ولا مِــرَا

وقوله[3] :

لــك لحظٌ ومــقــلةٌ ... ســلبــا نــوم مــقــلتي
لــك خــدّ مــورد ... فــيــه نــاري وجــنَّــتي

وقوله :

يــا مــليحــاً غــدا الـفـؤا ... د لمــشــواه مــنــزلا
خُــذْ لــصَــبٍّ مــتــيــمّ ... لم يجــد عنك مــوئــلا[4]

وقوله :

يــا مخجـل البــدر وجهــا ... والــظبـي جيــداً وطــرفــا

---

(١) لم أجد هذا المثل في كتب الأمثال التي بحوزتي .
(٢) أوردهما في (نشر العرف : ٧٥١/٢) .
(٣) أوردهما في (النشر : ٧٥١/٢) .
(٤) في (ش) منزلا .

لا تسلب الروح منّي　　فسلبه ليس يخفى

ونظم البيتين الأوسطين والبيت الأول والآخر قديمان ، فقال :

آه من البارق الذي لمعا　　ماذا بقلبي ومهجتي صنعا
أرّق طَرْفي وزاد في حُرقي　　قَطَّع قَلْبي بَوْمضه قِطعا
حَرَّك شوقي لجيرةٍ بعدوا　　جرَّعني الدَّمع مذ سرى جرعا
أقيم في الطُرْق شبه والهةٍ　　لعلّ عيني عليه أن تَقَعَا

وكتب تقريظاً على « ريحانة الألبَّا وزَهرة الحياة الدنيا » ، للعلامة الأديب شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى منثوراً له منه قوله :

هذه ريحانة عَطَّر الأرجاء شميمها ، ورقّ في الأفق نسيمها ، وترقرق في حياضها تسنيمها ، أدارت على الرِّفَاق ، كؤوس الوِفاق ، وتزيَّنت طروسها بسواد كسواد الأحداق ، فهي لعمري تحفة الجليس ، وأُنس من أوحشه فقد الأنيس ، منثورها منثور البستان ، ومنظومها كمنظوم قلائد العقيان ، تتنزه فيها النَّواظر ، وتسلو بها الخواطر عن الخواطِر ، نَوْر روضها كالنجوم الزَّوَاهِر ، ونشرها بالأريج من المسك عاطِر ، خريدة القصر عن مطاولتها قاصرة، وهي ليتيمة الدهر بحسن معانيها قا هرة ، لا زالت تداولها أيدي الكرام وتلقَّاها بالتَّكريم ، وتختمها بختام مسكٍ مزاجه من تَسنيم ، انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

قوله : « وهي ليتيمة الدَّهر بحسن معانيها قاهرة » فيه معنىً لطيف لأنَّ الله تعالى قال في كتابه الحكيم : ﴿ وأمَّا اليتيم فلا تَقْهر ﴾ .

وقلت أنا في بعض القصائد النبوية على ممدوحها أفضل الصلاة والسلام :

ويتيم دُرٍّ من ثنايا ثغرِهِ　　باللَّثم من أهل الهوى لن يُقْهَرَا

وكان وفد صاحب التَّرجمة إلى مقام والدنا الإمام ، ونزل منه بأشرف محل

وأرفع مقام ، وبه خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي وحبَّذا هو من خليل ، في يوم عالج طبيب طيبه النَّسيم فإذا هو غير عليل ، فأدرك[1] منه الشّيخ تطاولاً عليه ، لما لم يلتفت بطُلية إنصافه إليه ، بعد أن أهانه في سلامه ، ولم يخاطبه بشيء من كلامه ، وله لو أنصفه فضل عرفان وأدب ، يغنياه عن فضل نسبٍ ونَشَب ، فزوَى وَجْهه ، وأمته أسباب غيظه من كل وِجْهة ، وتطاير من غضبِه شَرَارُه ، وشُحذ من سيف لسانه عَرَارُه ، وتجعَّدت منه الأسارير ، ولم يستعمل التُّؤدة حتى كاد أن يقال له : « رفقاً بالقوارير »[2] ، فالتفت إلى السيِّد لفته أبانت عن الغضب ، وسأله بمسائل علميّة استحضرها ذهنه واقتضب ، فَوجَم مُفْحما ، وصار صغاره في أثناء خطابه مقحما ، ودهش دهشة من أصيب ، وغُصّ بريقه لما لم يكن له في سعة الدراية نصيب ، وعقد القصور لسانَه ، وأطاش الخزي جَنَانه ، فقال السيد هذه المسائل يجيب عنها القاضي محمد[3] ، فإن بحره الغمطمط[4] أهل للمد ، فقال الشيخ : أما القاضي فسيجيب بلا لبس ، ويطلق في الإبانة لسانه بلا حبس ، وإنما سألتك أنت بالنّص فقط ، لأبين منك في هذا الترفع وجه الغلط ، وأنبهك على قصورك الذي ينبغي أن تجعل التواضع من خير أمورك فلا تستسمن من نفسك ذا ورم ، وتنفخ من رمادك في غير ضرم ، ولتَعْرف أنّ مثلي لا يهان ، لسبقه في مثل هذا الرّهان ، وما زال يشنِّع عليه ويبكّت ، ووالدنا يزجره ويُسَكِّت ، ويلومه على إطالة التَّشْنيع ، ويغالط فيما وَسَّعه الشيخ غاية التَّوسيع ، حتى انقبض المقام ، وبلغ مسك الختام ، رحم الله تعالى السَّائل والمسؤول ، وصاحب المقام الذّي هو للنَّزْيل روض مطلول .

---

(١) في (ز) أدك .

(٢) حديث : « يا أنجشة رفقاً بالقوارير » متفق عليه من حديث رواية أنس .

(٣) يعني والد المؤلف محمد بن الحسن الحيمي ، سبق ذكره .

(٤) غمطمط البحر : اضطرب موجه .

السَّيِّدُ النَّاصِرِ بنُ عَبْدِ القادِرِ [1]

مِنْ آل شمس الدين ، المعيدين للفخار والمُبْدين ، كرم أصله فكرم فرعُه ، ونظر إليه عدوّه شزراً لَمَّا ضاق ذرعُه ، لم يخل عن فائدة ترفع من ذكره ، ولم يتعطَّل عن معرفة تَسْتوجب مستدام شكره ، وله في علم التاريخ يدٌ لم يصبها شَلل ، ونسيم دراية لأذيالها بلل ، وباع غير قاصرٍ ، فله منه قوة وناصر ، وهو لي صهر ونسب ، ولي به علاقة فخار وحَسب ، يُعَد لي تِرْبا ، فكم قَضَّيْتُ أنا وإياه من اللَّذاتِ إرْبا ، وقعدنا مقاماً على النَّجوم أربى ، مرَّت لنا أيّامٌ حلَتَ ، أعقبت الأسف عليها لما ارتحلت ، يتأوّه على بياضها الكافور فيتنفَّس الصُّعَدا ، ويَعم الآفاق بِطيبه حتى لا يقال[2] عنده ما خَلا ومَا عدا ، وليالٍ يتفَتَّت على سوادها المسك الفائح ، ويبكي على انقضائها طيرُ الروض النائح ، في رياضٍ كَأن أغصانها قدود ، وورد ربيعها المطلول خدود ، طالما أهدى لها الجوُّ درر الغمام ، فأعْلنت بشكره على منابر الدّوح ألسنة الحمام ، ونحن بالآداب نَتحدَّى ، وقد جاوزنا في رسمها حدًّا ، حتى قيل لقد خرس عندكم الطَّير الفصيح ، وصمت من الحياء وطال ما كان في غصنه يصيح ، بَكمْ بَكمْ ، وستر وجهه من الأوراق بكُمّ ، وريْعان الشَّباب نضِر ، ورَوْض الفُتُوَّة خَضِر ، وطرف المَسّرة قرير ، وظبي الأنس غرير ، ونهر الأفراح ذو خرير ،ومجالس الاجتماع ذات منَّصة وسرير، فآهاً[3] لأيام

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٢/٧٧١) نقلا عن كتابنا هذا .

(٢) ساقط من (ز) .

(٣) في (ز) فآهٍ .

الصّبا ، وسُقياً لمراتع الظِّبا ، لا كهذا الوقت ، الحقيق بالذَّم والمقت ، الكثير الويل ، الذي هو أقبح من منٍّ على نَيْل [1] ، وشعْرُه أقل من هبَات البخيل ، على أنه أحلى من ثمرات النخيل ، كتبَ إلى بعض إخوته ، قوله مِمَّا يدب شرابه على نشوته [2] :

تذكرت صفو العَيْش والبان والشّعَبا | ففاضت دموع العين من عارضي سكبا
وعـاتبني ذاك العذول جَهـالـةً | فقلت له مهلاً رويدك لا عتبا
فقـد علق القلب المتيم دُميـةً | يُخال سناها عند رؤيته الشّهبا
ألا يـارسولي حيّ حَيَّ بثينـةٍ | وسلم على سكانِه ودع النَّصْبَا
وإن عزَّ وصلي صار وجدي كُثَيِّراً | فما قاسَ قيس العامرية لي حُبًّا
ودع عنك ذكر العامرية واللِّوَى | وذكر ظِباء الحيِّ إذ وردت سِرْبَا
وعج يا رسولي نحو أحْبابنا الألى | تناسوا وداد بتّ في حفظه صبًّا
وإن جزت بالرَّبع اليماني فقل له | (فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كَرْبَا)
ففي الرَّبع أحباب لنا طال بعدهم | عَسَى الله بَعْد البُعد أن يجبر الخطبا
فقد طارت الأرواح شَوْقاً إلى اللقا | فياليت شعري هل يعود النَّوى قربا
وكم فرج الله المكاره بعد مَا | يضيق الفتَى ذرعاً ويستصعب الصَّعبا
(ومن صحب الدّنيا طويلاً تقلَّبت | على عينِه حتى يرى صدقها كذبَا)

قوله : « وسلم على سكانه ودع النَّصبا » مقصوده فيه أنك تسلم على سكانه السَّلام المرفوع في إعرابه ليفيد الثُّبوت والاستمرار ودع النصب لأنه إنما يكون في الحال فقط إلاَّ أنه لم يودّ المعنى في البيت كما يريد ولم يطاوعه الوزن لنظم ذلك العقد الفريد ، وقد قصد أخذ بيت خليلنا الشّيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى لما قال في بعض قصائده وقد تقَدّم ذكره :

(١) من الأمثال . انظره في (المستقصى : ٢٧٧/١ و مجمع الأمثال : ٦٣/٢) .
(٢) في (النشر : ٧٧١/٢) .

واقـر مَـرْفـوعـاً سـلامي لهُم ودع النَّصب تصب معنىً خفيًّا

*

* *

* * * *

أخوه إسماعيل بن عبْد القَادر [١]

ألطف من نسيم السّحر وأرق، وألذّ من حديثها على محبٍّ نادمه قلقٌ وأرق، شمائله [٢] كأنها الخمرة ، وفكرته كأنها الجمرة ، إذا ولج الشّعر الحسن منه السّمع ، ذَابَ ذوبان الفؤاد وسال سيلان الدَّمع ، كنت أراه يتمايل لسماع الأدب عن هزّته ، مالا يتمايل الغُصْن من النَّسيم إذا بَشَّرته بالقطر بعد عِزَّتِه ، وَلَمَّا ذهب بعد موت أبيه منهم الملك ، جرت به في بحار الافتقار الفلك ، وانطمس الإجلال والتكريم ، وذهب الإعظام والتَّفخيم ، ونقصت حالته نقص المنادي بالترخيم [٢] فجعل يضرب في الأرض ، ويذرع طولها والعرض وقد ضَاق به من الأيام مَجَالُهَا ، وَسُلِبت عن غادة أوقاتِه قَلَائِدُها وحجالُهَا ، وَوَصل إلى مواهب الكريم وأنا بِها [٣] ، تريد آماله نجاح مقصدها ومطلَبها ، ومدح الإمام [٤] بقصيدة أملاها وأنا حاضِر ، ومَدَّ يده لجنى الثمار من روضه النَّاضر ، وكنت ممن أعان في نجاح أمله فلم يخبْ ، وقد سَفَر له بدر إسعاف لم يغبْ ، فنال ما أمَّلَه ، وظَفِر بما أمَّ له ، ولما ذهب عنه النحس وجاءه السّعد وزَمْجر له من خلال سحائِب الإقبال أي رعد ، رجع إلى كوكبان مسروراً ، ونَقَع من موارده فؤاداً محروراً ، ولم يلبث إلَّا يسيرًا ،

(١) في (ب) سائله وكذا في (ش).

(٢) يحذف آخر المنادى للتخفيف أو للضرورة الشعرية وهو ما سمي بالترخيم ، كقولك : « يا عام لا تعاشر السفهاء » أي يا عامر منادى مرخم حذف منه الراء وهو اسم علم معرفة .

(٣) أي والمؤلف بها والمواهب سبق ذكرها .

(٤) هو صاحب الواهب (سبق) .

وإذا حَادي الموت يحثه مسيرا ، فخرج في بعض المواكب بحصانِه ، وكرَّبه كرَّة أنْزل الحزن لأجلها بحصَانِه[١] وأجهده حتى كبا كبوة عظم وقعها ، وثار في الجوِّ بالهلاك المُبَرِّج نَقْعُها ، فانكسر زنده ، وخَبأ من الحياة زَنْدَه ، وفت الحِمَام في عَضُده ، وقَرّبه الأجل لِلْحده ، لَمَّا وقع على جَنْبه موجعاً ، ولم يمهل له قبل نوْمه مضجعاً ، فمات ولُحِد ، وله فَضْل ما جُحِد ، وشعره مما يميد له قَدّ اليراع ويميل ، وبنات فكره تسفر تحت براقِع المداد بوجه جميل ، ولما مدح الإمام وأهدى له من نظمه أزهار الكمام ، توسّل بي في نجاح أربه ، فَكُنت ممن سقاه بعد حنَظل الإياس حُلْو ضرَبِهِ ، وفي ذلك كتب إلي من نظمه مُتوسّلاً ، وخاطبني بشعرٍ بعد أن خاطبني بنثره مترسِّلاً ، وهو قوله :

أمولاي قاضي المكرمات خطيبها — فكم تحته بالوعظ قد مال مِنْبرُ
ويا واحة الآداب أن زان عقدها — على عُنُق الأيام دُر وجوهرُ
أعِنّي بجاهٍ في بلوغ مقاصدي — فجاهك مشهور وقدرك أكْبَرُ
وعرف أمير المؤمنين بحاجتي — فكم فاز منه بالمآرب مُعْسِرُ
وحقق لمولاي الوجيه فإنَّه — غمام نوالٍ في البريَّة مُمْطِرُ
ولا زلت في ذا الدهر صدر الأهلة — بسعيك ذو قصدٍ بما رام يُصدر
ودمت عظيماً كل[٢] مزن وإن علا — لديه احتشاماً بالتواضع يَصْغر
يُنِير به كرسي مُلكٍ وتَخْتَه — ويسطع بالآراءِ منه ويَزهْرُ

ولما استعار مني كتابي المسمَّى « سُلافة العاصِر »[٣] ، طالعه وأحاط بما لديه من الفوائدِ العلمية والأدبية خُبرا وارجعه ، وكتب إليَّ من نظمه قوله :

---

(١) امرأته، يقال امرأة حصان : أي عفيفة أو متزوجة .

(٢) في (ب) و (ش) قل .

(٣) كتاب « سلافة العاصر في شرح بديعيه الحسين بن عبد القادر » من كتب المؤلف الأدبية القيمة ، منه مخطوطة بالمتحف البريطاني .

كاس لفظٍ قد دار لي بسلافه نَعَشت من محبّكم أعطافَه
أم هو الرَّوض قد تدَلَّى علينا فاعتمدنا جناءه وقِطافَه
قد جَنَيْنَا منه الثّمار تدلَّت في غصون ما بين زَهْر اللَّطافَة
أم هو الدّر يا شهاب المعالي منك في السمط قد أخذت ارتصافه
قد خلطت العلوم بالأدب الغضّ وأمليت باللآلىء صحافه
منه أحييت حين شَمَّرت ميتاً وتلافيت في الزَّمان تلافه
كل من رام أن يجاريك في الفَضْلِ أجبناه خلّ عنك السَّخافه
أين منك النّجوم أم أين منك الـ بدر أبْداً في أوْجِه إنْصافه
دُمَت بيتاً للعلم في كل حينٍ حوله قاصدٌ يُديم طوافه

فأجَبتُه بقولي :

أعيون المهاة ذات الظَّرافه بين جسر النقا وبين الرُّصافه
أم هي الخود بعد طول تجافٍ قد أزاحت من الحجاب سجافه
وأرتنا من خَصْرِها فوق ردفٍ غاية اللطف في تناهي الكثافة
عُرِّفت بانجرار شعرٍ أضافته إليها فعرفتْ بالإضافَة
أم خدود من الورود عليهَا أدمع السّحب لم تزل وَكّافَه
لا ولكنها معانٍ من القول أتتنا تجر ذيل اللَّطافَه
من نظام غدا على الدُّر والتبر لفرط الهون في القَدّ رافه
قد أتَى بالعُجاب منه يراع مَلك القلبُ واسترق شغافَه
قلم لم يزل على الطَّرس يبدي بدم الحبر عن سواد رعافه
دام من رصَّف اللآلىء منه وكفاه الإله كل مخافة

ولد أخيه السيد يحيى بن الحسين بن عبد القادر[1]

ثمرة من شجرة طيِّبة ، وقطرة من مطرة صَيِّبة ، كان ذا صلاح بين النّاس ، فكم أبدل الوحشة بالإيناس ، يجمع بين الأنداد ، ويلمّ أشتات الأضداد ، يؤلّف بين الماء واللَّهب ، ويباشر النّحاس بكيميا سياسَتهِ فإذا هو ذَهَب ، يؤاخي بين اليعفور[2] والأسد ، ويستل السخيمة من أعماق الجَسَد ، حتى يعيد البغض وُدّاً ، ويرجع الجزع عِقداً ، ويختلس من الصَّدر وغراً وحِقْدَا ، إذا تَولَّى عِقْدَ شيءٍ أحكمه ، وإذا نطق بمجلس فيصيح أبكمه ، وكان ذا لهج بحفظ أيام العرب ، فكم أطلع منها في أفقه نجماً ثابتاً ما غَرب ، يحفظ أمثالها وأشعارَها ، ويُغْلِي في أسواق الاجتماع أسْعارَها ، ويرفع من لهب نيرانها عَلَما ، أحمر إذ يعتمد إسْعَارها [وَكُنَّا نؤمل لعِمره امتداداً ، لأنه كان معدوداً للمهمات][3] إذ قل غيره به اعتدادا ، حتى اعتدى عليه الزَّمن الخؤون وكان ذلك الاعتداء ذا ، وطالما زاد وطَمعنا فيه ، أن يسلك سبيل والده ويقتفيه ، فيملك رئاسة القلم ، ويشابهه في الأدبَ ومن شابَه أباه فما ظَلَم ، فما تَمَّ ذلك الطبع ، لما شرى برق حَتْفِه وَلَمَع ، ووقع عليه قَطْر الاستقساء وهَمَع ، ونصب له الموت شرِاكَه ، وهصر من واديه الخصيب بانَه وأراكه ، وأولاه الهُمُود في الجدث لمَّا سَلَبهَ حَرَاكَه ، فامتد في أفقه من

(١) ترجمته في (نشر العرف ٨٥٣/٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) اليعفور : هو ظبي بلون التراب .

(٣) ساقط من (ز) .

الاستقساء عارضُه ، وأمطر الدّموع إشفاقاً عليه فذوَى بها مِن نباتِه بارِضُه[1] فمات ولِمَّته سَوْدا ، ولم يخضب كافور المَشِيب له فَوْداً ، وشِعْرُه قليل جداً ، وبحر عروضه لم يألف جزراً ومَدًّا ، أنشَدَني من لفظه لنفسه قوله من أبيات :

برزت كشمس الأفق إلّا أنها ستـرت بطرتهـا شعـاع جمـالِهـا
بـدوية سبت العقـول بأسرهـا فتنت لـواحظنـا بطيف خَيَـالِهَا
كم لائمٍ قد لامني في حبّها حتى تـولّـع قلبـه بـوصــالهـا
لـو أنها نـزلت بـأرض كثَيِّرٍ لم يسبه من عَزّ حسن دلالهَا
كلّا ولا نظم القـريض تغزلاً فيها ولم يثمل[2] لذكر خِصالها

وقوله أبيات :

قلبي من الشادن البرّي قد نصبا لما تَولّى ثوى في القلب ما صعبا
نـثرت درّ دموعي فيـه منتظماً ترى لديه عقود الجيد مخشلبا
قد فارق القلب جسمي في هواه وكم قلبٍ على رمح قدٍّ منه قد صُلِبَا
كم ليلةٍ بِتُّ أرعى النجم من قلقٍ والقلب يخفق حتى غاب واحتجبَا

قوله : و « كم قلبٍ على رمح قدٍّ منه قد صُلِبَا » ، هذا تخيل لطيف يذوقه أرباب الأدب ونُقَّاد الألفاظ .

وقد أتَى لي في كلامٍ منثور ذلك لما قلت :

كلفت بحبّ قاسي الفؤاد ، يترك جَمر القلب مضطرم الزّناد ، فهو غصنٌ ولكن لا ينعطف ، وظبي ولكن لا يلتفت إلى من به شُغِف ، أحرق القلب بهواه ، وجرعه علقم بعده ونَوَاه ، هو من مهاده في مَعَرَّة ، يبيت لفقد المنام يرعَى

(١) البارض : أول ما تخرج الأرض من نبت قبل أن تتبينّ أجناسه ، ونبت الأرض يقال طلعت الأرض بأرضها أي نبتها .

(٢) في (ب) و(س) يمثل والإصلاح من (ز) والنشر .

النجوم ويرد نهر المجره ، وكم يذنب في هواه ذنباً يفضي إلى حده ، فكم عامله معاملة المذنب حتّى صلبه على عامل قدّه . انتهى .

*

* * *

عَمنَا ذُو الوزَارَتين أبو الفضل القاضي الخَطيب عماد الدين يحيى بن الحسن الحيمي (١)

كامِلٌ وَزير ، جليس للعلياء وَزير ، ذوآراءٍ تُقْضَى بها المغارم ، لو طبعت لما كانت إلَّا صوارم ، قرايُه الأجل ، أمضَى من السيف والأَجَل ، كان للدنيا جمالاً ، وللمسنتين في الشدة ثِمَالا ، فهو عمادٌ لهم وأي عماد ، يغشون إلى ضوء ناره لأنه وافر الفحم (٢) كثير الرّماد ، وأحد الضِّيافَة فطالما أشعل لها نارَه ، وثاني الغيث في الإنالة وثالث النَّيرين في الإنارة ، ينقذ المقترين من الفجائع ، ويود لو أنه ينزل بناديه في كل يوم ألفُ جائع ، سهلت حزونه ، وتبجست بالجود عيُونه ، ذو طلاقة ونَدى ، وقد غدا على سجيّة يفوز بها غدا ، فله من النَّوال أوفَرُه ، وله ربيع إفضالٍ وهو أبو الفضل تدفّق جعفره ، ومِسْك صيتٍ بالمكارم تضوع أذفره ، يطعن بيراعه من العدا نحورا ، ويقذفهم بمعروفه من كل جانب دحورا ، فالقلم في النوال رمحٌ مبنَّد ، والمعروف كما قيل جند مجند ، خطيب ذلق ، ذو جوادٍ في الوعظ منطلق ، ولِي الخِطَابة قَبْل أن ألِيْها أنا ، فمالت به أخشاب المنبر مَيلان الأغصان والقنا ، حَتَّى حُسِدت أعواده الساجية ، غصونٌ رطيبة هي لذيول أوراقها ساجية ، وودَّت بأن تكون تحت أقدامه ، ولا يكون تحت سواجع الرَّوض من حَمامِه ، ورغبت في القرب منه على الظّمأ مفارقه للنَّهور ، ورَضيت بالعَطلِ متجّردة عن حلل الأوراق وقَلائِد الزّهور ، طاب في الخِطَابة سنيُّ خَبرِه ومخْبرَه ،

(١) ترجمته في (النشر ٢/٨٣٦) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) في (ز) الجم .

فكان إذا رَقَي يوم العرُوْبة[1] درجات مِنْبَره ، كأنما صعد إلى الأفلاك ، ليتناول شهبها فَينْظمها من سطور مواعظه في الأسلاك ، وله في العلم مَشْرَب ، منال زُحَلِ من منالِهِ فيه أقرب ، سيما في العروض ، فما أدركه[2] من لجواده يروض ، لأنه فيه ذو دائرة[3] قد اتسعت ، وقدم في المجرى[4] ذات سَبَبٍ خَفيف لَمَّا سعت ، فهو الغاية وعليه الاعتماد ، وكل بيت بالوزن قام عليه لأنه العماد[5] وهو فيه الصحَّيح[6] والسَّالم بوتده[7] المجموع ، وشانيه الأبتر[8] المنهوك[9] المنقوص[10]

---

(١) يوم العروبة : هو يوم الجمعة ، قيل أول من سماها جمعة كعب بن لؤي .

(٢) في (ز) أدكه .

(٣) الدائرة عند العروضيين : خطوط مستديرة كالحلقة ترسم في داخلها الأبحر وعلى محيطها علامات الحروف المتحركة والساكنة من أبيات تلك الأبحر ، فعلامة المتحرك دائرة صغيرة وعلامة الساكن خط صغير مستقيم ، وهذه الدوائر خمس إحداها تشتمل من الأبحر على الطويل والمديد والبسيط ويقال لها دائرة المختلف ، والثانية تشتمل على الوافر والكامل ويقال لها دائرة المؤتلف ، والثالثة تشتمل على الهزج والرجز والرمل ويقال لها دائرة المشتبه ، والرابعة تشتمل على السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث ويقال لها دائرة المجتلب ، والخامسة تشتمل على المتقارب والمتدارك ويقال لها دائرة المتفق .

(٤) المجرى عند العروضيين : حركة الروي كضمة الميم من قول الشاعر :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعـرفـه والحـلّ والحـرم

(٥) العماد : لقب لكل من يتسمَّى بيحيى عند أهل اليمن .

(٦) الصحيح عند العروضين هو الجزء الذي لم يدخله زحاف أو علة .

(٧) الوتد : عند أهل العروض منه مجموع وهو ما كان على ثلاثة أحرف متحركين فساكن كعلى ولقد ، ومنه مفروق وهو ما كان على ثلاثة أحرف متحرك فساكن فمتحرك نحو قال وكيف .

(٨) الأبتر : عند العروضين البيت الذي دخله بتر .

(٩) المنهوك من النهك وهو عند أهل العروض حذف ثلثي البيت في بحر الرجز فالجزء الأخير أو ما بقي بعده يُسمَّى منهوكاً .

(١٠) المنقوص عند العروضين : هو البيت الذي دخله النّقص .

المقطوع[1] فلو أدركه الخليل[2] لغدا منه كليماً ، ولذاق من الحَسَد له عذاباً أليما ، قرأ فَسبق الأقران ، على أخيه الذي حُفّ بالغفران . وكان ذا حذاقة وفطانَة ، اتخذهما لكماله بطانَة ، ينفذ حَدَسه في الغوامض فلا يخطىء ،ويسْرع في الخفيّات فلا يبطىء ، ما ظن شيئاً إلا كان يقيناً ، ولا لبسنا درع رأيه إلاّ كان من سهام المصائب يقينا ، أنفذ من سهام ذات نِصَال ، يوصلنا إلى مالا إليه لولا رأيه نَصَال ، ما إياس ذكاء وعلما ، وما الأحنف صبراً وحلْماَ ، فهو ذو حلمٍ أصم ، واحتيال به اعتصم ، وَعَطَف وصَفَح ، فلمسك حنوه تضوع ونفح ، وحزم هو بمثابة الحلي من العَطَل ، ورأي لا يقارنه الخطا والخَطَل :

ويعرف الأمر قبل موقِعِه ... فماله بعد فعله ندم

فهو أحزم من الحربا[3] فكم نال بحزمه من الزمن إرْبا، وأدبه عن الحسن لا يخلو ، وشعره كلما مرَّ في الأفواه يحلو ، قال في عروض قصيده صُرَّ دُرّ[4] التي عند حلاوتها سُكّر الأهواز مُرّ :

بان الخليط فسال ماء شؤوني ... وازداد وجدي في الهوى وحنيني
وتصعّدت زَفَرات نفسٍ لم تزل ... مأسورة بِظُبُا الظِّبَاءِ العِينْ
تَصْبو إلى ثاني المعاطف ثالث الـ ... قمرين مستغنٍ عن التَّحسينِ
ريم رَمى لمَّا دنا بلحاظِه ... فأصاب مهجة مغرمٍ مفتونِ

---

(١) المقطوع عند العروضين الجزء الذي دخله القطع .

(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي شيخ اللغة والعروض ، وفاته سنة (١٧٠) .

(٣) من الأمثال ، أورده في (المستقصى ١/٦٥) قال : لأنه لا يرسل ساق شجره حتى يمسك بأخرى .

(٤) هو أبو منصور علي بن الحسن بن الفضل شاعر مدح الخليفة القائم توفي سنة (٤٦٥) . (وفيات الأعيان ١/٣٥٩ و الأعلام ٤/٢٧٢) وقصيدته المشار إليها أولها :

أكذا يجازى ود كل قرين ... أم هذه شيم الظباء العين

انظرها في ديوانه (٥٣ - ٥٦) .

رضوان حسنٍ مذ غدا لي مالكاً   أيقنت أني في عذاب الهُونِ
في خَدِّه خَالٌ يخال سوادُهُ   مسكاً به يعلو على نِسْرينِ
وبميم مبسمه مُدَامٌ قَرقَفٌ   لا كالمُدام وكابنة الزَّرجون
من نون حاجِبِه وسين جبِيْنه   ما زلت أقرأ نون مع يس
إن قلت صلني صال جيش تغضبٍ   منه وصار مغاضباً ذو النونِ
كم صرت أشكو منه لما طالما   أجرى رقيق الدَّمع ذا تلوينِ
يا أهل وجرة[1] إن زخرف حسنكم   بالصدّ أجرى مرسلات شُؤوني
لله ما صَنَعت لحاظ مهاتكم   في قلب كل مولَّهٍ محزون
ما كنت أحسب أن خشفاً سانحاً   من قبلها يسطو بليث عرين
أو أن بَدْراً طالعاً من تَحْتِه   غصن يميل على نقا يبرين
منّوا عليّ بزورة أحيا بهُا   كَرماً وفكّوا في الغرام رهون
فأنا العميد بكم وقلبي عندكم   يروي حديث صبابتي وشجوني
هَيْهات ما قَيس يقاس بحبّه   حُبِّي وليس جنونه كجنوني
فَمن المعيذ عليَّ فضلة مهجةٍ   ذابَت أسىً في سَاكني جَيْرونِ
ما زال منها الحال ينشد معلناً   أكذا يُجازَى وُدّ كلّ قرينِ

مطلعها كقول الأمير منجك الجركسي[2] رحمه الله تعالى في مطلع قصائده[3] :

بان الخليط ضحىً عن الجرْعاءِ   فمن المقيم لِشِدَّةٍ وعناءِ

---

(١) وجرة : منزل من طريق مكة من البصرة بينه وبين البصرة أربعون ميلاً .
(٢) هو منجك بن محمد بن أبي بكر اليوسفي أكبر شعراء عصره من بيت إمارة توفي سنة (١٠٨٠) . (خلاصة الأثر ٤/٤٠٩ وريحانة الألبا ١/٢٣٢ وسلافة العصر ٣٦٩) .
(٣) انظرها في (ديوانه ٣٢ وريحانة الألبا ١/٢٣٦) .

والأصل قول ابن السراج القاري[1] مما أورده له ابن خلكان[2] في تاريخه المشهور :

بـان الخـليط فـأدمـعـي وجـداً عـليـه تـسـتـهـلُّ
وحَدا بهم حادي المطيّ[3] عـن المـنـازل فـاسـتـقـلوا

قوله : « ما كنت أحسب » البيت مثله قول التلعفري[4] رحمه الله تعالى :

ما كنت قبل لحاظ طرفك مثبتاً أن الظباء تصيد آساد الشَّرَى

وقول ابن لؤلؤ الذّهبي[5] رحمه تعالى :

وما كنت أدري أن غزلان حاجرٍ على كل ليث من ليوث الشَّرى تسطو

وكتبٍ إلى صاحب الترجمة المولى الحسين بن عبد القادر رحمهما الله تعالى من مخيم الجهاد ، الذي سقى من دم الأعداء بهامع العهاد ، يُعاتبه على ترك المعاهدة في الرِّق ، وهو إذاك بجهات المشرق وقد طلع فيه بدره المُشْرق قوله :

بصليـل السيـوف في الأعنـاق وصهيـل المـطهـمات العتـاقِ
ما الذي أوجب الجفا يا أبا الفضل وقـلَّ الـوفـا عـلى الإطـلاق
الـعـزّ المـداد عـزّ كـتـاب أم لـقـل الأقـلام والأوراق
لا كتـاب ولا رسول ولا ردّ سـلام من عهد يـوم الفـراق

---

(١) هو جعفر بن أحمد بن الحسين بن السراج القاري ، أديب له « مصارع العشاق » توفي سنة (٥٠٠) . (وفيات الأعيان ١/٣٥٧) ط إحسان عباس .

(٢) (وفيات الأعيان ١/٣٥٧) .

(٣) الوفيات : الفراق .

(٤) هو شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري نسبته إلى تل أعفر بين سنجار والموصل ، شاعر أديب ، له ديوان شعر ، وفاته سنة (٦٧٥) . (فوات الوفيات ٢/٢٧٧ والأعلام ٧/١٥١) .

(٥) هو يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذَّهبي عرف ببدر الدين من شعراء الدولة الناصرية بدمشق . له مقطعات طريفة ، توفي سنة (٦٨٠) . (الأعلام ٨/٢٤٦) .

يا لها من إساءَةٍ من صديق بلغت عندها النّفوس التراقي

فأجابه بقوله :

لا تسل عن مودتي واشتياقي ونحولي لهَول هذا الفراق
وغرامي الذي له كل يومٍ نار شوق قد آذنت باحتراقي
وحديث الهوى الذي قد رُوته مرسلات من دمعه المهراق
ووداد قد صَحّ من كل شين وولاءٍ مؤكّد باتفاقِ
وغريم ملازم من غرامٍ لمعنًى في الصبر ذي إملاق
وعهود ما شانها قط مينٌ وزمان قد مَرَّ حلو المذاق
وادّكارٍ لمن نآ وهو دانٍ غير ناءٍ من قلبي الخفّاق
وأعد ذكرَ سادَةٍ قد أتاحوا جيش عتبٍ في مهرق الأوراق
ضَمَّنوا نظمهم عتاباً لطيفاً فهو كالعقد راقياً في التراقي
يا برَوحي ذاك النّظام وأفدي مرسِل العتب في المعاني الرقاق
شرف المكرمات من شرف الله معاليه دائماً عن محاق
ماجدٌ أروع زكي ذكي طيب الخيم زاكي الأعراق
قد قَضَ الله أن يسود وأن يصعد في المجد دائم الإطلاق
دام فينا مؤيّداً ما تغَنَّت فوق فرع بديعة الأطواق

وله في رجل مسود الأديم ، هو لبعض الحسان جليس ونديم :

أمسودّ الأديم لحاك ربي لقد أبديت لي شيئاً عجابا
جنحت إلى الغزال فليست تدري بأن الرّيم لا يهوى الغُرابَا

وقد أذكرني هذا بقول الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري رحمه الله في بعض قصائِده[1] :

---

(١) (ديوانه ٢٨) .

فقدت الهوى لما فقدت شبيبتي وأوجع مفقود هوىً وشبابُ
وكان يصيد الظَّبي فاحم لمتي وأغرب مَا صاد الظبَاء غرابُ

وله وفيه التَّورية :

أنا صبّ متيم فيك يا من قلت سَقياً للقرب منه ورعيا
متُّ شوقاً فجدُ بوصلك فضلاً وامتنانًا لرق حُبّك يَحْيى

ومثله قول بعض الأدباء :

يا من كسَتْه البدور حسناً إليك تسعى القلوب سعيا
قد مات قلب المحب وَجْداً زره بحق الإمام يحيَى

وقال آخر في مليح اسمه يحيَى :

يا لائمي في هَوى مليح تَسْعى إليه القلوب سعيا
مُتْ فيه غيظاً وخل قلبي في عشق هذا المليح يحيَى

وله يستنجز وعداً من بعض مشايخه بالقراءة في الخبيصي :

تَمّم الوعد بالقراءة يا من جَاد فَضْلاً ولم يكن بحريص
أنا قد ذقت بالجهالة مُرّاً فأذقني حلاوةً للخبيصي

المراد بالخبيصي هنا هو كتاب « الموشح على كافية الشيخ ابن الحاجب » رضي الله عنه ، وهو مشهور ، ومؤلفه كما قال الشيخ الإمام العلامة لطف الله بن محمد الغياث عليه السلام ، هو محمد بن أبي بكر الخبيصي الكرماني ، قال : ويؤيد ذلك ما ذكره في القاموس أنَّ الخبيص[1] قرية بين فارس وكرمان .

---

(١) قال في المراصد : مدينة بكرمان ذات حصن وبهاتمور . وفي (أحسن التقاسيم ٣٤٨) : « مدينة عليها حصن بأربعة أبواب ، جيدة التمور ، الجامع وسط البلد ، شربهم من قنى ونهر ، ومدنها على تخوم المفازة وهن عامرات » .

انتهى كلامه رحمه الله تعالى . وفي هذا النَّظم التورية لأنَّ الخبيصي شيء من المأكول[1] حلو ، وقد رشّح للتَّورية بقوله « مُرًّا » ، وهذا المعنى بهذه التَّورية قد طرقه كثير من الأدباء قال بعضهم :

حرصت على الفوائد طول عمري فنلتُ فوائِد الرجل الحريصِ
وذُقْت حلاوة الآداب طُرّاً فلا شيء ألذّ من الخبيصي

وقال السَّيد ضياء الدِّين إسماعيل بن إبراهيم الجَّحا في الآتي ذكره رحمه الله تعالى :

إن تجد من مسائل النحو مُرّاً فأزل ما تجد بطعم الخبيصي

وقال القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي الخطيب رضي الله عنه الآتي ذكره أيضاً ، وقد ألجأته الحاجة إلى بيع كتاب الخبيصي المذكور :

فارقته واحتياجي إليه مثل قميصي
على سواه فؤادي ما عشت غير حريصِ
لكنني لم أجد عن فراقه من محيصِ
فمرَّ حالي لمَّا أن مرَّ وهو خبيصي

وقال السيد عبد الله بن علي الوزير فسح الله تعالى في أجله[2] :

بيع الخبيصي عندي مُعَلَّقٌ بالمُحَال
أبيعه وهو حِلْوٌ بالله دَعني وحالي

---

(١) الخبيص : نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن والحضر من الأرز والدبس ، وهو مأخوذ من الخبص بمعنى الخلط . وفي فضالة الخوان (٧٣) يصنع من القمح والسمن .
(٢) سيأتي ، وكتابة المؤلف لكتابه هذا سنة (١١٤٤) أي قبل وفاة المذكور بثلاث سنوات .

ولما توفي صاحب الترجمة المرحوم ، لا زال طير الغفران على مرقده يحوم ، وتزلزلت أكوان لمصرعه وأرْجَا ، وصِرت أطمع النَّاس في الثَّواب بعده وأرجا ، لأني أصبت ما لا يصاب به غيري ، ووقع في شباك الحزن العظيم به طيري ، فَرَثَيْته بمرثية أرق من الدَّمع ، وبكيته بها وبكيت الجم من الجمع ، وشققت بها القلب الكئيب قبل ولوجها في السَّمع ، منها قولي :

أنار جحيم في أم مهجة حَرَّى	وبحر خضم حال أم مقلة عبرا
ولكن عهدي النار والبحر دون ما	أرى من فؤادي والدموع التي تترى
أمن بعد رزءٍ جل أبخل بالبكا	أبى الله إلاّ أن أنـظمه دُرًّا
فقد حجب التّرب الكثيف عمادنا	وغيب غرب اللّحد من وجهه بدرا
أبا الفَضْل يحيى جعفر الجود والنَّدى	أنامله في البر قد حكت البحرا
إذا جاءه المسكين يسرع حافياً	لنيل نوالٍ منه زاد به بشْرَى
وإن قطع القفر المهامه مملقٌ	إلى سوحه قصداً فقد قطع الفقرا
فتىً حاز أسباب الرياسة والعُلَى	وفي عمره نال الوزارة لا الوزرا
ومنطقه أزرى بكل يتيمةٍ	من الدرّ لما شط من أزره أزرَا

منها :

عماد الهُدَى أوحشت للفضل مربعًا	وخلفته من بعد تأنيسه قَفْـرا
وخلفت أعواد المنابر كلها	ثكالى وأبكيت المناقب والفَخْرا
أذاك لذنبٍ قد جنته فهب لنا	كما ألفت من طبعك الصفح والغُفْرا
وإن كان هذا حكم ربك في الورى	فحمداً على السرا وحمداً على الضَّرَّا
ولو كان أمر الموت أمراً لغيره	رددناه لا نخشى عواقبه قسْرا
ودونك حطَّمنا القنا السمر خيفة	عليك وأعدمنا المشطبة البترا
وخضنا عباباً بات يطفو من الردى	ولم نخش من جيش الحمام إذا كرَّا

فنحن بنو عزمٍ إلى الشّر إن دعا يزيدهم التَّحذير عن سعيهم إغرا

إذا برزوا للحرب فوق جيَادهم فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرا

لقد كنت سبَّاقاً إلى كل غاية يحاول مرقاها بنو آدم طرًّا

ولم تقتنع حتى سبقت إلى الرّدى وغير جوادٍ من تأخر في المسْرى

وخوض المنايا مورد الخلق عن يد سيتبع منهم من تأخَّر من مرًّا

فلولا التّأسي في الأسى كاد مدمعي وقد سال منه القطر إن يعرف القطرا

ولا زال من سحب السماء ثقيلها يجود على ترب سكبت به قطرا

يزور ضريحاً قد ثَويَت بقَعْره إلى ثرى من بَعد ذا الموقف الحشرا[1]

وعادتك من مَنّ الإله تحِيّةٌ يضيع لديها المسك مذ ضوّعت نشرا

(١) في (ز) : إلى أن نرى من ذا الموقف الحشرا .

وَلَدُهُ صنْوُنا القَاضي علي بن يَحيَى الحيمي

فرع أصلٍ كريم ، وخاطب علياء كريم ، ظَهر مجدُه ، وارتفع نجدُه ، فمقامُه كاسمه علي ، ونصّ فضله لا محالة جلي ، ذو مقام في المروة نبيه ، وسجية يعزّ لها النَّظير والشبيه ، فطالما نزل بداره الوفد لأنه كثير الرَّماد كأبيه ، يرفع نار القرى على القُلل ، وينصب منها أعلامه الحمر بلا ملل ، فمنْ أمَّه فقد أمَّ حاتما ، ولاقى لأبوابه وللكرام منه فاتحاً خاتما ، ووطّأ لما يَنْحره من ساحتِه مَراق الدِّما ، مع حلم أحنفي ، هَيْهات بأنَّا في وَصْفهِ نَفي ، يمْلك به غيْظَه ، وَينْزل منه في غَيْضَه ، وله بجِمع دواوين الشِّعر لهج ، وبِقَلْبِه إلى تحصيلها نار تشتعل ذات وهج ، فعنده منها ما لم يكن عند غيره ، يشدو بمعانيها على غصون الأقلام ساجع طيره ، وله ارتياحٌ ما إلى شعر أبي الطيّب ، وسوق من بنات أفكاره إلى اجتلاه البِكر والثيّب ، طالما عكف على ديوانِه ، وأكل في كل وقتٍ من أطايب خُوَانِه ، وكذا نظم خليلنَا إبراهيم بن صالح الهندي ، فإنه عنده يوازي في الشغف به ما قاله الكنِدي [(١)] ، وما برح بكوكبان كوْكباً ، حتى عثر جواد عمره لَّما كَبا ، فمات وسَلك طريقه ، وترك الأعين من بعده في لجّ دمعها غَرِيْقة ، طافت الرَّحمة بأركان قَبْره ، واستدرك الرِّضوان كسره بجبْره ، ما نثرت لآلىء القَطر من الغُيُوم ، والتقط غَوَّاص الصبح من بحر اللَّيل جواهر النُّجوم ، وشعره ذو محاسن مُخلَّده ، عندها أذهان الأذكياء مبلّدة ، منه قوله :

---

(١) يعني المتنبي .

لله سفح شبام ما ألذّ به   روض الزهور وقد هبّت نسيم صبَا
أنظر إلى النّهر فيه كاللُّجينْ غدا   وذا الأصيل عليه قد جرى ذهَبَا

وقوله في التَّورية :

طلا شِفاتاً قد جرى دونها   خَمْرٌ به يسكَرُ كُلُّ المَلاَ
قلت له إذ راق لي ريقه :   يا ريم ما أحسن هذا الطلا

قلت : في هذا التَّورية الظاهرة ، وفيه أيضاً ما لم يقصده ولم يرده وهو الجناس المعنوي ، ذكره جماعة من علماء البديع ، والمؤلِّفين ، ومنهم من سَمَّاه تجنيس الإشارة وحقيقته أن تكون إحدى الكلمتين دالة على الجناس مَعناها دون لفظها وسبب استعمال هذا النَّوع أن يقصد[1] الشاعر المجانسة لفظاً فلا يوافقه الوزن على الإتيان بالمُجَانِسِ فيعدل إلى مرادفه ، كما عَدَل صاحب الترجمة رحمه الله تعالى إلى قوله : يا ريم عن أن يقول يا طلا بفتح الطاء وهو الظَّبي الصَّغير ، فلو أنه قال كذلك لكان الجناس لفظيّاً بين الطَّلا بالفتح والطِّلا بالكسر ، فلما لم يمكنه أن يقول كذلك طلباً لاستقامة وزن الشِّعر ونفوراً من زحاف البيت قال : « يا ريم » فكان الجناس معنويّاً وهذا النَّوع يأتي في النَّظم فقط لا في النثر ، لأنه إنما يضطر الشاعر إلى أن يأتي بالمرادِف ملاحظة لصلاح وزن الشعر ، وأما في النثر فلا وزن يضطر معه إلى ذلك ، وله في أشعار القدماء شواهد كثيرة ، منه قول امرأة من بني عقيل[2] :

فما مكثنا دام الجمال عليكما   بثهلان إلا أن تشد الأباعِرُ

أرادت أن تقول : أن تشد الجمال ، لتُجانِس بين الجَمال بالفتح والجِمال بالكسر ، فلم يوافقها الوزن والقافية فعدلت إلى ما يرادف ذلك وهو لفظ الأباعر .

---

(١) ساقط من (ز) .
(٢) انظره في (جنان الجناس وجنى الجناس للسيوطي ٢٧٩ ، وخزانة ابن حجة ٤٢) .

وقد أذكرني نظم صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى بقول صدر[1] الأفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى[2] :

كؤوس المُدام تحثّ الصفا ... فكن لتَصَاويرِها مُبْطلا
وَدْعها سواذج من نقشها ... فأحسن ما ذُهِّبت بالطّلا

ومنه [أخذ] القاضي زين الدين بن الوردي رحمه الله قوله :

دع الكاس من نقشها ... فصافٍ بصافٍ أحبّ
إذا ذُهِبت بالطِّلا ... فقد طُليت بالذَّهب

وقول الصَّلاح الصفدي أيضاً في مليح صائغ[3] :

كلفي بظبيٍ صائغ ... كالبدر في جوٍّ السماء
سكر المحبّ بريْقِه ... وغَدا يُمَوِّه بالطّلاءِ

أقول : في هذا توريتان لطيفتان ، التَّورية الأولى في قوله « وغدا يُموّه » لأن التَّمويه الزَّخرفة ، يقال موَّهت عليه الحديث أي زخرفته وجعلت له ماءً ونضارة ، حتى قيل من موّه الحديد إذا طلاه بماء الذَّهب ليظن أنه ذهب ، ثم صار مثلاً في كل تزوير ، وهو تفعيل من الماء ، ذكره بعضهم وقال أبو البقاء[4] : التمويه[5] التَّحسين لما باطنه قبيح وأصله من الماءِ لأنه يُحسِّن كل شيء ، فقد ظهرت لك التَّورية في التَّمويْه بما ذكرنا .

التَّورية الثانية : في قوله « بالطِّلا » لأن الطلا بكسر الطاء المشدّدة هو طِلاء

---

(١) في (ب) و (ش) سطر على عادة نطق أهل صنعاء في إبدال الطاء دالاً .
(٢) انظر (جنان الجناس) للصفدي (ولا يحضرني الآن) و (خزانة الأدب ٣٠٥) .
(٣) (خزانة الأدب ٣٠٥) .
(٤) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي ، من علماء اللغة ، وفاته سنة (١٠٩٤) .
(٥) (الكليات : ٢/١٠٦) .

الشيء بغيره ، كطلاء الحديد بالذَّهب وهو أيضاً اسم من أسماء الخمر ، وقد رَشّح للتَّورية بقوله « سكر المحبّ بريقه » كما هو ظاهر ، إلاَّ أني أقول : لو نسب الفاضل الصفدي رحمه الله تعالى ، التمويه بالطلاء إلى المليح الصائغ لكان أحسن من نسبته إلى المحبّ ، لأن التَّمويه بالطلا من صنعة الصَّانع فهو أولى به من المحب الذي ليس هو من صنعته ، وقد استدركت أنا هذا العيب ونظمت في المعنى مقطوعاً أسلمته عن الانتقاد وزدته حُسْناً لما ذكرت أنه نشوان المعاطف كما تَرَى ، فقلت في المليح الصَّائغ :

كلفت بنشوان المعاطف صائغٍ ... من الذّهب الإبريز أو دمعتي الحُلى
بـريقته مـا زال يسكـر دائـماً ... ولكنـه فينـا يُمـوِّه بـالـطِّلا

وليت الشيخ صلاح الدّين الصَّفدي رحمه الله تعالى في مقطوعه هذا قال :

كـلفي بـظبـي صـائِـغٍ ... هيهات مـا هـو كـالـطَّلا
من ريقـه قـد مـال عن ... سُـكْـر ومَـوّه بـالـطِّلا

فإنه بذلك يتم له الجناس كما تَرَى ويستقيم المعنى بنسبة التَّمويه إلى المليح الصَّائِغ . وذكر الطّلا في البيت الأول بفتح الطَّاء الذي هو ولد الظبية أنسب بقوله « كلفي بظبي » من البدر الذي قال فيه « كالبدر في جوّ السَّما » وإن كان البدر أنسب من الطّلا الذي هو ولد الظَّبية بقوله : « كلفي » لأن الكلف من لازم البدر ، وقد أخذ معنى مقطوع الصَّفدي هذا الشيخ عزّ الدّين الموصلي رحمه الله تعالى ومَوّه بأنه من مبتكراته فقال :

لأن شبه السَّاقي المُدام بعسجدٍ ... فقد مال بالتَّشبيه عن صيغة الأدب
ولكن رآها جوهراً سميت طلا ... فَمَوَّه لما حلت الكاس بالذّهب

قلت هذا النظم عندي هو الذهب الناطق بالمحاسن ، الذي ذاب من حسده جسد الذهب الصامت في بوتقة الصائغ ، مع التمويه بالنار ، أنضر ما أحسن

قوله ، فقد مال بالتشبيه لأن ذكر التشبيه هنا من المناسب ولذلك قوله أيضاً : « عن صيغة الأدب » بالصاد المهملة والياء المثنية التحتية والعين المعجمة ففيه مناسَبة للمقام فإنَّ التَّشبيه في الصيغة عبارة عن الغش للذهب والفضة بالنّحاس ونحوه ، ففي قوله بالتَّشبيه تورية يُرشح لأحد وجهيها قوله في أول البيت ، لأن شبه ويرشح للوجه الآخر فيها الذي هو بمعنى الغش . قوله : « فقد مال » لأن الغش ميل عن الفعل المحمود من الإخلاص إلى ما لا يحمد من الغش . وفي قوله « طلا » بكسر الطاء تورية يرشح لأحد وجهيها قوله في البيت الأول « المدام » ، ويرشح للوجه الآخر قوله « عن صيغة الأدب » ، وفي قوله « مموّه » تورية أيضاً يرشح لأحد وجهيها ذكر العسجد الذي هو الذهب ، ويرشح للوجه الآخر قوله « بالتَّشبيه » بمعنى الغش ، لأن الغش زخرفة وتَزوير للمصاغ حتى يكون له نضارة يقبل معها لِيُظَنّ أنه خالص عن مخالطة الرَّديء . وفي قوله « لَمَّا حلت الكاس بالذّهب » بالحاء المهملة تَوْرية أيضاً لأنه يصح أن يكون من الحلية ومن الحلول ، وهو النزول بالمكان إلا أنه لو قال في البيت الأول :

وما شبَّه الساقي المُدَام بعسجدٍ لميلته في القول عن صيغة الأدب

لكان أحسن لأنه رحمه الله تعالى حكم في بيته بأن الساقي المُشَبِّه للمدام بالعَسْجد مال عن صيغة الأدب ومَوَّه بالذَّهب ، ومن مال عن الصِّيغة ولم يحكمها كيف يحسن أن يموّه بالذَّهب ، والتَّمويه إنما يحسن ممن مال إلى الصِّيغة لا ممن مال عنها ، وهذه مناقضة ظاهرة ، وتصويبنا عن هذا النَّقد بمعزل لأنَّا أثبتنا للسَّاقي صيغة الأدب فالتَّمويه خليق به كما يعرف ذلك مَن صاغ من معادن الانتقاد حُليّاً ، وأيضاً فإنه قال لأن شَبّه وبينه وبين قوله ولكن رآها غاية النَّبْوة والمنافرة بخلاف بَيْنَ قولنا وما شبَّه وبين قوله ، ولكن بينهما غاية الاتفاق ونهاية الاتحاد والله أعلم .

ولما كتب إليَّ صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى كتاباً يلومني فيه على ترك

مكاتبته ، ويذكر لي حركته إلى باب خليفة الزمان ، ويسألني عن حالي وحال الإخوان ، أجبته من المنثور بقولي : سلام على أخي وشقيقي ، ومن حَديثُه المُسْكر رحيقي ، سلام أرق من الحديقة منظرا ، وقد فكَّكت يدُ النَّسيم من وردها أزراراً بِلا عُرَى ، روضُه مُريع ، وسيف نَهْره للعدوّ مُرِيْع ، وعليه من الله رحْمة عميمة ، وإكرام يستطيب شَمِيْمه ، ما وردت حروف خطَابه فَسرَّتْ ، وَمَرَّتْ ألفاظُه بسمع أخيه فحلّت عندما مَرَّت ، هذا وإنه وافاني مكتوبه العالي ، وفاح مسْكُ مداده بما أرخص الغالية بِنَشْره الغالي ، فأحيا منّي مَيْتا ، وأدار عليّ وأركبني كُمَيْتا ، فَجُلْتُ بِهِ في ميدان الأفراح ، وتناولت من راحات سطوره كؤوس الرَّاح ، وتجرَدّتُ به عن الأحزان ، ودخلت حدائِقه المرصَّعة باللآلىء منْ قَطْر الأمزان ، وحمدت الله على سلامَته ، وتدرعت بلامّةٍ لأسهم مَلاَمَتِه ، على أنه لو علم الحقائق ما لام ، ولو حَكَّم الأحلام لعلم أن لذَّتي مع غيبته مثلها وإذا راعيت السَّجع قلت كالأحلام ، فليحملني على ما ينبغي من التَّأويل ، ولا يَتحوَّل عن اعتقاده في أخ لم يُقارب في وُدّه التَّحويل ، وَذكر حَرَسه الله تعالى حركته ، فالله المسؤول أن ينزل عليه فيها بَرَكَتَه ، ويُقرن عَزْمه بالنجّاح والظَّفر ، ويجعل بلوغٍ أمَله في ذلك السَّفَر ، وما حَمَلَت نفسٌ ذات إبا ، ولا تركت ما سنَّه من لزوم أبواب الخلفاء معاشِرُ الآبا ، فالعنكبوت تمدّ حبال صَيْدِها على الباب ، وخِرِّيْت الصَّيادين يطرح شِبَاكَه على مَتْنِ العُباب ، فكم بين من يتسلَّق على بابه لمنال الأوطار ، وبين من يقتحم لها لجج المهالك وعظائِم الأخطار ، وكم بين جاثم خافي ، وبين عازمٍ في الفيافي ، يتطلَّب العُلا حتى يَظفر ، ويشقق جيب اللَّيل حتى يصادف الصّبح وقد أسفر ، فقد أحسنت يا أخي بقلقلة ركابك ، وأصبت بتحريك الهمة لسكابك[1] ، لكي تنال إن شاء الله تعالى ما يحمد معه حسن مآبك ، والله يجمع لنا بك من الشمل ما تشتت ، ويصل حبل التَّلاقي بعد أن تبتَّت ، وسألت عن

(١) سكاب : اسم فرس لأحد بني تميم . (الحلبة ٩٢) .

حال الإخوان ، فهم كما لا يَعْزب عنك خُوَّان ، أكثرهم بل كُلهم عرف بالغدر ، فرحم الله امرأً عرف منهم القدر ، فلي نهار في مداراتهم أظلم من اللَّيل ، طالما جاءَ بالكآبة ووفد بالويل :

وليل كان الصّبح فيه مَـآرِبٌ نُؤَمّل أن تُقْضى وخل نُصَادقُه

وأما فلان بن فلان ، فإنه قد هَزَّ قنا المجد فلان ، زُفَّت إليه عروس العلا لما عقد بِهَا ، فتبرَّجت له عن جمالٍ زانه حسن أدبها ، ما طلق منها حُرَّة لم تُشبهها أمة ، فمن العجيب أنها لم تبن[1] على أنها عليه في نكاحه لها غير مُبْهمَة ، ولولاه لم ألق وافياً ، ولم أنظم في المدح القوافِيَا ، فهو أنسي لما استوحشت من النَّاسِ ، فزماني به في غاية التَّأهيل ومُنْتَهى الإيناس ، فالله يُبْقِيه ويُبْقِيك ، ونسأله أن لا يُشقِيْه ولا يشقيك ، ويسقيه من رحيق النّعيم المختوم كما يُسقيك ، واعذر في هذا المكتوب المحرَّر ، عن اختصار العبارة في وصف ما هو لديّ مُصَوَّر ، فإني كتبته والخطوب بي حافَّة ، وكف المسرات لبسطها عني كافَّة ،واللِّسان معقودة ، والألفاظ اللاَّئقة بخطابك مفقودة ، والقلم مُنْكسِرٌ رأسُه عُبُوسَا ، والأيام لا تعرف إلاَّ شِدَّةً وبُؤْسا ، فأنا الكليم من الكلم لا من الكلام كمُوْسَى :

ولو كان رمْحاً واحداً لاتقيته ولكنـه رمـح وثـانٍ وثـالِثُ

والملتمس من الله الإعانة ، على دهرٍ يتعمَّد الأفاضل الإهانَة ، وزمان لا والله ليس بزمانٍ وإنما هو زُمانة ، يعامل معاملة الأعداء ، وليس يوجد دواء ما يأتي به من الداء ، وبالله من شرّه نعوذ ، وبعروته الوثقى من كوارثِه نلوذ ، والسلام .

قولي : « فمن العجيب أنها لم تبن » إلى آخر الفقرة للتعجب هنا مساغ لأن قولنا لم تبن مع أنها غير مبهمة يوهم التَّناقض ، لأن ما لم يبن من البيان ضِدّ الإبهام كيف يكون غير مبهم ، وليس المراد في الفقرة بقَولنا « لم تَبن » من البيان وإنما هو

(١) سيشرح المؤلف هذه اللفظة فيما بعد .

من الطَّلاق البَائن كما يفهم من سياق الكلام ، وقولنا « غير مبهمة » ليس هو من الإبهام ضدّ البيان وإنما هو من قولهم للمرأة التي لا يحل نكاحها للرّجل هي مبهمة عليه أي محرَّمَة ، ومنه قول الإمام الشافعي رضي الله عنه في المرأة : لو تزوجها الرّجل ثم طلَّقها قبل الدّخول لم تحل له أمُّهَا لأنّها مبهمة عليه أي محرَّمة لا يحل نكاحها .

وكتبتُ إليه وهو عامل بجهات حراز مناخةٍ وقد عتب علي في انقطاع مكاتبته ما صورته :

ما أهدى أَخٌ لأخيه النازح ، أفضل من تحيَّةٍ يستَطْلع ماءها من بئره النازِح ، ولا أتحف شقيق شقيقا ، بمثل سلام لبس برده رَقيقا ، فالسَّلام العاطر مسكاً وعنبرا ، يُهْدِيه عني نسيم الصبح الذي انبرى ، يرد إلى سفح مَناخة[1] ، ويجعل بعيرُه بربعها مناخَه ، وذلك حيث خطت الرئاسة رجلها ، وأنزلت بالمرتع الخصيب فحلها ، وهو مقام شقيق كان مقامه حديقة الورد ، وحضره أخ كأنه عند النِّزال الأسد الورد ، يخلع عليه أبهى طراز ، ويلج من مَضْربه حرز حراز ، يتعاهده في الصبَّاح والمساء ، ويُطيب له منتشقاً وملمسا ، ما نفض نسر السماء جناحه من المسرَّة ، وتفتَّحت زهور الزُّهر في غصن من المجَرَّة ، ومَا نثرت لآلىء الشُّهب وقد كانت في نسق ، وخلط كافور الصُّبح المصفرَّ بين مسك الغسق ، والله يحفظ ذاته من كل طارق ، ويحرس مجده الذي سارصيته في المغارب والمشارق ، ويجعله على الاستمرار عاملاً يطعم البائِس ، ويَطْعن في نحر العدو الذي هو عن مناله بسوء آيس ، فإنه قد استفاض في الخافقين حديث برّه ، وحُسْن معاملته لربّه في علانيته وسرّه ، واقتصاده على أخذ العُمالة ، لا كما قال الباغض جعل الله العمى له ، بأنّه قد عسَف الرَّعيةً بجوره ، وتعدى من الظلم دائرة طوره ، فحاشاه ثم حاشاه عمَّا

(١) مناخة : مدينة في قمة جبل حراز غربي صنعاء بمسافة (١٢٠) كم ، وهي مركز قضاء مناخة . (معجم البلدان والقبائل ٦٣٠) .

إليه نُسب ، فما كسب أنفس من العدل مكتسب ، وها أنا يا أخي [1] أشرح لك شوقي ، وأسجع على غصْن القلم لأني طائر حملتُ من البعد فوق طوقي ، أقسم بالله لو مازجت أشواقي إليك بارد الشَّراب لعاد حميماً ، ولو تصعّدت أنفاسي في رَوضٍ لصار نباته هشيماً ، ولو دنا مني الخليل لانقلب من نار جوانحي كليماً ، ولو لاصق بدني صحيح الجسم لاستحال في الحال أليماً ، على أنك قد جهَّزت إلي من الملامات ، مالو سمعه الكل من الملامات ، فلا تظن بي إلا ظَنّ الشقيق في شقيقه الشفوق ، لا والله فإشفاقي عليك يفوق إشفاقه ويفوق فليس عدم مكاتبتي إليك من الأدلة على القَلى ، وإحجامي عنها مما يكشف أني لم أكن في طريق المحبَّة مُرْقلا [2] ، وإنما آثرت صيانة سمعك عن مثل هذا الخطاب ، وَأردت كفَّ بنانِك عن هذا الجَنَى الذي لا يقال فيه طاب ، فما كل لفظ من سحر البيان معدود ، ولا كل ما ارتفع لهِ ظلّ ممدود ، ولا كل ما هطلت عليه السحائب رياض ، ولا كل ما تحدَّر فيه الماء غياض ، ولا كل ما رسب في البحر دُرّ ، ولا كل إنسان كريم الأصل حُرّ ، ولا كل امرأةٍ حسنا ، ولا كل مقلة وسنا ، هذا ولا زلت ذا طرفٍ قرير ، مُتنعّماً من الرئاسة على أرفع سَرِيْر ، ما رفع اللَّيل نِقَابَه وأزالَه ، وأماطه عن ثغر الصَّباح وجه الغزالة ، فابتسم ذلك متفلجاً ، وبدا هذا عن حماله متبلجا ، والسلام .

---

(١) في (ز) هاهنا .

(٢) مسرع .

أخُو جَدِّنَا القَاضِي صَلاح بنُ أحْمَد الحيمي

هو في الفقه بستان ، سقى بالغيْث المدرار الهتان ، فتفتحت في جوانبه الأزهار ، وَتدلَّت بأطايبه الأثمار ، له فيه غاية الإحكام ، مما يفوت به صاحب الأحكام ، فلو أدركه الإخوان لكان لهما ثالثاً ، ولو ذاكره المذاكرون لكان لهم عابثاً ، ولو بارزه مؤلف « التذكرة »[1] ، لصنع به ما صنع الصَّولجان بالكُرة ، ولو ظفر بابن مظفّر[2] ، لأعاده مع بيانه ذا خدّ في ترب الجهل مُعفّر ، ولو عاين السَّيد يحيى[3] نصوصه ، لألقى الياقوتة من أنامله وأخذ فُصُوصه ، فهو في الفروع من الأصول العريقة ، وممن له فيها أوضح نهج وأبين طريقة ، رَفعه الله بالعلم وفَضَّلَه ، وفتح له الختام من غوامضه وفضَّ له ، وكنت أستفيد من نفثاتِه ، وأكتسب من نفائِس كلماتِه ، فإنه كان لا يبرح في مجالس دَرْسي ، ولا يزال لَدَي وأنا أسقي من نهر الطَّلب غرسي ، وأستجلي على منصة الدَّفاتر من الفوائِد غرسي ، يجاذب شَيْخي رداء العلم المُوشَّى ، وينازعَه برد الإفادة المُحشَّى ، ولي القضاء بعد أخيه جدِّنا الحسن ، فاستراح به الحق وطعمَ لذيذ الوسن ، وأحكامه

---

(١) مُؤلَّف في الفقه ، من تأليف العلامة الحسن بن محمد النحوي المتوفى سنة (٧٩١) . (انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٢١١) .

(٢) هو يحيى بن أحمد بن مظفر من العلماء ، من مؤلّفاته : « البيان » في الفقه الآتي ذكره توفي سنة (٨٧٥) . (مصادر الفكر ٢٢٥) .

(٣) هو يحيى بن الحسين بن علي من فقهاء عصره توفي سنة (٧٢٩) ومن مؤلفاته كتاب « الياقوتة » في الفقه الآتي . (انظر مصادر الفكر ٢٠٥) .

ماضية كالسيوف ، وفتَاويه في آذان الدَّهر كالأقراط والشنوف ، حتى صَدَمه حمامُه ، وأصابته من الموت سهامُه ، فأحبّ لقاء رَبِّه ، وتمتّع من روض رضوانه بعَصْفِه وحبِّه ، وقد رَثَيْته بقصيدة لاميّة ، لا زالت سحائب الرَّحمة على قَبْره هامية ، ولا برح في المخلد متنعماً ، أويّاً من جنَّات خالِقِه إلى أمنع حِمىً ، وشعره مما ينسى براحه ، ويبرد القلوب الملتطيةِ بقَرَاحه ، وله في جدِّنا ووالدنا مدائح ، غَرَّد بها فأضحى الهزار من الغيرة أي نائح ، أنشدني من نَظْمه قوله من قصيدة :

حَدِّثاني عن لعلع حدثاني ... وعن المنحنى وعن نعمان
ورُبَى رامةٍ ونَجْد وحَزْوَى ... والمصلَّى وعن ذرا عسْفانِ
وأعيد ذكر العتيق وما مَرّ ... لنا من حديث وادي البان
وسلا عن ديار ليلى ففيها ... طاب لي باللِّقا قديم زماني
فسقى روضها ومنْ حل فِيْه ... قطراتٍ من الحيا الهتَّان
وسقى الله حيَّها ورعاهم ... ورعى ما بها من الغِزلانِ
ليت شعري هل يرجع العيش صفواً ... في رباهم على الوصال الهاني
فأنا المغرم المتيّم والولهان ... والصَّب والعميد العاني
وأنا الشَّيّق المولّع بالحبّ ... وشأني في العيش[1] أعظم شانِ
يا ظبا حاجرٍ ومرعاه رفقاً ... بفؤادي وقلبي الوَلْهان
نزحت دار من أودّ فأورى النا ... ي في القلب لافح النّيرانِ
من له لفتة بجيد غزالٍ ... زَيَّنته قلائِد العقيانِ
ولحاظ بها سهام المنايا ... حاجباه لنيلها قَوسان
وقوام أزرى بكل رطيبٍ ... واحدُ مال ما له من ثاني
شعره الليل والجبين نهارٌ ... عمرك الله كيف يجتمعان ؟!

---

(١) في (ز) العشوا .

وكتب من النثر إلى مولانا الوالد رحمه الله تعالى أيام إقامته بمحروس ضوران[1] الدامغ ما لفظه :

أشرف سلام وتَحِيَّة ، وكرامات بليلةٍ نديَّة ، ملابسها بالمسك والعنبرذكية ، تبلغ إلى مقام مولاي علاَّمة الزَّمن ، وما لكي زينة اليمن ، إمام العلماء وقائد جموعهم ، ومحطّ الكرماء وعامر ربوعهم ، من لا يجاريه الرَّازي ولا السَّعد ، ولا يسابقه من قبل ومن بعد ، فجار الله في التَّفسير عنده أسير ، وطرف البغوي[2] يرجع عنه وهو حسير ، وابن كثير[3] بالنَّظر إليه قليل الدِّراية، وأئمة الحديث عنده لا خبرة لهم في صحة الرواية ، واحدُ الأصول الدِّينية ، وخِرِّيت المسائل النَّحويَّة ، واعظ الجمع في الجُمع ، ومبكي السَّامعين فما طرف لهم إلاَّ وقد دمع ، الجامع بين فصاحتي النثر والنظم ، والجابر للكسير من العظم ، كثير الرّماد إن أقرى وطويل النجاد إن أقرا ، ذلك الولد الذي هو في جلالة الوالد ، والعين الناظرة في الأفاضل الأماجد ، جمال الإسلام محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي أطال الله له الأوقات ، وجَنّبه من طوارق اللَّيل والنهار الآفات ، وحرسه من الأيام فيما هو آت ، هذا وإنما جاءته هذه السُّطور على استحياء، مُعَبِّرة عن مشوق يعد في الأموات وإن كان من الأحياء ، لمَّا طالت الغيْبة ،التي هي للقلوب مذيبة ، واسترسلت أيام الفراق ، والبعد الذي لم يتخلَّله اتفاق ، فأكرموا مثواها ، وأحسنوا مَأواها ، ولا استَغْنى منكم عن جواب ، يأتي إلينا فيسكر جَوَى الالتهاب ، ويُقر العين ويشفي الخاطر ، ويَهْدي في الصّباح نَشْره العاطر ، فالكتب عن التلاقي خليفة ، سيما إذا كانت عن عبارة لطيفة ، والله تعالى يرفع

(١) ضوران : مدينة هي مركز قضاء آنس ، والدامغ جبل مشهور من أعمال آنس ، تقع على سفحه الشمالي خرائب مدينة ضوران .

(٢) البغوي : هو عبد الله بن محمد أصله من بغشور بين هراة ومرو ، له « معالم التنزيل في التفسير» توفي سنة (٣١٧) . والأعلام (٤/ ١١٩) .

(٣) هو إسماعيل بن عمر العلامة المحدث والمفسر ، وفاته سنة (٧٧٤) .

إلينا منكم كل ما يَسُر ، ويجعل أيامكم في غير الابتهاج والأفراح لا تَمُر ، ويحفظ خليفة أنتم في مقامه ، ويطيل في شهوره وأعوامه ، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ما هزت النَّسيم الغصون وزهرت في اللَّيل مشكاته . آمين .

*

* * *

أخُوه القَاضي العَلامة الحُسين بن أحمد الحيمي الخَطيبُ[1]

خطيبٌ شحشح[2] ، بمثله الزمانُ قد شح ، وجبين الروَّض من الحيا لدى مواعظه يرشح ، كم خطب في محافل ، التفت بها الجحافل ، والرِّماح ترعف بالدِّما ، وقد أحجم من كان مقدّما ، وبوارق السيوف تلمع ، وسحاب القتام يهمع ، وأجفان الصَّوارم بالنَّجيع تَدْمع ، والنفوس في السلامة أبداً لا تَطمع ، وهو في العُلُومِ ذو تَبَحُّرٍ ، قد استعبد في رقِّه من الفوائد الكريم الحُرّ ، أخذ من كل علم بنصيبٍ وافر ، وأسلم بجامع طرسِه من ليل المداد كافِر ، سيّما الفقه فقد مَهَّد قواعده ، وأنجز فيه لمن طلب رشاده وقد قوى عده ، إن أفتى فقلمه ذابِل ، وإن سقَى الأزهار فلا تذكر عنده الوابِل ، وإن حكم في مجلس الخصام ، فما العروة تسجيله من انفصام ، وهو تلو أخيه الحسن في الشجاعة ، يعد من العار عن ورود المنايا ارتجاعه ، فكم كتيبةٍ منه هُزِمُت فَفَرَّت ، لأنه طالما ترك القِرن وأنامله قد اصفرَّت ، فهو شجاع محراب ، بعامِله يتقوَّم المَعنى المقتضى عن بناء الدّين للإعراب ، ومقامُه في الاشتهار ، أنور من وضَح النَّهار ، وهو أنضر من الحدائق أخلاقاً ، يُلاقي مُلاطِفُه منه ألطف ما لاقى وأوسع من الدَّهنا ربعاً ، وأرق من سقيط الطلّ طَبْعاً ، وقد ساعدته اللَّيالي ، وتزيَّنت له من نجومها باللآلي ، فما غُصّ منْهَا بِكَرْب لا ، ولا لاقى ما لاقاه الحُسين بِكْر بلا ، ومات

(١) ترجمته في (نفحات العنبر ونشر العرف ١/٥٣٨) وتوفي مقتولاً سنة (١١٤٠) .
(٢) يقال خطيب شحشح : بليغ .

بمدينة ذمار ، وتَزلْزل ركن العُلا بَعْدَه ومار ، وتَحطَّم من منبَرِه عُودُه ، ونحست بعده سعوده ، لأنه كان خطيب ملكٍ قد استوطنها ، واشتم من حدائقها وردهَا وسَوْسنها ، فطَالَما طلعت نجوم مواعظِه في ليلٍ من عِثْيَر خيله وتَجلَّت ، وطالما سجع مطوقه من بين أعلامه تحت أوراقٍ خُضرٍ قد تَدَلَّتْ ، وكنت وافيت من ذمار سَفْحها ، واستنشقت من ساحاتِها نفحَها ، فبينا أنا خِلال مَقَابِرها أدور ، وأعتبر كم تحت سحاب تُرْبِها من محجوب شموس وبدور ، إذ ظفرت بقبره المعمور ، وهو غير خَفِّي ولا مغمور ، وعليه لوحٌ من حجر ، نبع من خلاله ندى نداه وانفجر، قد رُقم فيه بالنَّقر اسمه،وَرُسِم من تارِيخ وفَاتِه ما لا يَعْفو بمرور الأيام رَسْمُه ، فقعدت بجنب ضَرِيحِه ، أسْتنشق عرف الجِنان من طيب رِيْحِه ، وأدَّيت من حق الزِّيارة ما يجب ، وناديتُ شخصه الكريم وإن لم يُجِب ، سَقَى الله طينه بماء من الرحمة معين ، وأفاض عليه منه أضعاف ما أجراه في موقف وعظِه من دموع السَّامعين ، ما قَبَّلت نسيم الصّبا ، وَجْنة الورد وثغر الأقاح في الرُّبا ، ومن شعره قصيدة كتبها إلى أخيه صلاح ، وقد أومض له برق وطنه ولاح ، منها قوله :

سلا هل الصبّ المشوق سلاها ... وهل هو من بعد الوداد قلاها
إلى الله أن ينسى المحبّ دنوها ... وإن طال في هذا الزمان نواها
سقى دارها ساري الغمام بقطره ... وروّى قبيل الصّبح منه ثراها
فتصبح رَوْضاً بالأطايب يانعاً ... وتحلو مذاقاً إذ يطيب جناها
ويعلن فيها بالمَسَّرات صادح ... صبا فوق عطف الغصن نحو صباها
وأطواقه من زهرها قد تنَظَّمت ... وراقت بأسماط الغصون حلاها

ومنها قوله :

أخي يا صلاح المكرمات لقد نأت ... بك الدَّار عن عيني فعزّ كراها
تعرقب دَهْرِي في مواعيده اللقا ... فلهفي لقد زادت وطال مداها

وكم لي إليكم من تأوه زفرة ... شفاها إذا كان الحديث شِفاها
طلاب العلا لا غيره قد قضى لنا ... ببين تمادى قدره وتناهـا
ومن رام نَيْل المجد فليدرع لما ... يقاسي ولا يلزم مقالة آهـا
عسى رجعة من شارد صفوه وما ... ألذ الأماني تنقضي بعساهـا
ولا زالت الأيام تجري بجهدها ... لسعدك إذ عم الأنام شقاها
ودم ما تغَنّت في الأراك حمامة ... وناحت لألف بالفراق شجاهـا

قوله : « تعرقب دهري » أي تشبه بعرقوب[1] وهو عرقوب بن معيد رجل من العماليق كان مشهوراً بالمواعيد الكاذبة والمطل فيها ، وعد رجلاً ثمر نخلة فجاءه حين اطلعت فقال : اصبر حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت جاءه ، فقال : اصبر حتى تصير بُسراً ، فلما أبسرت جاءه ، فقال : اصبر حتى تصير رطباً ، فلما أرطبت جاءه ، فقال : اصبر حتى تصير تمراً ، فلما أتمرت عمد إليها من اللَّيل فجذّها ولم يعطه منها شيئاً ، فصار مثلاً في المواعيد الكاذبة والمطل فيها .

قال الإمام القاسم بن علي الحريري رحمه الله تعالى في المقامة الرابعة عشرة من مقاماته المشهورة[2] : فقلت للشيخ : هل ضهت عدّتنا عدة عرقوب أو[3] بقيت حاجة في نفس يعقوب .

وقال الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى فيما كتبه إلى الأديب الوزير محمد الفشتالي[4] ما لفظه[5] : أطال الله عمرك ، طول مواعيدك ، وجعل آمالنا

---

(١) في (الأعلام : ٤/٢٢٥) أنه جاهلي قيل هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وقيل هو من الأوس أو الخزرج ، وقيل : من أهل خيبر أو المدينة ، وانظر (مجمع الأمثال : ٢/١٧٧) .
(٢) (مقامات الحريري ١٣٥) ط سنة (١٣٤٨) .
(٣) المقامات : « أو هل » .
(٤) ترجمته في (الريحانة : ١/٣٠٩) .
(٥) النَّص في (الريحانة : ١/٣٢٨) .

الكَمُّونية مورقة من سحائب جودك ، ولعمري لقد طال المطال فعُرقوب لا يبلغ عرقوبه ، وزاد العتب على الإلحاح ، والعتب بغير جُرم عقوبة . انتهى .

وقلت أنا في « توابع نوابغ الكلم » التي حذوتُ فيها حذو الإمام الزّمخشري رضي الله عنه في نوابغه المتعرقب في وعده لا أقبح من جوده .

وقال كعب بن زهير في لاميَّته المشهورة :

كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيـدها إلّا الأبـاطيل

وقال المتلمّس[1] :

الـغـدر والآفـات شيـمتـه ... فافهم فعرقـوب له مثـل[2]

وقال آخر[3] :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجة ... وأبين شؤماً في الجوانح من زحل

وقال جبيهاء[4] الأشجعي :

وعدت وكان الخلف منك سَجيّة ... مواعيد عرقوب أخـاه بيثرب[5]

ومما نظمته أنا في التورية وذلك في بعض عمّال بلاد كوكبان المحروس لما بقي في العرقوب[6] لمقتضى وهو محل معروف بالقرب من بندر المحويت[7] ، وطلب منه

(١) هو جرير بن العزى من بني ضبيعة ، شاعر جاهلي من أهل البحرين ، له ديوان شعر توفي نحو سنة (٥٠) ق هـ . (الأعلام : ١١٩/٢) .

(٢) انظره في (المستقصى : ١٠٨/١) .

(٣) في (المستقصى : ١٠٨/١ ومجمع الأمثال : ٣١١/٢) .

(٤) في (ش) حبيبها ، وهو جبيهاء (واسمه يزيد) بن خثيمة بن عبيد الأشجعي ، ذكره في المفضليات . (الأعلام : ١١٢/٢) .

(٥) انظره في (المستقصى : ١٠٧/١ ومجمع الأمثال :٣١١/٢ واللسان : ٥٩٥/١) .

(٦) عزلة من بلاد المحويت في قطعة ابن حبيش (معجم البلدان ٤٣٩) .

(٧) المحويت : مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (١٠٠)كم بها مركز محافظة المحويت =

عامة الناس ما يعتادونه من كيلات الطعام ، فمازال يماطل ويعد ولم ينجز حتى عاد إلى حصن كوكبان المحمي ، واستمر فيه على مواعيده فقلت :

يماطل في العرقوب بالكيلة التي ... غَدَا الوعد فيها عندنا غَيْر مرقوب
وجَـدَّد لي في كوكبـان وعودَه ... فقلت : ألا هذي مواعيد عرقوب

وما أظرف ما جاء للشيخ جمال الدين بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في تضمين المصراع الأول من بيت كعب حيث ناسب بين ذكر السَّاق والعرقوب لما قال في مليح ساقي[1] :

سَقَى وواعدني وَصْلاً ألَـذُّ بِهِ ... عند المنام ولا والله ما وَصَلاَ
فيا له الله من ساقٍ مواعِده ... كانت مواعيد عرقوبٍ لها مَثَلاَ

ومثله قولي فيه أيضاً مع زيادة ذكر الكعب :

أشكو إلى الله من ساقٍ غدا أبداً ... ميعـاده بازديـارٍ منـه مكـذوبَـا
ساقٍ غدا قول كعبٍ فيه أليق ما ... يقال لما حكى بالمطل عرقوبَـا

وقال الشيخ صلاح الدِّين الصفدي فيه أيضاً :

كلفي بسَاقٍ كل وعدٍ منه لي ... مـا زال يخلفه عـلى الإطـلاقِ
حتى قطعت مطامعي من وصله ... ونسيت عـرقوبـاً بهذا السـاقي

ولما استعار الشيخ جمال الدِّين بن نباتة من الشّيخ صلاح الدِّين الصَّفدي رحمهما الله تعالى كتاب « التشبيهات »[2] لابن ظافر ، وَحَدَّ له أمد العارية ثلاثة

= (معجم البلدان للمقحفي ٥٦٨) .

(١) (ديوانه ٥٦٠) وفيه :

سقى وواعـدني وصـلاً ألـذ بـه ... عنـد الرقـاد ولا والله ما فعـلا
فيـا له الله من سـاق مـواعـده ... كانت مواعيـد عرقـوب له مثـلا

(٢) هو علي بن ظافر الأزدي ، أديب له « بدائع البدائه » و « التشبيهات » المذكور . توفي سنة (٦١٣) . (الأدب في العصر الأيوبي ١٤٩) .

أيام ، فتأخر الكتاب عن الوعد المحدود كتب إليه الصَّفدي قوله :

قد قلت أن ثلاثاً عُمْر غيبته عنّي وذلك وعدٌ غير مكذوب
وليس وعدك شاة ساقها الزمن الجاني فعلقها منه بعرقوب

فأجابه بقوله ، هو ألطف من الابتداء :

جاءت ومن طرسها ساقٍ يُدير على سمعي من اللفظ فيه خير مشروب
فحبَّذا هو من ساق نعمت به وإن تعرض فيه ذكر عرقوب

ويلطف إلى غايةٍ ما جاء لخليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في بعض قصائده ، فإنه ظاهر الحسن مع ذكر الرَّأس والكعب والجنب والكف والعرقوب ، وهو قوله في مدح بعض الأكابر :

هو رأس النَّدى فدع عنك كعباً فهو في جنب كَفِّه عُرْقوبُ

وقال ابن أبي حَجَلة[1] رحمه الله تعالى في باب زويلة[2] وهو باب معروف :

برّت زويلة إذ أمْسَى يقول لنا باب لها قول صدقٍ غير مكذوبِ
إذا وعدت حَرَامِيّاً بسفك دم في الحال عُلِّق من وعدي بعرقوبِ

قلت : عندي أن هذا النَّظم في غاية المناقضة لأنه قال أن باب زويلة يقول قول صدق غير مكذوب ، ولذا إنه قال « بَرَّت زويلة » ثم قال على لسانِه في وعد الحرامي بسفك دمه أنه « عُلِّق من وعدي بعرقوبِ » وعرقوب كما ذكرنا إنما هو ماطل في وَعده غير صادق فيه ، فهذا غاية في المناقضة وإن كنا نعلم أن مراده بعرقوب هنا عرقوب الرِّجل وهو مؤخَّر عقبها الذي يُعَلق به المشنوق ، لكنه قصد التَّورية بهذا الرجل الماطل في مواعيده ، ولذا قال : « إذا وعدت حرامياً » وأما

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني ، أديب له « ديوان الصّبابة » و « سكردان السلطان » توفي سنة (٧٦٦) . (الأعلام : ١/٢٦٨) .

(٢) باب زويلة : باب عظيم في القاهرة بناه بدر الجمالي على أيام الخليفة المستنصر الفاطمي .

لو كان عرقوب يضرب به المثل في الوفاء بالوعد وعدم المطل فيه لكان هذا النَّظم سليماً عن الانتقاد ولَّما رأيت ما فيه من العيب الصادر عن غفلة ، نظمت مقطوعاً في استدراكه وفيه الاستخدام موصِياً بالمحاذرة من ملك عظيم البطش فقلت :

حاذر سُطَا من غَدَا في صدقهِ مَثَلاً   إذا تَـوَعَّـد بـالإيقـاع مخلوقَـا
لم يَحُك في الوعد عرقوباً لذاك غدَا   به المناوي له في الجذع مشنوقا

ومما قلته أنا أيضاً في القول بالموجب[1] :

قالوا وقد مطل المضنى زيارته   وظل يركضه في ساعه الغضَب
لقد بليت بعرقوبٍ فقلت : نعم   من رجله عند ركضٍ منه بالعقبِ

وكتب صاحب الترجمة رحمه الله تعالى من نَظمه إلى بعض إخوته وقد أهدى له دواة قوله :

أشقيق روحي لا برحت بنعمةٍ   وعميم بـرٍّ لا يـزال جزيْـلا
مَـدّ الإله مـدى الزَّمـان بمـرّه   ظِلاًّ من النعماء عليـك ظليلا
هـاك الهديـة من أخٍ لبعـادهِ   قد عاد من فرط النّحول ضَئِيلا
ما طاب لِي بعد الفراق وذا النوى   عيش ولم أرض النَّزيل نـزيلا
رمت الـزيارة والـزَّمان بجـوره   منع السبيل فما وجدت سبيـلا
خذها دواة كتابةٍ قد أحكمت   بمـدادهـا لعيونها تـكحـيـلا
خـذها لتَحْـريـر العلوم إبـانـةً   عنهـا وإلا للنَّـدى تنـويْـلا
هزَّت لطعن عداك من أقلامها   رُمْحـاً رديني القـوام طـويْـلا
مدّت لأن الكف منك مرادُها   فمهـا إليـك كـطالبٍ تقبيـلا

---

(١) القول بالموجب : قال ابن حجة : لهم فيه عبارات مختلفة ، منهم من قال هو أن يخصص الصفة بعد أن كان ظاهرها العموم ، أو يقول بالصفة الموجبة للحكم ولكن يثبتها بغيرما أثبتها المتكلم . (انظر : خزانة الأدب ١١٦) .

جاءت عن المملوك نائبة وقدْ أضحى بلُقْيَانا الزَّمان بخيْلا
لا زالت الأقلام عند صريرها تبدي لنا في راحتيك صليلا
هذا ودم ما ماس غصن رددت من فوق عطفيه الحمام هديلا

قوله : في الكلام إليك المصراع هو مضمن ، وأصله قول المتنبي في الناقة المزمومة [1] :

ويعيرني جذب الزمان لقلبها فمها إليك كطالب تقبيلا

وقد استعمله صاحب الترجمة رضي الله عنه هنا في محله ووضعَه في موضعه لا ينازع في حسن تضمينه منازع له ؛ لأن محلّ المداد من الدَّواة يشبه الفم فجعله فماً ممدوداً لتَقْبيل الكفّ من المهدي إليه بديع ، مع أن قوله في أوّل البيت « مدَّت » يحتمل التَّورية المتمكّنة لأنّه يصح أن يكون كما هو مراده من مَدّ الفَم والعنق ونَحْوهما ، وهو معروف ، ويصحّ أيضاً أن يكون من المداد وهو ما يُكتب به . يقال مدَدت الدَّواة إذا جعلت فيها المداد ، والمحل قابل لهذا المقصد وما أظنه قَصَده ولا أراده ، وقد ضَمَّن مصراع المتنبّي هذا أيضاً الأمير مجير الدِّين بن تميم [2] رحمه الله تعالى فأبدع فيه قال الشهاب الخُفاجي رحمه الله في الرَّيحانة [3] : إنه استَعاره عباءة فردَّها ديباجة وذلك حيث قال في ورده أهديت إلى بعض الملوك قبل أوان الورد :

سبقت إليك من الحدائق وردة وأتتك قبل أوانها تَطْفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فَجَمَّعت فمها إليك كطالبٍ تَقبيلا

---

(١) (ديوانه ١٣٣) .

(٢) هو مجير الدين بن يعقوب ، شاعر من أمراء الجند ، دمشقي استوطن حماة ، وفاته سنة (٦٨٤) . (الأعلام ١٤٥/٧) .

(٣) (ريحانة الألباء ٤٦٣/٢) .

قال الشهاب الخفاجي : ولو قال طمعت بلثم يديك حتى جمعت كما لا يخفى على من له إلْمامٌ بالأدب كان أحسن انتهى كلامه .

قال مولانا الوالد العلامة القاضي جمال الإسلام محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه : أجاد في الانتقاد .

قلت : نعم أجاد وأحسن لأن مثل ما قاله ابن تميم لا يليق أن يُخَاطب به الملوك وإنما يليق بهم ما قاله الشهاب الخفاجي ولا بأس بعبارة ابن تميم : لو كان الذي أهديت إليه هذه الوردة غلاماً جميلاً .

وبمثل هذا اعترض أبو الحسن القاضي الجرجاني[1] في كتاب « الوساطة » أبا الطَّيب المتنبي حيث قال[2] :

أغار من الزجاجة وهي تَجْري   على شفةِ الأمير أبي الحسين

وقال : إنه أساء الأدب لأن هذه الغيرة إنما تكون بين المحبّ ومحبوبه ، وأما الأمر فلا يغار على شفاهها انتهى كلامه .

قلت : وابن تميم قطفَ هذه الوردة الغضَّة من روضة بعض الظرفاء لَمّا قال :

كم رَوْضةٍ تحكي لسبق الوردِ   طليعَةً تشرعت من جُنْدِ
قد ضَمّها في الغُصْن قرْضُ البَرْدِ   ضَمّ فَمٍ لقُبْلة مِنْ بُعْدِ

وقد أحسن وأبدع هذا الأديب لما قال من بُعْد ، فإن ضمّ الفم من بعد للتَّقْبيل أشبه بالوردة التي لم تَنفتح غاية الانفتاح كما يعرفه من اشتم من حدائق الأدب وَرْده ، وكرع من الانتقاد وِرْده ، وذاق حلوه ومُرَّه ، وراجع فكره في التّأمل مرةً بعد مَرّه، وميّز الغثّ من السَّمين ، وفَرَّق ما بين الجزع الرخيْص وبين العقد الثمين .

(١) هو علي بن عبد العزيز الأديب المتفقه ، وفاته سنة (٣٩٢) .
(٢) (ديوانه : ٧٨) بشرح اليازجي .

وَلَدُهُ القَاضي يَحْيى بن الحُسين بن أحمد الحَيْمي

طريف بماء قلمه روض القريض يَحْيَا ، وَسَرِي مَدَّ على ساحات الفضل من شِيمهِ باردِ الأفيا ، رئيس يُزاحم الشَّمس ، وفريدٌ في أيادي الأنامل الخمس ، فهو أجود من كعب[1] ، وهو في الفصاحة أشعر من كعب[2] ، كريم لا يحتكر ، ومتواضع لا يحتقر[3] ،فله حسن أخلاق، يغني بكنزه ذوي الإملاق ، وله شمائل لطيفة الأسباب ، ألذّ عند المحب من نسيم ديار الأحباب ، أرق من دمعِ ديمَة ، وأروح من نسيم البُكر أهدى شميمه ، شِبْل آسَاد ، مخالبها السيوف وغابها ظهور الجياد ، لا يَرْهبون بَوَائق الدَّهر ، ولا يقودونَ صَعب الزَّمن إلاَّ بزمام القَهْر ، كم أودعوا ذا نِفَاق في نَفَق ، وغَيَّبُوا بُدُور مُشاقق من نجيعه في شفق :

قوم إذا لبسوا الدّروع حسبتها　　　سُحَباً مُـزَرَّرَةً عـلى أقمـارِ

وهذا الفرع الباسق ، والبدر الذي طلع في ليل شبابه الغاسِق ، قد أظهر الله في دَرَجات الفخار سُموّه ، وأعطاه بِقُوَّته كتاب المحامد وقال : يا يحيى خُذ الكتاب بقُوَّة ، ابتسمت في سماءِ العُلا ثُغور بوارقه ، واحمَّرت في حدائِقها خُدُود شقائقه ، له بُرد طبع رقيق اللُّحْمة والسُدَا ، وله آثارٌ جميلة ما ذَهب عمره معها سُدى ،

---

(١) هو كعب بن مامة بن عمرو الإيادي ، يضرب به المثل في حسن الجوار ، فيقال أجود من كعب بن مامة . قال أبو عبيدة : أجواد العرب ثلاثة كعب بن مامة وحاتم طي وهرم بن سنان . انظر (الأمثال للميداني ١/ ١٠٩ و١٢٣ والمستقصى ١/ ٥٤) .

(٢) هو كعب بن مالك الشاعر المشهور وفاته سنة (٥٠) .

(٣) في (ز) يحتكر .

عَرفْته وأنا صَغير ، وخصاله الحميدة تغيظ الضّد وتُغير ، ثم لما ارتحل بأهله وضاق عليه من كوكبان رَحِيب حزنه وسهله ، ونزل من رياض صنعاء بظلّ ظليل وأصبح نسيم سفحها يخطر من نداه عن ذيلٍ بليل ، لم أره[1] من بعدها ، ولم تَنْجز لي الأيام من الاتفاق به كاذب وعدها ، ولَمَّا دَنَت منه المَنيَّة ، وآن أن تخبا بيد الحِمام زهرته الجَنِيَّة ، تَوَجَّه صُحْبَة الأعيان إلى عِيَان[2] ، في جيشٍ يُطربهم صهيل الجُرد لا غِنَاء القِيَان ، لِتأْدِية فَرض جهاد قد وَجَب ، وتسكين قلب من الإسلام قد وجب ، خَيَّم بِهِ من جُمْلة من خَيَّم ، وَشَيَّم[3] في زمرة القوم مع من شَيَّم ، فركب في بعض المواكب ، على جوادٍ له يزاحم الجبال بالمناكب ، فتشمَّس به تشمُّس الظّبا ، وكاد أن يسبق في الجوِّ نسيم الصَّبا ، فَرَضَّهُ رضَّةً أسالت دَمَه ، وأحدث به جنايَةً كانت لنتيجة تلافِه مُقَدَّمَة ، وما هو إلاَّ جواد مُكَرَّم ، جنَى عليه جواد مطهَّم ، فكان ذلك لهلاكه سَبَبًا ، لما سَعَى إليه الموت بقوائم حِصانِه خَبَبًا ، فمات واختُرِم ، وعُظِّم ضَرِيحه واحْتُرِم ، وهلك شاباً على أنه ما هلك في التَّحقيق من الكرماء إلا هرم[4] ، سَقَى الله جدثَه مِن القطر بها مِلِه ، أضعاف ما سَقَى العفاة في حياته من وبل أنامله ، وأشعاره الموزونة المستقيمة ، تفعل بالقدود ما تفعله الأوتار الرَّخيمة ، كم كسدت عندها اللآلي ، ورخصت عند مسك مدادها الغَوَالي ، وقد جمع ديوانه بنفسه ، وأسبل على الغواني من بنات فِكْرِه خمراً من نِقْسِه[5] ، فمن بُروده السَّابرية[6] ، وأسحاره السَّامرية ، قوله :

---

(١) في (ز) ثم أراه .

(٢) عيان : قرية في سفيان بالقرب من خيوان . (معجم البلدان ٤٧٥) .

(٣) شيّم فيه : دخل .

(٤) يعني هرم بن سنان أحد كرماء العرب (سبق) .

(٥) النقس : المداد .

(٦) برد سابري : ثوب رقيق نسبة إلى سابور وهي كورة في بلاد فارس على غير قياس .

خف الإله فوجدي فيك غير خَفى وها فؤادي منه في شفا جرُف
أقمت منك على حرفٍ مخافة أن ينهار حبُّك بي في أبحر التَّلف
قل لي فديتك مافي القول من عتبٍ وانطق بصدق لساني غير مختلفِ
ماذا يكون بقلبٍ قد وقفت به فلم يزَل خافقاً كالقرط لم يَقِفِ
وما يكون بطرفٍ بات ذا سهرٍ يرعى النَّجوم وصبٍّ هائمٍ دَنِفِ
وقد علمت الذي ألقاه من ألمٍ وما أعانيه من شوقٍ ومن شغفِ
كم ذا جفيت ولا ترثي وها أنا قد رثى لما بي حسودي مذْ رأى كَلفي
أتى العـذول بـأقــوالٍ يكلفّني عنك العُذُول فلما أن رآك كُفِي
يا أعدل النَّاس قدّاً صار منعطفا يا أجود النَّاس قلباً غير منعطفِ
يا من له مقلةٌ سوداء ناعسةٌ مريضة وُصفت بالسّحر والوطفِ
يا من يعير بدور التم حُسْن سناً يا من يُغير غصون البان بالهيفِ
رمت الورود لثغر لم يرده سوى عود الأراك فيا لهفي ويا أسفي
حتى منعتُ بلا من خَطّ عارضك اللاَّ مي وخَطي قَدٍّ منـك كالألف
ما كان عذرك في منعي بلا سَببٍ وقد خلعت غداري غير منصرفِ
إني وإن كنت من قومٍ أولي شرف راض بذلي بديلاً منك عن شرفي
أنا الوفي فكن إن شئت غير وفٍ في حفظ عهدي وكن إن شئت فيه وفي

مطلع هذه القصيدة كقول التلعفري رحمه الله تعالى(١) :

توَلّهي بك شيء منك غير خَفي فراقب الله في الهجران لي وخُفِ

وكقول ابن صاحب تكْريت رحمه الله تعالى :

ما أمر عاشقك المضنى عليك خَفي فراقب الله في هجرانه وخفِ

---

(١) انظرها في (فوات الوفيات ٤/٦٥) .

وقوله : حتى منعت بلا البيت هو كقول سراج الدين عُمر الوراق[1] رحمه الله تعالى :

قلت : ما تعرف ما أوجب ذا ... قال لا أسال عمّا أعرفُ
إن في وجهي للرَّاجي نعم ... وعلى ذلك دلَّت أحرف
حاجبٌ نون وعين وفم ... هو ميم ضاق عَمّا أصفُ
قال : قد صرح من حسني بلاَ ... عارض لامُ وقد ألفُ

وقول التَّلْعفري :

إذا شكوت لترثي لي وترحم مَا ... تراه من جسدي المضنى ومن كلفي
يودّني آيساً من ذاك عارضك الـ ... لامي والمنثني من قدك الألف

وقول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى[2] :

مَتَى يُحَقِّقُ وَعْداً مَنْ تُوَاصِلُه ... والمنع ينظر من طرفٍ إليه خَفي
في الخد لام وفي قَدٍّ له ألفُ ... وآلة المنع بين اللاَّم والألف[3]

ويلحق بهذه المعاني قول ابن قَلاقس[4] الإسكندري رحمه الله تعالى :

قَرَنْت بواو الصدغ صاد المُقبَّل ... وأبديْت لاماً عن عذارٍ مسلسل
فإن لم يكن وصلٌ لديك لعاشقٍ ... فماذا الذي أبديت للمتأمل

---

(١) هو عمر بن محمد بن حسن ، شاعر مصري مكثر وفاته سنة (٦٩٥) . (فوات الوفيات : ١٠٧/٢) .

(٢) (ديوانه ٣٣٠) .

(٣) في الديوان : « وآله المنع بين اللام والألف » .

(٤) هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس اللخمي ، شاعر مترسل . توفي سنة (٥٦٧) غرقاً . (الأعلام : ٣٤٤/٨) .

وقول الآخر :

لا تقولي لا فمكتوبٌ على ... وجهك المشرق نور نعم
بحروفٍ خُلقَت من قُدْرةٍ ... ما جَرى قطّ عليهَا قلمُ
نُونُها الحاجبُ والعين بها ... طرفك الفَتَّان والميم الفم

وقول الفاضِل الصَّفدي رحمه الله تعالى :

علقتها من بنات الترك قَد غَنيت ... بدمع عاشقها عن منَّة الشُّنُفِ
يا لِلْهَوى عَينها عينٌ وحاجبها ... نُوْنٌ وتَم العنا من قدها الألفي

وقال صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى :

قد خبرنا زمانَنا وبَنيه ... لم نَجد صاحِباً لِيُسْدى جمِيْلا
فلك الله عِشْ خلِيّاً عن الناس ... ولا تتخَذ فُلاَناً خَلِيْلا
واتخذ منزِلاً بعيداً فريداً ... وتَعزَّل عنهم قَلِيْلاً قَلِيْلا

وله في مليح ٍ حُبِسَ :

لي حَشَأٌ ذَابت من البين[1] لَمَّا ... خَلَّدُوا من أحب في الحبس ِ ظُلْمَا
ما كفاهم تخليدُه في حشاي ... وحشاي أشد همّاً وغَمّا

وله :

قل لمن لم يكن لديه محل ... لنظام ٍ أتَى كدُرٍّ ثمين
بنت فِكري وافت فكانت كبكْرٍ ... ذات حُسْنٍ زُفَّتْ إلى عِنِّيْنٍ

وله رُبَاعية :

أفدي رشأً بجفنهِ قد صالا ... الصبّ لحتفِهِ بِه قد صَالا
في غرتة بنون حُسْنٍ لا لا ... لا يمكنه الكلام إلاَّ لا لا

---

(١) (ب) و (ش) الحين .

وَلَدُ أخيه صنونا القاضي يحيى بن الحسن ابن الحسين الحيمي[1]

كريمٌ مِن كرام ، قضي له من المجد مرام ، قصَّر كل حازمٍ عن حزمه ، وحلَّق نسر السماء في البروج بهمته وعَزْمه ، ذو رئاسة وشهامة ونَفَاسة طارت أنفاسُها بين نجد وتهامة ، ومروة قد اتسعت ، وقدمٍ إلى المعالي قد سَعت ، وهو أحد لداتي ، ومن تنجز به في المقاصد عداتي ، نازَعني الثُّديَّ في الرضاع ، وجاذبني أخلاف أمَّهَاتٍ لا توسم بالاتّضاع ، ثم طاردني في ميدان التّلعاب ، وحمل فيه ما حملته من الأتعاب ، ثم قرأ معي ، عن فطَانَة ألمعِي ، قرأْتُ أنا وإيّاه على خالهِ الذي هو والِدي ، فشاركني بتَشْميره في طريفي وتالِدِيْ ، ومرَّت لنا أوقات بالدَّرس والإعادَة ، وَجَرى معي على أحسن سَجِيَّة وعادة ، وزار كما زُرت عليل الطَّلب وعادَه ، وكنتُ أستنيبُه في الخِطَابَة ، فيعلو من غصون المنبر رِطابه ، ويسجع فوقها سجع مُطَوَّق ، ويصيب الغرض بسهم من مواعظه مفوّق ، وكان يتولَّى بعض الأقطار ، ويقضي من الإنالة الأوطار ، وَنَزل إلى العُدَين[2] من اليمن ، وإذا بارز المَنِيَّة له فيه قد كَمَن ، فطلع وقد لزمه الألم لزوم ظلّه ، واستأصل على معظم أمرِهِ وجُلِّه ، فِمَات بمواهب الكريم من ذَمَار ، وخاض من مقتحم المنية في الغُمار ، أنزَلَه الموتُ الجَدَث ، وحدث عليه حادثُ الحِمام وهو حَدَث ، قَبْلَ أن تَبْيَضّ لَهُ لَمَّة ، أو تضعف من الكبَرُ له هِمَّة ، وقَبْرُه بها معروفُ مُنَاف ، وطيب طينتِه مما يُفْعم الآناف ، وقد زرته مِراراً ، وأعملت في مهجتي من

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٢/٨٤٤) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) العُدَين : مدينة بالقرب من إب بمسافة (٣٠) كم بها مركز ناحية العدين .

الاعتِبَار غِرَاراً ، ما رأيتُ قَبْرَه ، إلاّ أصابتني حوله مِنَ العِبَر عَبْرَة ، أكرم الله ضَيْفَه ، وأغْمَد في خِلَلِ النَّبَاتِ مِنَ الجنَّة سَيْفَه ، ومن نظمه الأسنا ، ما كتبه إليَّ وقد رَحَلَ عَنَّا :

سلامٌ عليكم إن تَنَاءت بنا دارُ ... وفي القلب إذ شَطّ النوى بِكُمُ نارُ
أحبّتنا لا تحسبوا أن ذكركم ... يغيب وإن غابت بشخصي أسفار
رحلنا وفي طيّ الجوانح جمرةٌ ... وفي الخدّ غيثٌ صادق الهمع مدرارُ
شهاب الهدى الله يعلم أنَّني ... أذوب اشتياقاً إن عراني تذكارُ
أحنّ إليكم في الصّباح وفي المَسَا ... إذا جاء ليل أو تبلج إبكارُ
فأنت لنا مجدٌ عظم ومفخِرٌ ... إذا ما سما من نسل آدم فخَّارُ
إذا قمت من فوق المنابِر خاطباً ... فقد خُطبَت يوم البلاغة أبكارُ
وكم مجلس سام أدرت لنا بِهِ ... شراب عباراتٍ لنا منه إسكارُ
أفدت وما في قومِنَا من يفيدنَا ... إذا عَزَّ للإشكال في الحال إظهار
ودمت مدى الأيام ما دام شوقنا ... إليك وسارت عنك بالفضل أخبار

فكتبت أنا من النظم والنَّثر إليه مجيباً عليه قولي :

أروضٌ أريض فيه تضحك أزهارُ ... لدمع غمامٍ قد جرى وهو مدرارُ
ومال انتقاصاً ثامل الغصن بالنَّدى ... وقد حركت عطفيه باللَّحن أطيارُ
وفي الصبح عن أيدي الضياء قد تفتحت ... من الورد فيه إن تجرّد أزرارُ
أم الشعر من نظم العماد تبلجت ... لعيني منه بالملاحة أقمارُ
أخي وشقيقي في حدائق لَذّتي ... وأدهم شعري بالصّبابة كَرَّارُ
عماد الهدى من بعد بُعدك لم تطب ... لصنِوك في ليل التأنس أسمارُ
فليس يُسلِّي القلب عود مُحَرِّكٍ ... ولم تقض لي من قرب دارِك أوطارُ

عليك سلام دائمٌ مـا تكللَّت تكَلُّل تاج الملك بالقطر أقطارُ

تحية تترى ، وسلام يرد شَفْعاً ووَتْرا ، ليس لخمرٍ وراح ، نشوة شرابٍ غدا به وراح ، ولا للمسك المتضوع ، نَشْر زَهره المتنّوع ، يُباكِر مقام أخ طاب أباً وحدًّا ، وفاتت خصاله الشريفة ألسن الماد حين عدا، شقيق تربّى في أمنع حديقة ، وسقته ماءهاعين مجدٍ غديقة ، فلبس بُرد النجابة ، وداس ربع الفخر وجابه ، أبقى الله ما حمد من خِلالِه ، ومَدَّ عليه من التَّنويل بارد ظلاله ، وزاده سعادة إلى سعادته ، وجرى به من اللّطف على أحسن عادته ، هذا ومعاهدته وصلت فهيَّجت دفينَا ، وعاثت بالوجْد المبرّح والأشواق فينا ، طَيُّها الأبيات التي هي بالحسن منفردة ، المتناسقة تناسق الجواهر في أسلاكها المطردة ، طِشتُ بها وحقَّ لي أن أَطيش ، لأنه كلَّفني بهَا الجواب وما في كنانتي أهْزَعُ [1] ولا مرِيش ، فإن البعاد أضاع لي حِسّاً ، وأذهل لُبِّي فما ترشَّف شراب أدبٍ ولا تحسَّى ، فإني صرت بعد الفِراق ، ذا دمع منحدر مُرَاق ، أبكي مع الغُراب في الطَّلل ، بدموع لأذيالها بي بَلَل ، بعد أن اعتزلت الجُلَساء ، وهجرتهم نهاراً وغلسا ، ومن العجيب أن أقول بعد الاعتزال بقول غراب ، وأقف معه في أطلال منازل هي لبعدك خَرَاب ، وصدر الجواب على تكلف ، وعدم استيناس لفظةٍ منه بلفظةٍ ولا تألف ، والله يصونك عن الطَّوارق الملمة ، ويحفظك عُدَّة لنا في الحوادث المهمَّة ، ما اطلع أبيض النَّرجس غرره ، وصفف أسود الريحان طرره ، والسَّلام .

قولي في النَّظم « فليس يسلي القلب » البيت فيه التَّورية في قولنا أوطاره ، لأنه يصح أن يكون معطوفاً على قولنا « عود محرك » ومعناه أنه ما سلَّا القلب عود ولا طار ، ويصح أن يكون نائباً مناب الفاعِل لقَوْلنا ولم يَقْض لي ، وقَضي الأوطار معروف وبذلك عرفت التَّورية .

---

(١) الأهزع : هو آخر سهم في الكنانة رديئاً كان أو جيداً ، وهو أفضل سهامها لأنه يدّخر لشديدة أو أردأها .

ومثله في التَّورية أيضاً قول الشيخ العلامة شهاب الدّين أحمد بن علي بن حجر العَسْقلاني[1] رضي الله عنه في جارية تضرب بالكمنجا[2] :

ما بالها هجرت وكم قد مرَّ لي منها الرّضى في سالف الأعصارِ
وقضيت منها إذ شدت بكَمنْجةٍ ما بين سَالف نَعْمةٍ أوطاري

وقال المولى العلاّمة محمد بن إسحاق[3] بن أمير المؤمنين فسح الله تعالى أوقاته في إيهام التأكيد[4] :

حدَّث سمير النجم عن بدرِ الحِمى فاليوم قد عَقَر الوشاة عُقَاره
فلعلها تُقْضى لسَمْع قَصْدُه زَمْرُ الحمى أوْطارُه أوْطاره

قولي في النثر : « ومن العجيب أن أقول بعد الاعتزال بقول غُرَاب » المراد بالاعتزال اعتزال الجُلساء وعدم الأنس بهم بعد فراق المخاطب ، مع الإيهام بمذهب الاعتزال وهو معروف . والمراد بغراب : الطائر المعروف مع الإيهام بغراب وهو الرّجل ولذا جعلت المحلّ محلّ تعجُّب بقولي : « ومن العجيب » وهو رجل يُسَمى غُراباً وإليه تُنسب الغُرابيَّة[5] وهي فرقه من الأُمَّة ؛ لأنه كان رئيسهم يَزْعمون أنَّ جبريل عليه السلام غلط في النزول على النّبي ﷺ وأنه إنما بُعِث إلى علي عليه السلام فغلط ؛ لأن عليّاً كان أشبه بالنَّبي عليه الصلاة والسَّلام من

---

(١) هو شيخ المحدثين وخاتمة الحفاظ وفاته سنة (٨٥٢) .
(٢) الكمنجا أو الكمنجة : من آلات الطرب ذات أوتار ، وتعرف بالربابة وهي من اللفظة الفارسية .
(٣) من الأدباء الشعراء سيأتي .
(٤) الإيهام عند أهل البديع : هو عبارة عن أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر . ولا يأتي في كلامه ما يحصل به التمييز فيهما بعده بل يقصد إيهام الأمر فيهما . (شرح الكافية ٨٩) .
(٥) ذكرها البريهي في (البرهان ٧٣) .

الغراب بالغراب . ومثل هذه الفقرة قولي في النظم :

قد تعزّلت من رفاقي وأصبحت قرين الغُراب في الانتحاب
فاعجبوا في الهوى لمعتزليٍّ قال بعد النوى بقول غُراب

وأنشدني صاحب الترجمة رحمه الله تعالى لنفسه وقد تولَّى قطر مسور المنتاب[1] قوله :

إنما مسور قُطْرٌ ليس لي فيه إرادة
صرت فيه ذا جنونٍ فهو مس وزيادة

وقد وردت لهذا النَّظم نظائر كثيرة ، وأشباه أثيرة ، قلت أنا في رجل يلقب بالرَّداعي العِرفان في الطبّ وربما أخطأ :

دع عنك طبّ الرّداعي فالموت فيه عِيَادة
كيف الشفا من طبيبٍ فيه الرّدى وزيادة

وقلت أيضاً في عَبْدٍ مملوك يُسَمّى رُنقوه ، والرَّنْق بسكون النُّون كما لا يخفى هو المنكدر من الماء الذي لا يَصفو :

إنما رنقوه للتَّكدير قد ألقى قياده
كيف يصفو لخليلٍ وهو رَنْقٌ وزيادة

وقلت في رجل يلقَّب بالقطابِر[2] وكان ذا بَرْدةٍ في طبعه فإذا سَار تأنَّى غاية الأناة، وبالقطا المشهور يُضرب المثل في بُطء السَّير[3] :

---

(١) مسور المنتاب : ناحية كبيرة من توابع محافظة صنعاء كانت تابعة لحجة .

(٢) كذا في الأصل بدون ياء النسبة ، ولعله القطابري ، نسبة إلى قطابر ناحية من قضاء جماعة في بلاد صعدة .

(٣) لم يذكر القطا في الأمثال ببطء السير وإنما يقال : أصدف من قطاة ، وأهدى من قطاة ، وأنسب من قطاة ، والقطاة طائر معروف .

أمَّا القطابِر سَيْراً فقد أبان اتّئادَه
في الأرض يمشي الهوَينَا فهو القطَا وزيادَة

وقال المولى الأمير الحسين بن عَبْد القادر رحمه الله تعالى في المخاضَة من أرض كوكبان المحروس لَمَّا كثر في بعض السِّنين بها البزّ وكسد لكثرته :

إلى المخاضة بادر للبَزّ واغنم كسَادَه
إن شئت تأخذ منها فهي المخا[1] وزِيادِه

وقال آخر رحمه الله تعالى :

جوخك الخمريّ هذَا كُرِهَت فيه العِبَادة
كيف لا تُكْره فِيْه وهو خَمرٌ وزيادَة

وقال جمال الدين يحيى بن مطروح[2] في مليحٍ اسمه بَدْرُون :

لك يا بدرون وجهٌ حاز عنوان السَّعادة
لا تَخَف نقصاً وَمحْقاً أنت بدْرٌ وزيادة

وأنشدني صاحب التَّرجمة لنفْسه قوله :

تعَمّد تَركي من شغفت بِحُبِّهِ على أنني والله مالي مُشَارِكُ
فلا يغترر يَوْماً به قط عاشقٌ فما هو إلاَّ صانِعٌ ثم تَارِكُ

وَقد قَصَد في قوله « ثم تارك » التَّورية لأنه أراد أن هذا المحبوب تارك له لم يواصله يرشح لهذا المقَصْد قوله « تعمَّد تركي » ، وأراد أيضاً الكناية عن شتم

---

(١) المخا : ميناء على ساحل البحر الأحمر غربي مدينة تعز بمسافة (٩٤) كم ، كانت ترد إليه البضائع .

(٢) هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، شاعر كان ناظر الخزانة بمصر أيام الصالح أيوب توفي سنة (٦٤٩) . (شذرات الذهب : ٢٤٧/٥ والنجوم الزاهرة : ٢٧/٧) .

هذا المحبوب لما ترك وصله لأنه يقال في الشَّتم فلان فاعل تارِك ، والمراد بأنه فاعل للقبائح تارك لما يجب فعله وبذلك عُرِف الوَجْه الثَّاني الذي قصده صاحب التَّرجمة وتمت له به التَّورية ، وإن كان لم يرشح لهذا الوجه الثَّاني بشيء كما تَرَى . وأحسن منه ما جاء لي في مليح صانع بالعين المهملة ، والصَّانع الحائك في عرف هذا الزَّمان وتعارف أهل هذا الأوان وهو قولي :

أهيم بصانعٍ ترك التَّلاقي ولم يمنعه عند الحوك مانِع
وقال : أطل إذا ما شئت شَتْمي فإني تاركٌ فيكم وصانِع

وقال صفي الدّين الحليّ في مليح فاعِل :

وفاعلٌ أبدع في فعله وحسنِه مع فعله رائِعُ
أحسن في صنعته متقنا فقلت هذا فاعلٌ صانِعُ

وقال الفقيه الحسن بن علي الهبل[1] الآتي ذكره :

لفعل الخير تشتمني وتركي بثَّ أسرارِك
فقل ما شئت في شتمي فإني الفاعِل التَّارك[2]

وقال نور الدّين علي العُسيلي[3] رحمه الله تعالى[4] :

وفاعلٌ يتركني عامداً وهو لرقيّ في الهوى مالكُ
أقول للناس ألا فاعجبوا من صنع هذا الفاعل التَّاركُ

---

(١) من كبار الأدباء في اليمن سيأتي .

(٢) (ديوانه ٤٩١) بتحقيق الأستاذ العلامة أحمد بن محمد الشامي .

(٣) من شعراء (ريحانة الألباء : ١٩٧/٢) انظر ترجمته في (شذرات الذهب : ٤٣٤/٨) ووفاته سنة (٩٩٤) .

(٤) (الريحانة : ٢٠١/٢) .

قالْ العلامة الأديب القاضي شهاب الدِّين الخفاجي رحمه الله تعالى في « ريحانته » في ترجمة العسيلي المذكور ما لفظه: الفاعل بلغة أهل مصر خادم البناء ، ويقال الفاعل التارك عندهم كناية عن القبائح ففيه إيهام ظاهر ، انتهى كلامه بلفظه .

* * *

إمام المجتهدين الشيخ الفقيه صالح بن المهدي المقبلي نزيل مكة المشرفة [1]

مجتهد غير مُقلّد ، مفحِم للخصوم مُبلِّد ، ورد من الاجتهاد ينبوعا ، وأبت له همته من أن يكون تابعاً لا مَتْبوعا ، فما قفا لإمامٍ مقالا ، ولا شَدّ لبعيره في مرعى غيْره عقالا ، وإنما اكتفى بعلْمه ، والعاجز من لا يستبد بأنظار حلمه ، وتبع الأدلة الراجحة ، وَمَشى مع المقاصد الناجحَة ، فكان إماماً يقتفَى ، وناظِراً في الأدلة باستنباطِه يُشْتفى ، ما فتح أحدُ باباً من العلم كبابه ، ولا ركب جواد همته في مسابقته إلا كَبَا بِه ، فهيهات لم يَذُق على موائد الإفادة شيئاً مِن كَبَابِه ، عرفتُه في الصّغر ، وقد فتح الزّهر فَمَه لِغَيْثه وَفَغَر ، وهو يقرأ العِلْم ويطلب ، ويستدر ثُدِيّ المسائِل وَيَحْلُب ، وهو من مشايخ والدي وصُدُورهم ، وشمو سهم التي لا يعتريها الكسوف وبدورهم ، أخذ عنه ما أخَذ عن والدِه الحَسَن ، وشحذ صارمه باليد التي شحذ بها صارمه وسنّ ، لأنه كان لِجدِّي من التلاميذ والأتباع ، وممن أصبح به مرتفع السمك طويل الباع ، وما بَرح باليمن ثاويا ، ولعنان الرّحلة عن الوطن لاويا ، حتى صال على ذوي الرفْض بعض صوله ، واعترف للصَّحابة بالفضل ونظم من الشّعر قولَه :

قــبــح الإلــه مُــفَــرِّقــاً   بــين القــرابَــة والصحــابَــة

---

(١) من علماء اليمن ولد سنة (١٠٤٠) بمدينة ثلا ، ثم انتقل إلى كوكبان وبرع في علم الكلام والفقه من مؤلفاته « العلم الشامخ » و « المنار » وفاته سنة (١١٠٨) انظر ترجمته في (فوائد الارتحال للحموي (خ) والبدر الطالع : ١/ ٢٨٨ ونشر العرف : ١/ ٧٨) .

مــن كــان ذلــك ديْــنُــه   فهــو الشقي بــلا اســترابَـه

فأجابه بعض ذوي الجهل ، وانتصب لذّمه وليس لمواجهته بأهل ، فهو كالكلب ساور الأسد ، وكالمجذوم قابل صحيح البدن بما فسد ، فعتب على إمام العصر في رواحه وغدُوّه ، ولامه لمّا لم ينتقم له من عدّوه ، وعدّ السكوت منه رضى فجرَّد من عزمه سيفاً قاطعاً ذا مُضا ، وآلى على نفسه أليَّة ، ليرحل عن دارٍ أُبتلي الرفيع بالوضيع فيها أي بليَّة ، ففي أمثال من مَضَى ، السكوت أخُو الرِّضَى[1] ، فسار بأهله للبيت العتيق قاصِدا ، مُشَمِّراً لأن يكون لِزَرْعٍ من الفوز حاصدا ، فاستبشر الحرم لوفوده ، وَغَرّدت حَمَائمُه من المَسَرّة على عُوْدِه ، وهمَّت الكعبة أن تُمَزِّق من أسود الملبوس ، ثوب الأسى الموهم بحصُول الحزن عند البوس ، وتلبس البياضَ فَرَحا ، وتجر ذيلها من الافتخار به مَرَحَا ، وكاد وجه الحجر الأسود أن يَبْيض من سروره ، ويمّر الركن لتلقيه بالرَّحب والسعة لِيَزْداد شَرَفاً بمروره :

قد رحّب البيت شوقاً والمقام بهم   والحجْـر والحَجَر الملثـوم والميلُ

ولم يزل من البيت تحت ظلالهِ ، مُزَيّناً لتلك الدِّيار بما طاب من خلالِه ، يعظّمه الأشراف بنو الحسن ، فقد حلّ من أماقهم محل الوسن ، فَبِه لديهم يُقْتَدَى ، ولذا رفعوه رفع المبتدا[2] ، وصدَّروه تصْدِير الاستفهام[3] ، إذ حَلّ من الدّراية مَحَلّاً يُقصِّر عنه ذوو الأفهام ، وما بَرح كالبيت العتيق محترما ، حتى وافاه ما يصير به الأجل مخترما[4] ، فمات وقضى الغريم ، وقَرُب إلى الله لما كان جار بَيْته

(١) من الأقوال السائرة . (انظر فرائد الأدب في منجد اللغة ٩٥٣) .

(٢) يقول النحاة في تعريف المبتدأ : هو اسم مرفوع يقع في أول الجملة غالباً مجرداً من العوامل اللفظية الأصلية ومحكوم عليه بأمر . الخ

(٣) قال النحاة : الاستفهام له حق الصدارة في الجملة فلا يسبقه إلا حرف جرّ نحو « بمن تفكر » أو مضاف نحو « سيارة من هذه » . الخ .

(٤) من مذهب الزيدبة والمعتزلة أن الأجل أجلان مقدور ومخروم ، يقول الإمام القاسم بن محمد : « قال بعض أئمتنا والبغدادية الأجل أجلان إن كان ذهابها بالقتل أحدهما خرم » .

الكريم ، فاسود وجه الحجر من الحَزَن ، ومَزَّقت الكعبة ملبوساً زُيِّن بالذهب فكأنه لَمْ يُزن ، ونَاحت حمائم الحرم وخلعت الأطواق ، وحرمت خضاب أكفها عند الأفراح والأشواق ، لا برح ضريحه كالبيت حوله يطاف ، ولا زال جانياً لثمارٍ من الجنان سَهْلَة القطَاف ، وشعره لعلمه تكميل ، يكحل الأبصار من قلمه بميل ، كتب إليه والدي قصيدة بها يفاكهه، طَمَعَاً في أن تساقط عليه من بستان طرسه فواكهه ، وحيَّاه من شعر الصّبا ، بنموذج ألطف جرماً من نسيم الصّبا ، فأجابه بقوْله ، مما يُعَدّ من طوْله :

عَرْفُ لُبنى شفيت أهلاً وسهلاً ... قف لنا من شميمها نتملَّى
صف لنا ما هُناك أفديك نَشراً ... من ذكيّ العبير أعلى وأغلا
أمْلِ لي الشَّوق يكتب الدَّمع عَنْه ... فوق خَدِّي من الحديث سجلَّا
إن لبنى جعلت أفدي خطاها ... قلَّدتني من المحارة[1] غُلا
غادرتني كما تَرى في اغترابٍ[2] ... لحديث الشُّجون في الحُبّ مُلاَّ
قُل لها واخفض الجناح لدَيْها ... ما عهدنا الكريم بقطع وصلا
عَلّها تذكر الزَّمان الذي فيـه (م) ... شربنا الوصال عَلًّا ونَهْلا
فسقى ذلك الزّمان عهادٌ ... وسقى الرمل والأراك المُظِلاَّ
وسقى شعبها الظّليل وضالاً ... وأراكاً هناك غضّاً وأثْلا
وسقى الآس والبشام ورَنْداً ... ووروداً وأقحواناً ومُقْلا[3]
وسقى يوم كنت في ربعها لا ... أحسب الخصب أن يُحَوَّل مَحْلا
حين جاءت إليَّ تمرح تيْهاً ... بقوامٍ أولى المحبين قَتْلا

---

(١) في النشر : المجرة .

(٢) نشر : اعتزال .

(٣) المقل : هو الكندر الذي يُتَبَخّر به (نوع منه) .

ككثيبٍ يُقلّ غُصْناً عَلَيْهِ … بدر تمّ وشعره صار ليلا
(قلتُ إذ أقبلت وزُهرٌ تَهَادى … كنعاج الملأ تعسفن رملا)
وبدت غُرَّةٌ لها كزمانٍ … عن سجايا محمَّدٍ قد تجلّى
من نشأ شخصه بحجر المعالي … وتغذّى العلوم في المهد طفلا
السري الحلاحل المصقع القرم … حليف التُّقَى وزين الأجِلَّا
هو بحْرٌ فكل نحر من الخلقِ … بِدُرِّ القريض منه مُحَلّى
لم يزل دون (١) كلّ قرمٍ نبيلٍ … إن سعت حلبة العُلُوم مجَلَّا
وأحد ماله هوناً من سواهُ … أربٌ في الفخار حاشا وَكَلَّا
هو في مركز الكمالات نَقْطٌ … وهو في الاعتدال أحسن شَكْلا
وهو في العلم قدوَة لأولي العلم … وفي الحافلات صدر الأجِلَّا
قد قفّى في العُلا أباه بفخرٍ … واضح فهو طاب فرعاً وأصلا
أوحد الماجدين نُبلاً وعلماً … أصدق العالمين قولاً وفعلا
أعفني يا فداءك أهلي فإنّي … لم أجِدْ لي لِكُنْه وصفِك عَقْلا
قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ … دد والمجد والمكارم مِثْلَا
أنت من ذلك الهزبر فحقّاً … أن يُرى في العرين أنتج شبْلَا
مدحك المُرتدي الحلال الذي مِنْ … ضرب النحل والمكرر أحْلَى
هزّ من عطفي النشاط وأذكى … لهب الشوق فانتحَى الوعر سهلا
فتراني أتيت أمشي الهوينى … خافضاً للجناح منّي ذُلَّا
ونظامي الذي تنافر معنىً … وهو عن جيد العِبارة مُخْلَا
لم أقل فيك لاحتياجك مدحاً … فلأنت المشهور جوداً وفضلَا
غير أني خشيت من أن أرى في … شُكر نعماكم الجسَام مُخلَّا
فاعذروني فإني صرت للعذر … لما مسّني من النَّقص أهلا

---

(١) كذا في (ب) و (ش) وفي (ز) أصلحه إلى « فوق » .

مرَّ دَهْري ولا يُرَى لي طرفٌ لاحظاً للعُلا ولا عِفْتُ جَهْلَا
فارفعوا لي الأكفّ فَضْلاً ونادوا ربنا امنحه عن خطاياه حـلّا
وعليكم أسنى السَّــلام دَوامـاً ما سرى البدر في الدُّجى وأهلا

وله تأليف ينتحس لديها السَّعد[١] ، ويتصاغَر لدى عظيمها من سلف من العلماء قبل وخلف منهم بعدُ ، في ليل المداد نجوم ، وفي آفاق القراطيس[٢] لمردة المخالفين رجوم ، قد تَزيَّن بها العصر ، وتَمَّ للاعتقاد الصحَّيح بها النَّصر ، لأنها رجفت على المشاقق من كُتبها بالكتيبة ، وسَدَّدت من سُطُورها أسهم أدلة مُصيبة ، وهو فيها كثير الاعتراض ، فكم فوَّق عن أقواسِها نبْلاً فقرطس قَراطيس العلماء فإذا هي له أغراض ، قد لهج بالمُناقَشَة فيها لهج الصبّ بحبيبه ، وأنس إلى الجد الأنس العليل بطبيبه ، وهو لعمري بذلك خليق ، وبه البحث عن الحُجج يليق ، منها كتاب « العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ »[٣] ، طالعته وطلعت إلى أقصىَ شمْريخه ، وارتقيت عليه حتى كدت أتناول من الفلك ياقوت مرِّيخه ، وإذا هو علم في رأسه للجاحد نار مُحْرقة ، وحوله خنادق لذوي الجهالة مُغْرِقَة ، ومنها « الأرواح النوافخ » ، حاشية على العلم الشامخ[٤] ، ومنها « حاشية الكشاف » التي بها للكون زان ، تحط قدر العلوي[٥] وينتحس بها سعد تَفْتازان[٦] ، لاحظّ عند شمسها للسّراج[٧] ، وقد طلعت من خلال السُّطور في

---

(١) تورية بسعد الدين التفتازاني (سبق) .
(٢) في (ز) لمراده .
(٣) من أشهر كتب المترجم له ، طبع عدة مرات .
(٤) طبع مع كتاب « العلم الشامخ » .
(٥) هو يحيى بن القاسم العلوي من علماء اليمن ، دخل دمشق سنة (٧٢٩) وعرف بحاشيته على الكشاف المسماة « تحفة الأشراف » توفي سنة (٧٥٣) . (مصادر الفكر الإسلامي ٢١٨) .
(٦) السعد سبق ذكره ، وتفتازان : قرية كبيرة من نواحي نسا وراء الجبل . انظر : (مراصد الاطلاع ٢٦٦) .
(٧) هو سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني له حاشية على الكشاف بعنوان (الكشاف على =

الأبراج ، ومنها حاشية العضد التي حرّرتها أنامله [1] ، فإذا للعلماء بها راحة ، ومنها حاشية [2] البحر التي أدار على الأسماع بها في كاسات راحَه ، وفيها يُنقّر على الإمام المهدي عليه السَّلام غاية النَّقير ، ويحقِّر عظيم ما جاء به أبلغ التَّحقير ، رحم الله تعالى مُعتِرضاً ومُعْتَرضا ، وعاملهما بغاية القبول والرِّضى ، وأدام العلم بمؤلفّاتِهما حتى لا يكون منقرضَا .

* * *

= الكشاف) توفي سنة (٨٠٥) . (انظر كشف الظنون ١٤٧٩) .

(١) لم يعرف للعلامة المقبلي حاشية على العضد ، ولعله اختلط عليه بشرحه على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه المسمَّى « نجاح الطالب » منه عدة نسخ خطية .

(٢) وهي المسماة بالمنار ، طبع أخيراً في مجلدين .

شيخنا السيد العلامة الحُسَيْن بنُ الحَسَن العَوَّامي[1]

سابق لا يدرك ، ومنفرد لا يشرك ، عقدٌ نظم على نحر المعالي ، وحلة فخار تزينت بها اللَّيالي ، قرأ على والدي فعُدّ أستاذاً ، ولاذ بعقوته[2] فكان ملاذاً ، فإذا هو إمامٌ به يُؤْتمْ ، وبدر عرفان في فلكه قد تَمَّ ، له روض دراية ، يرفع له من ورق دوحدراية ، تبتسم في وجهه الحقائق ، بثغرٍ من الأقاح المنتظم رائق ، وقرأ أيضاً بصنعا ، وأكبَّ على علم الصَّرف فما صادف له عنه مَنْعًا ، وطلب النحو والمعاني ، وهام بسائر العلوم هيام عاني ، مع حدّة كأنها جَذوة ، وحرارة طبعٍ ما حذا أحدٌ فيها حذوه ، إذا رجع فمنتقد ، وإذا روجع فنار تَتَّقد ، يرجع مباريه باليأس ، لأنه في جمع الفنون ذو نَصٍّ ما له قياس ، بمُرْهَف ذهنٍ أمضى من أمْسٍ ، وحجج نيّرة أضوأ من الشمس ، يَهُزّ رمحَ يراعِه ، فيهزِم من هَزّ رمحه عِنْد قِراعه ، إذا فَغَم مداده بالشّميم ، توارَى نَشْر المسك تحت أذيال النسيم ، ثُم لَمَّا عاد إلى قُطْره ، وأحيا أرضَه هامعُ قَطْرِه ، قَرأ في الفقه على والدِه ، فجمع من فخري العلم بين طارقه وتَالدِه ، ووليِّ القضاء فأنفذ أحكامَه ، واستمطر ذوو التنازع ركامه ، فأمطرت عليهم ثَلْجَا ، وكان في العظائم إليه يُلْجا ، يُخَاطب بالحق ويُنَاجِي ، ولا يماري أبداً ولا يُدَاجي ، لَمَّا عَلِم أَنَّ كُلّ مِرَادًا ، فنال من ربه ومن زمانِه مُرَادًا ، وكان عن أخذ بيوت أموال الله عفيفاً ، فلم يزل سيره في طريق

---

(١) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) والجامع الوجيز (خ)) وفيه وفاته سنة (١١١٥) .
(٢) العقوة : الساحة وما حول الدار .

التَّورع هفيفاً ، وَحمَّله من الأوزار حملًا خفيفاً ، ومات بعد بلاغ الأربعين ، وتكدّر من إفادته ماؤه المعين ، وقد لازمتُ عليه القراءة ، فحباني من الفوائد بأنفالٍ تشهد لي من الجهالة ببراءة ، وجنيت من غصنه إذا تأود رطيبا ، ما جناه من غصن والدي تضوع تُرابه طيبًا ، وغرب شَبابي فاحم الجناح ، وليس على من الزمن حرج ولا جُناح ، وله شعرٌ إذا أصغى له الصَّخر لان ، هو بمداده على وجَنَات علمه خِيْلان ، فمن لآليه التي صدفها بنو العُوَّام ، وجواهره التي لا يستخرجها من قرارها العوّام ، ما كتبه إلى السيد العارف ، الحسين بن الحسن الأخفش نُشِرت عليه من الرَّحمة مطارف ، وذلك قوله :

رماحٌ ولا أعني الردّينية السُّمْرا ... إذا خطرت صار الأنامُ لها أسرى
وبرق من الثّغر الشَّنيب تَلْألأت ... بإيماضه أرجاء كاضمة الخَضْرا
وجيدٌ كما يعطو إلى البان شادنٌ ... تـراه إذا أعطاك ملتفتـاً شزرا
وبي رشـأٌ لا يستـطاع فـراقُـه ... ويفتك بي ظلماً ويمنعني النَّزرا
إذا ما رأى دمعي على الخدّ سائلاً ... يقول إذاً لا أمنع السَّائل النَّهْرا
وضيف من الطيف الملمّ بنَا سرى ... فقلت له أهلاً وسهلاً لك البُشْرى
عَسَى خَبَر عن ظبي نَجْدٍ ورَعْيِهِ ... تُزِيل به عني لظى الفقد والحرّا
فقال : نعم ، والحال ما تعهدونَهُ ... على أن سِرّ الهجر أظهر وجَهْرا
أجَلْ وكذا المحبوب يظهر جفوةً ... ويزداد مهما قيل يحلو إذا مرَّا
فقلت : دعوني أترك الحبَّ سلوةً ... وأمدح من في العصر أكرمهم طُرًّا
كثير العطا جم النَّدى واسع الجَدَا ... به ازدان أهل العصر إذ زين العصرا
فَتىً لا تطيق الشامخات لِحِمْلِه ... وبالهمة القعسا قد قارن النَّسْرَا
ويهـزأ بـالـدُّر النـظيم بِلَفْـظِه ... على أن في معنى عبارتِه سِحْرَا
إمـام لـه كـل العلوم روايـةٌ ... ولكنـه دون الأنام بهـا أدرى
فما الأخفش المشهور في النحو والفَتَى ... الكسائي وعمرو سيبويه وما الفرّا

كذلك في التفسير شيخ زمخشر ... بباعٍ قصير لا يساوي له فترا
وتَصْنيف سعد الدّين نحو مطوّلٍ ... فأمرٌ يسير عند هِمَّتِه الغرَّا
على أنّ هذا سيّدٌ لشريفهم ... ومضطلعٍ لن تستطيع له شُكْرَا
لمنظره فينا جَلالٌ وزانه ... بخُلْقٍ به يستعبد العبد والحُرَّا
له أدبٌ كالرَّوض يشتاق نَحْوَه ... فإن قلت أزرَى بالنباتي[1] فَلاَ اطرَا
فَلاَ زال كهفاً للعلوم وأهلها ... فوجْدانِه باليُسْرِ قد بدَّل العُسْرَا
ولا انفك في أمنٍ يروح ويغتدي ... معافى بتحذير الزمان من الإغرا
عليه سلام الله ما ذَرّ شارِقٌ ... وما انهملت غيثاً سحائِبُه الخَضْرَا

فأجاب وأجاد :

أيا ماجداً حاز النباهة والفخرا ... وخُصّ بعلمٍ راسخٍ فعلا قَدْرَا
وحقق بالذَّوْق السليم حقائقاً ... تَحَيَّر فيها كل من أعمل الفِكْرَا
وغاص لإدراك الدقائق فارتقى ... مقاماً عَلاَ الجوزاء والشَّمس والبَدْرَا
وسابق فُرسان البراعة يافعاً ... فجلَّا وحلَّا أنه الآية الكُبْرى
نظامك وافى يخجل الدَّر نضْدُه ... وإشراقُه لكنه جاوز السِّحْرا
تَعالى عن الشعر المنقح وارتقى ... إلى فلك الشّهب الثّوابت والشّعْرا
وقَصَّر عنه نظم كل محبّرٍ ... فما ابن دريد[2] ما الصّفي[3] وما الورّا[4]

---

(١) يعني ابن نباتة الأديب المعروف (سبق) .
(٢) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، لغوي وشاعر مشهور ، وفاته سنة (٣٢١) .
(٣) هو الصفي الحلي (سبق) .
(٤) يعني السراج الوراق ، شاعر ، سبق ذكره .

وما الصاحب الكافي[1] إليه وما البَهَا زُهير وقصدي كل من نظم الشِّعْرا
هم ابن عطاءٍ واصلٌ ونظامك البـ ـليغ إذا ما عارضوه كحرف الرَّا[2]
وإني قد أجْبرت فكري بحره ولكنني أستخرج الجزع لا الدُّرَّا
ولم يك من قصدي العراض وإنما تركت به الإعراض عن ذاتك الغَرَّا
ولولا اتساع القَول في وصف مجدك الـ ـعلي لما اسطعت القريض ولا النثرا
لذلك جانبت النَّسيب ولم أقل رويداً بصبّ مغرم بكمُ مُغْرى
على أنني في حلبة الحبّ سابقٌ عَرفتُ الهوى من قبل أن أعرف الأمرا
وآيات شرعي في الغرام ثوابتٌ تجل عن الإِنْساء والنَّسخ والإعرا[3]
ومـرسل دمعي سنَّـةٌ غير أنَّـه عن النار ينبي لا عن الجنة الخضرا
ويـا حَبّذا نـار الغرام وحَبَّـذا الغرام وما أحلى الغرام وما أمْرا
فما الحي إلَّا من يُقارنه الهوى شبـاباً وشِيْبـاً ثم يقتله صَـبْرا
ولو قام بالصم التعشق للدُّمَى الغواني لفاقت في نضارتها التّبرا
ودونك أبيات القصور جرت على طراز مبانيك التي تخجل الزُّهْرَا
ولم أُغْر قرطاساً حواها لمقتضٍ ويقبح ما بيني وبينكم الإغْرا
وعذراً عن التَّرغيب في مذهب الهوى بقيت فإني ما شرحت به صَدْرا
ولي في كلام ظاهر فيه مَقْصدٌ سواه هو الأولى بذلك والأحرى
وفي منهج التَّعريض مندوحة عن الـ ـقبيح ومولانا الكريم بذا أدرى
أليس رسول الله عَرَّض مخبراً لمن سألته الكشف عن حالها الأخرى
ولا زلت بَحْراً في المعارف كلها وبَرّاً وبدراً في سماء بني الزَّهرا

---

(١) هو المعروف بالصاحب ابن عباد ، إسماعيل بن عباد ، شاعر وكاتب ولغوي مترسل مشهور ، وفاته سنة (٣٨٥) هـ .

(٢) سيأتي شرح هذا البيت .

(٣) يعني الإعراض .

قوله في الجواب : هم ابن عطا البيت مَعْناه ظاهر والمراد واصل بن عطاء الذي هو أصل مذهب المعتزلة ، وكان يلثغ في كلامه بالرَّاء ، ومازال يروض نفسه حتى أسقطها من كلامه في محاجته للخصوم وخطبه ، وكان إذا عرضت له الكلمة التي فيها الرَّاء عدل عَنْها إلى ما يرادفها وله الخطبة المشهورة التي ارتجلها بحضرة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فأسقط منها الرَّاء ، وقد ذكره الشُّعراء بذلك فقال بعضهم :

ويجعل البُرّ قمْحاً في تصرّفِه ... وجانب الرَّا حتى احتال للشَّعر
ولم يطق مطراً والقول يعجله ... فعاذ بالغيث إشفَاقاً من المطر

وقال آخر :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا ... وحَبّروا خُطباً ناهيك من خُطبِ
فقام مرتجِلاً تغلي بديهتُه ... كمِرجل القَيْن لما حُفّ باللَّهب
وجانب الرا لم يشعر بها أحَدٌ ... قبل التَّصفُّح والإغراق في الطلب

وفي مَعْنى بيت العلامة الأخفش رحمه الله تعالى في هذا الجواب ما جاء لإمام الأمداح النَّبويَّة البُوصيري[1] رضي الله عنه في همزّيته المشهورة حيث قال :

أيُّ حُبّ يصحّ فيه وطرفي ... للكرى واصلٌ وطيفك راءُ

وقال مولانا الإمام الوالد جمال الإسلام قاضي القضاة محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه :

إذا جفاني حبيبي عن كراهتِه ... فلست أذكره سَهواً ولا غلطا
كأنما هو حرف الرا يعرض لي ... في كلمةٍ وكأني واصِل بن عَطَا

---

(١) هو شرف الدِّين محمد بن سعيد البوصيري من أشهر شعراء المديح النبوي ، وله ديوان مطبوع . توفي سنة (٦٩٦) . (فوات الوفيات : ٢/٢٠٥ والأعلام : ٦/١٣٩) .

وقال بعضُ الشعراء :

لقد تجنَّبت قول العدل فيك كما تجنب ابن عطاءٍ لفظة الراءِ

وجاء لأبي محمد الخازن في قصيدته التي مدح بها الصَّاحب هذا المعنَى والمصراح في بيت فيها ولَمَّا وصل في إنشاد القصيدة إليه جعل الصَّاحب يصفّق بيديه وهو قوله فيها :

نعم تجنّب لا يوم العطا كما تجنب ابن عطاءٍ لفظة الرَّاءِ

وما أظرف قول الآخر :

أجعلت وصلي الرا لم تنطق به وقطَعْتني حتى كأنك واصلُ

ولما جاء نَعْي صاحب الترجمة المرحوم ، مَا برحت ذا طرف دامع وقلب مكلوم ، لما له علي من حقّ الإفادة ، والإفضال بكَنز العلم الذي لست أخشى نفاده ، وكتبتُ إلى أخيه الأكُبر معزيّاً له من النثر قولي :

لا شك أنّ للدُّنيا فلكاً بالمحن طالما دار ، وأنّها دار غدار فلذا أنّي في كلامي لَمْ أُلغ دار الغدار ،فَتبًّا لها من مكدرة للصَّفْو ،وممزّقةٍمِنَ الحلل لما لا ينجع فيه الرفو ، وأيم الله إنها لأيم[1] ، تلدغ بَنيْها عن سُمٍّ من الضَّيم ، تُعامل بنقيض المراد ، وتَرْمي بسهمٍ من الحوادث ما له من راد ، ومن أعظم ما تأتّي به من النُّغَص ، فِراق الأودّا الذي بشرابه اللهوات تُغصّ ، فكم فَرَّقت بين أحباب ، وتسبَّبت في تشتيتهم بالموت وهو أوحش الأسباب ، فإذا كان هذا لَهَا خُلُقاً وعادة ، فالصَّبر على مُصِيبتها قِسم من أقسام السعادة ، فاحتسب أيها السَّيد فأنت أهل الاحتساب ، وانتسب إلى ذوي الصّبر فما أخلقك بالانتساب ، وما جَزَعُك علىَ راحِلٍ إلى ربِّه ، أجْرُك بعده خير لك منه ومن قربه ، وجوار الله خيراً له من جوارِك ، ويرد أنهار

(١) الأيم : الحية أو ذكر الأفعى .

الفردوس أنفع من لهب أوارك ، ولا محيص عن أمرٍ وقع فيه الأول فالأول ، وأصاخ سَمْعه إلى ندائه فمضى عن هذه الدار وتحوَّل ، وكيف ينجو الأحباب والأجِلَّة ، والدَّهر رام بأسهم النّجوم عن قسي الآهلة ، أم كيف لا يبلغ منتهىَ المضمار ، من يكرّبه أشهب النَّهار وأدهم الليل في حلبة الأعمار ، والله إن الموت غاية ذي روح ، وما أغنى[1] هذه الجُملة عند العارف عن الشروح ، فما للَّبيب يعتمد الإنكار ، وقد أقام الفناء بينته لدى حاكم الأفكار ، شهود لا تجرح ، ولا تهمل ولا تَطّرح ، ولكِ في العَالم أسوة حسنَة ، تُرجع إلى الطرف القريح وسنَه ، وتُصَيِّر كاللحظة المختطفة عَاماً وسنَة ، فتَأسّ ففي التَّأسي للمحزون راحة ، واقْتدِ فطَالما أدار الاقتداء مِنْ حُسْنِ العَزا راحة ، فكم من مُصَابَ استعمل عند المصيبَة ما يليق من احتسابِه ، وتناول كأس الصَّبْر فشرَب به خمرة السّلوان واحْتسىَ بِه ، مع أنا لو أسفنا على ذلك المُفيد غاية الأَسف ، وانمحق بعده بدر مَسَرَّاتِنَا المُنِير وانكسف ، لَعُذِرنا ولم نُلَم ، ولم يتوجَّه إلينا وجه توبيخ وَلِمْ وَلَمْ ، فإن جزعنا فلمثلنا على مثله يليق الجزع ، وإن صبرنا على الفزع برزيّته فهو أمان لنا يوم الأكبر من الفزع ، تالله لو بكته العيون دَماً ، وعاد وجودنا بالتّحرق عليه عدَماً ، لقلَّ ذلك وحَقُر ، فقد أجنَّت عليه الضلوع حرارة عندها حر جهنم قُر ، وقد بَكاه الفلك بما عليه ، وسمح من نفائس دموع النّجوم بما لديه :

وما كُلْفة البدر المنير قديمةٌ ولكنها في وَجْهِهِ أثر اللّطْم

ما لاح برق إلّا خلْتُه بلا شك ولا ريب ، شق عليه من السّحاب المركومة الجيب ، ولا أظلم الأفق بالليل ، إلا اعتقدته لبس ثوب حدادِ طويل الذَّيل ، ولا احمر فيه الشفق ، إلّا قلت هذا دم دمع قد اندفق ، هذه العُلَى تَتَحسر عليه بعد العدم ، فليس لأهلها إلَّا تأوُّه الأسف وزفرة النَّدم ،على أنه مامات مَن ذكرُه

(١) في (ز) وما عنا هذه الحمل .

حي ، ولا توطّن قبراً من نزل لمّا حمت هاجرة الخطوب من ظِلّ الأرض في فَيّ ، فعليه من الرِّضوان الأعم ما طاب في الجنان مقرُّه فانتعم ، وعليك من التَّحية ما يبرد به الحزن في ضلوعك ، ويكفكف بمنديله ما اندفق من دموعك ، وفي الله من كل مصيبة عزاء، وعنده على الصَّبر في هذه الرزية لك حسن الجزاء، والسلام .

قولي : « وما جزعك على راحل إلى ربه » والفقرتان بعده هو في معَنْى ما حُكي أن أعرابيّا عَزَّى ابن عباس رضي الله عنه في أبيه فقال :

لا تجزعنَّ على أبيك فإنَّما ... سلك الزَّمان به سبيل النَّاس
واصبر نكن بك صابرين فإنّما ... صَبر الرّعية بعد صَبْر الرَّاس
خيرٌ من العباس أجرُك بعده ... والله خير منك للْعبَّاس

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما عزَّاني أحد في أبي أحسن تَعزّية من هذا الأعرابي ، انتهى .

ومن هذا ما جاء للمولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى لما توفّي المولى الحسن بن الإمام المتوكل على الله[1] وعزّى بعض إخوته فيه فقال :

لا تجزعن على حسن ... كل بهذا مرتهن
واصبر لذلك واحتسب ... فالأجرُ أحسنُ من حَسَن

(١) هو الحسن بن المتوكل علي بن إسماعيل ، كان من أعيان عصره وفاته سنة (١١٠٨) . انظر ترجمته في (نشر العرف ١/٤٥٦ ـ ٤٦٣) .

جَدُّنا القَاضي العَلامَة صَلاح بن عَبد الله الحيِّي (١)

نسلُ علماء زكا نجَارُهم ، وبقيَّة كرمَاء عَزَّ جارُهُم ، سِلْسلة من نضار متصلة الحلق ، ونطَفٍ صُوِّرت من النُّور وقد خُلق الإنسان من عَلَق ، ما منهم إلا مجتهد قد مضى، أو نجم بازغ في أفق الطَّلب قد أضا ، أو بدر كامِل قد طلع في فلك القضا ، فهو للفضل كعبَة ، قد رفع الله شانه وأعلى كعبه ، تقول حُلل العلوم في حقه نشر بهذا طِيِّبْ ، وتُنَادِي المعارف مُشِيرةً إليه إذا كان الغير مَيِّتِي فهذا حيِّيْ ، روضٌ يشقّه من علم الأصول والفروع نَهْران ، فهو في الفقه ذو يدٍ تبهر ابن بَهْران (٢) ، جوادٍ لا تباريه الغمام ، وحديقة عوارف لها من الثنا حَمَام ، رحْب الرَّبعْ، أصلب في المروءة من النبع ، فاتح للنَّوال خاتم، أسمح من لافظة (٣) وأجود من حاتم، ذو قِراءةٍ وقِرى ، فكم حمد العفاة في ليل الخصاصة عند صبح نارِه السُّرى ، وكم وقع قاصده مِن فنائه في روضة وغدير ، ونزل من أفناء كرمه في خورنق وسَدير ، سابغ إنعام ، في الضِّيافة والإطعَام ، يطوف الوفد حول جفانِه ، ويستجير الجائع من مخمصتِه تحت ظِلال رغفانِه ، يخافه قُرص الشَّمس ، وإن كان عزيز المنال متعذّر اللّمس، من أن يتناوله لوفده ، ويجعله من أقراص جوده ورِفْده ،

(١) ترجمته في (نشر العرف ١/٨٠١) . وفيه وفاته سنة (١٠٨٠) .

(٢) هو محمد بن يحيى بن بهران من علماء اليمن ، له عدة مؤلفات منها « جواهر الأخبار » توفي سنة (٩٥٧) انظر : (مصادر الفكر ٥٦) .

(٣) من الأمثال ، واللّافظة هي الحمامة لأنها تزق فرخها بما في حوصلتها . (المستقصى ١/١٧١) .

وهو جَدِّي من قِبَل الأُمّ ، فها أنا أدفع بذكره من الخَطْب ما حُمّ ، أتَّقي باسمه العظائم ، وأدرأُ به ضيم كل ضائم ، نُصِب للقضاء فرفع ، وجاء بشاهدٍ من فَضْلِه ما دُفع ، فَصفت بأحكامِه المشارب ، وأشرقت بنور عدله المغارب ، ودعا المبطل عنده بالثّبور والويل ، لأن قلمه تحت مداده عليه أطغَى من السَّيل تحت الليل ، وولي الخطابَة فكان بالمواعظ كافِلاَ ، وطلع بدره في فلك المنابر فما رُئي آفلاَ ، وغَرَّد على أعوادها صادحُه ، فطوقه بطوق الثناء مادِحُه ، إلى أن صمت عن هديله ، ورضي غُصنه المائل ببديله ، فمات والحداثة عليْه غالِبَة ، ونفق علقه لما كانت المنية في سوق الحِمام جَالِبَة ، أدام الله عليه منائح غُفْرانِه ، ورفع شأنه في الآخرة كما رفعه في الدنيا على أقرانِه ، ولا زال حديثه القديم ، تحفةَ الجليس وبغيةَ النَّديم ، ما تختمت راحة الجوّ بضَيْروزج الصَّباح ، وسمح النَّهار بدينار الشَّمس لَمَّا علم أن السَّماح من الرياح ، وشعره في حكم العدم ، لأنه إن نظم شيئاً أدركه النّدم ، فهو لا يرضى أن يلصق بعلمَه الشّعر ، ولا يرغب في لؤلؤ النَّظم وإن كان وافر القيمة غالي[٢] السِّعْر ، فلم أظفر له بعد الجد والاجتهاد ، إلا بقوله في خطاب بعض الملوك وقد حثّ على الجهاد :

أسنى السلام يضيق منه النادِي ... أبـدًا كروضٍ بـالغمامـة نـادي
يأتي إليك مبيناً شوقي الذي ... قد زاد حتى ضاق عنه فؤادي
هذا وإني قد نظرتُ الوكـة[١] ... حــــررتها مـعلومــة الإسـنـاد
وبها حثثت على الجهاد وحَبَّذا ... جَهَـرَ النّدا يقـول يـالجهـاد
جاءت فواصلها كدُرّ نظّم الد ... ر الحقيقي في سمـوط كسـاد
لا غرو إن حُزت الفصاحة في الورى ... فـأبوك أفصـح ناطق بـالضّـاد
هــذا ولا زلت المُبَجّـل ماانثنى ... غُصن الـرياض بعـطفـه الميّـاد

---

(١) في (ز) على .

(٢) رسالة .

والله يحرسنا بصولتك التي ما بين بيضٍ جرّدت وصعاد
ويصون هذا الثَّغر منك بسطوةٍ تسطو بها في حسّد وأعادي
ثم الصلاة على الرّسول وآله والصَّحب حزْب الهدى والإرشاد

قوله : « وأبوك أفصح ناطق بالضّاد » هو كما قال الرَّسول ﷺ « أنا أفصح من نطق بالضَّاد » ولذا قال الشيخ شمس الدين النواجي رحمه الله تعالى في بائيته عند مَدح رسول الله ﷺ :

مفصّح الضَّاد مروي الصاد من كلم تتلو براعتها الأسجاع والخطب

قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث : « أنا أفصح من نطق بالضَّاد » معناه صحيح لا كما قال ابن كثير لا أصل له[1] .

قال الحافظ حجة الإسلام في العصر القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن محمد الحيمي رضي الله عنه الآتي ذكر ترجمته في هذا الكتاب : يشهد لمعناه ما أخرجه ابن سعد عن زكريا بن يحيى عن يزيد السَّعدي عن أبيه معضلاً[2] بلفظ « أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر » قلت:وقد كتب المولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى إلى شيخه مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الدِّين ، محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه أرجوزة يسأله فيها عن معنى هذا الحديث ، وسماه (مروي الصَّاد) في بيان معنى قوله ﷺ : « أنا أفصح من

(١) كذا عند المؤلف ، والذي في المقاصد ومختصره « تمييز الطيب » (٢٤) : « معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير » وكذا في اللآلى المصنوعة ، وقال العجلوني : أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد ، ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلًا بلفظ « أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان سعد بن بكر » ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ « أنا أعرب العرب » انظر (كشف الخفاء ١/٢٣٢) وانظر (الأسرار المرفوعة ٧٠ وإحياء علوم الدين ٢/٣٦٤) .

(٢) الحديث المعضل : هو ما سقط من إسناده اثنان أو أكثر في موضع واحد سواء كان في أول السَّند أو وسطه أو منتهاه « منهج النقد ٣٧٨ » .

نطق بالضَّاد » ، وأجابه بأرجوزة أورد فيها ما أورد من البحث العلمي ، وقد أثبتُّ كلا الأرجوزتين في كتابي المسمَّى « رعي الأبّ »[1] قال الجار بردي[2] رواية عن شرح الهادي : من قال أن النبي ﷺ عَنَى نفس الضَّاد لصعوبتها فقد أخطأ لاستواء العرب الفصحاء في الإتيان بالحروف جميعاً على وجه الكمال انتهى كلامه ، قال أبو الطيب المتنبي[3] :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي　　وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كلِّ من نطق الضَّاد (م)　　وغوث الجاني وكهف الطَّريد[4]

قال ابن جني في الكلام على هذا البيت:لا ينطق بالضَّاد إلا الفصحاء من العرب ، فلو جاء بحرفٍ يشترك فيه كل لافظٍ لكان أمدح له وأحسن.انتهى كلامه .

والذي أقوله أنا : إن كلام ابن جنّي هذا عندي غير متلقًّى بالقَبول ، فتَخْصيص المتنبِّي للضاد من بين سائر الحروف كتَخْصيصك للشَّمس من بين سائر الكواكب ، لأنَّ كلامه ينبىء على أنه من فصحاء العرب كما تقرر أنَّ الضَّاد تختَصّ بهم ، والعرب كما هو ظاهر أشرف أجيال القبائل على الإطلاق ، ولذا بعث ﷺ منهم فهو خيار من خيار كما في الحديث ، فإذا كان على هذا أفصح العرب فبالأولى أن يكون أفصح سائر القبائل ؛ لأنه قد صار أفصح من هم الغاية والنهاية فالمَعْنَى في بيت المتنبي على هذا أنه أشرف قومه ، وقومه أشرف من نطق بالضَّاد ، ومن

---

(١) سبق ذكره .

(٢) هو فخر الدين أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي ، من مؤلفاته « شرح منهاج البيضاوي » و« شرح شافية ابن الحاجب » وفاته سنة (٧٤٦) . (طبقات الشافعية ١٦٩/٥ والأعلام ١١١/١) .

(٣) (ديوانه ١٧) .

(٤) الديوان : وعوذ الجاني وغوث الطريد .

نطق بالضَّاد أشرف القوم من سائر القبائل على العموم ، فهات أرني ـ أرشدك الله تعالى ـ هل بعد بَيْتي أبي الطَّيب المتنبّي مع هذا المعنى غاية تُرتقى ؟ لا والله ما علمت بغاية بعده ، فنظمه كما تراه في غاية المدح لنفسه ، فلا أصل لقول ابن جني أنه لو جاء بحرف يشترك فيه كل لافظ لكان أمدح له وأحسن . انظر إلى قوله ﷺ في هذا الحديث « أنا أفصح من نطق بالضَّاد » وفي الحديث الآخر « أنا صفوة الصَّفوة » فقد كفانا مؤونة التكلم ، أليس هو حكم أنه صفوة آبائه وقومه ، وآباؤه وقومه صَفْوة سائر النَّاس ؟! فهذا غاية في بيان محلّه من قومه ومحل قومه من سائر الناس ، وإلا لقال : أنا صفوة العالم أو النَّاس أو نحوهما ، فبيتي المتنبي في الذّروة العالية من المدح لنفسِه كما تراه ، فاطّرح قول ابن جنّي جانباً ، وسدّ عن استماعه صماخيك وكن عنه أصم السمع كصممه ، وقال ابن دريد : الضَّاد للعرب خاصة ولقليل من العجم ، وزَعم المتَنبي أنَّها للعرب لا غير ، فأراد أنهم فخر العرب كلها انتهى كلامه .

أقول : وقد دَلّ أنها للعرب خاصة نظم الإمام محمود الزمخشري رضي الله عنه من قصيدة له قرأتها في ديوانه ، ودلّ نَظْمه أيضاً بأنَّ الصَّاد المهملة تختص بالعجم وهي لا تختص بهم ، فإنَّ العرب كما تسمع ينطقون بها ولعله أراد باختصاصهم بها أنهم يضعونها في كلامهم محلّ الضاد المعجمة أو محل غيرها من الحروف لأنها مقصورة عليهم والله أعلم . وقد يكون أراد بالصَّاد من الصّد وهو الصرف والامتناع ، يدل عليه قوله : فَصَدّ وهو بعيد ، ونظم الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى هو قوله في المدح :

ألقى التواضع في أحشائه مِقَةً ... فصَدَّ عن كبرياء النَّفس والصَّادِ
واختص بالصَّاد عجم لا خلاق لهم ... في المكرمات اختصاص العُرْب بالضادِ

وكتب صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى إلى مولانا الوالد رضي الله عنه مجيباً عليه

على كتاب كتبه إليه يعلمه فيه بأنه يريد تطهيري بالختانة أيام كنت طِفْلاً ما صورته ولفظه :

شرف الله مجامع العلوم ، وأزال من الجهالات موجبات الكلوم ، ببقاء سيدي القاضي العلامة في سائر الفنون ، والمتبحّر في المعارف ، فما وصلت إلى عرفانه الأوهام ولا بلغت الظنون ، عزّ الهُدَى ، والخيرة في الذين بهم يقتَدَى ، محمد بن الحسن الحيمي صان الله عن الحوادث مقامه ، وأهدى إليه تحيتَه وسلامَه ، وجعل شخصه في حماية عن كل كارثٍ وسلامة ، نعم وصل منكم الكتاب المنطوي كلامُه على لآلىء ، الْمُنبي على الجزم بإعذار الولد أحمد أهّله الله للمعالي ، وتطهيره في هذه المدَّة القريبة ، وتشذيب غصون شبابه الرطيبة ، ولا بأس بإتمام هذه النِّيَّة ، وتطييب هذه الثَّمرة الجنيّة ، والإشعار لهذه السُّنة التي سَنّها إبراهيم خليل ربّه ، والمُصْطَفى لِخُلَّتِه والمختار لِحُبِّه ، ولكن[1] قد عرفتم أن الواجب علينا الحضور ، واللازم لنا ما لا بُدّ منه من خير الأمور ، فأخروا ذلك إلى الشّهر الآتي وكل آتٍ قريب ، حتى يتم لنا الوصول إليكم لنأخذ من هذه المسرَّة بنصيب ، ونبالغ في إشعارها وإشاعتها ، ونشر موسمها المبارك ويمن ساعتها ، فالولد كما عرفتم ولدُنا ، وبه ينمو إن شاء الله تعالى حزبنا ويتوفَّر عددُنَا ، وله حق علينا لازم ، يعد من أثبت الحقوق والمغارم ، والله يبلغنا وإياكم فيه ما يُرْجَى ، ويجعله بالفضل ممن يُمدح ولا يُهجا ، ويوضح به كما أوضح بآبائه لطُرق العلى نَهجا ، فَسمات النجابة عليه لائحة ، وذاته الكريمة لكل مكرمة صالحة ، والسلام .

---

(١) في (ب) ولقد قد ، وفي (ش) وقد .

القاضي المَهْدي بن الحُسين الحَيِّيْ المَعْرُوْفُ بالقَدِيمي[1]

قديميّ حديث فضْله حديث ، وروض محامده مُخْضَرَ أثيث ، مَليء من الفضل لَمَّا صار غيره عديما ، مُسْتبِد بِهِ في هذا الزّمان كما قلت فيه قَدْيمًا :

كلما حدَّث عن فضل بنى العصر نديمي
قلت دع قولك واسمع فحديثي في القديمي

وقلت مضمّناً :

القديمي قدمته المعالي فهو منها والله غير عديم
مدحوه وهو الحديث فقلنا أولع النَّاس بامتداح القديمي

نصب للقضاء فرفع ، وشهد له تحقيقه بالسَّبق فما دُفع ، قرأ في الفقه فحقَّق ، وأدار[2] رحاه فيه فدقَّق ، قطف بيد الفحص الأزهار ، وتَنَاول بها ما ينع من الأثمار ، فَقُصِد للفُتْيا والفَصْل ، وعُرِف بقطع الشجار بعد الوصل ، وهو في الأحكام فتيك ، وفي الْمُشْكِل أحسن من يُفْتيك ، ما توجَّه لمقفل إلا فكّه ، ولا فتح باب حديقته إلا نزه المبصر وفَكَّه ، جعل العرفان ملاذَه ، واستَعْذب روضُه وبْله ورَذَاذه ، وهو من بيت عمرت بالإفادة أركانُه ، وشرفت بالخصال المحمودة سُكَّانُه ، ما غاب منهم عالم إلا بدا عالم ، ولا انقضى كالم للجهالة إلا ابتدر كالِم ،

---

(١) ترجمته فى (نشر العرف ٧٥٩/٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) في (ز) وأدر .

ما غرب نجمٌ إلا طلع نجم زاهر ، ولا نام في لحده نائم إلا تيقَّظ بعده ذو جفنٍ لطلب العلا سَاهِر ، وهذا القاضي له سيف همةٍ ماضي ، يلهج بكتب العلوم والآداب غاية اللَّهج ، ويمد في أفق التحصيل سحاباً ليست برهَج ، بل هي غيدَاقة الأذيال ، يرتضع من أخلاقها الغصن الميَّال ، ما سمع بشي إلا نَقَلَه ، وَجَلا بجوهر رقمه حسام قرطاسِه وصَقَلَه ، وقد حصل من عند والدي فوائد ، ونقل من إملائي عليه ما يُعَد بتعوده سالكاً في أحسن العوائد ، ما سمع مني لطيفة إلا هام بها حُبًّا ، ولا اجتلى من بنات فكري مقصورةً في خيامها إلَّا أنزلها من دفاتره سَهْلًا وأوسعها رُحْبَا ، ولما طالعَ كتابنا المسمَّى « سلافة العاصِر » ، أثنى عليه ثناء لا يحيط به اللَّفظ القاصِر ، وجال في مدحه أيَّ جولة ، وكتب عليه من نظمه قوله :

لله قـاضينـا صـفي الـديـن ... شمس الهُدَى وإمام حور العينِ
بحر المعارف والعوارف والعُلَا ... من جـاء في علم له بفنـونِ
ذاك الشهاب الفرد قاضي عصرنا ... بحـر يغاص بـه بغَـيْر سفِـينِ
أبدى لنـا دُرّاً بـرائق لَفْظِه ... فاقت على معنىَ صلاح الدين [1]
لله درك أحمـد بـن محمـدٍ ... فلقـد أتيت بلؤْلـؤ مكنـونِ
ولقد حويت بما جمعتَ فرائداً ... تُزْرِي بعقد في النحـور ثمينِ
أبقاك ربُّ العرش فينا أوحداً ... يأتي بما هو رَوْح كل حزين
وجـزاك عنا الله خـير جزَائـه ... من بعد عمرٍ طـائلٍ وسنينِ

قوله : « وإمام حور عين » ، هو كناية عن كتب العلم الشّريف كما قاله جَدُّنا الإمام العلامة القاضي نشوان بن سعيد الحميري رضي الله عنه في شرح رسالة « الحور العين » [2] التي أنشأها وهي مشهورة .

(١) يعني صلاح الدين الصفدي ، سيأتي شرحه .
(٢) انظر (الحور العين ٥٤) .

وقوله : « فاقت على مَعْنى صلاح الدين » المراد به الفاضل العلامة الأديب القاضي صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي رحمه الله تعالى ، وهو ظاهر لدى العارف اللَّبيب .

*

* * *

القاضي العَلامة الحُسَين بن علي العَبَّاسي المعْرُوفِ بسافُوف[1]

من تلاميذ جدّي وأتباعِه ، وممّن طال بخدمته سمك باعِه ، استفاد منه علماً ومالا ، و نال ما لم يخش نفاده وما لا ، له خِلَالٌ من الفضل قُدَّت ، وأعناق همم إلى أرفع المعالي مُدّت ، وطرق محامد عن غيره سُدَّت ، وأرشية عزم بالنجوم شُدَّت ، وشيم حميدة أفحمت الفصيح وقد عُدَّت ، شَمَّر أذياله عن ساقه ، ونظم عقد الطلب في غاية اتساقه ، وفحص عن العلوم كدًّا ، لما صار ذوو الجهل لديه كالدا ، فحصل من علم الفقه ما رقّاه إلى مراتب الفَتْوَى ، ونال منه ما أشار إليه لأجْله رأس التَّحقيق رَتْوَا ، ثم راد في الترقي ، حتى قال له القضا هاك منشور رقّي ، فولي الأحكام وعدل ، وما لعطفه عن الضعيف من بدل ، وله في علم المساحة والذَّرْع ، علْم يضيق عن معشاره الذرع ، فهو في علم الفرائض إمام به يُؤْتم ، ومفرد بعرفانه يفتح الحديث ويختم ، لما تفرغ لتحصيله وتجرد ، وورث هذا العلم بالفرض[2] والردّ[3] ، وتلقاه لا عن كلالة[4] لما قُسم له منه ما قُسم ، وجاوز فيه الحد الذي لغيره رُسم ، فدون عرفانه على المتشبّه به هول ، فكم وقف عن

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٥٨٦/١) نقلاً عن كتابنا هذا ، وفيه سافون بالنون .

(٢) الفرض عند أهل المواريث : الحصة والنَّصيب .

(٣) الرد : هو توزيع ما فضل عن الحصص الأصلية لذوي الفروض لعدم وجود عصبة من الورثة .

(٤) الكلالة : مَنْ لا ولد له ولا والد .

حيرته عند تفسير المناسخة[1] والعول[2] ، وله في هذا العلم خاصة مسائل مُحرَّرة ، وفوائد على أثبت القواعِد مقرَّرة ،وأراجيز منظومة نظم العقود النَّاسقة، ورياض مديحه في أوراقها ذات فروع باسِقة ، يُجْتنى منها أحلى ما يجتنى ، ويقتنى من فواكهها ألذَّ ما يقتنى ، وله في علم الكلام ، أرَاجيز أيضاً كالجنان تَدْخل بسلام ، نظمها فأحسن لها سَبْكا ،يقال عندها لحاسده على مثل ذا يُناح ويُبكى ،وكنت أراه على الدّرس مواظِباً ، يصيد بشباك ذهنه سوانح الظّبا ، ويفصل الشجار ، فينزجر المبطل عن هواه أتم انزجار ، ويقسم المواريث بعد الضرب ، ويفرج من الإشكال فيها عظيم الكرب ، ثم إنه أصابه في آخر العمر خلْطٌ في عَقْله ، فبطل من علمه ما حرره بنقله ، اسْترق الأَلَس[3] ، عقله الراجح واختلس ، لا لكبر جاوز حدَّه ، أو لعمر طالت به المدة ، فكان في بعض أوقاته يبكي أشد البكا ، وينزح ما مقلته من الشّجو بالرُّكا ، ثم إنه في أسرع من لمَحَةٍ وأقْرَب ، يَضْحك في أثناء بكائِه ضحِكاً فيه قد استغرب ، لا لأمرٍ يوجب الأمرين أبداً ، وإنما هو لشيء يبدو له ومن شأن الإنسان البدا ، فهو من الذين يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً ، رفعه الله تعالى في الجنان مقاماً أثيراً ، فما برح في بيته محجوباً ، وما زال إناء قصْره في قصره مَنْجُوباً ، إلى أن أبكاه أجله المحدود ، وأضحكه جزيل أجره المعدود ، سقاه من الحيا مدرارُه ، حَتَّى تتفتَّح من زهر ملْحده أزرارُه ، ولَهُ شِعْرٌ شعار قلمه بالمداد عبَّاسي ، ونظم لما لطف قالت النَّسيم لقد استَرقَ أنفاسي ، منه قوله[4] :

مرَّ زمان الصِّبا النَّضير فهل ... يقال للقلب بعد ذاك سَلا
وكيف لي بالسّلوِّ في زَمني ... يوماً وخضب الشَّباب قد نصلا

(١) من الميراث هو أن يموت ورثة بعد ورثة ، وأصل الميراث قائم لم يقسم ثم لا يقسم إلا بعد أجيال .

(٢) العول : زيادة السهام على الفريضة ، أو زيادة في عدد السهام ونقص في مقاديرها.

(٣) الجنون .

(٤) نقلها صاحب (نشر العرف : ١/٥٨٧) .

شمس مشيبي عليّ قد بزغت فاللَّيل من عارضي قد ارتحلا
ولم أزل عاكفاً على عَمَلٍ لا يرتضيه الإله لي عملا
يا عين هِبِّيْ أراكِ نائِمةً والجفن بالغمض منك قد كُحِلا
لهفي لدهرٍ مَضَى وما صنعت نفسي به الخير فانقضى هَمَلا
يا ربّ فامننْ بحسن خاتمةٍ ولا تخيب لآملٍ أملا

قوله : « قد نصلا » هو بالنون والصّاد المهملة أي ذهب ، يقال نَصَل الخضاب إذا ذهب من اللحية ،ونصلت اللّحية نُصُوْلاً وتنصَّلَت فهو ناصل : خرجت من الخضاب ، ولذا قلت أنا في التورية :

نصول ذكر الشباب أدمت قلبي وقد فاتني وُصولي
إذ نَصَل الخضب عن مشيبي آهاً لقلبي من النُّصُوْلِ

التورية في قولنا « من النّصول » ظاهرة لأنها تحتمل أن يكون المراد بالنُّصول جمع نصل بسكون الصّاد وهي حديدة السَّهم ، ولهذا المقصد يرشّح قولنا « نصول ذكر الشباب أدمت » أي سهامه ، ويحتمل أن يكون المراد بالنُّصول الإفراد ، وهو نصول خضاب الشيب أي ذهابه ، ولهذا المَقْصد يرشح قولنا : « إذ نَصل الخضب عن مشيبي » وبذلك تعرف تمكن التَّورية . ومثله ما ضمنته أنا أيضاً في الاستخدام بالضَّمير فقلت :

يا زمان الصّبا نعمت فدا الشيب أعاد السَّواد منْك قَميًّا
راع قلبي خضابه بنصول فيها قد غدا فؤادي رميًّا

وقلت في القول بالموجب :

قال لي للمحبوب لما أن غدا خضب شيبي كابن ذكا[1]
قد رمى قلبك شيبٌ أبيضُ بنصول قلت من أسهمكا

(١) ابن ذكاء : هو الصبح وذكاء الشمس .

قوله : « شمس مشيبي عليّ قد بزغت » هو بالباء الموحدة والزاي والغين المعجمة أي طلعت ، يقال بزغت الشمس إذا طلعت وبزغ القمر والنَّجم إذا طلع ؛ لأن البزوغ الطّلوع ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ فلما رأى الشمس بازغةً ﴾[2] ، وجاء أيضاً بزقت الشمس بالقاف وهو بمعْنى بزغت أي طلعت ، والغين والقاف من مخرج واحد وفي حديث أنس : « أتينا أهل خَيْبر حين بزقت الشمس »[3] هكذا في الرّواية بالقاف أي بزغت .

وعلى ذكر البزوغ هنا نُورد ما نظمته أنا في مليح يلقب بالبازغة فقلت :

من لي بخشف أصبحت مهجتي ... عن كل خُود دونه فارغَه
لو لم يكن في الحسن بين الورى ... شمساً لما قيل له البازغه

وقلت أنا أيضاً في مليح حجَّام وفيه القول بالموجب :

بزغ الدما حجَّامنا حتى بَدَت ... كالدَّمع منا في السَّوالف حين مرّ
قالوا : أترضَى حين أضحى بازغاً ؟ ... فأجبت حُسنًا كالغزالة والقمر

وقلت فيه أيضاً :

لله حجامنا وقد بزغ النجـ ... ـيع منا كالسيل ينحدرُ
قالوا : غدا بازغاً فقلت لهم : ... بذا علمنا بأنه قمرُ

معنى : « بزغ الدّماء » و « النجيع » في هذين المقطوعين أي أسالها ، يقال بزغ دمه إذا أساله ، والبزغ والتبزيغ الشرط بالمشرط وهو المبزغ . وفي الحديث : « إن كان في شيء شفاء ففي بزغة الحجام »[4] .

---

(١) الآية (٧٧) سورة الأنعام .

(٢) الآية (٧٨) سورة الأنعام .

(٣) انظر (النهاية في غريب الحديث : ١/١٢٥) .

(٤) ذكره في (النهاية : ١/١٢٥) .

صاحبنا القاضي الحُسَين بن عَبْد الله بن مَسْعُود

مسعودٌ في العلم وابن مسعود ، وعارف يُورق من ما معارفه العود ، لو أدركه المسعودي[1] ، لقال له هو رمح قلمي والمَسْ عُودي ، لكي يطعن ذاك في نحر المخالف ، ويثمر هذا بما يطيب جنى للموالف ، ينقاد إليه عن رغَبٍ وعن رَهَب ، ويَهْوى لتقبيل أقدامه ويفرش لها « مروج الذّهب »[2] ، هو روض فَضْل ظله سَجْسَج ، وخدوْد ورده قد عذرت بالبنفسج ، منح الدَّهر من كماله ، ما زاد في حسنِه وجمالِه ، فوَشْيه فضفاض أنيق ، وحديقته زاهية بين الأقاح والشَّقيق ، حِلْف ذكاءٍ ونباهة ، وبحر علمٍ لؤلؤه في صدف الفكاهة ، له مِراسٌ في الفنون ، وآثار لا تبلها السنون ، فهو في كنوز العلم قارون ، وأمَّا في علم القراءات السبع فقالون[3] ، بل هو فيه للطلبة نافع[4] ، ولا سهم الضلالة عنهم بمجن عرفانِه دافع ، بل هو لكل مسترشدٍ عاصم[5] ، ولعُرى الجهالة قاصم وأي قاصم ، به

(١) هو علي بن الحسين ، مؤرخ وجغرافي ورحالة ، وفاته سنة (٣٤٦) . (وفيات الوفيات : ٤٥/٢ والأعلام : ٢٧٧/٤) .

(٢) تورية باسم كتاب للمسعودي السابق الذكر .

(٣) هو عيسى بن مينا ، أحد القراء المشهورين ، وفاته سنة (٣٢٠) . (غاية النهاية : ٦١٥/١ والأعلام : ١١٠/٥) .

(٤) هو نافع بن عبد الرحمن الليثي ، أحد أئمة القراءات العشر ، وفاته سنة (١٦٩) . انظر (المنجد في الأعلام ٧٠٥) .

(٥) تورية بعاصم بن أبي النجود الكوفي ، أحد القراء المشهورين ، وفاته سنة (١٢٧) . (غاية النهاية : ٣٤٦/١ والأعلام : ٢٤٨/٣) .

تقلل ابن كثير[1] ، وتعرَّى السوسي[2] عن أثواب علمِه التي لا تذكر عندها مطارف الحرير ، وهوى قُنْبُل[3] من سماء إقبَالِهِ ، وتقلقلت عنده شوامخ أجباله ، صنَّف وألَّف ، وشابه البدر وما تكَلَّف ، وهو من تلاميذ والدي معدود ، وممن آوى لما أحرقته هاجرة الجهالة إلى ظل علمه الممدود ، على أنه ليس من بيت عرفان ولا من قوم راق لهم من العلم والأدب لهم صنفان ، وإنما هو نابغة اجتهد وجدّ وبذل نفسه للطلب حتى وجَد ، والنّرجس من البصل ، والذَّهب من التراب وهو أنفس شي عليه المرء حصل ، ولا تعيب الماء القراح خسة المَنْبع ، ولا يحط من شرف الرماح هوان المَنْبَت والمَربع ، لأنه من قومٍ عملهم الجِبَاية والوِزَانَة ، وإنما هذا الفاضل رفعه فضله وزانه ، والدَّهر كالميزان يرفع ويخفض ، كما أنَّه يأخذ تارة وتارة يرفض ، ولما آبت شمسه منازل سقوطها ، ورأت أن في الميزان [برج] هبوطها ترفعت عنه إلى دارة الحمل ، فكان ذلك من خير العمل :

وكذاك شمس الأفق في أبراجها تعلو وبرج هبوطها الميزان

ثم لما نزَّله أهل الوطن منزلة آبائه ، ولم ينزّلوه منزِلة بلغ إليها عزم جَوَبائه ، رحل وسار ، وفَكّ نفسه من الإسار ، ونزل بديار صنعا ، فأحسنت به الأيام صُنْعا ، وبيني وبينه صحبةٌ ووُدّ ، وائتلاف ما منه براح ولا بُدّ ، ولم يبرح للبن عيشه يحتلب ، ومتاع فوائِده إلى أسواق الدَّرس يجتلب ، حتى ولي القضاء من اليمن الأسفل ، بذي السُّفال فبقي به أياماً ثم مات فكفله ربّه أحسن كِفَال ،

---

(١) هو عبد الله بن كثير الداري المكي ، أحد القراء السَّبعة ، كان قاضي الجماعة بمكة ، توفي سنة (١٢٠) . (وفيات الأعيان : ١/٢٥٠ والأعلام : ٤/١١٥) .

(٢) هو أبو شعيب صالح بن زياد السوسي ، مقرىء ضابط للقراءات ، توفي سنة (٢٦١) . (الأعلام : ٣/١٩١) .

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن المكي المخزومي ، من أعلام القراء ، كان إماماً متقناً ولي الشرطة بمكة ، توفي سنة (٢٩١) . (غاية النهاية : ٢/١٦٥ والأعلام : ٦/١٩٠) .

أكرم الله نزله إذ رغب في مجاورته ، وسقاه مِن كؤوس الرِّضوان أضعاف ما سقاني من كؤوس محاورته ، وأشعاره بلسان الأبد متلوة ، وعروس معانيه على منصة الزّمان مَجْلُوَّة ، وكؤوس نفثاته من خمرة البلاغة مملوة ، ومن ميزان عروضِه ، الذي لما أدركه رَأى رفض ميزان أبيه من فروضه ، قوله من قصيده أنشدنيها من لفظه ، وسمعته يمليها عليّ من حفظه :

حَيّا الحيا رَبع من ساروا ومن بانوا حَتَّى يُرى ماثلاً في روضه البَانُ
ما للمطايا غدَت تهوى المسير وما بال الحُداة فلا كانت ولا كانوا
في الصبّح عن غير من نهواهم[1] ظَعَنُوا يوم النوى وهُمُ في القلْب قُطّانُ
بانوا فلا السفح سفح بعدما انفصلت عَنّا الركاب ولا الأوطان أوطانُ
لا ماس غصن النقا من بعد بينهمُ ولا أمالته بالتَّغْريد الحَانُ
ولا اكتسى حلة الأوراق إذ نسجت رقيقها فوق عطفٍ منه أمزانُ
ولا انثنى ثَملاً لما أدير لَهُ كاس من القطر بالأدهاق ملآن
ليت الأحبة بعد البعد قد علموا حالي فلو علموها بعدهم لانوا

وكنت ذات يوم في مجلس الدَّرس ، أتناول باكورة العلم من منهدل الغرس ، أفيد وأستفيد ، وأحَلِّي بفرائِد الفوائد كل جيد ، إذ وفد عليَّ وفود الغيث بعد الجدب، وورد إلى مقامي ورود المسرّة عقيب الخطب، فأكرمتُ نُزْلَه ، وتلقيته بما يليق أن يتلقَّى مِثْلي مِثْلَه ، واستمرت المراجَعَة بَيْنَنا على العادَة ، وتساقطت في مجلسنا من خلال الأوراق ثمرات الإفادة ، وأملاني له أشعاراً ، مما زادني بفضله إشعاراً ، فما خَصَّني به من نظمه الذي عَمّ ، قوله في حصر أصول النّعم :

ولله في النعما أصولٌ أفاضَها عَلَى الحَيّ لا تُرضَى لَدَيْها النَّفائِسُ

---

(١) في (ز) : في الصبح من غير أهواهم ضعنوا .

حياة وخلقٌ بعد هـذين قدرةٌ مع الشّهوةِ التمكّين في العقل سادِسُ

وقوله في حصر الواجبات على الباري عَزَّ وعلا على رأي أهل الاعتزال[1] .

الواجباتُ على الرحمن تَجْمَعُها سِتٌ أبينها في النظم تبيينَا
لطف بيان وتمكين كذا عِوَضٌ مع القبول ثوابٌ للمطيعينَا

وقوله في حصر ما يعمل فيه بالظَّن :

وسبع يكتفي بالظَّن فيها فتعديل وإفلاسٌ يسارُ
وارش جنايةٍ من كل جانٍ وقيمي وملكٌ واشتهارُ

وقوله في الأيمان التي لا تُرَدّ :

وهاك سبعاً من الأيمان ليس لها رد وليس سواها عند من عرفا
مردودة تهمة تمم مؤكدة قسامة ولعان وارم من قذفا

واجتمعت به في بعض اللَّيالي ، وقد نظمت السماء عقود الشهب لا عقود اللآلي ، ونفض غراب الليل جناح جنحه ، وأغلق باب الشرق خوفاً من هجوم صبحه ، وقد سُدّد عن قَوْس الهلال سهم الذراع ، وهزَّ كهف الثريا صارم المجرة للقراع ، وتفتح بنفسج الظلما ، وروى النَّسيم أخبار سَلمى[2] ، في مجلسٍ طاب ، وراق به الخطاب ، ونفح به الأرج ، وطاش في محاسنه ذو العقل ولا حرج ، وقد نام الرقيب وهدا ، وأوضح النجّم السَّبيل وهدى ، وطعنت أسنَّة الشموع في درع الليل ، وأسبلت السجّوف علينا فضفاض الذَّيل ، قبل أن يَخضَرّ

---

(١) يرى جمهور الزيدية رفض فكرة الوجوب على الله أيّاً كان المقصُود بها،ذلك أن كلمة الوجوب تعني الكلفة والمشقة ، وذلك يوهم الخطأ في حقّه تعالى . وكانت فكرة الوجوب على الله التي قال بها البصرية والبغدادية وهو أنه يجب عليه فعل الأصلح في باب الدين الخ . انظر (الصلة بين الزيدية والمعتزلة للدكتور أحمد عبد الله عارف ص ٢٥٦) .

(٢) اسم نبت .

من الصبح شاربه ، ويَثْمل من سراب الطُلّ غُصْنٌ هو شاربُه ، وقد طاب الهَوى وما فَسَد ، فهي ليلة أسعد من اللَّيلة التي بين الزّبانا والأسد ، فأمليته من نظمي لمعة ، وأملاني من أشعاره الطيّب الكثير من ذلك قوله في الشمعة :

وما قائم قد قام في نفع غيره ... على أنه في النّفع قد حَمَل الضُرَّا
تَرَى دمعه يجري على صحن خَدِّه ... كذي شغفٍ أجرى على خَدِّه نَهْرا
وما دمعُه إلا على فقد إلْفِهِ ... ولولاه ما أبدى دموعاً ولا أجرى
يبيت عليـلاً كلما طال رأسُـه ... ويمسي صحيحاً كلما زدته قَصْرا

ولّما وقف على بعض مؤلفاتنا قَرظه نظماً ونثراً ، لكنه فاتني إثبات ما قاله لأنه ذهب ولم أعثر له على عين ولا أثر ، وقد كتبت أنا على كتابٍ له في النحو ألّفه وسمَّاه : « الإغراب في الإعراب » قولي :

يا حَبَّذا الإغراب لما راق لي ... نَمطٌ له في غـايـة الإغـراب
كم قال للطُلَّاب حثـوا غيركم ... لفوائدي واسعوا إلى الأعرابي[1]

ولما تجاذَبْنا من المذاكرة بالأهداب ، وجرى في بعض المجالس بيني وبينه استطراد شيء من العلوم والآداب ، وصل بنا البحث إلى حذف عامل كان وقول ابن الحاجب رحمه الله تعالى في « الكافية » : ويحذف عامله أي وجوباً مع القرينة والعوض وجوازاً مع القرينَة ، فقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى : المراد بحذف العامل أي عامل كان فقط لا سائر أخواتها وعبارة ابن الحاجب تقتضي حذف باب كان وأخواتها كما عرفتم ، فقلت أنا : نعم إنما اختصت بـالحذف كان فقط لكثرة استعمالها ولذا قال نجم الدين الرضي رضي الله عنه عِند عبارة ابن الحاجب هذه ما لفظه : يدخل في هذا خبر كان وأخواتها وما كان ينبغي له هذا الإطلاق لأنه لا يحذف من هذه الأفعال إلا كان ، فكان عليه أن يقول : وقد تحذف كان انتهى

(١) هو محمد بن زياد بن الأعرابي صاحب النحو واللغة وفاته سنة (٢٣١) .

كلام نجم الدِّين الرضي .

ثم إني قلت : إطلاق العبارة من الشّيخ رحمه الله تعالى لا يضر لأن العبارة إذا أطلقت في غير بابِها لم تنصرف إلا إلى أم الباب إذ تلك قاعدتهم كما قال في باب المنادَى ، وقد استعملوا صيغة النداء في المندوب والمراد بها يا فقط ، فحينئذ يندفع كلام نجم الدِّين حيث قال : ما كان ينبغي له أي للشّيخ ابن الحاجب هذا الإطلاق إلى آخر كلامه . والعجب منه كيف جهل هذا وهو ابن بجْدة الكمال ، ورئيس هذا العلم وفارس هذا المجال ، ولم أر من دفع كلامه بما دفعناه ، والله أعلم .

الفَقيه العَلامة يحيى بن محمَّد الحَارثي[1]

تسنّم مقاماً أبيًا ، وآتاه الله الحكم صَبِيًّا ، فشمَّر للطلب ، وتدرع بالعَلَب[2] ، وصَبر على الكدّ ، أياماً لا تضبط بالعدّ ، حتى أدرك مطلوبَه ، وصادف محبوبه ، وسهُلت عليه من العلم أوعاره ، ولم يثلبه من الدَّهر نقصُه أوعارُه ،ورث في تحقيقه سعد[3] الدين الحارثي[4]، فلو أدركه لقال هذا بلا شَكٍّ وارثي ، له في كل الفنون أفنان ، أثمرت[5] بما لا تثمر به الأغصان ، مما حلا في اللَّهوات طعْماً ، وسقاه في منابته بمداده وما سقاه بالماء، له روضة معارف، نشرت من أوراقها مطارفَ ، وتقلَّدت بفرائد الزَّهر ، ونظرت محاسنها في مرآة النّهر ، تحمل نسيم المسألة منها نشرا ، وثغر الأقاح يضحك في وجه دَاخلها بُشْرًا ، سألته عن مسائل نحوية عويصة ، فأذاقني بالجواب مالم يذق الخبيصي خبيصة ، وأتحفني منه بزَهر نيسان ، وأتى بما يسلب عندُه كيس ابن كيسان[6] ، ولم يزل بحره يقذف

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/٨٨٥) نقلًا عن كتابنا هذا .

(٢) (ز) الصلب .

(٣) هو مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة (٧٩٣) سبق .

(٤) لعله يحيى بن محمد الحارثي ، نحوي له «مفتاح الألباب في النحو» توفي سنة (٧٥٢) . (الأعلام ٨/١٦٦) .

(٥) في (ز) : أثمر .

(٦) يعني به : طاووس بن كيسان الخولاني من أكابر التابعين وفاته سنة (١٠٦) . وإن أراد النحوي فهو محمد بن أحمد بن كيسان وفاته سنة (٢٩٩) .

باللآلي ، وبَدْرُه في فَلَكِه يطمس ظُلم اللّيالي ، حتى وافاه الذي وافى ، وأسقمه الذي طالما عافى ، فعلقه ألَم في أقدامه ، ومنعه عن حركته وإقْدامِه ، فَظَلَّ في البيت حبيساً ، كأنه الأسد لَزِم خيْساً ، إلى أن تَمَّ أمَدُه ، وتزلزلت عُمُده ، فمات وهو أقرب إلى الحَداثَة ، وذَوى روضُه المُتَوَّج بزهور الدَّماثة ، فأضحَى في الجَدَف ، دُرَّةً مصونَةً في الصَّدف ، تعاهَد الغيث مَضْجَعَه ، وأحسن الله إليه مرجَعَه ، ما نُشِرَت فوائده ، وقُرِّبت للطلبَة منها موائِدُه ، وله في شعر العلماء نصيب ، وفي نظم الأفاضل سهم مصيب .

كتب إليه السيد الحسين بن الحسن الأخفش رعَى الله لهما عهدا ، ووطَّأ لجنبيهما من إستبرق الجنة مهدا ، يلومه على هجر الكَشَّاف[1] ، وتناوله من مقامات الحريري خَمْرة الارتشاف ، وَيُبَكّت عليه باطراح « حاشية الكشاف » للسّعد[2] ، وعدم نشر ذوائب صدورها من المداد عن الأثيث الجعد ، وميله إلى حاشية العلوي[3] ، وأنه بذلك سلك في المنهج الذي ليس بقويم ولا قوي ، قوله :

يا عماد الهُدَى رَقَيْت ذُرَا الفضْل فلم أستطع لمجدِك مدْحَا
لِم ضربتم بالله قل لي عن الكشا ف مَيْلاً إلى الحريري صَفْحا
وطويتم كِشحاً عن الكشف لَمَّا أن طويتم على حواشيه كِشْحَا
واصطفيت الحواشي العلويات على السّعد وهو أحسن شَرْحَا
يشرح المشكل الذي يعجز النُّظَّار عن شَرْحه فَيُسفر صُبْحَا

---

(١) هو كتاب في التفسير مشهور من تأليف الزَّمخشري .

(٢) من أشهر حواشي الكشاف . قال في (كشف الظنون ١٤٧٨/٢) : وهي ملخصة من حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها .

(٣) هو عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي اليمني ، توفي سنة (٧٥٠) سبق . قال في (الكشف ١٤٨٠/٢) له حاشيتان كبرى وصغرى الأولى تسمى (درر الأصداف) والثانية (تحفة الأشراف) .

وقصارى أمر الحواشي الذي اختر ... ت معان تثير في القلب جرحا
يتجلَّى لكل من أبصرت عيناه ... حتى الجسور لا نال نُجْحا
إن يصفها العدلي بالحسن أياماً ... أتى الأشعري فأبرز قُبْحا
فاعتزلها وعُد إلى نكت السعد ... سريعاً فقد محضتك نُصْحا
واغتفر إن تفوت مسألة التحـ ... ـسين فالحسن ينتهي ثم يُمحى

فأجابه بقوله :

عقد دُرّ في نحر خودٍ رداح ... قد طوت عنده عن الحُلي كشْحا
أمْ لآلٍ منضَّداتٍ بثغرٍ ... أشنب نحوه الجمال تنحَّى
أم هي الشهب نظّمت باتساقٍ ... وأَضَاءت لنا فَلم نَرَ جُنْحا
ليس شيئاً منها وكيف وأنَّى ... من لها أن تُزِيل في القلب جُرْحا
بل نظام من القريض بديْعٌ ... شَاد فوق السماك للسعد شَرحَا
صاغَه مُنْشِئٌ مُجَلّ فداوى ... قلب من شفَّه البعاد فَصَحَّا
أنا لا أرتضي عن السّعد والكشا ... ف غيراً بقول من بات يلْحى
لست أختار الرَّوض لما تدلّى ... عنهما بالثّمار مُذْ راق سَفْحَا
فقصارُى أمر الرِّياض ارتياحٌ ... يكسب النّاظرين كدّاً وكَدْحَا

وكتبتُ أنا إليه مع مسائل نحوية سألته عنها من النَّثر قولي :

يا قَيْد الأوابد ، ومغاص الفرائد ، ومن هو في عصرنا العماد ، فعليه يقوم قصر الفضل ويُشَاد ، عليك من التحية شرفها ، ومن البركة العميمة أظرفُها ، ومن الرَّحمة أعلمها بقدرها وأعرفها ، أنهي إليك هذه المسائل ، التي تضيق عن ما بها المسائل ، وأجعلها إلى نيل عوارف معارفك من أعظم الوسائل ، فإنها ما زالت في صدري تختلج ، وما عرفت أي باب بها ألج ، لتعطّل الزّمان إلا عن الجهل ، وفقدان العصر عمَّن هو للمسألة أهل ، أستغفر الله ما تعطّل زمان أنت

فيه موجود ، ولا عدم الإيضاح في عصر أنت فيه لحل المشكلات مقصود ، فأبن في هذه المسائل وجْه الإعراب ، وأعْرب في إزاحة مشكلها غاية الإعراب ، فلك في علم النحو ، خمرة إفَادَة تُسْكر ولا صحو ، أنت فيه الأعلم ، الذي برمح قلمه يُطْعن الجهْل ويُكْلم ، بل أنت أسدُ أغْلب ، لا يساوره بأماليه ثعلب[1] ، لو أدركك الخليل لكنت له حبيبا ، أو الكسائي[2] للبس رُدْن إفادتِك قَشِيْبا ، أو أبو علي الفارسي[3] لكنت منه في الميدان أفرس ، لا برح روضك الأريض بعين الله يُحْرس ، ما دامت بك الإفَادُة ، وما عظمت إلى باب علمك الوِفَادة ، والسَّلام .

قولي : « أنت فيه الأعلم » في هذه الفقرة التورية لأن الأعلم أفعل تفضيل من العلم والأعلم أيضاً شيخ من مشائخ العربية وأستاذ كبير من النحاة[4] سُمِّي بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا ، وكل من كان مشقوقها سمي أعلم ، وبذلك عرفت التَّورية .

وقلت أنا في النَّظم وكتبت به إلى شيخ من مشائخ العربية وقد سألته عن مسألة نحوية أيضاً :

أوضح وقاك الله ما أنا سائلٌ عنه وحقق ما به أتكلَّمُ
وأبن لنا في النحو مسألة بها حار اللبيب فأنت فيه الأعلَمُ

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، إمام أهل الكوفة في النحو ، توفي سنة (٢٩١) ، وأماليه طبعت بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون سنة ١٩٦٠ م .

(٢) الكسائي هو علي بن حمزة الأسدي ، من كبار علماء النحو وفاته سنة (١٨٢) . انظر ترجمته في (نزهة الألباء ٥٨ ط السامرائي وإنباه الرواة ٢٥٦/٢ وبغية الوعاة ١٢٠) .

(٣) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي ، من كبار علماء النحو والعربية ، له الإيضاح وغيره ، وفاته سنة (٣٧٧) انظر (نزهة الألباء ٢٣٢) .

(٤) هو يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري ، من كبار علماء اللغة ، له شروح الدواوين ، توفي سنة (٤٧٦) . (وفيات الأعيان ٢٥٣/٢ والأعلام ٢٣٣/٨) .

وقال الإمام محمود بن عُمر الزَّمخشري رضي الله عنه :

وأخَّـرني دهـري وقَـدَّم معشراً   وأنهم لا يـعـلمـون وأعـلـمُ
ومُذ أفلح الجهال أيقنت أنّني   أنـا الميم والأيـام أفلح أعلمُ

والأفلح بالفاء والحاء المهملة وهو مشقوق الشّفة السُّفْلَى من الفلح محركة وهو الشق في الشفة السفلى ، ومعناه أنه مذ أفلح الجهال ، أي فازوا ونجوا، وبقوا في الخير ، من الفلح محركة وهو الفوز والنجاة والبقاء في الخير ، أيقنت أنّني أنا حرف الميم والأيام أفلح أعلم أي مشقوقة الشفة السفلى والعليا ومعناه والأفلح والأعلم لا يمكنهما النطق بالميم فالأيام لا تنطق بي ولا تفوه ولا تذكرني مع الذين أفلحوا فيها أي فازوا منها بمطلوبهم ونجوا من شرّها ، وبقوا على الاستمرار في خيرها .

القَاضي مُحَمَّد بنُ أحمَد النُّزَيْلي[1]

هو للعلوم أجلّ ناقل ، يترك كل عالم عنده أعيا من باقل ، تضلَّع من الفنون ، وأصابه في هيامه بالفوائِد ضرب من الجنون ، ففارق للطَّلب بلاده ، واستعاض ذكاء عَنْ بَلاده ، فصار كالجذوة المتّقدة ، مع بَصيرةٍ خبيْرةٍ مُنْتَقِدة ، لم يقتصر على فنٍّ فأقول في فَنّ كذا ، بل له في جميع الفنون عرفان يفوح عرفه بأطيب شذا ، إلَّا أن قدمَه في علم المنطق أرسخ ، وعقده فيه لا يُحل أبداً ولا يُفْسخ ، فهو في عِقد أربابه واسطة ، وحجته فيه لا يحتاج بينها وبين الوضوح إلى رابطة ، مَلأت بضائع عِلْمه سُوْقاً فسُوْقا ، وقمعت أحكامه من النّاس من أحْيا بسيرته فُسُوْقا ، له قلمٌ كأنه مِرْوَد ، لم يزل في يمينه يرعف عن دمٍ أسود ، ولذا ما برح يستنشق كافور الطرّوس ، ويسعى في أرضه البيضا[2] على الرُّؤوس ، لعلمه بأن الكافور للدِّماء من الممسكات[3] ، وأن دوام جريان الدّم من المهلكات ، كنت لا أراه إلا مُتهلّل المُحَيَّا ، وأخلاقه ألطف من النّسيم إذا تضوّعت ريًّا ، كثير دعابٍ ومِزاح ، فثوب الوقار عنه مُزاح ، ما عبس له ثغر ولا قطَّب ، فمسلكه مع أبناء الزّمن مسلك الطَّبّ ،ولـذا خفّ على الأرواح خفة النّسيم ، وأقبلت إليه المسامع إقبالها على صوت الوتر الرَّخيم ، وكان لدى

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٢/٤٤٤) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) يعني أرض الطرس « البيضاء » .

(٣) قال في (المعتمد ٤٠٤) من خصائص الكافور قطع الدَّم المفرط .

ذوي الأمر مجدوداً، ومن صنف اللطفاء عندهم معدوداً ، يفوز منهم بما يريد ، ويسعون إلى نجاح قصده سعي البريد ، لأن الزَّمان ألجاه ، إلى التهالك على الجاه ، وله في شعر العلماء سهم ، لأنه عن شعر الأدباء عاجزٌ جهم ، من ذلك قوله :

أستغفر الله من هذا الذي فتكت ألحاظه السود بالقاضي ولا وزر
رمته عن سهمها فالله يعصمه ويصرف القلب عنها فهو مقتدرُ

قلت : ليته قال :

ما زال من سهمها بالله معتصماً ليصرف القلب عنها فهو مقتدرُ

ليكون في ذكر المعتصم والمقتدر من البديع التَّوجيه[1] بالخليفتين المشهورين من بني العباس ، وإن كان في قوله : « فالله يعصمه » بعض إلمام بهذا الغرض وليس هو من مراده ولا قصده قطعاً .

(١) التَّوجيه عند أهل البديع : هو أن يوجه المتكلم مفردات بعض الكلام أو جملة إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً من أسماء أعلام أو قواعد علوم أو غيرها توجيها مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقي ، كقول الشاعر :

عـذارك ريحـان وثغـرك لؤلؤ وخـدك كافـور وخالـك عنـبر

فهذا ما وجه إلى أسماء أعلام من الخدّام « شرح الكافية : ١٢٣ » .

القَاضيْ عَبْدُ القَادِر بن أحْمَد النُزَيْلي[1]

أظرف من كل ظريف ، وأنضر من الرَّوض الوريف ، دُرّ ظرافة بلا شك ، فلو كانت اللطافة جسماً لما كانت إلاّ ذاته بلا شك :

أو مُثّل الظّرفُ جسماً لكان للجسم روحا

ارتحل إلى صنعاء للتحصيل ، وحظي من أوقاتها بسحر وأصيل ، وقرأ فيها على علماء ما منهم إلاَّ عريق وأصيل ، ففاز بغاية المطلوب ، وظفر بما هو ألذّ على الأكباد المحرورة من بارد المشروب ، رجع بالغنيمة ، وسَرّ من وطنه أنيمه[2] ، وقد ملأ من بضائع الفوائد حقائبه ، وأوقر من متاع العلوم ركائبه ، وأما الآداب فما رأيت من جمعها جمعَه ، ولا نظرت مثله من شنَّف بها من الدَّهر سمعه ، سيما آداب ذوي العصر ، فقد استقطر من وردها ما ينفح لدى العصر ، وهو أحد أترابي ، ومصابيح نُدمائي في ليل شبابي ، فكم مرَّة ساجلني وساجلته ، وعاجلني إلى مجالس السَّرور أضعاف ما عاجلته ، وكم نهار مرّ لنا أبيض المحيَّا ، قد أتحفنا بأزاهير أنْسه وحيًّا ، وليل لم يزل أسود الذَّوائب ، حتى وخطه بياض الصَّباح فإذا هو شائِب ، وصَفْوٍ وردناه لم يشبه من الكدر شائب ، وليالي الوصال لا الصدود ، تحكي في حسنها الشامات على الخدود ، ولما أضمر الزَّمان عِزّه وأسره ، لم يزل

(١) ترجمته في (نفحات العنبر (مخطوط) وطيب أهل الكساء (مخطوط)) وكان قد تولى الوزارة ، وأسس المسجد المعروف باسمه إلى الآن ، توفي سنة (١١٥٤) .

(٢) الخلق من الإنس والجن .

يرقيه في المراتب حتى أقعده من منازل الشمس أرائك وأسِرَّة ، وإذا هو في سعادة حظها لا يُغلَب ، فما قال معها له الزَّمان لا في مطلب ، فأيامه لا تحوي لا ، وهو معها لا يخاف لنعمته تَحْويلا ، فهو الآن في عيشٍ أصفى من النهر ، وأخضر من النبات وأنضر من الزَّهر ، وقد أملاني له أَشْعاراً ، زادت بفضله إشعاراً ،مما لو أملته الوُرق على العيدان ، لطوقتها بدر الزّهور الأفنان ، وخلعت عليها حلل الأوراق الأغصان ، أنشدني له قوله :

أحبه قلبي سَهد الطَّرف بعدُكم ... فعطفاً على مضناكم وله رقّوا
ولا تَسْألوا عن ملكة الصبر بعدكم ... فأنَّى يصحّ الملك وهو لكم رقُّ

وقوله :

ناديت من أهواه يا غصن النقا ... هل عادل القدّ القويم يميلُ
فأجابني بالغصن[1] شبه قامتي ... قلت النسيم رواه وهو عليلُ

وقوله :

سألت غصن البان عن قطعه ... وأي ذنبٍ كان في حَدِّه
قال شكا الريم لقاضي الهوى ... إنّي سرقت المَيْل من قدّه

وقوله مضمناً :

وافى الغزال وكتب الخل في يده ... وسيف لحظيه مشهور ليفتك بي
فقلت : ضع كتبه تكفي اللحاظ بنا ... السَّيف أصدق أنباء من الكتب

وقد سبقه إلى هذا من قال وقد أرسل إلى محبوبه بكتاب :

ها قد بعثت رسولي من كلفت به ... وفي كتابي ما ألقى من الوصب
فدع كتابي وسل عني لواحظَه ... السيف أصدق أنباء من الكتب

---

(١) في (ز) من بالغصن ، وأصلحه في (ب) مالك المخطوطة الوزير فايع .

وقال آخر :

خط العـذار نهاني عن محبّتـه	وقال أقصر فقد لحيت في الطلب
وقـال لي لحظهُ سلوانـه غلط	السَّيف أصدق أنباء من الكتب

وقوله مضمناً :

قال الفؤاد ألا تشكو لـوجنتِه	جور التَّلهب بي من نارها الساري
فصرت لما أطعت القلب في حُرقٍ	كالمستجير من الـرمضاء بـالنَّار

وأحسن منه قول الأمير مجير الدين بن تميم فيمن على خدّه خال :

رأيت حَبَّة قلبي حين لاح لها	محبوبها نفرت من حر أفكاري
ثم استجارت بخدٍّ منه فهي به	كالمستجير من الـرمضاء بـالنَّار

[وقلت أنا[1] :

قد استجرت بِخَدّ الحبّ حين غدت	لوافح الهجر تكوي قلبي الواري
فكنت في مثل تلك الحال حين جرت	كالمستجير من الـرمضاء بـالنَّار

والأصل في هذا كله قول كليب في عمرو بن الحارث بن ذُهل بن شيبان :

المستجـير بعمـرٍ عنـد كـربتـه	كالمستجير من الرمضاء بالنَّار][2]

وقوله مخاطباً للسيد العالم الأديب عبد الله بن علي الوزير فسح الله في أجله ، وقد حضر هو وإيّاه بمجلس بعض الأكابر وقام للخدمة خادم من العبيد جميل يُسمَّى السلطان :

يا من تذل له الأكابر طاعة	والبـدر يعنـو خـاضعـاً لمقـامـه
ومن الشموس تودّ طوعاً أنها	تــدنــو مـقبـلة إلى أقدامِـــه

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز) .

(٢) (اللسان : ٣٦/٧ المستقصى : ١٩/٢) .

يهنى الوزير ويـالها من نعمـة إذ أصبح السّلطان من أخدامه

وقوله يخاطب بعض الوزراء بحصن الخضراء[1] ويُعول عليه في قضاء ما يريد قضاه من إمام الزّمان ، ويحثّه على المبادرة بالسَّعي في انفصاله بعد أن أشق به البقاء وحصل له تأثر من السَّوداء :

صـدر الخلافـة أن رقكم إذاً خـالٍ عن البيضـاء والصَّفـراء
وتحـرّك السـوداء أثـار تـأثّـري فـامنن بتخليصي من الخضراء
لا طاقة لي حين لا بات غَداً يُــرْجَى لفتـح قــراءةٍ وقِــرَاءِ

وقوله وهو مما كتبه على بعض مؤلفاتِنَا لّما طالعه ونظر فيه نَظَرَ مُتَأَمِّلٍ لَما حواه :

أسنـد أحـاديث فـضـلٍ بهـا الـشـهـاب تَـفَـرَّد
صـحيـحهـا في المعـالي وفـضـلهـا لـيس يجحـد
وإن أردت بـيـانـاً فـهـاك مـسـنـد أحمـد

وقوله وهو مما كتبه عليه أيضاً :

من يقس بـابن نبيه جاهـلاً نـظم قاضينـا الـرَّفيـع الـرُّتَبِ
فلقـد أخـطا قيـاسـاً إذ لـه معجـزات ظَهَـرت في الأدب
بكتـاب أحمـد قـد جـاءنـا ولـكـم بـين نـبيْـه ونَـبـي

وله إليّ مكاتبات نظماً ونثراً ، مما نصير بجواهرها وذهبها في سعة ونثرا ، قد تبدّدت تبدد العقود وتفرقت ، وذهبت أيدي سبأ وتمزّقت ، وسأورد منها هنا جواباً لي عليه نثراً فإني لم أظفر الآن بغيره وهو قولي :

سلام يفوح في الأصائل والبكر ، ويحلو لذي الأدب حلو معنى مبتكر ،

---

(١) الخضراء : مدينة جنوبي رداع بمسافة (٢) كم ، ابتناها المهدي صاحب المواهب وهي قمة جبل أخرم .

يتضّوع منه عطر له القِرطاس جُوْنَة ، [ويُصَبّ من بارده قطرٌ جعل المداد في آفاق هذا الرِّق جونه][1] ، أرقّ من قوام الغصن إذا تقلّد بعقد الزَّهر واتشح ، وأندى من جبين الحديقة إذا ابتلّ بعرق الطلِّ ورَشح ، وقد أودعت سرّ نشرها مع الرِّياح ، ثم أدركها الندم فعضّت أصابع منثورها بثغر الأقاح ، يهدى إلى مقام من لبس من المجد سابغ المطرف ، ووضع على رأسِه تاج المعالي فلو وضع ابن جلا[2] عنده عمامته لم يُعْرف ، الذي أفصح بالسجع هِزَارُه ، وتطرّزت من الشعر بالوشي الأنيق إزاره ، فنضار أدبه بنار ذكائه مسبوك ، وفضله متيقن على أن عقد كلماته الدُّرِّيَّة مشكوك ، وصارت نفحاته في العلم نفحات عنبرٍ ومندَل ، وسبيله سبيل مَن هَدَى الطُّلَّاب إلى سبيله ومن دَلَّ ، فبحره العذب ذو لجب ، ودُرّ كلماته ليس يُقْضَى عنده العجب ، أدام الله ماله من العُلا ، ومتَّع بسجاياه التي من ذاقها فقد سفَّ كأس الطِّلا ، وأبقاه ماضي الشبا طري الشباب ، يبتسم في وجه أدبه فم الكأس بثنايا الحُباب ، وسقى بماء الصحة روض شمائله ، وأرضع ثُديّ المزن طفل أزهاره في مهد خمائِله ، وقرن بالسعادة سانحة وبارحَة ، وأدام ماله من لطف السّمات التي ما الصبا وقد هَبّت سُحْرة وبارحة، أما بعد ، فإنها وردت إليَّ وأنا الحقير ، مطارحته التي أنا عن سواها غَني وإلى فِقرها فَقِير ، فَهَزَّت عطفي يميناً وشمالاً ، وألبسته برد المسرة فازداد جمالا ، وأدارت عليَّ شُمُولاً لست أصحو عن خمارها ، وزفّت إلي عروساً سلبت عقلي قبل رفع خمارها ، وأذكرتني بمنثورها الرائِق ، منثور رياضٍ تفتح بين الآس والشقائق ، من معاهد تقضّت فيها أيام الصِّبا ، وساجلتني في جوانبها بحديث الأحباب ورقاء الحمائم ونسيم الصبا ، إذا

(١) ساقط من (ز) .

(٢) هو ابن جلا الليثي . قال ابن سيدة : سمي لوضوح أمره . قال سحيم بن وثيل :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

انظر (لسان العرب ١٥٢/١٤) .

مرَّت بها النسيم العليلة ، بريت من السقام بعد أن يغشاها عرقُ الندى فتنتعش على أذيالٍ بليلة ، فقد حَثّ منّي زنادا ، وأَنْسَتْني من الدَّهر جفوةً وعنادًا ، ونفت الأحزان والكروب ، وأطربتني وكريم الطبع طروب ، وأتت على الشرط والشّرط أملك[1] ، فزدت بها فضلاً فلا أدري أيها المتفضل أصبح الفضل لي أم لك ، فحملتني على الجواب وإن كنت قاصراً ، واستقطر لفظها مني كميت الفكر فكان عاصرا ، والزَّند لا يورى إلا بعد القدح ، والغصن لا يهتز إلا إذا سمع من الحمام الصدح ، وتعَرَّضت أيّدك الله لسؤالي ، والبحث بعد الفراق عن حقيقة حالي ، فأنا للبعد في سكرة لو وليْت ، سُكْر حزن لا سُكْر سرور كسُكر الكُميت[2] ، لا أجدُ أخاً أسَاجلُه ، ولا نديماً توقَّدت بنار الذكاء مراجله ، ولذا استَبدلت الوحشة بالإيناس لَمَّا لمْ أجد إلاّ بهائم جَهل أفرغُوْا في قالب النَّاس :

صبيانهم في القُبْح مثل شيوخهِم وشيوخُهم في العقْل كالصّبْيان

وطبعي كما علمته كريم ، لا يُرتضى نقصان الجليس والنَّديم ، فلو جاء لمسني البدْر ، وأمنْتُ منه المكر والغدْر ، لقلت متكلف يعروه النّقصان ، فاللَّبيب من حفظ نفْسه عن مجالسته وصان ، فلذا توحَّش أسدي ونفر ، ولم يرض من أتراب الجهالة بنفر ، على أن ماء النصب قد نَضب وانماع ، لما قطعت عن النَّفس علائق الأطماع ، لأن الأمل من المحن ، ومن زرع الرّجاء من أبنا الزّمان حصد الإحن ، والرَّاحة واليَّاس ، كالخضر والياس ، وسأرتقب فللدّهر فرص ، وأجعل الصَّبر شيمة فلكل حرّ غصص ، والرّضا بما وقع حَسْبي ، إذ لو أحتمل لطال على الزَّمان وبنيه عتبي ، ومن أكثر الاحتجاج ، غلبه الدَّهر باللَّجاج ، وقد آن للقلم أن يثني عنانه ، وينزع عن معركة الشكوى سنانه ، والله يبقيك لي خليلاً وصديقاً ، أستغفر الله من فرطات اللسان بل أخاً وشقيقاً ، ما تَضَوع مسك

(١) سيأتي شرح هذه اللفظة . وهي من عبارات الفقهاء .

(٢) من أسماء الخمر .

اللَّيل وفاح ، وفَغَم طيبه مناخر الآفاق فَعطس لجدّته الصَّباح ، وما ارتشف من الشَنَب ، شقيق النَّحل وأخو ابنة العنب ، وما اشتاق محبٌ إلى حبيب ، فأكثر في الأطلال الدارسة من التَّشبيب ، والسلام.قولي في هذا المنثور : « والشَّرط أملك » قد أذكرني بقولي في النَّظم :

تملك قلبي الشَّرط من صدغ فاتني فكاد لفرط الوجْد في الحب يهْلكُ
فإن قيل ورْدُ الخدّ قد صار مالكاً لقلبك قلت الشرط من ذاك أملك

وقول أبي عبدِ الله الفيُّومي[١] :

بروحي من ظِباء الحبْش بدرٌ لأحشائي بفخّ اللَّحظ أشرك
له شرطٌ على خَدّ رقيق تملك مهجتي والشَّرط أملك

وقول الشيخ جمال الدِّين بن نباتة المصري[٢] :

رُب ذي شرطٍ على الخَدّ وذي خالٍ مُمسَّك
ملكا قلبي في الحبّ وكان الشرط أملك

وقول شهاب الدِّين المنصوري[٣] :

يا بدر بالشرط استطلت فَزُر فتاك وخَلّ مطْلك
نادى أليس لي المحا سن والبهاء والشرط أملك

وقول الشَّيخ عبد النَّافع بن عراق :

بي من سباني من بني الحبشان ورمى الفؤاد بأسهم الأجفانِ

---

(١) هو عبد البر بن عبد القادر الفيومي ، من الأدباء ، له مؤلف على طريقة الريحانة ، وفاته سنة (١٠٧١) (نفحة الريحانة ٤/٥٤٦) .

(٢) (ديوانه ٣٧١) .

(٣) هو أحمد بن محمد المنصوري ، شاعر ذاع صيته ، وله ديوان ، توفي سنة (٨٨٧) . انظر (الضوء اللامع ٢/١٥٠) .

لم أجن من سوى الغرام بشرطه والشرط أملك للغـريم الجـاني

وقول الشيخ صدر الدين بن الوكيل :

أرقتُ دمَ الراووق حلاًّ لأنني رأيت صليباً فوقه وهو مشركُ
وزَوّجت بنت الكرم بابن غمامة فصح على التَّعليق والشرط أملكُ

وقول صفي الدِّين الحلي رحمه الله تعالى :

شرطي بأن حشاشَتي رق لكم والشَّرط في كل المذاهب أملكُ

وقول شمس الدين محمد بن دانيال وهو مما ينقش على مشراط حجام وهو على لسانِه :

أنــا لا أكــلم راضـيــاً إلا بــإذن مــنــه يُمْــلك
شرطـي شفــاء الهــالكــين من الــردى والشرط أملك

وقول خليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى :

شرط الخد فنّ السحر قل لي لهاروت إلى الكهانة صار أم لك
ملكلت بسحر لحظك كل قلبٍ بـلا ثمن نعم والشرط أملك

قولي : « والرَّاحة والياس كالخضر والياس » ، فيه الجناس الظَّاهر ، والمعنى أن الرَّاحة واليأس أخوان كما أن الخضر والياس عليهما الصلاة والسَّلام أخوان ، ففي الجامع الصغير[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه « الياس والخضر أخوان أبوهما من الفرس وأمهما من الرّوم فالياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالبحار » فافهم .

---

(١) انظر (الفتح الكبير ١/٢٤٦) . أخرجه الديلمي في « الفردوس » .

السيد محمّد بن الحسينْ بن يَحيى بن أحمد الحمْزي[1]

بدر كمال ساطع ، وحسام ذكاء قاطع ، حلل فضله رقيمة ، ودرة ذاته مالها قيمة ، وولود الأيام عن مثله عقيمة ، ذو دوحة مثمرة ، وليال من المداد مقمرة ، شملة شمائله ذات حواشٍ رقاق ، وجواهر أدبه لها من الدّويّ حقاق ، ألفاظه طلاسم وأسحار ، وأوقاته أصائل وأسحار ، ما زال على طلب العلوم عاكفاً ، وعلى رياض الدَّفاتر غيثاً واكفاً ، حتى زكت معارفه ، وامتد من ظِلاله ورافُه ، فهو بَدْر في العلماء ، يَظْهر عنده التكلف ببدر السَّما ، إلا أنه حَطّ قدره ، وشان عند ذوي الرَّجاحة بدْرُه ، بالإكثار من الهزل والمجون ، وألفاظ للبذاءة حديثها عنده ذو شجون ، وله في الأدب عقود حلَّى بها الدَّفاتر ، ورياض يغار لها الرُّوض من نرجسه بطرف فاتر ، فبلابله فيه ذات رخَامة ، يُغرّد من غصون أقلامه على خامة[2] ، وكان إذا أعجبه معنىً ، وطاب له من أبيات غيره مغْنىً ، أغار عليه إغارة الجيش ، وبادر إلى سلخه بِدَار طيش ، غير مُبالٍ بملامة ، قد لبس لأسهمها لامة ، فهو أسرق من بُرْجان[3] ، لطائره المتخطف من العيب والنَّقص بُرجان ،

---

(١) من الأدباء الكبار ، له ديوان شعر . وفاته سنة (١١١٢) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/٦٠٦) .

(٢) أرضه .

(٣) في الأمثال « أسرق من برجان » : كان لصّاً بالكوفة صلب فسرق وهو مصلوب ، وذلك أنه قال لحافظه : مر إلى تلك الخرابة فإن لي فيها مالاً وأنا أحفظ برذونك ، فلما غاب عنه قال لواحد مرّ به خذ هذا البرْذون ، فهو لك (المستقصى ١/١٦٦) .

سَهمه في التّلصص قامر[1] ، ومن العجيب بأنه خارب وهو لأبياته عامر ، ولمَّا أخذ من نَظمي شيئاً عاتبته شِفاهاً ، فما نقع غُلّتي بجواب ولا شفاها ، بل خلط الجدّ بالهزْل ، وقال : لم أنسجْ برودي بذلك الغزل ، وغَلبني بسلاح من الوقاحة ، وغَصب على روضَنا جنى ورده وأقاحه ، لأن الجدّ يذهب عنْده مجّانا ، فإنه لم يزل في حركاته وسكناته مجَّانا ، وقد جمع بعض إخوته ديْوانه ، وعمر بأحجار من بقاء الذكر إيوانه ، وحجمُه لطيف جدّاً ، وقد شممت من نفحاته نَدّىً ، وطالعته فما ألفيت له نَدىً ، وكم معنى قد جنى به ، كأنه الرَّاح تحت حبابه ، ألطف من نسمات الأغاني ، إذا هبت فمالت لتحريكها الأغصان من قدود الغواني ، وهو ممن عاجله أجله ، وعراه لدهم خطبه وجله ، فاحتضر شبابه وأحرز في الضريح عبابه ، وصرعه من الخطب ريبه ، فزر على ديناره من اللحد جيبه ، تعاهدت السّحاب ترابه ، وغشى من النبات من جدثه قرابه ، ما دامت حلة الظلماء تنسج وحديقة السَّماء تنفتح ، من نجومها ولونها عن نرجس وبنفسج .

وبيني وبينه من العلائق ما بين النسيم العاطر والحدائق ، فكم أدار عليَّ خندريسه ، وأطفأ بالمحاورة من الفؤاد رسيسه . وقد كتب إلي من أشعاره ما أورث الدّر مستدام عاره ، كقوله وهو مما كتبه إليَّ في شهر شعبان الكريم أحد شهور سنة سبع ومائة وألف سنة :

ليس في الدار بعد بعدك معنى ... للمعنى وأي معنى لمعنى
عزَّ منك اللقاء وما عزَّ صبري ... عنك إلا إذا تنائيت عنا
لا يظن السلوّ إلا حبيب ... بالتلاقي على المتيّم ضنا
قد دخلنا بحر الغرام ولو ملن ... عن الهجر عندما ملن غصنا
فعلام النفور والميل تيهاً ... يا غزالاً دنا وغصنا تثنى
يا مغير الغصون حتام تجني ... بالتجني وما عهدناك تجنى

---

(١) كذا يقسو المؤلف على بعض معاصريه من الأدباء الذين لقوا حظوة عند أهل عصره .

كيف حال المشوق بعدك لما ... ناح شوقاً إلى لقاك وانى
طرب المستهام شوقاً ولما ... أن تبدت رياض خدك غنا
إن يكن ورد وجنتيك عن الأز ... هار أغنى فإن أنفك أقنى
يا خليلي كيف حال مشوق ... قد تجافاه حبه وتجنّى
سل سيف المنون للصب لما ... فرض القلب حبه ثم سنى
من عيون نواعس فاتنات ... فاترات تسبي الغزال الأغنا
سلبت صحتي وفيها سقام ... وسبت نوم مقلتي وهي وسنى
مقَل مع حواجب تنظر السحر ... عليها من قاب قوسين أدنى
إن من قاس بالقياس لمخط ... فيه لكننا ذهلنا فقسنا
مثل من قاس أحمداً بسواه ... حين أبدى فهماً شريفاً وذهنا
حسن الجد والفعال ومن حاز ... خصال الكمال لفظاً ومعنى
إن نصب التمييز رفع لمن طاب ... أباً في المكرَّمين وابنا
ليس ذكر الشهاب فينا لمحمود ... لأنا لأحمدنا قد حمدنا
جلّ من زاده على الحسن إحساناً ... فأعطني زيادة ثم حسنى
زاد قدراً على ابن زيدون لما ... زاد فخراً به الزمان وزدنا
هو حاوي الآداب نثراً ومنظو ... ماً ومحيي العلوم فناً ففنَّا
شاع عنه التصنيف من حين جلَّا ... في الطريق العلا ونحن نقلنا
صنف العطر والسلافة حتّى ... طاب ذكراً بذا وعن تلك أغنى
وخطيب كم هدّ بالوعظ صخراً ... ودموع الخنسا تساقط منّا
فبيوت التقي تُشاد لنا إن ... قد فعلنا بالوعظ منا وتبنا
فجزاه الإله عنا ثواباً ... وجزانا الجميع لطفاً ومنّا

فأجبته بقولي :

سكنت زفرة الجوارح منا ... حين جادوا بالوصل فضلاً ومنا

ذكر العهد بعد طول تجافٍ وظفرنا بالقرب منهم وفزنا
كاتبونا فكل صبه معنى لم يزل بعد في المحبة قنّا
ألف سَهلاً منهم بمن حَلَّ قلباً لنواه وطول ذا البعد مضنى
لحظه ينصب الفؤاد لهم وهو عند العتاب يكسر جَفْنا
كم لقينا على هواه هواناً وهوينا فيه اكتئاباً وحسنا
رشأ شاكل المحب بخصرٍ ذي اختصار قد كاد للسقم يفنى
خَضَّب الكفّ بالمدامع لَمَّا أنَّ شوقاً إلى لقاه وحَنَّا
آه لهفي على النّقا وهو خَد وَرْدُه الغضّ باللَّواحظ يجنى
رمت كتماً فلست أوّلُ صبٍّ بالنَّقا في الهوى عن الخدّ كَنَّى
مثل ذكرى للرّمح وهو يراع جاء فينا بمابه قد عجزنا
فهو رمحٌ على الحقيقة إلَّا أنَّنا في عُلاَه لم نَرَ طعنا
بيمينيّ مُحَمَّدٍ طالما هُزَّ فأعيت فيه المدائح قرنا
سيد لو نظمت فيه الدّراري مدحاً قيل أين منك وأنَّى
لاتراه يرتاع خوفاً ولا يجعل هَمَّ العُلا طعاماً وجُبْنَا
قد حكى النَّجم في العُلا والتسامي وهو منه أدق في النّحو ذِهنَا
هو ركنٌ للدّين وهو عليه زاد في العلم وهو أصغر سِنَّا
في رياض العلوم قِلنا لديه فلهذا فيه المدائح قُلْنَا
وسمعنا وهو المبرِّد في النحو لأقلامِه على الطِّرسِ لحَنَا
وجَنى الحِلْو من رياض علومٍ وعلى من نوازل المجد وَجْنَا[1]
أحرز المجد وهو في النَّظم عنه جلّ قدراً وجلّ لفظاً ومعنَى
نظمه الدر في النحور لهذا منه عند المحبين أحكم وزنا

---

(١) العارض من الأرض .

عجز القيراطي[1] عن وزن نظم بـلآليـه خصـني منـه منّـا
وأرانـا من نظمـه الغضّ أفنا نـاً تـدلّت بها الحـواسـد أفنـا
ذُقت مكروه بُعْده وهـو نَدبٌ لسيـوف أباحت الضّـد سنّا
هاك مني الجواب يا ابن حسينٍ جاء يرجى من الحيا منك رُدْنا
وأبق فينا للفَخْر عيناً وللسُّؤد د والمجـد والمعـالي ركـنَـا
لج بباب العُلا إذا نحن عنْهُ لقصـورٍ عن الـولـوج رُدِدْنـا
أنت عينٌ فلست فيه من الحاجب تحـتـاج في دخـولـك إذنـا
وسلامٌ عليك يا مفرد الـدَّهرِ دوامـاً مـا الغصن تيهـاً تثنى

ولما وَرَدَ زَمَنُ الربيع ، وجَاء هَنْدَسِيُّه بدائرةٍ من كؤوس القَطْر لاتحتاج إلى تربيع ، وتفتَّحت الوُرود ، لما طاب لها من ماء الغمامة الورود ، وسرق النَّسيم حُليّ الزَّهر ، فَجُرِّد لقطعه سَيْفُ النّهر ، كنا نجتمع في حدائق تُجلى بمنظرها الأحداق ، ويُمْلي علينا بها الوُرق أحاديث المسرَّة من الأوراق ، فَعَرض لهُ ما أوجب طلوعه من شِبَام إلى كوكبان ، فأوحش الخلطاء وكَدَّر الصَّفو على النَّدْمان ، فكتبت إليه مرتجلاً ، لما لم أزل مِن فِرَاقه وجلاً :

أيا بَدْر دين الله أكملت في العُلاَ خصالاً وروعت المحبّ بذا البينِ
وأخفى سَريعاً كوكبـان بربْعِـه عن العين بَدْراً منك[2] جل عن الشين
ومن عجبٍ أنّ يخفى البدر بَعْد مَا تكامل حسناً كوكبان عن العينِ

فأجابني بقوله :

أيا شمس علم أطلعت أنجم السّماء ويا من سما بالفخر فوق السماكين

---

(١) هو إبراهيم بن عبد الله الطائي ، شاعر اشتغل بالفقه والأدب ، له ديوان مطبوع بعنوان « مطلع النيرين » طبع سنة (١٢٩٦) هـ . توفي سنة (٧٨١) . انظر : (الدرر الكامنة : ١/ ٣١ وشذرات الذَّهب : ٦/ ٢٦٩ ومعجم المطبوعات : ٢/ ١٥٣٥ والأعلام : ١/ ٤٩) .
(٢) سقط من (ز) .

ويا واحداً للبدر والشمس ثالث بغير اختلاف فيه ما بين اثنين
لئن حال دون القرب ميل فلم يكن سِوَاؤك دون الميل يدخل في عينِ
فَلَو نظر الجامي[1] منك فوائداً لما خَطَّها إلا على الراس والعينِ
نظرت بعين المجد إذ صرت عينَه وأفضل من بالنَّظم فاه بلامينِ
فإنك شمس لا يعاب ضِيَاؤهَا كبدر اللَّيالي بالتَّكلف والشينِ
فلا زلت إنسان المكارم والعُلاَ وأُنساً لمن روعته أنت بالبَيْنِ

قوله : « على الراس والعين » فيه تَوْرية ظاهرة بالعلامة العَيْني[2] صاحب كتاب « الفرائد شرح الشَّواهد النحويّة »[3] ولذا إني قلت في مليح نحوي :

نحويُّكم في هواه قد كثرت شواهد الحبّ بعد ذا البينِ
وشرحها في الخدود متضحٌ يُمْلأ له مِن فرائد العيني

وكتبت إليه ببعض الأيام ، وهو بكوكبان وأنا بشبام ، أدعوه إلى متنزَّهٍ يقال له الحظائر ، قد عُدِمت الأشباه له وعَزَّت النَّظائِر ، بعد أن وقع بالعشي مطر غَصَّت به السَّواقي ، وبلغت معه نفوس المسائل التَّراقي ، ما لفظه وصورته :

نحن والندماء عِقْد بلا واسِطَة ، وعصابَة من الأقراط الذَّهبية بلا رابطة ، وحديقة بلا نسيم متضوِّعة ، ولا زهور ممطورة متنوعة ، ولا شك أنك الواسطة والرابطة ، والنَّسيم التي هي منْ جنان الفردوس هابطة ، والزَّهر المتفتح لتلك الحديقة ، التي لا تبرح مَدامع السّحب عليها غديقة ، فبالله عليك إلاَّ ما بادرت

(١) الجامي : هو نور الدين ملا عبد الرحمن بن أحمد ، ولد بجام ، وهي من بلاد ما وراء النهرين وبرع في علوم الصوفية والبلاغة ، له « الفوائد الضيائية » أو « شرح ملا جامي على الكافية في النحو » طبع عدة مرات . توفي سنة (٨٩٨) .
(٢) هو بدر الدين محمود بن أحمد العيني ، من علماء الشام الأفاضل ، عاش بمصر ، له مؤلفات عدة . توفي سنة (٨٥٥) .
(٣) طبع بهامش « خزانة الأدب » للبغدادي سنة (١٢٩٩)هـ .

بوصولك ، ومتَّعتنا بكونك لدينا وحصولِك ، فأنت تتمة الأنس ، بحسن محاضرتك التي لم تنس ، بك يكمل السّرور ويتم ، وحديثنا بدىء بالتّمني لحضورك وخُتِم ، فنحن في روض واسعٍ غير ضنك ، قد استغنى بما عنده من المحاسن إلا عَنك ، عيون أزهاره إلى الطريق شاخصة ، وقدود أغصانِه لغناء الوُرق غير راقصة ، قائمة على سوقها ، قلقة لفرط شوقها ، فإذا وصلت هَزَّت من المسرة ناعم أعطافها ، وأذالت حلو الثَّمرات لاقتطافها ، وشاركنا في السّرور فقد جزنا أقصاه وأدناه ، وعُدّ عليل النَّسيم على أرائِك الحدائق فإنا قد عُدْناه ، واستدرك رمقه في أنه في آخر جزء من الحياة ، وقد كاد أن يموت لذوبان أنفاسِه ، لولا رشنا له بالبارد من المياه ، يتَنَفّس الصُّعدا لبعدك ، ويتابع الزَّفرات لفقدك :

وأمسى نسيم الرَّوض في فرش الربا عليلاً فكم نسعَى له ونـزوره

أمَا تشوقُك هذه السُّيول ، المتسابقة في ميادين الريَاض كأنها خيول ، قد صاغت لسيقان الدوح خلاخل فضة مَصْبوبة ، وأحسنت في سبكها على نارٍ من الشقائق مشبوبة ، زبدها يذهب جفا ، ونبات الأرض لا يعرف منها جفا ، قد تَكَّسر ماؤها من رؤوس الجبال ، وقطعت صوارمها فإذا هي نصال النِّبال ، مَلَأت من السَّهْل فُجَاجَه ، وأديرت شمولها من الزُّجاجة ، فالبِدَار دَامت أيّامُك مقصود ، قبل أن تجد زرع عمر بمناجل الأهلة محصود . والسلام .

قولي : « وأديرت شمولها من الزجاجة » فيه تورية ، لأنَّ الزجاجة للشّمول وهي الخمر معروفة ، والزُّجاجة محل معروف من منافس جبل كوكبان المحروس تنصب منه السُّيول أيام المطر .

وقد ذكرتُ هنا ما كتبته معتذراً إلى بعض الرُّؤساء من الأصحاب ، وقد استَدْعاني للخروج إلى « الزجاجة » المذكورة وكنت إذ ذاك أسمع الجامي الذي هو

« الفوائد الضيائية شرح الكافية »[1] على بعض مشائخي فقلت :

عُذْراً إليك أخا العليا فما رضيت نفسي بتضييع أوقاتي وأيّامي
وقد تعوَّضت ولكن لستُ منتقصاً عن الزجاجة في التَّرويح بالجامي

وذكرت أيضاً ما نظمته مضمناً للبيت الأخير برمّته ، وقد خَرَجت إلى الزُّجاجة المذكورة وكان قد وعدني بعض الأصدقاء بالخروج معي فتخلف عنه فقلت :

خرجت إلى سفح الزُّجاجة قاصداً لترويح قلبي والسحابة تمطرُ
ومحبوب قلبي في شبام وأعيُني إلى سفحها ترنو وقلبي يَسْعُر
وقفت كأني من وراء زجاجةٍ إلى الدَّار من فرط الصّبابة أنظرُ

وكتبت إليه أيضاً لما تهجَّم على قصيدةٍ لي نونيَّة وأخذ معانيها ومعظم ألفاظها ، وكان بيني وبينه من الأنس ما يوجب عدم الاحتشام وذلك قولي من النَّظم والنثر :

أنت والله خضت بحر عروضي منه لي قد أخذت دُرّاً ونُوْنَا[2]
من مغاصٍ له تناولت غصباً عن تجاريك لُؤْلُؤاً مكنونَا
فَخُذ العَتْبَ من محبك بالكيل فقد حُزت دره الموزونَا
غير أني إذا صرت أنت غريمي في الذي كان لم أكن مغبونَا
فتهَجّم واسرق وحَرّف وبدِّل واجعل الجدّ في العتَاب مُجُونَا
وابق واسلم ما دمت تأخذ من روض قريضي بغير إذنٍ فُنُونَا

يا واحد الدهما[3] ، وغرة فرس الليالي الدهما ، ومن إذا ماخط وكتب ، حل

(١) سبق ذكره قبل في ترجمة مؤلفه ، وهو من الكتب المهمة في الدراسة عند أهل اليمن ، فرغ منه مؤلفه سنة (٨٩٧) طبع حجر ببمبي في الهند سنة (١٢٧٨) وسنة (١٢٨٢) بلكناو وسنة (١٣٠١) وسنة (١٣٠٧) وسنة (١٣١٢) وسنة (١٢٥٧) بالآستانة وسنة (١٣٠٦) بقازان . (انظر معجم المطبوعات ٦٧٢) .

(٢) النون : الحوت .

(٣) الدهماء : جماعة النَّاس .

من البلاغة بأرفع الرُّتَب ، السلام عليك ، ابتداؤه منك وانتهاؤه إليك ، ما لاث الجوّ من الغمائم ، على قمم الشَّوامخ سود العمائم ، وقفت لك على قصيدة ، كل المعاني الغريبة بشباك خطها مصيدة ، إلَّا أنك أضرمت نار جوانحي ، لما أمسكت بتلك الشباك جملةً من سَوانحي ، فإنك أغرت على قصيدتي النُّونية إغارةً تركت أبياتها بلاقع ، ورفعت عن مخدرات معانيها من أسود المداد براقع ، فهلا أبقيت لعرقها نَبْضاً ، وأخذت من نظم الغير بعضاً :

سَرقـاتٌ مني خُصُـوصـاً فهـلَّا   من عدوٍّ أو صاحبٍ أو جارِ

فكم سللت اللُّؤلؤ من سمط سردي ، وكنت محمد بن الزيات[1] على الحقيقة أو ابن الوردي ، لقد سلكتَ مسلكاً غير حميد ، وفُقْت في التهجُّم والأخذ سعيد بن حميد[2] ، أما عرفت أن للبيت ربّاً يحميه ، وأن للسّماء شُهُباً متى استرق المارد فهي ترميه ، فلم أغب عن تَهجُّمك في غابي ، ولم أعتمد قول بعض الحكماء : الكرم مكيال ثلثاه التَّغابي ، ولعلك اعتمدت على اتحاد حالِك وحالي ، واستعرت قلائدي فإذا جيدي عاطل وجيدك متجمل وحالي ، ولم تقل شَغَل الحُلْي أهْلُه أن يُعَار[3] ، ولم تخف من التَهجم وصمة عيب وعار ، وقد علمتَ أن من سَرَق من حرزٍ يقطع ، وأن الصّبح على اللصّ في اللَّيل يسفر ويسطع ، وأنه يستحق الحدّ ، من تجاوز في افتضاض[4] الأبكار سفاحاً غاية الحدّ ، فأعيذك من مثل هذا الإقدام ، الذي يُقْطَع بجنايته الأيدي والأقدام ، والسلام .

قولي في هذا المنثُور : « وكنت محمد بن الزَّيات على الحقيقة أو ابن

---

(١) سيأتي ذكره بعد قليل .

(٢) أديب له « انتصاف العجم من العرب » انظر : (وفيات الأعيان : ٣/٨٠) .

(٣) من الأمثال ، انظر : (مجمع الأمثال : ١/٣٧٤) قال في تفسيره : أي أهل الحلي احتاجوا أن يعلقوه على أنفسهم فلذلك لا يعيرون .

(٤) في (ز) اكتضاص .

الوردي » ، أما ابن الزيات فهو الذي ذكره شهاب الدين الخُفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[1] وقال في حقّه إلاَّ أنه كان مولوعاً بالسرقة ولص البيت لا يؤمن ، فإذا أنشد شعْراً قيل له : أحسن النَّاس ولله در من أحسن :

ومِن العجائب أنه لا يُشْتَرى ويُخاف[2] فيه مع الكساد ويُسْرقُ

وأما ابن الوردي فالمراد به الشيخ زين الدين عمر بن مظفر الوردي رحمه الله تعالى ، فإني لما تتبعت معاني نظمه وجدتها مَأخوذةً إلاَّ نادراً ، فهو كثير السّرقات الشعرية فأغلب أشعاره ومعانيها منتحل من أشعار غيره ، وقد تهجَّم من أدباء عصره على الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى وأخذ من معاني نظمه كثيراً ، حتى قال الصَّفدي بعد أن أورد من سرقاتِه عليه ما أورَد في كتابه المسمَّى « ألحان السَّواجع ، في المُبَادي والمُراجِع »[3] ، ما لفظه ، ولما أكثر من هذه السَّرقات الفاضحة كتبت إليه :

أغرت على أبكار فكري ولم أغِر عليها فلا تَجزع فما أنا واجدُ
ولو غَيْر مولانا استباح حجابها أتَتْه من العتب الأليم قَصَائِدُ
قواطع تحميه دروع اعتذارِه وألسنها عند الخصام مبارد
ولكنه لا فرق بيني وبينَه يَبِين لأنَّا في الحقيقة وَاحِدُ

فأجابه بقوله :

وأسرق ما أردت من المعاني فإن فقت القدَيم حمدت سيري
وإن ساويته نَظْماً فحسبي مساواة القديم بذا الأخِير

---

(١) انظر : (الريحانة : ٢/٩٧) .

(٢) الريحانة : « يخان » .

(٣) هذا الكتاب من كتب الصفدي المخطوطة ، منه عدة نسخ ، نذكر منها مخطوطة رباط تريم بحضرموت وهي نسخة جيدة .

وإن كـان القـديم أتَمَّ معنىً فهـذا مبلغي ومطار طـيري
فإنَّ الدِّرْهم المضروب باسمي أحبّ إليَّ من دينـار غـيري

قولي : « وفقت في التهَّجم والأخذ سعيد بن حميد » ، هو سعيد بن حميد الكاتب الطوسي ، ذكره القاضي شمس الدين بن خلكان[1] وغيره من المؤرخين ، وقالوا في حَقِّه : سعيد بن حميد يكنىً أبا عثمان ، وكان كاتباً شاعرا مترسّلاً عَذب الألفاظ ، مقدّماً في صناعِته ، جيّد السَّرقة ، قال بعض الفضلاء : لو قيل لكلام سعيد وشعره ارْجع إلى أهلك لما بقي معه منه شيء .

* * *

(١) (وفيات الأعيان : ٣/٨٠) .

أخُوْهُ السَّيد أحْمَد بنُ الحُسَيْن بن يَحْيَى[1]

سلالة أكابر ، يفتح للنّطق بالثناء عليهم أفواه المحابر ، تألفهم الرِّماح والصَّوارم ، وتنتسب إليهم المناقب والمكارم ، ما اشتبكت في الأفق النّجوم ، إلّا ظُنَّت أنها أسنة قناهم المشتجره على الخصوم ، ولا مد ثَوْب اللَّيل ، إلّا أعتقد أنه دروعهم الفضفاضة الذّيل ، ولا سأل محمرة الشفق ، إلّا قيل هذا دم أعدائهم قد اندفق ، وهذا الفرع ، قد امتَرى من العليا أحفل ضرع ، مع وقارٍ ورجحان ، وقرارٍ لا يزلزله الكارث إذا حان ، وله خط كأنه مصفف الطُّرَر ، على الأبيض الواضح من الغُرَر ، يُعَد في سماء القِرطاس زُهْراً ، وفي حدائق الدَّفاتِر زَهْراً ، وفي سوالف الأوراق عذاراً ، وفي معاصم الصدور نقش العذارَى ، وله شعر قليل ، وذيل أدبٍ بليل ، أنشدني له في المنثور الأصفر ، وقد رُصِّف في صحنٍ وحُفّ بالمنثور الأحمر ، فبدَا كَترس ذهب لطخت بالدَّم منه الأطراف ، أو رصعت بالياقوت الأحمر الشَّفاف ، قوله :

منثـورنا[2] الأصفـر حفَّت بـِهِ   حـاشِيَةٌ من أحمـرٍ في نَسَق
كـأنـه ثـوب أصيـلٍ وقــد   طَـرّزه الغرب بلون الشَّفق

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ١/١٣٤) نقلاً عن كتابنا هذا .
(٢) المنثور : اسم مفعول نبات ذو زهر ذكي الرئحة ويعرف في بعض البلدان بالخيري .

وقوله في تشبيه الورد الأحمر :

انظر إلى الورد وقد ... أبْدى لنا منه العجب
كاسات مَرْجانٍ بها ... لطيف زَهْرٍ من ذهب

وقوله في القول بالموجَب :

تزَوَّج المولى عماد الهُدَى ... بغادةٍ تُخْجل ظبي الفَريق[1]
صغيرة السن وقالوا لنا ... تكلفت قلنا لما لا تطيق

وقوله[2] :

زَوِّج الماء بالمدام لنشهد ... عقدها يا نديم كالأبْكارِ
قد جعلنا العقول مهراً وهذا ... حبب الكاس فوقها كالنّثارِ

وقوله مضمناً :

أخجلت يا ثغر الرَّشا بارقاً ... لَمَّا شرَى ما بين تلك الغمام
فغاب في السُّحب وأبدى الحيا ... فما يُرى قط له ابْتسَام

وقوله في مليح يُلَقَّب بالجَيْشي[3] :

همتِ بغِزلان الظَّفير الذي ... ما لَذَّ لي من هجرهم عيشي
عيونهم قد حاربت مهجتي ... والقلب مأسورٌ لذا الجيشي

وأحسن منه ما نظمته أنا في بعض ذوي الأمر ، وقد طلب منه إمام الزمان الحساب في الحاصل من البلاد ، وكان له وزير بارع يلقّب بالجيشي أيضاً :

لا تَخْش يا أحمد المحمود مَهْزُمَةً ... لدى الحِسَاب ودم في أطيب العيشِ

(١) القطيع .

(٢) أورده في النشر : (١/١٣٤) .

(٣) أورده زبارة في (نشر العرف : ١/١٣٥) .

فقد غَدَوت بذا الجيشيّ منتصِراً وقَلّ ما هزم المنصور بالجيشي

وقوله :

أعلمت يا شمس المعالي أنَّني أبـداً إلى تلك المكارم شَيّقُ
فهجرت لما أن نزلنا سوحكم فكـأنني ولقـاك ثغـر أفـرقُ

وأحسن منه قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[1] :

أجاور من أهوى ولا وصل بيننا كـأنّي ومن أهـواه ثغـر مُفَلَّجُ

وقول ابن نُبَاتة أيضاً في قصيدةٍ أُخْرَى[2] :

فيالك معطوف[3] العذار هجرتُه فما عَرَّجت عيني له حين عَرَّجَا
دنـت داره مني وشطّ مـزارهُ فهل أبصرت عيناكِ ثغراً مُفَلَّجا

ولما استعار مني كتاب « المثل السائر »[4] لبث لديه مدة ، فاستدعيته من عنده وقلت في خطابِه :

أنت شهابٌ لست ذا حاجةٍ إلى اصطحاب المثلِ السَّائر
وإنمـا أنـت لـذا عـارف مـفتـقـر لـلفـلك الـدائـر

هو لا يخفى مرمى هذا النظم فإن الشهاب مفرد الشهب التي هي الدراري وهي النجوم ، والفلك الدَّائر محلها، فهو الأليق بالشهاب الذي هو كنية صاحب الترجمة كما لا يخفي ، و« الفلك الدائر على المثل السائر[5] » هو كتاب

---

(١) (ديوانه ٩٦) .

(٢) (ديوانه ٩٠) .

(٣) الديوان : مقطوف .

(٤) من الكتب الأدبية للأديب أبي الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٧) طبع أول مرة سنة (١٢٨٢) بمصر .

(٥) طبع لأول مرة بالهند سنة (١٣٠٩) في ١٨٤ صفحة ، وأعاد طبعه محققاً الدكتور بدوي طبانة طبع دار الرفاعي سنة (١٣٠٤) هـ .

عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد[1] رحمه الله تعالى ، ولذا كتب إليه أخوه موفق الدّين[2] قوله[3] :

المثـل السـائـر يـاسيـدي صنَّفت فيـه الفلك الدائِـرا
لـكـن هـذا فـلكٌ دائِـرٌ أصبحت فيـه المثل السائرا

وكتبت إلى صاحب التَّرجمة من النَّثر أستدعي منه ما وعدني بنقله من نظمه المتقدم ذكره في المنثور وفي الثَّغر المفلج ما لفظه :

أيُّها الشِّهاب الذي تلالا ، والنجيب المشرق جلالا ، لا زلت محفوفاً بكل مَبَرَّة ، ما سَبحَ حوت النُّجوم بنَهْر المَجَرَّة ، ورَدَ المسطور ، بنفَثَات المصدور ، مستنجزاً وعدَك بمنظومك في المنثور ، فإنك وعدتَ بنقلِه ، وأمسكت لما سمعت بأن شعر المرء تمثالُ عَقْلِه ، وذاك النَّظم المرفوع ، على حجاك الموفور شاهدٌ غير مدفوع ، فقد أخبر عن ذوقِك السَّليم ، لما رفعت به شأن المَنْثور حسى[4] حَسدَه الوردُ فوقع من نار عصرهُ في العذاب الأليم ، وغَار النَّرجس فبكت عيونه بدمع الطَلّ ، ورمى بكأس الذَّهب من عَلَى رأسِه وذَبَل واعتل ، وكذلك نظم الثغر المفلجّ ، فإنه مما يبتسم له بثغر الأقحوان الرَّوض المُسَيَّج ، والسَّلام .

---

(١) من الوزراء الأدباء له « شرح نهج البلاغة » و « القصائد العلويات » وفاته سنة (٦٥٥) (فوات الوفيات ٢/٢٥٩) .

(٢) هو أحمد بن هبة الله بن أبي الحديد ، أديب متفقه ، توفي سنة (٦٥٦) . (فوات الوفيات ١/١٥٤) .

(٣) البيتان في (فوات الوفيات ١/٥٥) .

(٤) كذا في (ب) و(ش) وفي (ز) حتى .

أخوهما السيد إسماعيل بن الحسين بن يحيى البصير(١)

كاتبٌ ناسخ ، مالآية فضله ناسخ ، له خط قويمٍ قوي ، منهجه في الملاحة منهج سَوِي ، أرق من زرد العذار وألطف ، وقد لبسها الخدّ خَوْفاً على وَرْده من أن يقطف ، أو خشية من أن يُجْرح ، بأسهم أبصار في نَضارته تسرح ، يكتب من الخط بديعاً، فكأن الرَّوض بريحانِه لم يزل له وديعاً ، ويزخرف الطومار بالذَّهب ، فيعود قِرطاسُه كالجذوة من اللَّهب ، تتمنَّى عين الشمس أن تكون له عين تبر ، ويود اللَّيل المظلم أن يكون له حالكاً من الحِبر ، فكان في بابِه للدَّهر زيناً ، ولكنه حَسده فأفسد منه عيناً ، فكُف بصرُه ، وأصابه في البيت حَصَرُه ، وخَذَله الزمانُ الذي نَصَره ، فاستراح من رؤية الأغمار ، ومشاهدة الشياطين التي حَلَّت منازل الأقمار ، والنَّظر إلى من لبس حُلل الثُّراء وهو خليق بالتَّعَرِّي ، فما أقول في حَقِّه إلَّا ما قاله بعض الأدباء في خطاب أبي العَلاء المُعَرِّي :

أبا العَلاَ يا ابن سليمانَا ... إن العمى أولاك إحساناً
لو عاينت عيناك هذا الورى ... ما عاينت عيناك إنْسانَا

طالما في ظلمته تاه ، لَمَّا بخِلت عليه بالنّور كريمتاه ، فاحتاج إلى قائد ، وطرقه من الألم ما لا يفتقر معه إلى عائد ، واستبدل عن قلِمه العصا ، لما تمَنَّع عن طاعَته وعصى ، ولم يحمل العصا فيما تَسمْع عنه وتَرى ، لكبر سنه حتى يكون لقوسه

(١) ترجمته في (نشر العرف ١/٣٥٥) نقلاً عن كتابنا هذا .

وَتَرا ، وإنما أمسكها لتكون له أيّ هاد ، وحملها بيمينه وقالت لسان حاله في الاستشهاد [1] :

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها علي ولا إنّي انحنيت من الكبر

كنتُ قَبل أن يُصيبه العَمَى ، وقد أصبح إناء سعْده مُفْعما ، أجتمع أنا وإياه بمواهب الكريم ، وقد لزمه الإقبال لزوم الغريم ، وهو ينسخ لإمام العصر مصحفاً شريفاً ، ويمدّ من زخرفته على أوراقه روضاً وريفاً ، وقد أفاض عليه من نواله سنيّاً ، ودلّى فوقه من ثمرات أسْدابه جنيًّاً ، ممَّا عاد به بعد الافتقار غنيًّا ، فكنا نتجاذب من المُذاكرة أطراف الإزار ، ولا ندع المواصلة ولا نترك المزار ، لما غرَّد على غصن الإقبال الهزار ، وقد غازلت الغيد في الرِّياض ، عيون نرجس كعيونها مراض ، وهو حسن المحاضرة ، بديع المُباراة والمُناظرة ، تسكر من ألفاظه الحُميَّا ، وترقص للطَّرب بها ميّه ، ثم لاقيته بصنعاء بعد أن كُفَّ طرْفُه ، ولعب بدينار عيشِه من الدَّهر صَرفُه ، وقد ذَوَى زَرعُه ، وضاق من الحزن ذرْعُه ، وجَفَّ من غُصْنِه الرَّيّان فَرْعُه ، وَتَمَزَّق من سابغة الصَّبْر درعُه ، لما استحال سبح ناظِره فِضَّة ، وعادت عينُه من الحزن مُبيَضَّة ، وقد زَاد بذاءة ووقاحة ، وسقا لا بحياء الحَيَاء سوسنَه وأَقَاحَه ، وله نظم ذو جوهرٍ يُنْثر ، وشعر في المدح كثير وهو في الهجو أكثر ، اخترت له من قصيدةٍ نظمها في يوم غَدير ، وذكر فيها الإمام عليًّا حيَّاه من رحمة ربه الرَّوض النَّضير ، ومدح بها بعض ذوي الأمر ، قوله مما يدير رقيق جامه الخَمْر :

كثرت لقربِ مَقَامِه من ربه محنٌ له والأجر يكثر بالمحن
إن فاتت الدُّنيا عليه وملكها فالله نَزَّهه عن الدنيا وعن

(١) البيت في كتاب (العصا) لأسامة بن منقذ (٤٣١) . مع بيت آخر . قال محققه الأستاذ حسن عباس : البيتان في (عيون الأخبار ٢ /٣٢٣ وأدب الدنيا والدين ١١٦) دون عزو ، وهما لمحمد بن وشاح بن عبد الله كما في (الوافي بالوفيات ٦/١٧٤) .

منها :

ومع الوصي الحق قال محمدٌ ولعكسه هذا بذلك قد قرن
في الأمهات حديث أني تاركٌ فيكم كتاب الله صح وفي السنن
ما إن تمسكتم به من عترتي ثم الكتاب فلن تضلوا عن سنن

ومنها في ذكر الممدوح :

كم دَولةٍ قامت به وأزالَها وَعَلا على سرر الممالك واطمأن
والمال مبذولٌ فسل من علْمه عمَّا بدا وعن النَّدى لا تسألَنْ
خذها أخا العليا إليك فصيحة ما في اللِّسان بها وحاشاه لكن
والآل ذُخري في المعاد وعدتي ما غَرَّدت ورقاً على أعلى فَنَن

* * *

السيد أحمد المهدِي بن يحيى الحَمْزي

شاب ترقرق ماء شبَابِه ، وتَتَوَّج شرابه بِلُؤْلُؤ حَبَابِه ، تألَّق بَرْقُه ، وأثار بطلوع الشَّمسِ شرقُه ، تفجرت جداول سماحَتِه وجَرَت ، وتخطَّرت نسيم لُطْفِهِ وسرَت ، فهو أندى من الرّباب ، ومن رياض الحُسْن جَرَى عليها مَاءُ الشَبَاب ، وله مكارِم زَينت منه بديع السِّمات ، وأحيت صِيْت آبائه وقد مات ، فالمروَّة عليه قَدْ قُصِرَتْ ، وأسباب الفضائل فيه قد حُصِرتْ ، مع سِعةٍ في المال وثروة ، قد ألبسته حُلَلَه وَفَرْوَة ، فهو ذو ذيلٍ أخْضَر ، وروض رفاهيَّةٍ أنضر ، في عيش لو كان في ثَغْر لكان لعَسَا ، ونعْمةٍ لم يَقُل معها لعَلَّ وعَسَى ، أنْعم منْ خُزَيْمٍ وَحَيَّان[1] ، فغُصن شَبابه ما يئس العِطْف ريَّان ، الْيَنَ لَمْساً من الحريرِ ، وأحسن منظراً من وجه مليحَةٍ تُجْلَى على سرير ، وأصفى من دمعة ،وأنورُ من شَمْعَة ، ولم يَزل مطْرف نعْمته رقيقاً ، وزَهْر عَيْشه ورداً وشقيقَا ، إلى أن قَصُرَ مَدَاه ، وبعد السَّماع صُمّ صَدَاه ، واخترمَهُ الأجل ، ونحا نَحْوَه من الموت الحادث الأجل ، ووافاه هادم لذَّاتِه على عَجَل ، واستحيا زمانُه لَمَّا فاجأه بالحمام فإذا الشفق في خُدُوده حُمْرَة خجَل ، فإنه مات وشبابهُ غضّ ، وماء نَضَارته الصَّافي يرفَضّ ، فجع

(١) في الأمثال يقال : أنعم من خزيم . وهو خزيم بن عمرو من بني مرة بن عوف ، ويقال له خزيم الناعم ، وسأله الحجاج عن تنعمه فقال : لا ألبس خلقاً في شتاء ولا جديداً في صيف ، انظر (المستقصى ١/٣٩٤) . ويقال : أنعم من حيان ، هو رجل من بي حنيفة كان في نعمة البدن ورخاء العيش ، وكان ينادم الأعشى ، فضرب به المثل . (المستقصى ١/٢٩٣) .

به الموت وأراب ، ولِمَّته أشد سواداً من حَنَك الغراب ، ومن شعره ما كتبه إلي ، وقد عَوَّل في أمرٍ عليّ ، وهو إذ ذاك بمحروس العارضة[1] ، في مقام أنسٍ غدَت النفس لكل مقام عنده رافضة :

أتـاك قـريضي من العـارضـة　　يُخـبِّر عن حـالـةٍ عـارضـه
من الأنس تمت لنا عندهـا　　عيـون الخـطوب بنـا غـامِضـه
فتمَّـم لنـا أنسنـا بـالـذي　　وعـدت فكفي لـه قـابضـه
شـهـاب المعـاليْ لـكم همَّـةٌ　　إلى نيـل مـا أرتجي نـاهضَـه
فـبـادر ولا زلت في نـعمـةٍ　　لقصـدك مـوجبـة فـارِضَـه

فأجبته بقولي :

زهـورٌ لـزهـر الـرُّبـا غـائِضـه　　عيـون النَّهـور بهـا فـائِضَـه
أتـتـني تـطالـب في حـجـةٍ　　من العـذر واهيـة داحِضَـه
أتتني من حيث حَـلّ النَّـدَى　　وحيث الأسـود بـه رابِضَـه
فخـذهـا صفي الهُـدَى نفثةً　　أتـتـك لجامحها رائِـضَـه
وهاك هشيمي الذي قد غَدَا　　يقـابِل من نـظمكم بارضَـه[2]
ولا زلت بـالنَّـظم ذا قُـوّةٍ　　إذا أنـا وَرَّيْتُ في العـارضـه

وكتبت أنا إليه من المَنْثور وقد أهدى لي شيئاً من العنب البياض[3] ما صورته ولفظه :

سلام على نسل السَّادة القروم ، سلام أنضر من الحدائق وأحلى من عنب

---

(١) العارضة : قرية في جبل كوكبان تشرف على مدينة شبام ، وفيها بنو العارضة من آل الحمزي رهط المترجم له .
(٢) البارض : أول ما تخرجه الأرض من نبات .
(٣) من أنواع العنب .

الكروم ، يستَمرُّ منه الأداء ، ويتجدَّد من حُلله الرِّداء ، ما طار غُرَاب اللَّيل ونَسْرُ الفلك ، وسلك بهما الفرع من هجوم باز الصُّبح إلى حيث سلك ، على من طَمَّ سيل نَوَاله وَهْدي[1] ، وقلت في حقِّه أحْمد المُهْدِي وهو أحمد المَهْدي ، لا زال ذا مقام شريف ، ما سَرنا الزَّمان مفاكهة الخريف ، هذا وإنها وصلت الهدية السَّنية ، والفاكهة الحلوة الجنية ، وهو العنب البياض الذي هو القبض الدَّاخل ، فله طريق إلينا منك أيها الكرم إذا كان له عُقْلة من باخل ، عِنبٌ جاد به الروض الأنضر ، كأنّه حَبّات الذَّهب لُفّت مِن الخلْب في أوراق زمرّدٍ أخْضر ، خِلْبٌ يَخْلِبُ العُقول بنضارته ، ويجلب السرور والأفراح بغَضَارته ، فعلى ذلك العنب مِنْ خلْبه غِطَا ، خلْب كَرْمٍ كأنَّه الرَّاحات من الكرَام وَقَد مُدَّت عَنْ ذهب العِنَب بالعَطَا ، لا كما قال من شاع قوله في الشرق والغرب ، إنّها أكُف غَدَت تستغفر الله للشَّرْب ، فللّه مَكارِمُك وما صَنَعت ، وفواضلك التي صرَفَت همتّها إليَّ وَمَا منَعت ، أهدت إلينا من متنزهاتك نَمُوذَجاً حِلْوا ، وجاءت مِنْها بمَا أخبر عِنْ نَضِيْرها بأنَّه المُقَدَّم إذا كان غيره تلْوَا ، فيَالها الله من حظَائر ، قد عَزَّت لها الأشباه والنظائر ، كأنَّ عرشها عرش المهيمن السَّلام ، وكأنَّ حبَّات العِنَب في خُضرْتها المدهمَّة نُجُوم تشتعل في الظّلام ، أوضحت للمسرَّة شِرْعة ومنهاجا ، فراح إليها كل طالب لَذَّةٍ ومنْهاجا ، مَدَّت دون عنبها من الكرم خُضرْ السجوف ، وعلَّقَت منْ عناقيده الأقراط الذهبية والشُّنُوف ، أقراط سبكت بنار الله فخلصتا عن الزَّغل[2] ، وحفظت في سقف مرفوع فيدُ الجاني عنْها تُغلّ ، وقصْدي بالجاني من الجناية لا من الجنى، فَأمَّا هو فقد فاز منْها بالقصد وظفر بالمنى ، فالله تَعالى يُديم لك فيها السّرور ، ويصرف عنك في جنَّاتها الآفات والشُّرُور ، والسلام .

---

(١) الوهد : الأرض المنخفضة .

(٢) الزغل : المغشوش من الذهب ونحوه .

قولي : « أقراط سبكت بنار الله » المراد بنار الله الشمس فإنها تكنًّى بها قال ابن الجون[1] في أبياتِه المشهورة التي خاطب المنصور العبَّاسي لما حبسه[2] :

أمن صهباء صافية المزاج كأنّ شعاعها ضوّ السراج
وقد طبخت بنارِ الله حَتًّى لقد صارت من النطف النضاج
أقاد إلى السجون بغير جرم كأنّي بعض عُمَّال الخراج

* * *

(١) هو المعروف بأبي دلامة زند بن الجون ، أديب متظرف وفاته سنة (١٦١) . انظر : (وفيات الأعيان : ٢/٣٢٠) .
(٢) الأبيات في (معاهد التنصيص : ٢/٢٢٠) .

السَّيد محمد بن أحْمَد بن يَحْيى بن المفضل[1]

نديمٌ خَفَّ رُوْحا ، ونسيم أهدى ريحاناً وَرَوْحا ، قرأ من النحو ما عُدّ به مُهذبا ، واعتمد من درسه ما عاد به بعد التبعية من الفضل مُقَرّبا ، وله خط لم يخل عن الملاحة ، كم جَرَّد من رماح ألِفَاته وسيوف راءاته بسلاحه ، مع ذهن دقيق في النقوش والتدبيج ، وإحكام لا يلحق في الزَّخرفة والتعريج ، فكم روض مهرق قد دبّجه ، وبالحجب اللَّطيفة قد سيَّجَه ، مع حِدَّةٍ وحَرَارة ، تجرد من غمد الوقار غراره ، إلاّ أن مشْيبه في أرض الفضل هوْن ، فبينه وبين أخيه عبد الله في الدّراية بون ، وكان في طليعة العُمْر ، لا يسمح من أوقاته بساعة تمر ، إلاَّ في لهو واجتماع ، وغناء مطرب وسماع ، وغير ذلك مما يقتضيه جنون الشَّباب ، وتنظمه الحداثة نظم اللآلىء من الحباب ، فهو على الخلاعة أوثب من فهد[2] ، وفي ميدان البطالة أسبق من نَهْد ، في زمن هو الزمن ، قبل أن تتَغّير أحوال اليمن ، ونسيم الجوّ إذا سرى ، فتح من النَّور الأزرار والعُرى ، وعامل النّهر بالتَّشويش، وباشر وجنات الورد بالتخميْش ، ولما قلب الدَّهر ظهر المجن ، وبدَّل أيام المسرَّة بالشّجن ، ضاق به العيش وطاش عقله أي طيش ، فخرج من كوكبان طريد الاحتياج ، وقد مُزج علقم الفقر بشرابه أشد الامتزاج ، فلم يزل يطوف في الآفاق ، ويروم من زمانه الإسْعاد والوفاق ، فاختار صنعاء له دار إقامة ، وداوى في مصرها من عيشه سقامه ، فسقط على رياضها سقوط النَّدى ، وغناء الطير

(١) ترجمته في (نشر العرف : ٢/٤٤٧) .

(٢) المستقصى ٤٢٧/١ .

بفروعها فرحاً بمقدمه وشدا ، وأصبح رَبْع كوكبان بعده خالياً ، وقد كان عاطله بمنظوم درره حالياً ، ولم يزل بها جاثماً ، بعد أن غدا الزَّمان بما صنعه به آثماً ، إلى أن قضت منه المنيّة أرباً ، وأودعه الحافر من اللحد سربا ، عوضه الله عن ذلك الامتحان ، جنة محفوفة بالروح والرَّيحان ، وقد أسمعني من نظمه جُمَلاً ، وأودع أذني منه ما يذْهبُ الدرّ معه هَملاً ، منْ غزلٍ ومَدح ، قد تنزَّها عن وصم وقدح ، وشعره يُفض الدّنّ عن رحيقه ، فهو أرق من شعر أخيه وأنضر من زهور شقيقه ، منه قوله من قصيدة أسمعنيها رحمه الله تعالى :

أفدي التي بوصالي قطّ ما سمحت ... ولا بما أرتجي من قُربها منحت
قد صرت من أجلها مضنى الفؤاد ولي ... نفْسٌ على بُرَحاءِ الشوق ما برَحت
ما ضرَّ من عذَّبتني في محبتها ... عن ذَنب مغرمها لو أنها صفحت
أهوى التي قد حوت كل الجمال ومن ... قد فاقت الحوُر إن جدت وإن مَزَحت
لها جبين حكى بدر الدُّجى ولها ... ذوائب لسواد اللَّيل قد شرحَت
كالغصن قامتها كالبدر طلعتها ... كالظبي لفتتها والجيد إن سَنحَت
الورد في خدّها والخمر في فمها ... وسحرها روت في الألحاظ إن لمحت
بالله بلّغ سلامي يا نسيم لمن ... سهام مقلتها للقلب قد جرحت
وقل لمن نَزَحت عنّي فلم أرها ... لكنها عن سواد القلب ما نزحت
ما بالها سكنت سفح الغضا فلقد ... نيرانه في فؤادي والحشا لفحت
ولا عجيب إذا ما كنت ذا ولهٍ ... ومقلتي بلآلىء الدمع قد سمحت
فإنها البدر لكن ما به كلف ... عيون أهل الهوى في حسنها طمحت
لا بل هي الشمس لكن غيرآفلة ... وعن جوانح قلبي قط ما جنحت
شمائل حسنت فيها كما حسَنت ... شمائِل في صلاح الدين قد صلحت

قوله : « نفس على بُرحاء الشوق ما برحت » هذا المصراع هو بعينه مطلع قصيدة السَّيد جمال الدِّين محمد بن عبد الله بن شرف الدين رحمه الله تعالى

المشهورة وهو قوله :

نفْسٌ على برحاء الشوق أطويها ... ولـوعة بُتّ أخفيهـا وأبْديهـا[1]

غير أنه وضع مكان قوله أطويها قوله ما برحت ، فأحسن غاية الإحسان لأنه حصل له من البديع ما يشبه تجنيس الاشتقاق بين قوله « بُرحا » وبين قوله « برحت » كما ترى .

وقوله : « ما بالها سكنت » البيت فيه الاستخدام بالضَّمير كما لا يخْفى ، ومثله قول مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي رحمه الله تعالى في بعض القصائد :

ولا عجب إن همت في ساكني الغضا ... غراماً فقد شبّوه في كبدي جَمْر

وقد ذكر الشيخ صفي الدِّين الحلي رحمه الله تعالى في شرح بديعيته[2] أن الاستخدام بالغضَا غير صالح لأنه يشترط في الاستخدام الاشتراك الوضعي ولا اشتراك وضعي بين الغضا الذي هو الشجر المعروف وبين المحلّ الذي سمي باسم ملازمه ، لأنه إنما يقال وادي الغضا أي الشجر المعروف وإلا فليس ثم محل يُسَّمى الغضا في أصل وضع اللغة ، وكلام إمام المحققين سعد الدين رضي الله عنه يُنَافي ما قاله ، فإنه قال : إنه يجوز أن يكون كلا المعنيينْ في الاستخدام حقيقيين أو يكونا مجازيّين ويجوز أن يكونا مختلفين ، وحمل قول البُحْتري[3] :

سقى الغضا والساكنيه وإنْ هم ... شبّـوه بين جـوانحي وضلوعي

---

(١) (ديوانه ٢١٠) .

(٢) انظر : (شرح الكافية البديعية للصفي الحلي ٢٩٧)ط دمشق سنة (١٤٠٣) بتحقيق الدكتور نسيب نشاوي .

(٣) في (الديوان : ٢٠١/١) ط دار صادر :

فسقى الغضا والنازليـه وإن هم ... شبـوه بـين جـوانـح وقـلوب

وهو كذا في (شرح الكافية للحلي ٢٩٧ والإيضاح للقزويني ٣٣٣) .

على المجاز فمع حمل الغضا على المجاز في معنييه يبطل ما قاله الحليّ مع أن أهل اللغة ذكروا أن ثَمَّ مواضع تُسمَّى الغضا منها أرض بني كلاب ووادٍ بنجد[1] .

واعلم أن الاستخدام كما أشار إليه العلامة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن[2] عمر الخفاجي الفَنْدي[3] المصري رحمه الله تعالى في ريحانته[4] : قد يتعدَّد وقد يكون بالضَّمير من غير اشتراك ، وقد يكون بالضَّمير المستتر في حال أو نحوه ، وقد يكون بالتَّمييز من غير ضمير ، وقد يكون باسم الإشارة ، وقد يكون بالاستثناء وأتى لكل من هذه الأنواع المذكورة بشاهد .

وقال هو أيضاً رضي الله عنه في كتاب « طرازالمجالَس »[5] عند ذكر الاستخدام ما لفظه : ومنها أن يكون باسم ظاهر قُيم مقام الضمير كقول محمد بن حكينا[6] يعاتب أمير الدَّولة بن صاعد لما قاطعه بعد ما أضرّ بَصَرُه وافتقر وقد قَطع عليه عادة كسوة كانت له عليه :

وإذا شئت أن تُصَابح بَشَّا ر بن بُرْدٍ فاطرح عليه أباهُ

ومنها أنه يعطفه على لفظٍ باعتبار معنى آخر لازم له كقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا

---

(١) قال في (المراصد ٩٩٦) الغضا أرض في بني بكر وبضم الغين ماء لبني عامر .

(٢) كذا في الأصل بهذه الزِّيادة ، ولم أجد من سمَّى جدّه محمداً . انظر ترجمته في (خلاصة الأثر : ٣٣١/١ وسلافة العصر ٤٢٠) .

(٣) مخففة من الأفندي ، قال في (تاج العروس : ٤٥٥/٢) : اسم يطلق لصاحب الفنون ، زادو ألفاً عند كثرة الاستعمال إن كانت عربية وقيل رومية معناها السيد الكبير .

(٤) (نفحة الرَّيحانة : ٣٣/١) .

(٥) كتاب للخفاجي المذكور جعله في خمسين باباً ؛ ضمنها فوائد علمية وفكاهات أدبية طبع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة (١٢٨٤) في ٢٦٩ صفحة .

(٦) في (فوات الوفيات : ٣١٩/١) : الحسن بن أحمد بن محمد بن جكينا شاعر من أهل بغداد ، ظريف توفي سنة (٥٢٨) . انظر : (تاج العروس : ١٨٣/٩) وضبطه بالحاء المهملة كما هو هنا .

الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلاَّ عابري سبيل ﴾[1] فإن المعنى لا تدخلوا المساجد جُنُباً إلاَّ عابري سبيل ، فعطف جُنُباً على الصلاة باعتبار محلها كما أشار إليه بعض المفسرين . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

وسألني صاحب التّرجمة رحمه الله تعالى عن معنَى قول أبي العلاء المعَري في بعض قصائده :

وقال الوليد النّبع ليس بمثمر   وأخطا سَرب الوحش من ثمر النَّبع

فقلت له : أراد بالوليد البُحْتري وذلك لأنه قال في شعْره[2] :

وعيَّرتني خلال العُدْم أونه   والنّبْع[3] عريان ما في عوده ثمرُ

يعنى النبع الذي تعمل منه القسي ومعنى بيت المعرّي أن البحتري أخطأ في بيته هذا بقوله أن النبع ما في عوده ثمر ؛ لأن القوس إذا عملت من النبع وصُيد بها صيد من الوحش فهو من ثمرها وهو ظاهر كما نصَّ عليه الشارحون .

وسألني أيضاً عن قول أبي الطّيب المتنبّي :

فيه الفصاحة والسماحة والتُّقَى   والباس أجمع والحجى والخيْرُ

وقال : ضبط في نسخة صحيحة الخِير][4] بكسر الخاء المعجمة وصحح عليه فما الخير فقلت له الخير بكسر الخاء هو الكرم كما في الصِّحاح وكذا في القاموس . وقال العلامة شيخ الإسلام عبد الرؤوف المناوي[5] رضي الله عنه في

(١) سورة النساء الآية : (٤٣) .

(٢) (الديوان : ٢/٣٠٨) :

وعيرتني سجال العدم جاهلة   والنّبع عريان ما في فرعه ثمر

(٣) الشجر .

(٤) ساقط من (ز) .

(٥) هو زين الدين عبد الرؤوف بن محمد المناوي ، من العلماء المحققين ، من مؤلفاته « شرح الجامع الصغير » و « كنوز الحقائق » في الحديث توفي سنة (١٠٣١) .

كتاب « التوقيف على مهمات التَّعاريف »[1] : الخير بالكسر الجود والكرم ، وبالفتح ضد الشرّ .

وكنتُ أنا وهو بمدينة عَمْران[2] ، وقد استدار لي في سماءِ الأُنس من الأنيس والجليس قَمَران ، وكان لا يبرح من مقامي ، ولا يفارقني مُدَّة مُقامي ، يميل إليَّ ميلان الغصن الوَرِيق ، ويأنس بي أُنْس الحمامة إلى الروض الأنيق ، فتخلف في بعض الأيَّام عن بِدَارِه ، وَمكث المُثبِّط بِداره ، فكتبتُ إليه أطلب وصوله ، وصلت عليه بالعِتَاب أيَّ صولة ، مالفظه :

الله المستعان ، على خِلّ للدَّهر بالجَفا أعان ، فيانعم المُنادم ، ومن هو عليّ أجلُّ قادم ، ألست تعلم إلى مثْلك شوقي ، وأن مفارقه المؤانس في هذا المحل لا يدخل تحت طوقي ، فما بالك بعد الوصل صرمت ، ولذلك الاجتماع الملتئم خَرَمت ، فإن وافتك هذه البطاقَة ، فتناولها كما عهدتك بإطاقة ، واجعل جوابي ، إزالة جوىً بي ، وإن كنت قاعداً فقم واستقم ، أو قائماً فامش على عجلٍ ولا تُقم ، أو ماشياً فأسرع أو مسرعاً فأَدهق كأس وفودك عَليّ وأَترع ، فما بيني وبينك بون وإن كنَّا فيه ، فإنا في مجلس محفوف بالاستخدام لمن يصطفيه ، وعدني الزَّمان به فأنْجَز ، وبالغ في تنقيته عن الأكدار فأعجز ، وقد يصدق الكذوب ، فيبترد قلباً بنار مطله يذوب ، والصَّفو يغنم ، حيث لا يشاع إلَّا نسيمُ عاطرُ نَمّ ، لا زلت إلى مرام خليلك ساعياً ، ما دمتُ لك إلى المنادمَة داعياً ، والسلام . قولي : « فما بيني وبينك بون وإن كنا فيه » هذه الفقرة فيها الاستخدام بالضَّمير ولذا قلت في الفقرة الثانية : « فإنا في مجلس محفوف بالاستخدام » إشارة إلى هذه النكتة وتورية باسم النوع كما هو ظاهر ، فالمراد بقولي : « فما بيني وبينك بون » أي

---

(١) هذا الكتاب من أهم كتب المؤلف جعله في تعاريف مصطلحات العلوم ، وهو أكبر من تعريفات الشريف الجرجاني ، وقفت منه على مخطوطة جيدة .

(٢) عمران : مدينة كبيرة بأعلى البون ، شمالي صنعاء بمسافة (٤٨) كم .

مسافة ، فإن البون بالفتح مسافة مابين الشَّيئين ، وقد يُضم والمراد بالبون المشار إليه بالضَّمير في قولي « وإن كُنَّا فيه » البلاد المعروفة ، لأن أرض عمران وما خلفها تسمَّى البون ، وبذلك عرفت نكتة الاستخدام في هذه الفقرة .

ومثله ما جاء لي أيضاً في التَّورية وقد سُئلتُ هل ثم فرق بين السَّيد الفاضل محمد بن الهادي[1] عليه السلام المقبور بمدينة ثُلا[2] وقبتَّه بها مشهورة مزورة وبين الإمام الشَّهيد أحمد بن الحسين[3] عليه السلام المقبور بذيبين[4] ومشهده فيه أشهر من أن يذكر وبينهما من البلاد البون المذكور ، فقلت :

قد قيل هل محمدٌ في فَضْله كـأحمـدٍ وفضـل هـذا قـاهـرُ
فقلت : لا بينهـما لمـن دَرَى قدريهما في الفضل بون ظاهرُ

ولا شك أن بلاد البون يقال لها بلاد الظاهر أيضاً ، ففي قولنا « ظاهر » تورية ثانية ظاهرة .

---

(١) لعله العلامة محمد بن الهادي بن تاج الدين الذي أكمل كتاب (المقنع في أصول الفقه) للإمام الداعي يحيى بن المحسن . انظر مطلع البدور (خ) .

(٢) ثلا : مدينة تقوم على السفح الشرقي من الحصن (حصن ثلا) على بعد (٤٥) كم من صنعاء بالشمال الغربي .

(٣) هو الإمام المهدي لدين الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم ، حكمه سنة (٦٤٦) قتل شهيداً سنة (٦٥٦) . (إتحاف المهتدين ٦٠) .

(٤) ذي بين : مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (٩٤) كم بها مركز الناحية التابعة لقضاء عمران .

صاحبُنا السَّيد مُحمَّد بنُ الخضر بن مُحمَّد[1]

ذو الأخلاق الباسمة ، والنفحات المتعطرة النَّاسمة ، والخَفر والحياء الأوفر ، الذي عَلَّم وجنات الورد والشقيق كيف تحمر ، بَدْر لم يَعْتَرِه محاق ، ولم يبرح بلا تكلف إشراق ، ما زال بجمع الأدب مشغوفاً ، وبالمروءة وصنع الجميل مذكوراً موصوفاً ، وله في العلم أجلّ سمت ، وأبين سبيل لا عوج فيه ولا أمت ، سيما في الرَّمل[2] فله فيه أوضح طريق ، وروض عرفان ما حُمْرته إلا من زهور الشَّقيق ، فقبضه فيه داخل ، وبياضه يُوَلّد ما جهله غيره من المسائل ، وكان على والدي جل تحصيله ، ومنه اكتسب ما جمع من تجميله وتفصيله ، وهو لي أجلّ نديم ، فغصن شبابي لا يتَرنح إلا بأخلاقه التي هي النسيم إذ هو أحد أخداني ، وممن طاردته من الشباب في ميداني ، وتناولت بأنامل منادمته ثمر لذّةٍ داني ، في زمنٍ يتهلّل وجه شمسه ، ويضحك أفقه بثنايا الأنجم لفرط أنسه ، يسفر ذلك الزَّمن ، الذي اخضرَّ عذار ربيعه لا كاخضرار الدِّمَن ، عن محيّا وسيم ، يترقرقُ فيه مَاء النَّعيم ، كما أسفر الرَّوض عن غُرَّةٍ ، زانها من الرَّيحان الأسود مصفف الطُرَّة ، فكم مَرَّت لي وله من ليالٍ ، كأنها في سمط العُمر لآلي ، في مقامات سنيّة ، ورياضٍ ثمارها جنية ، حيث لا عليل سِوَى النَّسيم ، ولا سقيم إلا طرف الحِبّ الوسيم ،

(١) ترجمته في (نشر العرف ٦٤٩/٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) الرمل : هو علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة حين السؤال بإشكال الرَّمل ، وهي اثني عشر شكلاً على عدد البروج . قال صاحب (كشف الظنون ٩١٢/١) : وأكثر مسائل هذا الفن تخمينية مبنية على التجارب فليس بتام الكفاية .

ولا منتحب إلا الحمام ، ولا باكٍ إلاَّ الغمام ، ولا متدفقٌ إلاَّ النَّهر ، ولا ذارف إلا عبرة النّدى من عيون الزّهر ، ولا راهبٌ إلا قلب البُهار المصفر ، ولا خجل إلا خدّ الشَّقيق والورد المُحْمَرّ ، وطرف الشموع ، يُجري من حرٍّ أنفاسِه ساخِن الدُّموع ، والمجامِر تدور على النَّدمان ، كأنها جياد تركض في ميدان السّرور وقتامها الدّخان :

إذ تغنَّت لنــا الحــمائـم حتَّى ... تــركت أعـين الجـداول عَـبْرى

ولما ضاق عيشُه ، وخالطه من الفقر طيشُه ، وتكدَّر وِردُه ، وذَوَى من روضهِ وردُه ، فارق وطنَه رائِداً ، وخرج طالباً من زمانِه الصّلة فما رؤي عائداً ، وأدركه الموتُ بمدينة تَعِزّ(١) ، التي كانت لنزوله بها تَفْخر وتعزّ ، فمات وهو إلى الصِّبَا أقرَب ، وبُني عليه قَبْرُه على أنه عن الاستبداد بالفضائل أعرب ، وغار في الحفرة نَهره ، وذَوَى تحت التُّراب زَهْره ، فسَاءني مَصْرَعُه ، وسقاني علقماً أتجرعه ، وصرت في الدِّيار بعده وحِيداً ، أتذكَّر من أنسه زماناً سعيداً ، أتأسف من الشَّبيبَة، على أرديَةٍ مطرّزةٍ قَشِيبَة ، أخلقتها اللَّيالي فما أبقت ، وغسلتها الدّموع فما أنقَت ، سقى اللهُ عظامَه ، ورعى عهده الذي بدّد الحمام نِظَامَه ، وحَيَّاه بنظير أخلاقِه ، وبلَّ ثراه من دَمع السَّحائب بمُراقِه ، وله أدب وشِعر ، أسمعني منه مالم يَبْقَ عندَه لقلائد الأعناق سِعر ، منه قوله في بعض قصائِده :

قِف بالكثيب فلي فيه مُقَالاتُ ... ولي بــآرام واديــهِ لُبَــانَــاتُ
وعج بوجرة(٢) واسأل عن فؤاد شجٍ ... قـد تَيَّمته صبـابـات قـديمـاتُ
يميل إن مال غصن البان منعطفاً ... وكلما صـدحت فيـه حمـامـاتُ
ومـا تهب نُسَيمات بـه سِحـراً ... إلا وتـزعجـه تلك النُّسيمَاتُ

---

(١) تعز : بفتح التاء وكسر العين ، مدينة مشهورة من أمهات المدن اليمنية بعد صنعاء .

(٢) وجرة : منزل من طريق مكة من البصرة ، بينه وبين البصرة أربعون ميلاً ، وقيل غير ذلك . انظر : (المراصد ١٤٢٦) .

أستودع الله قلباً في الهوى سلبت ... منه الوقار عيونٌ بـابليـاتُ
ياجيرة السفح من وادي العقيق لقد ... أجرته بالسفح في الخد الصّباباتُ
وبي غزال كناسٍ لم أزل كلفاً ... بحبه فله الأحشا كناسَاتُ
سلطان حسنٍ أطعنا أمره فله ... عـلى قلوب محبيـه ولايـاتُ
قد خِفْتُه فلقلبي عند رُؤيَته ... خفقٌ كما خفقت في الجيش راياتُ
لم أنس إذ زَارني ليلاً وقد غفلت ... عنا الوشاة وبانوا ليتهم ماتوا
وجاد لي باعتناقي غصن قامته ... فطاب لي منه تقبيل ورشفاتُ
وبتّ أوسعه ضَمّاً وأنشدهُ ... يا غايةً ما لعشقي فيك غاياتُ

وقوله من أُخْرى :

أرجٌ بـأرجـاء الثنيّـة يعبقُ ... عرف الأحبة منه لي مستنشقُ
أهـلاً به نشـراً غدوت لأجلهِ ... بـالـذيـل من نسماتـه أتعلّق
كم قد روى لي من رياض ربوعهم ... خبراً به دمع الأماقي مطلقُ
بـأبي غـزال نـافِر عن صبِّه ... بالذّعـر عني لا لذنب يفـرق
بدرٌ له في القلب مني مغربٌ ... وله الجوانح من ضلوعي مَشْرِقُ
ما اهتَّز منه القدّ إلا خلتُه ... غُصْنـاً بمخضر الغلائِـل يورقُ
لله أيـامٌ مضت مِن وَصْلِهِ ... لـو أنها دامت لصبّ يقـلقُ
يمضي عليـه نهارُه في فِكْـرةٍ ... والليـل منـه يمر وهـو مُؤَرَّقُ

وأبوه الخَضِر ، روض سيادتِه غَض نَضِر ، شَرِب ماءَ الحياة من ظلمات مِدَادِه ، وخَرَق سفينة الجهالة فأغرقَها في يَمِّ كدحِه واجتهادِه ، أقام جِدَار الفضائِل ، ولبس دون غيره شملة الشمائل ، وطاب عُنْصُراً ونَجْراً ، ونال بعمله الصَّالح ثواباً فلم يقل له الغير ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجْراً ﴾ [1] ، وله مروءة

---

(١) الآية القرآنية (٧٧) سورة الكهف .

وكرم ، يأوي الخائف من الدَّهر عنده إلى حرم ، وهو من تلاميذ جَدِّي ، الذي أدركتُ بسرّه من الفضائل جَدِّي ، ولمَّا منحه منه فهماً وحلماً ، قالت لسان حالِه في حقّه هذا الخضر آتيناه من لَدُنَّا عِلْمًا(١) ، أدركتُه في أواخر عُمُره ، وقد حَطّمت الأيام مَا استقام مِن سُمْرِه(٢) ، وانصدع ما التأَم من جَبْره ، ودنا رحيلُه من هذه الدَّار إلى قَبْرِه ، لمَا لصق بعارضِه غبار المشيب ، بعد أن طار بأفراع الحوادث غراب شعره الغربيب(٣) ، وقد ندف قطن لِمَّتِه من الدَّهر حلَّاجُه ، وألْقت على راسه الزَّبد إذ خاض بحر الهموم أمواجُه ، وله شِعْرٌ قاله ، كقولِه يتظلم من الدَّهرِ ويصف حاله :

سحقاً لهذا الَّدهر ما باله ... يرفع فوق العالِم الجَاهِلاَ
يخفض قدراً من رفيع سَمَا ... يُحِلُّه منزلة السَّافِلا
يا دهرنا مالك لا تنتبه ... فعن صوابٍ لم تزل غافِلا
مضى أخلاّي إلى ربهم ... وعاد رَبْعي بعدهم عاطلا
وخلفوني لخطوب غَزَت ... لاقيت منها الأصعب الهائلا
لا كان هذا الدهر من كائنٍ ... وخائِنٍ يستنقص الفاضِلا

(١) الآية ﴿ آتيناه رحمة من عندناوعلّمناه من لدنا ﴾ (٦٥) الكهف .
(٢) السمر : هو شجر الغضى ، ولعلّه هنا يقصد الرماح لاستقامتها .
(٣) الأسود .

السيد علي بن يحيى بن إبراهيم بن العارضة(١)

سيد مقدام ، مثرٍ من الكمال ومن النّقص معدام ، لا يُنَال رفيعُ مَنَارِه ، ولا يصطلى أبداً بنارِه ، ذو فضاضةٍ وحزم ، وإقدام شائِع وحزم ، لا يبالي بالخَطْب إذا والى عليه أو صابَه ، فَسيَّان عنده من عدوِّ الزمان أَأَذَاقَه حلوَهُ أوْصابَه ، وله في المروءة نصيب ، وفي اصطناع المعروف سهمٌ مصُيب ، مع وفرٍ في المال ، وعيشٍ أبرد من نسمة الشمال ، وبيني وبينه من الودّ القويم ، ما بين الرياض المونقة والنَّسيم ، بل بيني وبينه من التلازم مابين الفرقدين ، فكل منا يَرى الاتصال بالآخر كأنه عليه دين ، طالما اجتمعنا في مقاماتٍ حريرية الوشي ، يكاد الحازم إذا مشى عليها أن يقع في المشي ، بطائنها من إستبرق ، وجامها من النّجوم أشرق ، على أحاديثٍ وأنبا ، يصير بها الحَزَن نهبَا ، لأنها أروح في الكاسات من الصَّهبا ، وآداب مرتعها غير وخيم ، وأحاديث صوت أوتارهَا رَخيم ، ينتعش عند سَمَاعِها عليل النسيم ، ويتهلَّل وجه البدر الكامل الوسيم ، وله شعرٌ غالبه الإجادة ، ونظمٌ علق على عاتق مجدِه نِجَادَه ، ومكاتبات إليَّ كثيرة ، ومحاورات نبيلة أثيرة ، فمن قوي عارضته ، ونَظْمه الذي جَلّ عن مُعارضته ، قصيدةً كتبها إليَّ بادياً ، ورائحاً في طريق المحاورة وغادياً ، ومغرداً على غصن القلم شـــادياً ، وداعياً إلي بلسان المودَّة ومنادياً ، منها قوله :

تذكرتُ سِرْباً بالعُـذَيب وملعباً ... ومرتبعاً من ذلك السفح مخصبا

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢ / ٢٣٠) نقلاً عن كتابنا هذا .

وأيام أنسٍ طاب لي حسن لهوها فلله ما أحلى جناها وأعـذبَا
فمن لشجٍ يبكي من العيش صفوه ينوح على ما مَرّ في ذلك الخِبا
يطارح ذات الطَّوق شجواً وطرفُه يساجل وطفآء الغمامة صيّبا
يذوب اشتياقاً من غرام شواظُه يـزيد عـلى مرِّ اللّيـالي تلَهُّبـا

منها قوله في المدح :

بعثت لنا الأصداف يا خير عالمٍ فمن درّها نلنا بفضلك مطلبا
وأوضحت فيها بالإبانة مشكلاً وأنبأت عماً لا يطاق له نبـا
شهَاب المعالي قد أتيت بمعجزٍ أرَى زُحَلاً منه مع البعد أقربَا
وصنَّفت أيـام الشبابِ فـوائـداً بميدانها ذو المشيب بالعجز قد كباَ
لك الفخر في علمٍ أرى الفخر قاصراً لديه وما قد قلت هذا تعصبًّا
وكم لك في الآداب من روضَةٍ لها أزاهير يسبي طيبها روضة الربى
فهيهـات لا والله مابن نبـاتَةٍ ولا غـيره يدنـو إليك تقـربـا
وكم قد سمعنا منك يوم خطابَةٍ خطاباً يذوب الصخر منه تهيبا
يميـل بـه عن شـوقِـهِ عــود منـبَرٍ كما مال غصن الروض من نسمة الصّبا
لك الله كم فنّ سلكت سبيلَهُ من الفضل لما أن غدا لك مذهبا
وكم من ضروب في المقال تفنناً أتـيت بهـا منقـادةً وتَـلَعُّبـا
حباك إله الخلق ما قيل عندُه أدام عليك الله من هذه الحُبَا
ليهنأ أبـاك العالم الفـرد مفخَرٌ أتيت به قد عمَّ شرقاً ومغربَا
إمام علوم دافع الخصم إذا أتى أتيت به يوم الجدال بمذهُبـا
ولقَّـاه من أقلامه كُـلَّ أسمـرٍ وجَرَّد من ذهنٍ دقيق له الظُّبَا
فلا زلت فخر الدَّهر مُذ عَزَّ فخره ودام لك العلم الغريزي مذهَبَا

ولما طاب الجوّ عُرفاً ، وَراق ذات يوم ٍ ورد المَسَرَّة غَرْفًا ، وأصبح الأفق لِبُرد غيمه لابساً ، وضحك في الرياض ثغر الزَّهر بعد أن كان عابساً ، ودعت الحدائق النّدمان ، بعد أن فرشَت لهم سندس نباتٍ تطرز بشقائق النّعمان ، دعاني إلى منزلٍ بدارِه ، فأسرع قدمُ شوقي إلى بِدَارِه ، وسرت إليه أرفل في حلل المسرة ، وأجرّ ذيل الأفراح على الفلك حتى أثَّر ذلك مسحَب المجرَّة ، فوافيته وقد هيَّامجلسًا،يترك طرف النَّرجس في حسنه مُبْلِسًا ، كأنما هو نموذَج الجِنَان ، وقرة العين وصقيل الجَنَان ، ويَدُ الكدر قد غُلَّت ، ويمينه عن يوم سرورنا قد شُلَّت ، فعند ذلك نُكِّست من الأحزان الرؤوس ، ودارت بيننا من المنادمَة الأدبيَّة الكؤوس ، بخمرة لم تحتج إلى مزاج ، ولم يحبس بباطن الدنّ والزجاج ، والكتب النَّفيسة بنَا قد حُفَّت ، وأوراق الدَّفاتِر بروض أنسنا على ثمرات الآداب قد التفّت ، ومن جملة ما حلا في ذلك المقام ، ديوان الجمال النُّبَاتي[1] سقت ضريحه الغمام ، فأشرت إليه باستعارته ، لأبرّد به جوى قلبي عند استعارته ، فقال أنت المالك في الحقيقة لذلك الكتاب ، فإذا انقضى المجلس أخذته فإلى مثلك تزف عرائس الآداب ، ثم لما انقضى لنا ذلك اليوم ، الذي انتبهت به عيون المسَّرة من النَّوم ، وسها عنه من الزَّمن حادثُه ، وغفل عن صَفْوِه من رقيب الكدر كارثُه ، وحان الانتشار من مقامِه الذي راق ، وتبدَّد عقد ذلك الجمع وآخر كل جمعٍ الفراق ، وقد تضوَّع من اللَّيل مسكُه ، وانتظم على جيد الأفق من حُلْي النجوم سلكُه ، فَسِرتُ عنه وأنا كالنَّشوان ، وعزمت ولم أستَصْحب الدِّيوان ، فلما طلع صباح اليوم الثاني ، وأصبح نسيم الشوق إلى ذلك الديوان لعطفي كالثَّاني ، رفعت له من كلامي ما يعيه ، وكتبتُ إليه على الفور أستدعيه :

---

(١) كان ديوان ابن نباتة من أشهر الكتب المتداولة في اليمن في ذلك الوقت ، وكان لا يزاحمه في المكانة سوى (ريحانة الألبا) للخفاجي . انظر كتابنا : (الأدب اليمني : عصر خروج العثمانيين من اليمن) .

وسع الله لكم في البقاء ، ما اشتاق محبّ إلى النَّقَى ، وشرح لكم بالنّعمة صَدرًا ، ورفع لكم في مراتب الرِّياسة قَدْرًا ، وخصّكم بسلام شذاه أفشى من النَّمَّام ، وأطيب مما أخرجته أنامل الأغصان من الأكمام ، سواجعه كثيرة الهدير ، وحدائقه زاهية النَّبت متدفّقة الغدير ، كنت عند ذلك الجمع الذي هو جمع سلامة ، والإكرام الذي هو على نفاسه أكبر علامة ، أردت أخذ ديوان الجمال النُّباتي ، فَأَطال ما أدرتموه من كاسات الإكرام في مهد الغفلة سُبَاتي ، وصَدَّني سُكّر إكرامِك عن نَبَاتِه الذي حَلا فهو أحلى ، وأنسانيه عسل فواضلك التي أنحلتني فما ذكرتُ بعدَه نحلا ، وذهلت عن ذلك ذهول السكران ، وتشاغلت بما تُنُوقِل في ذلك المجلس من حديث الأقران ، حتى وصلتُ البيت ، قائلاً بعد الإفاقَة ألا ليت ، فلكم جَزِيل المِنَّة ، بتحقيق ظن المحبّ بعدم الضِّنة ، وإرساله إلينَا إرسال النسيم البارد ، إلى الغزال النَّافر الشارد ، لننظر فيه نظرة بها يهون الخطب ، وننتشق من آدابه ما تذهب به مع الرياح نفحات العنبر الرطب ، فللَّه در ذلك الأديب ، كم هان عند كلماتِه من نسيب ، وكم تحلت الأقلام بفرائد نظمه ، وتزيّنت خدود الطرُوس بعذار رقمه ، فما الوجه الجميل برقعة الحيا ، وما الرَّوض النَّضير وافاه الحيا ، بأبهج من كلماته التامَّة ، ولا أخصّ من نفثاته العامَّة ، وعندي نسخة منه إلا أنها سقيمة ولا كسقم النَّسيم ، وروضة لطيفة إلا أنها غير متضوَّعة من ريحان الخط بالشَّميم ، فامنن بذلك فمن عادتك المَنّ ، واقرن السُّؤال بالجود فطالما بأفضالِك يقرَن ، ولا برح لك المجد ملبسَا ، ولا زال عيشك أنعم من الحرير ملمسا ، ما راض حِرَان الدَّهر فارسُه ، وروض جنبات السَّفح من القطر بَاسمة لا عابِسة ، والسَّلام .

السيد حسين بن القاسم بن محمد

عالم عارف ، جمع له التليد والطارف ، أعطاه الله رفعة وأجزل في عطيته ، حتى بلغ السَّماء فما البدر فها إلاَّ أثر فِرْسِن[1] مطيته ، وكان في الابتدا ذا حال مضطرب ، بينا هو جليس تَالٍ فإذا هو قرين ذي خلاعَةٍ طَرب ، إن تابع هواه وما توقَّف ، فنديمُ مطربٍ وصريعُ قرقَف ، وإذ أكف وتاب ، فحليف مسجد وضجيع كتاب ، ثم استمر به الحال ، على ملازمة العلم فإذا جيده حال ، فَكَسَر زجاجَتَه ، ولبَّد عَجَاجَتَه[2] ، وتَيقَّظ مِن كَرَى ، فما أتى مُسْكرًا ، هَبَّ مِن نَوْمَة شَبَابِه ، ورمى من كَفِّه الكاس مُتَوّجاً بحَبَابه ، فَلَه مُذْهَبٌ مِن نَومِه طِراز[3] مُذْهب ، وله سماتٌ لا ينصفها المادح لما أسهب ، فُتِح عليه بالفوائد أيّ فتوح ، وإذا نهره خليج وبئره مَنُوح[4] ، وَلَمَّا اجتلى الأَهِلَّة ، ونظر نظر عارف في الأدلَّة ، التزم في صلاته الرفع ، ودفع من رام جدالَه أي دفع ، فنفر عنه من نفر ، وكفر نعمته من كفر ، فسار ورحل ، وهو أبين شؤماً من زحل ، وشمر الجواد بمكة ، ومحا باليقين ظنه وشكّه ، فاعتكف بظلال البيت ، ولم يفُه بلَوْ ولا ليت ، وتغَرّب عن وطنه ، إذ حثَّ بازِلَ عزمه عن عَطِنه ، فلم يَلق من الاغْتراب ، إلا زيادة غمٍّ

---

(١) حافر البعير كالخف للدابة .

(٢) يقال لبّد عجاجته : كف عما كان فيه ، ومنه قول الحريري من مقامته الصنعانية : « ثم إنه لبد عجاجته وغيض مجاجته » أي سكنها وهي كناية عن النزوع والكف عما كان .

(٣) الطراز (علم الثوب) معرب .

(٤) أي منزوع ماؤها .

واكتراب ، ولما لم يُنْجِز له الزَّمان وعْدا ، قالت لسانُ حالِه أينما أُوَجّه ألقَى سَعْدا[1] ، فرجع إلى داره ، بعد أن اصطلَى من البعد بِنَارِه ، فألقى عصا المسير ، وقنع من وطنِه بأحقر سمير ، ورضي من سفحِه بمُنَادمة الحمير ، ومن فقد الآساد رضي بالثعالب ، ومن لم يجد أرباب العُلا قنع بأهل المثالب :

مـا أطيب الأوطـان إلا أنها	للمَـرءِ أحلى أثَـرَ اغـترابِـهِ
كم عـودةٍ دلت عـلى دوامهـا	والخلد لـلإنسـان في مَـآبِـه

ولما رجع وعاد ، وافاه الحِمَام فكأنما كانا على ميعاد ، فمات عقيب وُصُوْله ، ونثَلت يَدُ المَنِّية ما أودع في الكنانَةِ مِن نُصُولِه ، وله شِعْرٌ يُشْعِر عن فضله وطَوْله ، لم يحضرني منه الآن من قصيدةٍ غير قوله :

شجت مهجتي فوق الغصون البلابلُ	وقد سترتها في الأصيل الخمائل
وحركت الوَجد الذي ظلَّ في الحشا	وقامت عليه بالدموع الدلائـلُ
وظلت من الأوراق تملي غرامهَا	فـما بينها يـوماً وبيني تمـاثـل
وأذْكَـرت المضنى أحبتـه الأولَى	حمتهم سيوف في الحمَى وذوابل
فكم أسدٍ من دون ستر خدورهم	يرى غيره في حيهم وهو صائل
فيا دهري الماضي بهم عد تكرَّماً	عليَّ سقَى ما قد ذوى منك هاطل
وباكر روض المنحنى صوب ديمةٍ	بسيل به من جانب الروض سائل
فذاك هو العيش الهني فلا تلم	محبًّا عدا من بعده وهو سائل

قوله و « ظلت من الأوراق » البيت معناه حسن إلَّا أنه لم يودِّ المعنى كاملاً لأَنَّهُ قصد أن ما بينه وبين البلابل تماثل لأنها تملي غرامها من الأوراق وهو يملي غرامه عن ظَهْر الغيب وشَتَّان بين الحالين .

---

(١) من الأمثلة الشائعة ، قال الزمخشري : سعد هي قبيلة الأضبط بن قريع ، وكان سيدهم ، فرأى منهم جفوة ففارقهم فرأى غيرهم يجفون ساداتهم كذلك ، فقال ذلك المثل ، يضرب لمن يتلقاه الشرأية سلك . (المستقصي ٤٤٩/١) .

وأحسن منه ما جاء لي من النثر المسجوع في الفصل الثاني من كتابي المسمَّى « عطر نسيم الصبا » وهو فصل الحمامة[1] وذلك قولي في خطابها : أنّى تباريني في الوجد والهيام ، وتطارحيني فنون الكمد والغرام ، وأنا قد جعلت أمري في الهوى سِرًّا ، وأنت بُحتِ بهواك لمن في حماك طُرًّا ، وأنا فارقت غصني وأنتِ عانقت قدود الأغصان الرِّشاق ، وأنا أملي هواي من خاطري وأنتِ من الأوراق ، انتهى .

وهو كقول ابن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى في الحمامة أيضاً حيث قال في النظم[2] :

أنَّى تُبَاريني جوىً وصبابَةً ... وَكآبَةً وأسىً وفيض مَآقِي
وأنا الذي أملي الهوى من خاطري ... وهي التي تملي من الأوراق

والأصل فيه قول أبي الفتح نصرَ الله بن الأثير رحمه الله تعالى في إنشاءٍ له أجاب به على بعض إخوانه وهو :

ولما سرَّح الخادم فيها نَظره وَجَدَ شوقه حمامةً تغردّ في أكنافها ، وتردّد الشَّجا لبعد أليفها إذا رددته الحمائم لقرِب أُلَّافِها ، وهذا قولٌ له عند إخوان الصَّفا علامة ، وإذا تمثَّل كتابُ الحبيب روضة فهل يتمثَّل شوق مُحبّه إلاَّ حَمامة ، وأيُّ فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق ، لولا أنها على شجوها تمليه على صفحات القلوب وتلك تمليه على عذبات الأوراق ، انتهى .

وحضر صاحب الترجمة رحمه الله تعالى ذات يومٍ بمقامي وأنا في إبَّان الطلب أعَدُّ في الحقيقة من الصِّبيان ، وصادف درسي على شيخي الفقيه العلامة الفاضل

---

(١)(عطر نسيم الصبا : ٣٨ ط) الدار اليمنية .

(٢) البيتان في (ريحانة الألبا ٢/١٢٤) .

الصالح الحسن بن عبد القادر النَّاظري رضي الله عنه في حاشية السيّد[1] المشهورة على الكافية ونحن في بحث التنازع عند قول ابن الحاجب رحمه الله تعالى:وحذفت المفعول إن استغنى عنه وإلاّ أظهرت ، وذلك في باب حسبت ، قال السيد رحمه الله تعالى : فلا يجوز حذف المفعول الثاني من الفعل الأول ، فلا نقول وحسبني وحسبت زيداً منطلقاً معناه ، بل تقول حسبني منطلقاً وحسبت زيداً منطلقاً ، قال : وذلك لأنَّه في الأصل خبر والمفعول الأول مبتدأ ولا يجوز حذف خبر المبتدأ إلاَّ لقرينة ولا قرينة هنا انتهى كلام السَّيد .

فقلت أنا لشيخي قدس الله سره:في كلام السيد نَظرَ لأن القرينة موجودة وهي منطلقاً الآخر ، وكأن القياس التَّعليل من السَّيد بما سيأتي ذكره في أفعال القلوب فإنه قال عند قول ابن الحاجب رحمه الله تعالى ومن خصائصها أنّه إذا ذكر أحدهما ذكر الآخر ما لفظه لأنهما في المعنى مفعول واحداً إذ معنى علمت زَيْداً قائماً ، علمت قيام زيد ، فأما شيخي عليه السلام فاستجاد قولي وسَلَّم ما نبَّهته عليه ، وأما صاحب الترجمة فأكثر المهاترة ، وأطال في الجدال والمكابرة ، وظهر عليه دليل الحسد ، وكاد أن يفارق روحه الجسد ، وأخر جداله في مقالة أن قال كلام الجامي يغني عن هذا فقلت : كلامنا في عبارة السَّيد لا في غيرها فوجم عن قدح ، وصمت قُمريَّه عما لا يطرب من الصدح ، سامحه الله تعالى وعفا عنه وغفرله آمين .

(١) هذه الحاشية من أشهر كتب النحو عند أهل اليمن ، يتدارسها الطلبة في الدراسة ، ومؤلفها هو العلامة محمد بن عز الدين بن صلاح بن المؤيد توفي سنة (٩٧٣) . انظر : كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ٤٢٦) .

صاحبنا الفقيه الأديب يوسف بن علي بن هادي[1]

هو علي المقام وابن علي ، لذا ظمئت حدائق الفضل فهي فيها خليفة الولي ، إمام أدبٍ بلا لبس، وذو جواد مطلق بلا حبس ، من أنكر فَضْلَه فقد أنكر الشَّمس ، ومن ترك الثناء عليه فكأنما ترك الخمس ، كم أبرز من غادة رود ، واكتض[2] من بكر جرود ، أدرك فضيلتي المنظوم والمنثور ، وجاء فيهما بحديقة تُوّجت بالورد وقلدت بالمنثور ، مع خطّ بديع الحروف ، أرقَامُه للبهاء والحسن ظروف ، فقلمه فيه جواد ، وطرسه كعبةٌ ألبسَها من نفسه السواد ، مِداده مسك تبّت ، إذا ذكرت لديه سائر الأطياب قال تَبَّت ، إلّا أنه كان كثير الإغارة على المعاني ، فأبياته من بنات أفكار الغير ما هو لهالمغاني ،سيَّما شعر الجمال بن نباتة ، فكم قطف زهرهُ وجذّ نباته ، وكنتُ أراه يتهالك على ما يسْمعه ، ويودّ أن يأتي على آخر ما يجمعه،فلا يفوتُه معنىً إلَّا طرقَه ، ولا كنز أدبٍ إلَّا سرقَه ، ولقد قال له بعض العظماء : ما حملك على التهجُّم وما وما ، فأفّ لك من السَّرقِ أف ، فقال يا مولاي لا تستنكر السرقة من يوسف ، على أنه عندي للاستراق غير محتاج ، فإنه أهل لأن تنتج فكرته بديع الإنتاج ، ويأتي بجوهر يُفصَّل بها العقد ويرصع بها التاج ، وأنا أنزّهه عند هذه اللَّجاجة ، أن أقول في حقه كما قال ابن الخيمي هذه

---

(١) من الأدباء الكبار توفي سنة (١١١٦) انظر ترجمته في (نفحات العنبر (خ) البدر الطالع ٢/ ٣٣٥ ونشر العرف ٢/ ٩٤٢ وما كتبناه عنه في مصادر الفكر الإسلامي ٣٨ والأدب اليمني عصر خروج العثمانين (٥١٧) ودراسات في التراث اليمني ٨٥) .

(٢) كذا في سائر النسخ .

سرقة عادة لاحاجة، وقد ألفَّ كتاب « طوق الصَّادح »[1] ، المفصّل بجوهر البيان الواضح ، وكتاب « سوانح فكر الأفهام وبوارح فقر الأقلام » ، وله همزية سمَّاها « البغية المقصودة في السيرة المحمودة » ، وديوان سَمَّاه « محاسن يوسف » لخمرته المنسية شراب أدب قد سُفّ ، وجمع من شعر جمال الدين بن نباتة المصري ديواناً حافلاً ، ومعظم لطائفه الخالي عنها ديوانه المتداولُ كافلا ، وكان يتطاول تطاول ابن حجة ، فما طرق كلامَه سمعاً إلا مَجَّة ، فهجاه الشعراء ، وألقوه بالعراء ، فما أحجمت الألسن أن هجته ، ولا قرّت النفوس حتى سلكت من ذمَّة نهجاً أنهجته ، حتى قال بعض الأفاضل ، ممن له يجادل ويناضل ، ، سأضع كتاباً أسميه « كسْر الراووق ، في سرقات الطوق » ، وقد جرت عليه أحداث ، آلت به إلى حلول الأجداث ، فحبس مراراً ، ولاقى بدره مع كماله سراراً ، وقد كان أفضى إلى الهلاك أمره ، وزاد مع بعض ملوك في الاحتدام جمرَة ، فقال في حقّه السيف والنَّطع ، وأطيع أمرُه عند الناس ولكنه عند المقدور لم يُطع ، ثُمّ لمّا حُبس بزَبيد ، ووُكّل به ذو فظاظةٍ من العبيد ، أصابه غَم له كلم ، فتألَّم وأطلق من السجن في أثناء ذلك الألم ، فأركب على بعض الجمال ، واحتمل مشقة السفّر أشق الاحتمال ، فسقط من فوقه فانكسرت إحدى يديه ، وسُقط في يده لمَّا حانت مُفارقة من الآداب لما لديه ، فَنَاح طيرُنا حُزناً بعد ما شدا ، وحاش لله لم أقل في حَق يده المنكسرة مُنْشدا :

تأخر القطع عنها وهي سارقَةٌ ... فجاءها الكسرُ يستقضي عن الخَبَر

ثم لَّما استقر في بيته ، وقد تعلّل صديقُه بلوّه وليته ، مات وهو أقرب إلى الصّبا ، زارت ضريحه عنيِّ نسمات القبول والصَّبا ، وبيني وبينه وُدّ مُؤكّد ، ومشرب مُحبَّة غير مُكدَّرٍ ولا مُنكّد ، ومكاتبة ومراجعة ومحاورة ، ومناقلة للآداب

(١) من أشهر كتبه الأدبية . انظر ما كتبناه عنه في (دراسات في التراث اليمني ص ٨٥ ـ ٩٤) .

اللطيفة ومعاورة ، وشعرُه أنشر من العلم ، وأشهر من كل نظمٍ مرّ على لسان القلم ، ما في حُسْنه خلافٌ ولا جدال ، من ذلك قوله وهو بمنتزههم[1] المشهور المعروف بسدال[2] :

فلقُ الأماني قد تبلج ... وشذا المسَّرة قد تَأرَّج
والدهر قد وهب الحبو ... ر وهبَّ روح رضاه سجسج
وأتى الرَّبيع يجرّ فضل ... مروطه لَمَّا تبرج
فتزخرفت لقدومه الدُّ ... نيا بما أبهى وأبهج
والجوّ أصبح لازور[3] ... ذي المطارف لم يُضرَّج
والروض زاهٍ زَاهرٌ ... خُضرٌ ملابسُه مُزَبْرج[4]
حسن النّضارة قد كُسي ... حلَلاً من الأزهار تنسج
والقُضْب غنّاها الحَما ... م فهزّها طرباً وأزعج
وكأنما النَّارنج في ... أغصانِه جَمْرٌ تأجَّج
أو لا فَكَالأُكُرِ التي ... من عسجَدٍ والرِّيح صولج
ومجامر الأترج قد ... فاحت بعرفٍ قد توهج
والأقحوان كأنَّه ... حَبَب ِ السُّلافة حين تمزج
أو شبه تَوْشيرٍ[5] غَدَا ... ملقى على ثغرٍ مفلج

---

(١) منتزه مذكور في مقامة « أقراط الذَّهب » .

(٢) نقلها صاحب (نشر العرف ٢/٩٤٥) .

(٣) اللازوردي : ما كان بلون حجر اللازورد ، وهو معدن مشهور يتولّد بجبال أرمينيا وفارس ، وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة .

(٤) مزبرج : مزيّن .

(٥) في النشر : دينار أصلحه من عنده وتتفق، وسائرالنسخ على ما أوردناه ، والتوشير هو أن تحدد المرأة أسنانها .

والـطَّير أنشـدنـا من الـ أوراق مـا أنشـا وأنشـج
واحْمَّـر خَـدُّ الـورد مـن خَجَـلٍ وعُـذِّر بـالبَنفسج
وكـأن زنـبـقـنـا كـؤوسٌ مـن لُجَـينٍ لم يُـبَـهـرَج
ومـقـامـنـا قَـدْ شَـقَّـهُ نَهْرٌ بـسـاحَـتِـهِ تـثـبَّـج
نهرٌ تَـراه كـصـارمٍ أو مـعصـمٍ لأبضّ أدعـج
وفـراشُـنـا فـيـه بـسـا طٌ بـالـزّهـور غَـدَا مُـدَبَّـج
وسـحـابـنـا فـيـه دخـان يَلنجـج[1] لا عرف عَـرْفج
وشرابُـنـا مـن قـهـوةٍ كـالمسك بـل أروى وأروج
زُنـجـيـة أضـحـت بدرّ حـبـابهـا الصـافي تـتـوّج
إن أفْـرغَـتْ في كـاسهـا خِلْتَ الدُّجى في الصبح يولَج
مـع فتيـة هـم فتـنَـةٌ كـالشهب بـل أبهى وأبهج
مـا مـنهـم إلا مُـرّدا بـالحجـا شَيْـخـان أبـلج
سـمـح السّجيَّـة بـاهـرٌ بـاهٍ قرين اللطف دهْمج[2]
نـطِقٌ عَـريْقٌ في الفَصَـا حـة إن تكلّم مـا تلجلج
فـانهض وأدلـج فـالمهـذّ ب من إلى اللذات أدلـج
ودع الـتـشـبط وانـتـهـز فُرَص السرور ووافِ مُزْعج

وقوله مضمناً لمصاريع من قصيدة أبي العلاء المعري اللامية المعروفة في الحماسة :

دنت سَحَراً بالجزع من مُغْرَمٍ لَهُ عفـافٌ وإقدامٌ وحـزمٌ ونـائـلُ
فغارت نجوم الأفق من شمس وجهها وقال الدجى للصبح لونك حائل

---

(١) اليلنجج : هو عود البخور .
(٢) الدهمج : العظيم الخلق .

وقد أسبلت سَتراً لتخفى ومن لها بإخفاءِ شمسٍ ضوؤها متكامل
مهَاةٌ عَصَت عُذَّالها في وصاله فأهون شيء ما تقول العواذلُ
غدا الخصر منها يدّعي فضل ردفها ويُظهر نقصاً ردفها وهو كامل
فواعجَبَا كم يَدَّعي الفضل ناقصٌ ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضلُ
أرى قرطها من بُعد مهواه يزدهي ويقصر عن إدراكه المتناولُ
وما النبل إلاَّ من رناها فإن رنت نكصن على أعقابهن المعابل
تطاول ليلي كي يشابه شعرها وعند التناهي يقصر المتطاولُ
تصدّ فَتبكيها جميع جوارحي ولو بان زندي ما بكَته الأنامل
علمت الهوى لكن لأجل عواذلي وتجاهلت حتى قيل أني جاهِلُ
ونَمّ بوجدي مدمع سائل وهل يصدق واشٍ أو يخيب سائلُ

وقوله :

ما أنت بدرٌ فوق غصنٍ تحته دعصٌ يروق الناظرين ويبهج
فالبدر يكسف وجهه والغصن قد يَذْوَى ودعص الرمل لا يترجرجُ
وأراك وضَّاح المحيا تلجم العذ ال فيك على الغرام وتسرجُ
ونَضير قدك لا نظير لحسنِه أبداً تضير به الغصون وتحرجُ
والرِّدف مرتدف ترجرج موجُبُه يامن به تلهو القلوب وتلهجُ

قوله : « واراك » البيت هو كقوله أيضاً :

قد ألجم اللاَّحي محيا هُ غداة أسفر ثم أسرج

وأحسن منهما قول جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى ، ومنه أخذ المعنَى(١) :

قد أسرج الحسن خدّيه فدونك ذا سراج خَدّ على الأكباد وَهَّاج
والجم العذل فاركض في محبتِه طرف الهوى بعد إلجامٍ وإسراج

(١) (ديوان ابن نباتة ٨٦) .

وكان لما أملاني له قصيدة بائيّة في مدح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم رأيتُه مستحسناً لمطلعها رحمه الله تعالى وهو قوله :

ثَوَت الغزالةُ في كناس المغرب فذَرَتْ على البطحاء مسك الغيهب

فقلت له : هذا مأخوذ من قول العلامة القاضي الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي أفندي رحمه الله تعالى مما أورده في ريحانته من فصوله القصار حيث قال[1] : إذا فَرَّت الغزالة إلى كناس المغارب ، ألقت في سرر[2] البطاح مسك الغياهب ، انتهى .

ولا يخفى حسن استعارة الشِّهاب السّرر للبطاح لأن السرر موضع المسك من الظّباء كما قيل :

ولقد عهدت المسك في سرر الظبا .

وهي مما فاتتك في بيتك فإنك لم تقل غير : ذرت على البطحاء مسك الغيهب ، وهو ظاهرٌ فَسَلَّم لما قلتُ لما لم يجد للجدال مجالاً ، ولا للمجادل مصالاً .

وقد كتبت أنا إليه قصيدة ورسالة طويلة وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع ومائة وألف سنة ، وقد رحل عني وفارق مقامي ، وكانت رحلته من شبام كوكبان المنيف ، إلى صنعاء اليمن المحروسة ذات السفح الوريف ، أصف له قدوم الرَّبيع علينا ، وأنعت له الرِّياض الذابلة لدينا ، وأشوّقه إلى شبام ، وأتوجّع من الفراق الذي رمتنا به الأيام ، وأشكو من البين الذّي أحدث في القلب قروحا ، وأودعت آخر الرِّسالة لغزاً في الشَّمس هو مثلها وضوحا ، وكنت أودّ هنا

---

(١) (ريحانة الألبا : ٢/٣٦١) .

(٢) الريحانة : سرور .

إثبات الكل من الابتداء والجواب ، ورسمهما في صفحات هذا الكتاب ، لكنهما فاتا عليَّ فإذا هو قد عَبث بالقلب جَوَى به ، فلم أظفر الآن من الرِّسالة بغير الإلغاز في الشّمس وجوابه ، وهو قولي :

نعم وسنح لي أن أسالك عن مخلوقة لا برحت مثلها في الاشتهار ، طالما أملأ كأس الذكر لها في الذكر والخُطب والأشعار ، إذا قلبت كان طَرْدها مع التَّصحيف في عكسها ، هي جارية وعند التحقيق فيها حُرُوْرٌ ، يُعرَف من نفسها ، لا تُرَى إلَّا سائرة ، ولا تبرح تصل الهائم وهي هاجرة ، تَرَى رأسها بالمشيب مشتعلا ، منذ أحكم تصويرها خَالقها جَلَّ وعلا ، لا تموت مع طول عمرها ، وكم قد دُفِن من شُبَّان ، وشيْب في عصرِها ، ومع ما ذكر من المشيب ، والعمر الذي زاد ، فإنّها تقطع في كل يوم وليلةٍ مسافة لا تتمكن من قطعها مسومة الجياد ، لا تلامس شيئاً من الجوارح ، وأنت طالما تنظرها من الطَّرف والقلب في مسارح ، في قلبها سُم وهي مما تجفِّف العفونات الزائِدة ، ثلاثية الحروف وما هي عند التّحقيق سوى عينٍ واحدة ، رتبتها سامية ، لا تحميك إن استجرت بها من العدوّ وهي لك في كل حينٍ حامية ، وفيما علمناه من النَّقل ، أنها ليست من ذوي الجنون ولا ممن له عقل ، وبها مَس يعلم ، وهي مما لا رائحة له على أنها لا تخلو من شمْ ، عينها تريك كم من صَاد، لا يَعلم كيفية خلقها إنسان وهي ظاهرة لجميع العباد ، لا تنطق وهي قابلة ، كم قَلَتْ من خليل بلا سبب وما هي عنه مائلة ، لا تسمع إذا جارت الشُّكَا ، ولا تفهم إذا خُوطبت وهي ذُكا ، لاتشرب ماءً عذبًا ، ولا تحن إليه مع أنها قد اتخذت لها غَرْبًا ، لا تنظر وهي عَيْن ، ولا تأكل ولها بُطَين ، لا ينقصُ مدى الدَّهر جرمها الوافر ، إذا أتتك أتاك أخوك المسلم وإذا غابت عنك جاءك الكافِر ، غَزَالة لا تهاب الأسَد ، وطالما رُئيتْ ببَطنه لما التقمها وازدرد ، لا ترى بها من النبات نَوْراً وهي مُنَوَّرة في أكثرالأزمان،منها عُرِفت سورة الضُّحَى وهي لا تفوه بحرفٍ من الفُرقان ، لا تزول إلاّ في القيامة ولها في كل يومٍ زوال ،

ولا ترجع من حيث مضت إلّا في آخر مدتها وذلك يومُ المنال ، لا يَشْرقُ بها شارب وهي مُشرِقةٌ لكل من في الأرض ، لا يسع البحر جرمهَا على أنها تلج ببطن الحوت مع ضيق طوله والعرض ، لا تفْجِر الدَّمامِل وكم تابعت الفَجْر ، ولا تعرف الكميت من الخمرة على أنها كم رُئيَتْ له في عصر ، لا يحسن في البلاغة نظماً ولا نثراً ، ولكنك إذا أمعنت الفكر قد تَجدها عارضَت الشِّعْرى ، لا تعرف الوصول إلى عرفات ولها في كل حَجَّةٍ وُقُوف ، ولا تتمكن الحسناء من لَمْسِها وكم قد علقتها في جيدها من جملة الأقراط والشُّنُوف ، تستتر فقد يبكي خَمارها لفقد طلعتها المنيرة ، فإذا برزَت من الحجاب ارتشفت أدمعه الغزيرة ، طبعها يميل إلى الحرارة فهي لا تترك استعمال السناء ، وما هي عند التَّحقيق إلّا خالية عن الأربع الطَّبائع الجالبة للأمراض والعناء ، لم يخلِق الله لها إبطاً ولا عرفاً طيباً ولا منتناً يَسْتنشق منه كغيرها ، ومن العجائب أنه لا يعرف النَّشر الذّي ينعش الأموات إلّا في تكويرها ، لم يقتدر النَّاس على حبسِها وكم منهم من أحكم لها سورة ، إذا نظرت منازلها وجدتها لا تخلو عن قوسٍ وليس من عادتها الرَّمي بالقِسيِّ الموتورة ، لا يُمكِن منها في الادكار الولوج ، ولا تألف شيئاً من الطَّير مع أنها طالما صحبت النسر في البروج ، لا أنامِل لها ومنها تعرف الخمس ، هذا ولا برحِ مفخرك ظاهراً ظهور الشمس ، والسلام .

فأجَابني بقصيدة ورسالة طويلة منها في جواب الألغاز قول :

وأما ما سألت عنها فأنت سائل ومتفضِّل ، فتبرجت لنا من بدائع بدائهك بزينة لا بلبسة متفضل،فأقسم بالفجر وليال عشرٍ ، لم نر مثلها في الضُّحىَ كما لم نر مثلك في العَصْر ، تستوقف الأبصار بمحاسن حُرِّ وجهها وهي جارية ، وتلبس حللاً من السنا غير ساترةٍ لها ولا مملوكة بل هي لربها فهي عارَية ، أصيلة تنتج الأصيل تُعْرَف منها الدَّقائق وهي لا تعرف الجليل ، تظهر منها القسوة ومن غيرها لا يعرف الشَّفق ، وتختفي من العين فيها فتتلو عند ظهورها الفلق ، تخفى سنتها

الحسنَى عند الوجوب ، وتسقط فتبرزُ الجواري لابسةً للحداد ومَا ذاقت مكروهاً لمندوب ، ليس لها في حسنها ثانٍ ولها ثانية ، ولا تظهر في آنية إذا اختفت في آنية ، ولا تُقِيل المشترى إذا غلبته وهي قابلة ، ولا تحول مع حرارة طبعها عن ملازمة السَّنا وهي به عن معرفة ذاتها حائلة ، حسناء لا تستتر من الحيا وكم عليها فاستترت عن الأبصار ، غزالة إذا رأى الأسد عينها غاب في غاب الاستتار ، تنقلب عين كل راءٍ عنها حسيرة وما اقتنص نوناً(١) من بحرِها ولا صاد ، تدلّ الرّائِد ولولاها لما عرف وقت طَفل(٢) ولا راد(٣) ، معمرة كم غارت الجواري منها فأظهرت ألعاب ، وقلن لم يخف على الأبصار صغرنا وقد سَال منك للكبر اللُّعاب ، ولم يخف لحَنُهنّ في الحجّة وَبَها ، إذا غَرَبن فقلن نحنُ السِّت وقالت أنا سيدتكن حُسْناً وبَهَا ، تكسر العين إذا أخذته في ارتفاعها بالتحديق ، وتنزل في منازل لا تضيق عنها وهي أكبر منها على التَّحقيق ، لا يزيد طول عمرها على العرض ، تسير فوق الرؤوس وهي مَرْميّةٌ على الأرض ، يظهر منها النَّجم ويستتر الشِّهاب ، إذا ولَّى جرمها قيل ولا كانون وإذا رجع قيل ما سواه آب ، إذا لم يكن لكل طلوع في الأجساد فجرٌ وعَصْرٌ فهما لكل طلوع منها ماراب ، مليحة لعينِها حاجب ما خلطه ببياض فَيقول شاب ، جارية ذات محاسن برى القلم لتحريرها الرِّق فشكرت الباري ، وأسجدها من ثنائه ليوسف ولا عجب إذا رأى يوسف سجود الجواري ، هذا ما سنح للخاطر من الجواب على ذلك السُّؤال ، مع أن البادي أمير والمراجع مأمورٌ فالعذر عن التَّقصير ظاهر كبدر الكمال ، انتهى جواب الألغاز .

---

(١) نوناً : حوتاً .

(٢) الطَّفل : العشي آخره عند الغروب ، أي اختلاط أول الليل بضوء النهار من لدن ذرور الشمس إلى استكنانها الأرض ، ومنه قول الطغرائي :

مجـدي أخيراً ومجـدي أو لا شرع ... والشمس رادا الضحى كالشمس في الطفل

(٣) الراد : الضحى ، وقيل هو الساعة الثالثة من النهار والضحى الساعة التي بعدها .

قلت : كان الأحسن في هذا الختام ، والأولى لو قال : هذا ما سنح للخاطر من الجواب على ذلك السُّؤال الذي راق ، مع أن البادي أمير والمراجع مأمور فالعذر عن التَّقصير ظاهر ظهور الشّمس في الإشراق . وهذا التَّصويب لا يخفَى حسنه إلّا على من جهل الشَّمس لأنه لو قال كما قلنا لكان فيه إشارة إلى الإلغاز في الشَّمس فلو كان الإلغاز في البدر لحسن منه ما أتى به في ختام جوابه ، ولذا يظهر حسن ختامي في الإبتداء إذ قلت ولا زال مفخرك ظاهراً ظهور الشَّمس .

ويظهر أيضاً حسن ختامي في إلغاز في القمر كتبته إلى المولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى وهو ما لفظه :

فالبدار منه أيده الله تعالى بتبيين ما احتكل أمره ، واحتلك دامسه على الأفكار فإنه لا يجلِّيه لوقته إلّا بداره .

ويظهر أيضاً حسن ختام المولى الحسين المذكور في جوابه إذ قال : وكل هذه الأقوال واضحة كما تَرى ، ولا تَخْفى إلَّا على أكمهٍ لا يعرف القمرا ، انتهى .

قولي في هذه الألغاز : وهي مما لا رائحة له على أنها لا تخلو من شم ، هو مما لا ينكتم رائحة حسنهِ ومنه ما نظَمْته أنا أيضاً في التَّورية مع الاكتفاء فقلت :

قد فاح عرف الورد من خدّها ووجهها شمسٌ تزيل الظُّلم
فها أنا بالخد والوجه قد سفرت في الحالين منها بشَمْ

وكتبت إليه من النَّظم ملغزاً في غزالٍ قولي :

قل لضياء الدِّين من حاز كمالات الخِصَال
ما اسم لشيءٍ لا يُرَى سرابُه وفيه آل
في طِرده غَزَا وما يعرف ما يوم النِزّال
إن زال منه أوَّلٌ رأيت منه الكل زال
أوضحه لا زلت فتىً يقصد منّا بالسُّؤال

فأجاب بقوله :

يا شمس هذا العصر لا دانـاك ما عشت الزَّوَال
ويـا خطيـب دَهـرْه ومن بـه المنبر مال
ألغـزت في شيء لـه عنقٌ حكى ذاتَ الجَمَال
مـا غالهـا فإن يزل ثانية منه قيل غال
هـذا ودم في نعـمةٍ مـا دال باللغز مقال

* *

القطب الفقيه أحمد بن عبد الرحمن الولي النزيلي الطائفي

هو الوسمي وهو الولي ، ذو البرهان الواضح الجلي ، من أهل الطريقة ، وأرباب المجاز إلى الحقيقة ، قطب الزّمان الذي عليه دار ، وواحد أبداله الذي ثبت له فوق قطب النجوم دار ، غوث غيثه صائب ، وطرازٌ على رأس الكون من العصائب ، الحاضر الغائِب الفاني ، القائِلة لسان حاله كل لاحق ما ألْفاني ، توالت أفعاله على الموافقة فَدُعي وَليًّا ، ولقّب بالولاية لمّا حاز في رتب العرفان مقاماً عليًّا ، اتفقت له من الكرامات ، ما لو نظرها الحاسد في الكرى مات ، ما رواه الثّقة ، وحكاه العدل لغيرِه فَصدَّقه ، وقد نظرت أنا كرامة له تلحق بالمعْجز ، ولا يصفها الواصف المطنب والموجز ، ليس هذا الموضع بمحل ذكرها ، هيهات هيهات استطاعة الجاحد لنكرها ، وهم أهل بيت ما الشكر هم من صحف الإمكان محو ، وليس لسكرهم المعروف عند الصوُّفيّة أبداً من صحو ، فالسلف منهم والخلف ، بدورٌ في البراهين ما شانها الكلف ، أفاض الله علينا من أسرارهم ، وحبانا من رياض القبول بأزهارهم ، وكان كثيراً ما يشملني بدعائه المقبول ، ويحثّ والدنا على ملازمة الدعاء لي كما هو عليه مجبول ، ومن سننه كثرة التّزويج ، فلبضائع النساء بسوقه ترويج ، عملاً بقول سَيّد الذكور والإناث ، « حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث[1] » وكان كثير الجوب للبلاد ، والتّنقّل في كل ناد ، ويصحبه من تلامذته جم غفير ، فكأنّه بين العالم وبين ربهم سفير ، يدعوهم إليه

---

(١) انظر الكلام على هذا الحديث في (كشف الخفاء ١/٤٠٥) يقول : « هكذا اشتهر على الألسنة وترجم به النجم لكن ذكره في المقاصد وكثيرون بدون (من دنياكم ثلاث) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه ، وكذا الخطيب في تاريخ بغداد .

أحسن دعا ، فمنهم من تصامم ومنهم من وعى ، وله في المحاضرة طرائف ، وفي المحاورة ما يدل على إنجاب بلده الطرائف ، فكان لا يخلو عن فائدة ، فطالما حلق في العلم مع قُرْبه من النساء على المائدة ، فأكل منها أطايب علوم ، وشفاء من ترياقها داء كلوم ، وقد ألّف كتاباً سماه « سلوة الحياة والمهات في المضحكات والمبكيات » وله شعرٌ كقوله على منهج التّصوف ، وطريقة أهل الخشوع والتخوف :

قفا بي على باب الكريم أناديه   وأنـزل مع قـوم كرامٍ بنـاديه
فلي فيه من حق اليقين لوامع   تحقق أسرار الفؤاد ومـا فيـه
عسى العبد بالتحقيق يحظى فسّره   مصونٌ وخوف الحال بالجمع يكفيه

أقول في هذا النظم ألفاظ تفتقر إلي بيانها على مقتضى اصطلاحات أهل علم التصوف فيها .

قوله : « من حق اليقين » حق اليقين عندهم حقيقة ما يشير إليه علم اليقين وعَين اليقين ، وعلم اليقين هو ما يحصل بالنظر والاستدلال ، وعين اليقين ما يحصل بطريق الكشوف .

وقوله : « لوامع » اللوامِع أمارات طلوع شموس المعارف وتبقى زماناً ، وهذا هو الفرق بين اللوامع واللوّائح فإن اللوائح أمارات طلوع شموس المعارف ولكنه يكون زوالها بسرعة .

وقوله : عسى العبد بالتمكين » ، التمكين : هو دوام استيلاء سلطان الحقيقة .

قوله « فسره » : السر لطيفة مودعة في قلب الإنسان يجيل فيها المشاهدة ، وسر السر ما لا اطلاع عليه إلا للحق سبحانه .

وقوله : و « خوف الحال » ، الخوف أن يخاف من نفسه أكثر ، مما يخاف من

عدَوّه ، وقيل أن لا يخاف غير الله. والحال معنىً يرد على القلب من غير تعمل واكتساب .

قوله : « بالجمع بكفّيه » الجمع أن تكون الهموم كلها همّاً واحداً فيصير ذلك حالاً له وقيل جمع الأسرار بأن ليس منه بد وقهرها ، فبه إذن شبه له ولا ضد ، والله أعلم .

وكقوله :

عليك بعبلة السّاقين خود ... لها ردف ككثبان مهيله
وخصرٌ للنّحافة ليس يبدو ... وعينٌ ذات أهدابٍ كحيله
يسيل الحسن منها في خدود ... كذوب التّبر جامدة أسيله
بديعة قامةٍ كالغصن ليناً ... ترائِبها كمرْآةٍ صقيله
عليك بها إذا ما رمت حَسْما ... لَشرٍّ الداء من مهجٍ عَلِيْله

* *

الفقيه العلامة أحمد بن عبد الواحد المحيرسي[1]

شهاب لا يجانسه شهاب ، له في سماء المعالي اشتعال والتهاب ، فكأنَّهُ البدر إنصافا ،يهتدي به الصَّديق إن صافى، طويل القامة ، سامي العنق والهامة ، له في العلوم مناهل صافية[2] ، هي لعليل الغليل بشرابها شافية[3] ، يفضل معها على غيره ، ويغرد بها ساجع طيره ، مع زهادةٍ لا يقول معها : ﴿ إن تَرني ﴾[4] ، وعِفَّة لم يقرن به أويس[5] القَرَني ، إلاّ أنه كان في زيّ مجنون[6] ، فصارمه بيد الطيَّش والخفَّة مسنون ، وكان يُكنيِّ نفسه بالمهْدي ، ويقول طالما لاحت على المخائل وأنا في مهدي ، مع فتك وإقدام ، يفضي وجود من ناوأه معهما إلى الإعدام ، وكانت تخافه البانيان[7] واليهود ، لأنه لا يراقب في ضعيفهم الذمم والعهود ، فكان يرى

---

(١) لم يذكره أحد من أهل التاريخ سوى كتابنا هذا ، وآل المحيرسي جماعة من العلماء يُنسبون إلى محيرس بلدة من أعمال الشاحذية .

(٢) تورية بكتاب «المناهل الصافية» في الصرف للعلامة لطف الغياث مخطوط .

(٣) تورية بالشافية ، كتاب ابن الحاجب في الصرف معروف .

(٤) من الآية (٣٩) سورة الكهف .

(٥) هو التابعي المشهور وفاته سنة (٣٧) هـ . انظر : (الأعلام : ٣٢/٢) .

(٦) إشارة إلى قيس بن الملوح المجنون الشاعر المشهور . انظر أخباره في (الأغاني : ١٦٧/١) .

(٧) البانيان أو البنيان : كلمة هندية معناها «التاجر» ، وقد عربت هذه الكلمة إلى باناني والجمع بانانية : وتعني أيضاً الملاح أو التاجر الهندي . انظر : (عجائب الهند ١٨٨٣) ط ليدن (العرب والملاحة) لحوراني ص (١١٠) .

وجودهم من المنكر العظيم ، ويعد ظهورهم بين ظهراني المسلمين من الفادح الجسيم ، ولذا قال في شعرٍ له يخاطب به إمام الزّمان ، وقد ضرب عليهم الجزية وأعطاهم الأمان :

أترضون أن البانيان بأرضنا يصلّون للعجل الطويل الخراطم

فما لقي أحدهم إلا جرَّد لقتله نصله ، وأولى رأسه على الفور فَصْله ، فسيفه لا يحط عن عاتقه ، ولا يفارق كفّ فاتكه وفارقه ، وفي آخر مدته لاذ بالبيت العتيق ، وتَطَيّب من تُرابه بالمسك الفَتيق ، حيث لا يُعَاني كيداً ، ولا يرى يهوديّاً أبداً ، وجاور حيث يحمد منه الجوَار ، وأطفأ بماء زَمزَم ما بقلبه من الأوار ، حتى صادته المنية في الحرم ، ودلَّ موته هنالك على التَّوفيق لا جرم ، لا زال يسقط عليه ثلج الرحمة بارداً ، ولا برح وقد فارق ماء زمزم من الكوثر واردا ، ودام لديه جمع الحور جمع كثرة[1] لا جمع قلَّة[2] ، وسَقَى الجوُّ تربَ ضريحه وبْلَه وطَلَّه ، وله أشعار منظومة وآداب مرقومة ، منها قوله :

يا أيَّها الإخوان لا تنكروا حرَّة ذي الشمس وأحراقَها
فإنها مملوءة حسرةً لما رأتْ في الأرض من فاقها

وقوله وهو مما كتبه إلى من استعار منه كتاباً ، فلم يرجع له جواباً :

طلبنا منك عارية كتاباً فلم يرجع لنا فيه جوابا
فإن يك منك إهمالاً لحقي وقد كنتُ الإمام المستجابا

---

(١) جمع الكثرة : هو ما دل على عدد يزيد على عشرة (وقيل على عدد يزيد على ثلاثة ما عدا صيغ منتهى الجموع ؛ التي تدل على عدد يزيد على عشرة) وصيغه كثيرة تزيد على الثلاثين ، نحو : فُعْل ومثالها صفر ، وفُعُل : نحو عمد ، وفعول : نحو تمور الخ .

(٢) جمع قلة : هو يدل على عدد محدد لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة ، وصيغه أربع وهي أفعلة نحو أغذية أدوية أمسية ، وفعلة نحو صبية فتية غلمة ، وأفعل نحو ألسن أرجل أعين ، وأفعال نحو أعناق أعمام أبطال .

فسوف أريك صبري واحتمالي وخير الصبر ما أرضى الصحابا
فيا حسن الفعال لك التهاني بتعزيتي بتركك لي جوابا
فلو عزَّيتني أوتيت أجري لقول أبيك من عَزَّى مصابا[1]
فليس لعالم فضلٌ إذا لم يجد للجهل في الناس انتسابا

* * *

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ « من عزَّى مصاباً فله مثل أجره » أخرجه الترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود (انظر الفتح الكبير ٢١٢/٣) .

الفقيه عبدُ الله بن علي الهُتَاري[1]

هُتاري ما كلامه بهتْر[2] ، وفاضل يفتر من الأنامل في رقم فضائله الفتر[3] ، يَقظٌ زان[4] بندر المحويت ، وأديبٌ ما صغّر عنه زمانُه[5] اللّيت[6] ، بل وجَّه وجهه إليه ، وعَوَّل في تَزْيينه عليه ، فزَان أوقاتَهِ بشيمه ، وروَّى سفوحه من دِيمه ، سمعت به ولم أره ، وطالما هزَّني بوجوده الفرح والفره[7] ، وكنتُ أترجَّى لقاه ، وإمساك الأيام بقاه ، فمات ولمَّا نجتمع ، وكان الموعد الحشر لمن قد سمع

وقد رأيت بخَطّه في الأدب تعليق ، وولجت باباً مِن نقلِه ما له تغليق ، جَرَى قَلَمه فيه كما يحسن ويليق ، من اعتراضات دَالة على فهمٍ وذوق ، وتحريرات انضدّ من جواهر الطّوق ، وتنبيهات على أشعار مأخوذة من غَيْرها باللفظ والمعْنَى ، وتَصْويبات أحدث رمح قلمه فيها على بعض الأدباء طعنا ، فعبَّرت لدي عن فضله بأفصح لسان ، وعلمت أن وراء الستر من قراطيسه خُرَّد حِسان ، فلو كُشِف غطاء البعد عنا ما ازددت في فحوليته يقيناً ، لأني نظرت ما ازداد به عندي في رتب

---

(١) ترجمته في (نشر العرف : ١٣٤/٢) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) الهتر : الكذب .

(٣) الفتر : ما بين طرفي الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما .

(٤) المحويت : مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (١٠٠) كم .

(٥) في (ش) ان .

(٦) في (ش) اللبيب .

(٧) فره الرجل : نشط وخف .

الفضل مكاناً مكيناً ، وله شعرٌ منظوم ، به ربُّ حَسْنَاء ذات كشحٍ مهضوم ، منه قوله :

أنـــا في عيْشٍ هنيّ خـامِـلٌ ... قط لا أذكـر فيمن قد ذُكِـر
ونـــديمي من كـتـــابي حـــاضرٌ ... أتمشى منــه في ورضٍ مُـطر
قط لا أسـال عن هـذا وذا ... إذ نَهى هـذا وهذا قـد أمـر
فـالتزم من مَـذْهبي سمتاً بـه ... ركن لـذَّاتي جميعـاً قـد عُمـر
وأطــرح صفقـة مغبــونٍ لــه ... متجـرٌ فيـه لـه الـويـل حسر
قد بذلت النصـح فاقبله فمن ... قبـل النصـح فبــالخـير ظفِــر

* * *

القاضي زَيْد بن عبد الوهَّاب المسُوحي

مفيد زها به سَوْح المسُوح ، وروض علم هو من الروض الحقيقي أروى وأروح ، ذو أصالة أرسى من الطَّوْد ، وأوصاف أجمل من الخَوْد ، قرشي يهزأ نسبه بالأنساب ، وعريق يسبق حسبُه سائر الأحساب ، جمع من الفضل خِصاله ، وأنفذ في شواكل القاضبات نِصَاله ، وأطال في معارك المجد على الأعداء مصاله ، وشبّ في حجر المعاني بعد أن حمدت حمْله وفصالَه ، فللّه درَّه من ذي همّه تنَهْنه في مَهْده، ومن ذي تَشْمير في الفخر بلغ غاية جَهْده ، ومن فارس في حلبة الفضل جال على نَهْده ، وهو من السادات الطلس[1] مَعْدود ، وفضلٍ كل ذي فضلٍ إليه مَرْدودُ ، وله ترسلات تطول ، وكلمات بينه وبين النَّقص تحول ، وأفراسٌ من البلاغة في الميدان به تجول ، ولمَّا تُوُفِّي عَمُّنَا العماد ، وتَصدّع عليه من الحزن حتى الجماد ، وصل إلينا لِرَدِّ كلمة العَزَاء ، فَجَرَى شرطه فينا على وفق الجزاء ، فنلت من الاجتماع به إرْبا ، وإذا قدري بمجالسته على الشهُّب قد أربى ، تمايل به عطفي تمايل الغصن من مرور الشَّمال ، وقد أودعته أسرار الأحبة فقلبته الأفراح يميناً إلى شِمَال ، فإذا هو في سعة الرِّواية بحرٌ لا يُلفَى له خليج ، وفي موفور الدِّراية روضٌ يَصِير مُزْهرٌ بهيج ، وله نثر أثير ، وشعر كثير ، منه قوله مما كتبه إلى بعض أصدقائه :

---

(١) الطلس : جمع أطلس : وهو الذي لا لحية له خِلْقة ، ومنهم جماعة من أشراف العرب منهم : الأقرع بن حابس وعبد الله بن جدعان وعمير بن الحباب وقيس بن سعد وسويد بن منجوف وعمير بن الحباب . انظر : (البرصان والعرجان ٣٢٦) .

يـــا أشرف الخلق فَضْــلا   وأكـمــل النَّـــاس عـقــلا
وأطـيــب الـقـــوم فَــرْعــاً   وأكـــرم الخـــلق أصـــلا
إن قـلتَ بــالشرع فيـهم   قـــامــوا فــراراً وجـــهــلا
وإن ســعـيــتَ بـصـــلحٍ   ودّاً ورِفــقـــاً وعَـــدْلا
عدُّوا المليــح قـبيـحـــاً   وَبــدَّدوا مـــنـــه شَـــمْـــلا
وشـــاهـــد الحـــال يـكفـي   فـــيــمـــن دَنَـــا وتـــدَلَّى
والله يــعـــلـم أنِّي   ما حُرْت في الأمر أصلا
ولا رقـــمــت بـــخــطي   إلا الّـــذي صَـــحّ نَقْـــلا
فـكيـف بي يـــا مـــلاذي   أي الـــطـريـــق أُدَلَّى
لا بـــارك الله فـــيـــمــن   لــلـمـســوحـيــن تـــولَّى

* * * *

الفقيه المهدي بن يحيى المسوري الثلائي[1]

روضٌ مخضر الأعشاب ، بَهَر الروض الحقيقي حتى رأيناه ببياض الثلج قد شاب ، ذو فهم أصرد من السَّهم ، حسن الهيئة جميل الثياب ، لم يرض في اعتنائِه للفضل بالإياب ، وخَطّه بديع ، كأنّما خدّ المليح المعذّر عن لامه له وديع ، تَسْتعير عيون الغيد من عيونه الحور ، وتَرمي عندها لحاظ الحسان بالعمى والعور ، ألِفَاته أطعن من حراب ، ومداده أغرب من غُراب ، وطبعه من الماء أرقّ ، فلذا يُصيبه في بعض الأحيان منه العرق ، وزمانه بإسعافِه غير سموح ، فعلاجه مع ذلك أصعب من ردّ الجموح ، فكم استعار من الحلي وسواسه وهجر لنفوره أخلاّه وجُلاَّسَه ، وتخلَّى لطارق الهموم ، ونادم لما لا يرتضيه من الغُموم ، وكان إذا غضب ، جفّ ماء حلمه ونضب ، فلا يملك لغضبه سورة ولا يستر لطيشه عورة .

أخبرني أنه نسخ الصحيفة[2] ، وأبرز أوراقها كالروضة الوريفة ، واعتنى في تنميقها غاية العناية ، ثم إنه جنى عليها أبشع جناية ، فمزَّقها لأمر أغاظه ، وشيء عدّ في احتماله عليه غضاضة ، وله أدبٌ أدبّ في الأعضاء من الخمر ، وشعرٌ كالذهب المسبوك عقيب خروجه من الجمر ، قد أراني منه قطعاً متجاورة ، وأبدى لي من حليّه عقوده وأساوره ، أنضر من المرج ، وأبرد على الأفْئِدة من الثلج ، وألذّ من لُبْس حلة رقيقة النسج ، أيام حَجَّه إلى كعبة والدي ووفوده ، واستمطار

---

(١) ترجمته في (نشر العرف) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) هي الصحيفة السجادية المنسوبة إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين ، في الأدعية .

منائحه من سحاب وعوده ، واهتزاز غصنِه لها مع نواله وعوده ، والدَّهر ربيع ، وصفو العيش بالكدر ما بيع ، فله منه منائح ، وله فيه قصائد طنَّانة ومدائح ، أدار منها خمرةً صفرا فاقعَة ، قدمه على صفحتهامن الحبَبَ فواقِعه ، فإذا هي بحرٌ مِنَ الذَّهب المُمار ، قد طرحت عليه شباك اللآلىء التي يصاد بها كل سانح من الأفراح ومارّ ، ومات وهو أغدف الشَّعر ، وبحر شبابه المظلم لا يدرك له قعر ، قبل أن يصبح ليله ، ويتعطَّل في ميدان الأيام خيله ، لَمَّا عاد من البيت الحرام ، ونال من مناسك الحج أقصىَ المرام ، فأحرم لموته من ميقاته أجله ، ولبس ثياب أكفانه وتجرّد عن حُلَله ، وحلق وقَصَّر بأقطع مُدْيَة ، وتعطّر من حنطِه بالطيب ولم يجب عليه إخراج فِدْيَة ،رَعَى الله دَهْرَه ، وسقى في روض الضَّريح بماء الغفران زهره ، ومن شعره المستَلْطف ، وثمر أدبه الذي بأهداب العيون يقطف ، قوله من قصيدة مدح بها مولاي الوالد ، وأثنى عليه بما هو على صفحات الدَّهر خالد :

سلو أهلَ نجد هل سَلْوا مغرماً مُغرى ... أطاع الهوى لم يُعص نهياً ولا أمرا
أذاك لـواشٍ قد وشى بمقـاله ... يزخرفها زوراً أم انتحلوا عذرا
شرحت لهم من متن وجدي أسطراً ... وما شرحوا لي باللقا منهم صدرا
ولا وضعوا وِزراً من الهجر شفَّني ... وأسهـرني طرفـاً وأثقلني ظهـرا
ولا رفعوا لي حين ساروا عن اللوا ... وأزعجهم بالشوق حادي السرى ذكرى
أأسعَى إليهم حـافياً ثم أنثني ... بخفَّي حُنين إذ رأت أعيني بدْرا

وقوله :

بعثت رسولي نحو مولىً لجوده ... يُقرّ من السحب الثقيلة هاطلُ
تطاول غيث السحب يحكي نواله ... وعنـد التناهي يقصر المتـطاولُ
وكم بين ما إن جاد فالماء جودُه ... وبين الذي تبر الندى منه سائلُ
إذا قسته بالغيث فالفرق واضحٌ ... وبينهما إن أشكل الأمر فاصلُ

قوله « وعند التناهي يقصر المتطاول » هذا مضَّمن من بيت أبي العلاء المعري وهو مشهور وقد ضمنته أنا في مدح فقلت :

تطاول رمح الخط يحكي يراعَه وعنـد التَّناهي يقصر المتـطاولُ

وقد ضمنه أيضاً شهاب الدين ابن جلنك[١] في مدح أقطع فقال[٢] :

وبي أقطع ما زال يسخو بماله ومن فضلِه في النَّاس ماردَّ سائِلُ
تناهت يداه واستطال عطاؤهـا وعنـد التَّناهي يقصر المتـطاولُ

قلت : هذا التَّضمين معدود عند الأفاضل من التَّضامين الكاملة ، كما أثنى عليه الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتابه « غيث الأدب الذي انسجم ، شرح لاميّة العجم[٣] » ، وهو باعتبار معناه كذلك وإن كان عندي في ألفاظه مجال للنَّقد وما ذاك إلا أنه قال : « تناهت يدَاه » بلفظ التَّثنية ، والأنسب بالسخاء إنما هي يدٌ واحدة وهي اليمين ، لأنها هي التي تسخو فتعطي ولكن لا بأس بهذا ، فربما كان فيه مبالغة في وصف سخاء الرّجل الممدوح كأنه مع ذلك يعطي باليدين معاً لفرط السماحة ، فقد جاء في الحديث في وصف الباري تعالى « وكلتا يديه يمين »[٤] وقال : « عطاؤها » وكان الأنسب أن يقول « عطاؤهما » بتثنية الضمير لأنه يعود إلى اليدين وهو مثنى ثم إنه جعل في صدر البيت الثاني المتناهية يديه والمستطيل عطاؤها ، فلم يراع التناسب الكلي بين الصَّدر وبين العجز المضمّن ، لأن قوله « يقصر المتطاول » يعود مع ذلك إلى العطاء والعطاء ليس هو الذي قصر لأنه لا يلزم من قصر المحل وهو إليه قصرُ الحالّ فيها وهو العطاء ،

(١) ترجمته في (وفيات الوفيات ١/ ٦٠) وفيه أحمد بن أبي بكر أبو جلنك الحلبي ، قتله التتار سنة (٧٠٠) .
(٢) الأبيات في (الغيث المسجم ١/ ١٢٠) .
(٣) هو من أشهر كتب الصَّفدي ، طبع أول مرة سنة (١٢٩٠) بالمطبعة الوطنية بالإسكندرية .
(٤) انظر : (النهاية في غريب الحديث ٥/ ٣٠١) .

وأيضاً لو لزم ذلك لكان في حق الممدوح ذمّاً صريحاً لأنه نسبة إلى قصر العطاء بعد استطالة فكأنه شحّ بعد أن كان كريماً والكريم لا يقصر عطاؤه لو قُطّع إرباً إرباً ، فكيف وما المقطوع منه سوى عضو واحد وهذا كما عرفت مما يأباه مقام المدح وأيضاً فإن المقصورة حقيقة إنما هي يداه قُصرت بقطعها لا العطاء فهي المرادة بالقطع ، وكان حق العبارة مع ذلك أن يقول فيها يقْصُر المتطاولتان بالتَّثنية أي اليدان ، وهذا قبيح إذ به يفسد الوزن ويخرج البيت عن عروضه ووضعه الأصلي وينافر قوله و « استطال عطاؤها » فكره بالضرورة أن ما قصد بالقطع قطعاً إلا العطاء وأيضاً فإنه قال في صدر البيت « واستطال » أي العطاء وهذا حسن وقال في العجز « يقصر المتطاول » ولفظ المتطاول ربما كان ذمَّاً لأنه قد[1] يتطاول وليس بطويل كما يقال فلان يتسامح أي يتصنَّع السماحة ، وليس بسموح كما قيل لأحمد بن الحسين الكندي المتنبّي أي أنَّه ادّعَى النُّبُوة وليس بنبّي ، ولذا قال له ابن خالويه النَّحوي في مجلس سيف الدَّولة : لولا أنك جاهل لما رضيت أن تدعى بالمتنبي لأن المتنبّي معناه كاذب ومن رضي أن يُدْعَى بالكذَّاب فهو جاهل ، فقال المتنبّي : لست أرضى أن أدْعى بذلك وإنما يدعوني به من يريد الغضّ مني ولست أقدر على الامتناع ، هذا على أني أقول ليت ابن جلنك رحمه الله تعالى قال :

تَطوَّل كف مِنْهُ طال تناهيَا وعند التناهي يقصر المتطاول

لكان فيه تقليل من وجوه الانتقاد ، معَ أن ذكر التَّطول الذي هو من الطول بفتح الطاء وهو الزِّيادة والفضل يناسب المتطاول ، وقد يكون في قوله « يقصر المتطاول » مع ذلك إيهام التورية في المتطاول من الطول بفتح الطَّاء والطول بضمها ،لأنها لم تكن تورية حقيقة لأنه إنما يقال متطوّل حيث كان من الطَّول بالفتح لا متطاول .

(١) في (ز) ذمَّاً له قد يتطاول .

وقد ضمنته أنا في الذم مع إيهام التَّورية وذلك في رجل يدعي الفضل قطعت يده في بعض مواطن الحروب فقلت :

تطاول كف وادَّعَى الطول فريَةً ... فأولته قطعاً قاطعات مناصلُ
تناهى بدَعْواه الأباطيل في النَّدى ... وعند التناهي يقصر المتطاولُ

فإيهام التَّورية في المتطاول ظاهرة لأنه من الطُّول بالرَّفع المرشح له بقوله تطاول ، ومن الطَّول بالفتح المرشح له بقوله وادّعَى الطَّول أي الزِّيادة والفضل .

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى في قهوة القشر :

هات لي قهوةً من القِشر فاتت ... قهوةً من كروم روضك تُعْصَر
وأدرها كما تُدَار مدامٌ ... ثغرها بالحباب كالدر يفتَرّ
عن سوادٍ في أبيض الصِّين(١) تُجْلى ... فوق مرج من الغضارة أخضر

وقلت أنا في النَّثر عند وصفها ما لفظه : قهوة تَسري في الأقداح ، كما سرت الأرواح في الأشباح ، زنجية بلُؤلؤ الحَبَب تَحَلَّت ، وحبشية تحت خمار دخانها الرقيق تجلت ، يُصَبّ مسكُها في كافور الكاس ، فينعش الهمم برائحته ويحيي مَيَّت الأنفاس ، لا يُجَاري الكميتُ أدْهَمَها ، كأنها سَمَاء من المسك أبرزت من الحبب أنجمها ، تنوب عن المدام ، وشتَّان ما بين حلال وحرام ، انتهَى .

وكتب صاحب الترجمة إلى مولانا الوالد رضي الله عنه من المنثور وقد أهدى له نسخة كتاب بخطِّه ما لفظه :

أطال الله أوقات من يليق به أن تطول أوقاته ، وَمدّ في ساعات من يحسن أن تمتد في بني الدَّهر ساعاته ، فمصلحة طول أوقاته على المسلمين ظاهرة ، ومنفعة امتداد ساعاته في صلاح شأنهم لكل فساد قاهرة ، وهو سَيَّدي مُفْرد العلماء الذي ماله ثاني ، ومولاي المشيد من المعارف شامخ المباني ، قاضي القضاة في يوم

(١) أبيض الصِّين : هو فنجان الزجاج منسوب إلى الصّين .

الفَضْل ، وزاكي النَجار وكريم الأصل ، إمام علماء الفروع والأصول ، والشَّامخ عليهم في الدَّرجة فما إلى درجته وصول ، جمال الإسلام محمد بن الحسن الحيمي عنوان الفضلاء الأعلام ، صانه الله تعالى عن كل طارق ، وحفظه عن كيد كل ماردٍ مارق ، وخَصّ مقامه بالسلام العاطر ، والإكرام المشابه للحدائق باكرها العارض الماطر ، ورحمه الله ما ارتفع علم ، وتجرَّد لخطابِه في بطون الأوراق قلم ، هذا وإني أرفع إليه ، أن تَعْويلي بعد الله تعالى عليه ، في أمور نابت فليس لها غيره من كافي ، ومضائق توالت فما سواه وقد قصر بنو الدّهر وافي ، فلينظر في أمري ، زاد الله في عُمْره من عمري ، فإنِّي صِرتُ في حيرَة ، أتوقَّع شر أهل الزَّمان هذا وأنتظر خَيْره ، فليصدق فيه ظنّي وفي الحقيقة يقيني ، وليحفظني في حُصْنِه الحصين من مصائب الغموم ويقيني ، وقد نسخت هذا الكتاب برَسْمه ، وحصلته مقروناً باسمِه ، فصدر راجياً منه القبول ، طامعاً في مقاصده على الحصول ، قاطعاً بنيل كل مأْرَب ، حاصلاً على المراد في لمح البَصر أو هو أقرب ، فإنه من العون على الزَّمن الصّعب في الارتقاء ، وممن استخلصه خاطري لنيْل الوطر وانتقى ، فكم ألفت منه البر في المعاملة ، ونلت منه أملي وكم نال أمله من أمَّ له وأمّله ، والله يبقيه ما بقيت مكارمه ، ويحفظه لذي حاجات طَالما قضيت منه مغارمُه ، والسَّلام .

الفقيه عبد الله بن علي المهلاّ[1]

شاعِرٌ ناظِم ، وجليسٌ منادِم ، كلماته خالية عن التَّعقيد ، ونَفَثاته أحلى من التَّعقيد ، كان يلازم والدي ملازمة الأنامل للرَّاحة ، ويدير من مدحه والثناء عليه في مجالس النّدماء راحة ، فله فيه مَدَائح مطوّلة ، وآمالٌ من جوده مُنَوَّلة ، عَرَفتُه قبل أن يختط عِذَاري ، ويغرّد بمثل هذه الأسجاع هَزَارِي ، وبَيْنه وبين ابن عَمِّ والدنا يحيى بن الحسين ، مكاتبات ومشاعرات يُفَدِّيها معدن الذَّهب بالعين ، فهو له من الجُلَسَا ، لا يفارقه صَبَاحاً ولا غَلَسَا ، في دَهْرٍ لم تشعر به النَّوَائب ، وزمان له من ليالي الصفو ذوائب ، وَلَمَّا رغب في الغُرْبة وبادر الوداع ، فارق مساكنه ونزل بمدينة رداع ، وركب جَنَاحَي الطائر ، فإذا نهرُه عن مجاريه غائر ، فلم يستنشق لوطنِه نسيما ، ولم يَجْتل لهذه المنازل وجهاً وَسِيْما ، ونسي من أمارات لذاتِه فيها علامَةَ وسيما ، حتى وافاه الأجل فمات ، وعظمت على أترابِه بعده الندامات ، رحم الله غربَتَه ، وسقَى بماءِ الغفران تُربَتَه .

لم يحضرني من أبياته المحكمة الأساس غير قَوْلِه من لَطيف الجناس :

لما توطنت شبام الذي ... عن كُلّ سوءٍ ربُّنَا قد حَمَاه
وذقت من نَهْرٍ لها شربَةً ... ناديت ذا العاصي وهذي حَمَاه

و « العاصي » بالعين والصَّاد المهملتين نهر حماة وحمص المحروستين وهو

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/١١١) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) رداع : مدينة كبيرة شرقي ذمار بمسافة (٥٣) ك.م ، وتُعرف برداع العرش .

مشهور ، وللأدباء أشعار ولطائف يذكرونه فيها ، قال بعض الظرفاء :

حماة في بهجتها جنَّةٌ فهي من الهمّ لنا جُنَّه
لا تيأسا من رحمة الله قد أبصرتما العاصي في الجنَّه

وقال آخر :

حمص لمن يدخلها جَنَّةٌ يدنوا إليها الأمل القاصي
حل بها العاصي ألا فاعجبوا من جَنَّةٍ حل بها العاصي

وقال صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى :

ناعُورة[1] حَنَّت وأنّت فقد شوقت الدَّاني والقاصي
قد نبهتني للهدى والتقى لما غدت تَبْكي على العاصي

وقال برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى :

لما حَدَا بالركب حاديهمُ وأسمع الداني والقاصي
أطاعني دمعٌ جرى نهرُه فمدمعي الطائع كالعاصي

وقال آخر :

نواعيرُ[2] في وادي حماةَ إذابكت تهيَّج لي من عبرتي مدمعاً قاصي
وإني على نفسي لأجدر بالبكا
إذا كانت الأخشاب تبكي على العاصي

وقال الشيخ جمال الدِّين بن نباتة رحمه الله تعالى في بعض قصائِده يمدح الملك الأفضل صاحب حماة وقد كان تزهَّد وأظهر التنسك[3] :

(١) في (ب) و (ش) ناغورة بالغين المعجمة .
(٢) في (ب) و (ش) نواغير بالغين المعجمة .
(٣) لم أجدهما في ديوانه المطبوع .

وأعلا منار العدل حتى بلاده   وَسُكَّانُها جَمْعٌ تبوَّأ مسجدا
فلو أمكن العاصي بها نزع اسمه   مخافة أزكى الناس عهداً ومعهدا

وقال هو أيضاً في مرثية الملك المؤيد صاحب حماة رحمه الله تعالى[1] :

هذي حماة أغَصّ الدمع واديها   وطاوع الحزنَ فيه دمع عاصِيه

وقال السيد شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين رحمه الله تعالى المتقدم ذكره في بعض قصائده التي يذكر فيها نَهْراً :

يطيع له العاصي وتخضع دجلةٌ   وترخَى بنيل المصريين ستُور

ولصاحب التَّرجمة وقد رمي بعض العظماء شاشهُ بالبندق فأحرقه :

يا سادةً قد أصابوا مهجتي ألماً   وأخطؤوا إذ رموا عن مقصدٍ شاشي
لا تنكر وا حقَّ مثلي وانظروا عجلاً   فيما أريد فقلبي منكم شاشي

قلت : شيءٌ في البيت الثاني ، المعروف في اللّغة أنه بفتح الشين المعجمة وهو هنا كسرها ليتم له الجناس ، ولا أدري هل قد جاء كسرها في لغةٍ صحيحة أم لا .

* * * *

(١) (ديوانه ٥٧٢) .

الفقيه حسين بن صلاح الحجاجي[1]

نسبَةٌ إلى بني الحجاج[2]، سقاها من القطر الهامع الثَّجّاج ، وهو فقيه حسن الطبْع ، له في سفوح الفضل رَبْع ، كنت أراه على نسخ الكتب مُكِبّاً ، ولجمع الفوائد والآداب مُحِبّاً ، مع خَطٍّ حسن مقبول ، ورقمٍ بشباكِه على صيد القلوب مجبول ، ذو سماتٍ زكينَة ، تظهر عليها آثار الوقار والسكينَة ، كثير الخمول ، لابس لثوبٍ من الإعدام سَمُوْل ، له نشوة بالقناعة ولا نشوة الشمول ، رضي برُمامَة العيش ، غير مستفزٍّ له الطيش ، وكان ينظم من الشِّعر قليلا ، ويصير ذيل نسيمه به بليلا ، كقوله مجيباً على بعض أحبابِه ، وأخِلَّائِه الذين ساجلهم في روض شبابه ، وهو نَظم حديثه ذو شجون ، يذهب عنه جِدِّه مجّانا ما لابن حَجّاج من الهزل والمجون :

أهــلاً وسهـلاً بنــظامٍ أتى ... ففـاح منـه المسـك والعنـبرُ
أزرى بجيــدٍ أتـلعٍ زانــه ... نضــاره الأحمـرُ والجــوهــرُ
ممن لـه في مهجتي والحشَا ... بيتٌ لـه الأعـين لا تنـظرُ
حافظ عهدي ووِدادي ومن ... يَغَــار من نغمته المــزهــرُ
ورد ربيع الروض في خدِّه ... وفي لمى مبسمــه الكــوثــرُ
ذكرت ما تلقاه من وحشةٍ ... ففي الحشـا أكثر بـل أكبرُ

---

(١) ترجمته في (نشر العرف) نقلاً عن كتابنا هذا ص٥٦٠ .

(٢) من عيال سريح على مسافة يوم من صنعاء شمالاً .

وقلبـك الشَّـاهـد يـا منيتي		هـو الذي عن وُدّنـا يخـبرُ
وكُلَّما لاحت بـروق الدجى		فـالويـل من دمعي يستقطرُ

*

* * *

الفقيه أحمد بن محمَّد الزُّريقي[1]

أديبٌ تبلجت أقمارُه ، وظريف طابت في ليل شبابِه أسماره ، ارتدى ثوب رِقَّةٍ تَرُوق ، كما ارتدى الجوّ مِرطَ السحاب المطرّز بذهب البُرُوق ، بسق غُصْنُهُ وأثمَر ، ونما هِلاَلُه فأقمَر ، قَرَأَ منَ العِلم ما عُدّ به فقيهاً ، وحاز منه ما صار لأجلِه نبيهاً ، لأنه من قَوم ، طالما هجروا النَّوْم ، وعكفوا على الطَّلب ، ولبسوا مِن الصَّبْر اليلب[2] ، خِدمَةً للعلم ورغبَةً فيه ، واقتفاء لما لامقت فيه لمقتفيه ، وهذا الشَّاب ، مِمَّن سَدَّد إلى غَرَضِه النُّشَّاب ، وكان ذا مُحَيَّا وسيم ، سقمت للتهتُّكِ بحُبِّه النَّسيم ، ينحني خِدمةً له الهلال ، ويرمي البدر لديه بالكلف والكلال ، مع أخلاقٍ تُعْصَر الخمرة من غُصُونهَا ، وتقتطف الأزهار والأثمار من غصُونِهَا ، أروح من نسْمة الشّمال ، وأرقّ من وقت الأصيل إذا تَرنح به الغُصن سُكْراً ومال ، وقد مَرَّت له في الخلاعة أبيات ، انتعش بدوائها النَّاقِع من الراحَة مامات ، في أوقات طاب سحرها وأصيلها وجرت به فيها جياد اللَّهو وما غير جَرْس الأوتار صهيلها ، طالما طلعت نجوم الكؤوس في ليل شبابه ، وطالما أصدا الفرح من كاسِه بشباك حَبَابه ، متعلِّقاً من اللَّذة بالمُحَال ، مائلاً إلى الخلاعة وهو ينشد بلسان الحال :

إن الخلاعات طراز الأدبا   وإنَّني فيها نسيج وحدي

ثم لمَّا نبا به الوطن ، قلقل ركائبه من العطن ، وخرج من حصن كوكبان ،

(١) (نشر العرف : ١/٢٥٨) نقلاً عن كتابنا هذا .
(٢) اليلب : الترسة أو الدروع اليمانية من الجلود .

وناءَ شخصه عن مَنازِله وبان ، وانقض انقضاض العُقَاب من وكْره ، وغاب إنسانُه المُحَبَّب ولم يَغِب جميل ذِكره ، وسكن من اليمن الأسفل بجبله[1] ، إلى أن صرم الدهر بِمُدية الحِمام حَبْلَه ، فقُبِر ولُحد ، وفضله أبداً مَا جُحِد ، رحم الله ذُلَّه ، وكساه من الرِّضوان حُلَّة ، ونقع له من الكَوْثر غُلَّة ، ومن نَظْمه النظيم ، وبنات فكره التي كشحها هَضِيْم ، قوله :

أحبابنا هل لهذا البعد ميقاتُ ... أم هل تعود لنا بالوصل عاداتُ ؟
وترجع الدَّار بعد البعد آنِسةً ... بكم وتجمعنا فيها المسرَّاتُ
أحبابنا فمتى نحظَى بقربِكم ... لتنطفي بتلاقينا حراراتُ ؟
فإن في كل عضوٍ كل جارحَةٍ ... وكل جارحَةٍ فيها جِرَاحاتُ
أحبابنا ما اقترفنا ثمَّ معصيةً ... فلم غدا الشَّمل منا وهو أشتاتُ
سقياً لأيامنا الغرا بقربكم ... كنتم بها حور عينٍ وهي جَنَّاتُ
أيام كُنَّا بطيب العيش في جذَلٍ ... إذ كان يجمعنا روح وراحاتُ
والعود يشدو بألحان مرخّمة ... وللكؤوس بأيدي القوم رقصاتُ
والمغرَم الصبّ مسرورٌ بفاتنة ... هذا هو العيش والأيام مشكاةُ
لهفي عليها فكم أبدت لنا تُحفاً ... وساعدتنا بما نهوى الإراداتُ
فإن قَضى الدَّهر في تفريقنا أبداً ... قضى ومَا قُضيت منكم لُبَاناتُ

ولَّما قال المولى جمال الإسلام علي بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل[1] بن القاسم عليهم السلام :

أما ترى الأرض لما جادها المطرُ ... وألبست حُللاً من دونها الحبرُ
والروض يضحك ثغر الأقحوان به ... والسُّحب مدمعها بالماء منهمر

---

(١) جبلة : مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إب بمسافة (٧) كم .

(١) سيأتي .

قال صاحب الترجمة مذيلاً لنظمه ومجيزاً له ، ومن خطه نقلت :

والورد يحمّر من فرط الحيا خَجلاً ... كأنما هو في خدّ الرُّبَا شـرَرُ
والنّرجس الغضّ لولا لون صفرته ... حكى اللّحاظ ولكن فاته الحَوَرُ
والدّوح يرقص إذ غنَّى الحمام على ... هام الغصون وثنت عطفها الشجر
وللميـاه انسيـابٌ في جـداولهـا ... فَصَاعدٌ من لجين الماء ومنحدرُ
كأنها جنة الفردوس إذ سفرت ... لو تربها المسك أو حصباؤها الدُّررُ
أو لو تدلَّت بها الأشجار مثمرةً ... لكنها مثل شعري ما له ثمرُ
وقد أجزت نظام الملك معترفاً ... بفضل من طاب منه الخبر والخَبَر
ما كل من رام نظم الشعر يحكمه ... مثل الجماليّ عنـه يقصر البشرُ

ونقلت له من خطه قوله رحمه الله تعالى :

حبيبي روى مكحول طرفك قصةً ... بـأنـك في وُدِّ العميــد تَحِيْفُ
فما صحّ عندي ما سمعتُ لأنه ... مقال رواه الطرف وهو ضعيف

وهو مأخوذ من قول الشيخ جلال الدين خطيب داريّا[1] رحمه الله تعالى :

شهـدت جفون معـذبي بملالـه ... مــني وإن وداده تــكــليــف
لـكنـني لم أنــأ عنــه لأنــه ... خبر رواه الجفن وهو ضعيف

وله :

لا تكسبن سوى الفعل الجميل فكم ... بر أتى من جميل كنت واضعـه
لم يخط من جعل المعروف شيمته ... بل قد أصاب وإن أخطا مواضعه

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري الخزرجي ، أديب كثير التصانيف ، له ديوان شعر مخطوط ، توفي سنة (٨١٠) . (الأعلام : ٤/ ٣٣٠) .

وفي الحديث عنه ﷺ : « اصطنع الخير إلى كل برّ وفاجر ، فإن لم يوافق أهله فأنت أهله »[1] .

وفي المثل العربي : « اصطنع المعروف ولو ألى كلب » يضرب في إجداء الاصطناع على الرجل كيف ما كان[2] .

*

* * *

---

(١) حديث : « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله فإن أصبت أهله فهم أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله » رواه ابن النجار في تاريخه وهو منقطع ، وقال في المغني : حديث رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جده ، ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف ، وفي مسند الشهاب من رواته جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً بسند ضعيف ، انظر (مسند الشهاب : ٤٣٦/١ والمغني عن حمل الأسفار : ١٩٣/٢) .

(٢) أورده في (المستقصى : ٢١٢/١) وعنه نقل المؤلف هذا الشرح .

الأمير محمود بن سنبل علي[1]

من أولاد حام ، الذين ما طار طائر من عش النَّجدة إلاَّ عليهم حام ، ولا سعّرت نار حرب إلا كان منهم لها اقتحام ، كان أميراً على الخيل ، فالضَّرب يعرفه والطَّعن ، والسيل والليل ، بل يعرفه اللواء والقلم ، وإذا كتب عرفه القرطاس والقلم،طالما راض المطهمة عن الجماح ، وعلمها الولوج بين السَّيوف والرّماح ، وصَيّرها كالبوازي المنقضة والرّكابة لها جناح ، حتى عجز النَّسيم عن مسابقتها وأحجمت الرِّياح ، كم ركب الجياد ، فعاد الشّامس منها سلسل[2] انقياد ، سعد في عنفوان الدَّولة ، وصال على عدّو الزمان أي صولة ، ورقي ارفع صهوة ، واحتسى من كاسات الإقبال أي قهوة، وورد من نمير عيشه صفوه، وحدّد برد الأدب فأحسن رفوه ، وكان ذا وقار ورجحان ، ونسك يستنشق به في الحياة الرَّوح والريحان ، وقد خاض في بحور العروض أي خوض ، ونظم من الشعر ما يخجل به الروض ، فلذا جبينه بالحيا يرشح ، سيما الدوبيت[3] والحميني[4] والموشح[5] ،

(١) ترجمته في (نشر العرف نقلاً عن كتابنا هذا ٢/٧٣٦) .

(٢) كذا (في ش) وفي (ب) سلسلس وفي (ز) سلس وهو الصواب .

(٣) مصطلح عروضي مركب من (دو) الفارسية بمعنى اثنين ، و (بيت) العربية ، وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب بتأثير من النظم الفارسيَ وشيوع الزجل في العصور المتأخرة ، وهو مؤلف من بيتين يتفقان في الوزن ويلتزمان على الأغلب قافية واحدة في عروضي البيتين وضربهما ، وقد يكون الدوبيت بثلاث قواف ويُسمَّى الأعرج .

(٤) هو الشعر العامي الموشح عند أهل اليمن .

(٥) هو نمط خاص في بناء القصيدة عُرِف عند الأندلسيين ولهم فيه كلام طويل (انظر كتب هذا الفن) .

فله فيهما نهج مستلطف ، وحديقة طيبة الرائحة ناعمة المقطف فعقد نظمه منضود ، وشمس أدبه تقهر نور الشهاب محمود[1] ، كم كشف نظمه عن حلا في الارتشاف ، فإذا شراب العسل كالممرض وشرابه كالشاف ، ما ذاقه طاعم إلا قال : لقد جاء محمود[2] بكشاف ، بل جاء في شعره بالفائق[3] وصاغ المفصل[4] من تيجان المفارق ، من ذلك قوله في رباعية :

يا من لك في الجمال أوفر قسمه   ارحم دنفاً هواك أوهى جسمه
من سقم رناك سقمه مكتسب   ذا السقم بمقلتيك قل لي من مه

وقوله في رباعية أيضاً :

أهوى رشا حوى المعاني أحوى   قد صار له صميم قلبي مثوى
يهـوى تلفي ومهجـتي تهـواه   يا أهل شريعة الهوى ما الفتوى ؟

ولما دنا من حمامة ، ولم تفرّ من بازي المنية حمامة ، قتل في معركة قتال ، وأنفتل إليه خصمه أسرع انفتال ، فأريق دمه في غير حق دمه ،وأدرك مباشرة ندمه ،لأنه قتل مع سورة غضب ، ونفحة غيظ حملته على أن ضبعه بنجيعه وخضب ، والسَّبب صدور كلمة منه إليه ولفظة يسيرة يطلح بها عليه لا قدس الله الغيظ من رفيق ، ولا رعاه من شراب يندم متجرّعه إذ يفيق ، وما هو إلاّ حديقة اطلعت من الزَّهر شقيقة ، وعند ذلك باشر ولده القاتل فمات ، ووثب عليه وثبة أسد مفترس فمات وأزهق روحه قبل زهاق روح أبيه ، وأسال نفسه قبل سيلان نفس ذلك النبيه ، ولما أصبح محمود جار الله في الضريح ، نضب بعده من الأدب لبنه الصريح ، ألبسه الله من الرَّحمة أبرد بُرد ، ما بكته في ميدانها العتاق الجرد ، وقد قال خليلنا

---

(١) يعني الشهاب محمود بن سليمان بن فهد الحلبي المتوفى سنة (٧٢٥) .
(٢) يعني الزمخشري وكتابه الكشاف (معروف) .
(٣) كتاب في (غريب الحديث) للزمخشري (سابق الذكر) .
(٤) كتاب في النحو للزمخشري .

الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى عند مصرعه ، وإقفار سفحه وخلو مربعه :

نأى عن الدَّار محمود فقد أسفت   منَ بعْده الخيل حُزْناً وهو مفقود
قد كان جار المذاكي في إمارته   واليوم أصبح جـار الله محمودُ

*

* * *

صلاح بن فرحان صَغير[1]

ما هو صغير بل كبير ، تمد الرشا من السطور لأخذ ماء أدبه العذب لأنه كبير ، طريف به الأدب كأبيه فرحان ، وفصيح له من النظم والنثر سرْحان ، من أولاد العبيد السودان ، لكنه جَنَّة جناها المنزَّه عن السودان ، ممن قال فيهم الرسول : « دونكم يا بني أرْفدة»[2] ولذا يقول في حقه لسان الوجود ليت لي كنز الغنا فأرْفده ، أسود اللون ، مع أنه أشرق به الكون :

مثل حبّ العيون يحسبه النا　　　س سواداً وإنما هو نورُه

فهو في خد الزمان خال ، وفي عين الدَّهر كحل يخال ، وفي ثغر كوكبان لمن شام ، لعس مستحسن وشام ، كأنما هو مرود من السج ، يكتحل به عيون الحسان الموصوفة بالدعج ، قرأ[3] وتهذّب ، وجالس الأفاضل فتأدب ، وكان

(١) ترجمته في (نشر العرف ١/٨٠٠) نقلاً عن كتابنا هذا .

(٢) من حديث عائشة ، قالت : دخل رسول الله ﷺ وعنده جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرني ، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : « دعهما » فلما غفل غمزتهما فخرجتا ، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والجراب ، فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال « تشتهين تنظرين » فقلت : نعم ، فأقامني وراءه ، خدي على خده ، وهو يقول « دونكم يا بني أرفدة» حتى إذا مللت قال : « حسبك » ؟ قلت : نعم قال : « فاذهبي » رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل والنسائي .

(٣) في (ش) قوله .

يكتب من الخط حسنا ،ويخلط في رياض الطروس بين أقلام الريحان سَوْسَنا ، فخطّه أنفس من خط أخيه محمد المرحوم ، الذي هو تلميذ والدي في المنطوق من العلوم والمفهوم ، وكان هذا ينظم الشّعر وذاك لا ، وذاك زَهرٌ في جنبات العرفان وذا كلا ، إلاّ أني سمعت في شعره لحناً ولا كلحن الحمائم ، قطعت منه زهرات أدب لها من عدم الإعراب كمائم ، مع أن له نظماً لا شك في حسنه ولا ريب ، وله في نفثات أقلام سحر لولا ذلك العيب ، وقد اخترت من نظمه قوله من قصيدة :

دمع الغمامَة من فوق الرِّياض هما ... والزَّهر من دمعها ما زال متبسما
فانهض وباكر إلى اللَّذات مطرحاً ... أثقال همّ وكن للصفو مغْتنِما
فالطير يدعوك من فوق الغصون وذا ... نشر الصّبا بأريج المسك قد نسما

منهَا :

بي غادة هي روض في محاسنها ... تبدي أناملها من خضبها عَنما
غدا بها الدمع فوق الخد منتثراً ... وقد بدا درها في الخد منتظما
لها المحاسن في الغِزلان قد قُسِمَتْ ... والوجد لي في هواها اليوم قد قُسِما
الردف والخصرمنها إن شئت ومضت ... هذا من الثقل موجود وذا عُدِما
وصالها صار أشهى من معانقةٍ ... لِلْبُرء من جسد يا طال ما سقما

هذا البيت الآخر معناه من كلام النَّظَام ، في مدح عبد الوهاب الثقفي المحدّث رحمه الله تعالى حيث قال : هو والله أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، وخصبٍ بعدجدب ، وغِنىً بعد فقر ، ومن طاعة المحبوب ، وفرح المكروب ، ومن الوصال الدائم ، مع الشَّباب الناعم ، انتهى كلامه .

ومنه قولي في كلام منثور أيضاً : وإذا أيام العمر ، ألذّ من حلو بعدمرّ ،وجَبْرٍ بعد صدع ، ووصلٍ بعد قطع ، وشرابٍ بعد ظمأ ، وبصر جديد بعد عمى ، وفرج بعد ضيق ، ونديم بعد فقدان الرفيق ، ولحم مع قَرَم ، وشباب بعد هرم ،

وقَطْرٍ بعد اقفهرار ، على روضٍ تفتحت فيه الأكمام والأزرار ، وصوت هزار مِطراب ، بعد نعق بوم وغراب .

وقولي في منثورٍ آخر : هو أحلى من النَّوم بعد الأرق ، ومن الأمن بعد الفَرَق ، ومن الإطلاق بعد الأسر ، ومن الجَبْر بعد الكسر ، ومن عتاب الحبيب ، ومن مجالسة الأديب .

وقولي في منثور آخر : قربك أحلى من الشهد ، وألذّ من غفوة الصبح بعد السهد ، وأشهَى من وعد اللِّقَا ، وأرق من دعاب غزلان النقا ، إذا أجَدّت في المجون ، ودار شَرابٌ غير أجُوْن .

انتهى القسم الأول ، ويتلوه القسم الثاني ،

في ذكر أفاضل صنعاء اليمن

بعون الله ومنّه

*

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة